
رواية
طوكر
حكاية مائة وألف قمر
عمرو شعراوي
مدونة ابو عبدو
دار العين للنشر

طوكر:
حكاية مائة وألف قمر

طوكر: حكاية مائة وألف قمر

رواية

عمرو شعراوي

الطبعة الأولى / ١٤٣٧هـ، ٢٠١٦م



دار العين للنشر
٤ ممر بهلر – قصر النيل – القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦
E-mail: elainpublishing@gmail.com

الغلاف: غادة خليفة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٥/١٥٦٤٤
I.S.B.N 978-977-490-334-2

طوكر:
حكاية مائة وألف قمر

رواية

عمرو شعراوي

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

شعراوى، عمرو.

طوكر: حكاية مائة وألف قمر: رواية عمرو شعراوى.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٦

ص؛ سم.

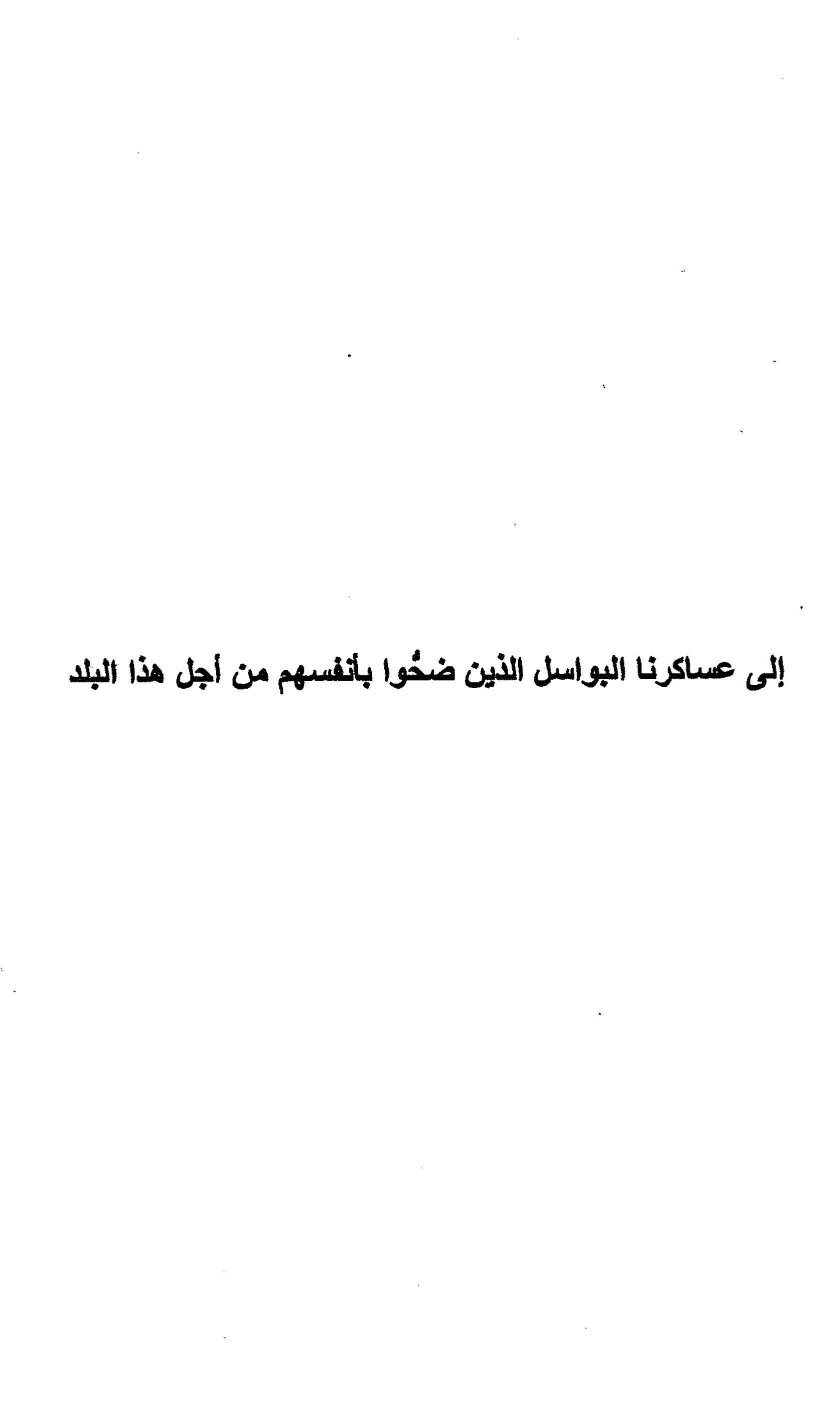
تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٣٣٤ ٢

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ١٥٦٤٤ / ٢٠١٥



إلى عساكرنا البواسل الذين ضحُّوا بأنفسهم من أجل هذا البلد



الذاكرة الجمعية للمصريين عبَّرت عما حدث في طوكر سنة 1884 بعبارة تداولتها ألسنتهم لأكثر من مائة عام:
"رحنا في طوكر"

اليوم قلة من المصريين يعرفون ماذا فقدنا في طوكر، وعدد ضئيل من هؤلاء يفهم بالضبط ماذا راح منا في طوكر.

(معظم أحداث هذه الرواية من نسج الخيال)

سكن الليل
أصغِ إلى وقْع صدى الأنّات
في عَمق الظلمة، تحت الصمت، على الأموات
صرخات تعلو، تضطرب
حزن يتدفق، يلتهب
يتعثر فيه صدى الآهات
في كل فؤاد غليان
في الكوخ الساكن أحزان
في كل مكان روْح تصرخ في الظلمات
في كل مكان يبكي صوت
هذا قد مزقه الموت
الموت الموت الموت
يا حزن النيل الصارخ مما فعل الموت
طلع الفجر
أصغِ إلى وقع خطى الماشيين
في صَمت الفجر، أصخْ، انظر ركب الباكين
عشرة أموات، عشرونا
لا تحصِ أصخْ للباكينا

اسمع صوت الطفل المسكين
موتى، موتى، ضاع العدد
موتى، موتى، لم يبق غد
في كل مكان جسد يندبه محزون
لا لحظة إخلاد لا صمت
هذا ما فعلتْ كف الموت
الموت الموت الموت
تشكو البشرية تشكو ما يرتكب الموت
الكوليرا
في كهف الرعب مع الأشلاء
في صمت الأبد القاسي حيث الموت دواء
استيقظ داء الكوليرا
حقدًا يتدفق موتورًا
هبط الوادي المرح الوضّاء
يصرخ مضطربًا مجنونًا
لا يسمع صوت الباكينا
في كل مكان خلف مخلبه أصداء
في كوخ الفلاحة في البيت
لا شيء سوى صرخات الموت
الموت الموت الموت
في شخص الكوليرا القاسي ينتقم الموت
الصمت مرير
لا شيءِ سوى رجْع التكبير
حتى حفّار القبور ثوَى لم يبق نصير
الجامع مات مؤذنه

الميت من سيؤبّنه
لم يبق سوى نوْح وزفير
الطفل بلا أم وأب
يبكي من قلب ملتهب
وغدًا لا شك سيلقفه الداء الشرير
يا شبح الهيضة ما أبقيت
لا شيء سوى أحزان الموت
الموت، الموت، الموت
يا مصر شعوري مزّقه ما فعل الموت

قصيدة الكوليرا لنازك الملائكة

طوكر: سالك الدرب

مارس، 1884

أكتب إليكم من آبار التب.

منذ أيام قليلة وصل الجنرال "جراهام" إلى سواكن لكي يقود حملة جديدة لكسر شوكة المهديين. في يوم وصوله علمنا بخبر سقوط طوكر في يد عثمان دقنة، فاختلط الأمر علي أهل سواكن، وشكك الكثيرون في استمرار الإنجليز في تنفيذ مخططهم. لحسن حظي لم يتراجع "جراهام" عن التقدم نحو طوكر لتأديب أنصار المهدي. ذلك القرار لم يكن مفاجئا لأن الأسطول البريطاني كان

قد بدأ بإنزال القوات اللازمة للحملة عند ترنكتات قبل أن يصل قائدهم قادما من السويس. وبما أن رأس الجسر في ترنكتات أصبح على وشك الاكتمال، لم يشأ الإنجليز سحب قواتهم مرة أخرى إلى سواكن دون القيام بعملية حربية تعيد لهم هيبتهم. أضف إلى ذلك أن الجميع هنا يشككون في حقيقة سقوط طوكر في يد المهديين. في نهاية الأمر حسم الجنرال "جراهام" أمره وقرر التقدم إلى طوكر سواء استسلمت حاميتها أو لم تستسلم.

حالفني الحظ فالتحقت بحملة "جراهام" كحمال وسائق للجمال المستخدمة في نقل عتاد ومؤن الجيش. بالأمس حضر أحد الضباط الإنجليز عند المرفأ لتوظيف شيالين وحمالين لمرافقة الحملة، وأعجبته طريقتي في التعامل مع الدواب، واستهوته معرفتي ببعض مفردات اللغة الإنجليزية. قضيت أيامي الأولى في شحن الجمال والبغال في البواخر المتأهبة لنقل القوات إلى ترنكتات. عندما رست البواخر في خليج ترنكتات اشتركت في نقل الدواب والعتاد إلى الشاطئ ثم عبرت بهم الأرض السبخة الموحلة حتى وصلت إلى "حصن بيكر" حيث عسكر جنود الحملة من الإنجليز. لم أستطع النوم في الليل بسبب صخب العساكر الإنجليز الذين يقومون بحراسة سور الحصن. البوارج الراسية في الخليج أضاءت المكان بكشافاتها الكهربية الحديثة. طوال الليل كان يمكننا رؤية تحركات المهديين على مسافة كبيرة من السور، وبين حين وآخر تدوي

طلقات بنادق أفراد الحراسة ونسمع نداءاتهم التي لا تنقطع.

أخيرا تقرر اليوم الذي سنتقدم فيه إلى طوكر بعد وصول آخر الوحدات من سواكن بالإضافة إلى انضمام كتيبتي "يورك" و"لانكستر" القادمتين من عدن. بيكر باشا صمم على أن يرافق الحَملة، و"جراهام" سمح له بذلك. قضينا ليلة تحت رخات من مطر خفيف لا ينقطع، وسماء ملبدة بغيوم خنقت هلالا أطل من بين السحب. اختار الجنرال "جراهام" أن يسلك نفس الطريق الذي سلكته حملة بيكر البائسة، وتحسبا لسرعة الانقضاض التي أظهرها مقاتلو قبائل البجا في كل المعارك السابقة، قرر "جراهام" أن تتقدم قواته منذ البداية على هيئة مربع دفاعي. تململ الضباط من هذا القرار وذلك بسبب بطء هذا التشكيل، وطول المدة التي سنحتاجها لنقطع الطريق إلى طوكر إذا تحركنا كمربع بدلا من الطوابير المعتادة. تشبث "جراهام" برأيه وتحركت قواته في التشكيل الذي أصر عليه. الجمال والبغال التي حملت المعدات والمؤن تمركزت في وسط المربع، بينما أحاط الخيالة بمحيطه الخارجي.

أعرف الدرب جيدا فقد سلكته من قبل. اختلطت الأدوار ولم أعد أحمل سلاحي، مسئولياتي انحسرت في قيادة الإبل والبغال. أحسست بالأمان لوجودي بداخل مربع منتظم الصفوف وسط عساكر مدربة تدريبا جيدا. الحرس الأسكتلندي بقربه ومزاميره

كون الضلع الأمامي، أما وحدات الجيش ومشاة البحرية ذوو القمصان الزرقاء فقد كونوا باقي أضلاع المربع. هواجس الهزيمة رافقتني طوال الطريق، خطواتي هي نفس الخطوات، والعدو الذي عهدت شراسته ينتظرنا عند آبار التب في نفس المكان. في بداية مسيرتنا رعدت السماء وانهمر مطر غزير كأنه يعطي إشارة البداية لحلقة جديدة من حلقات النصر والهزيمة. درب الأحزان ملأته مخلفات حملة بيكر التي مرت فوقه منذ شهر واحد فقط. رأيت أشلاء قتلانا التي نهشت جثثهم الجوارح والوحوش. تناثرت بقايا جثامين عساكرنا وسط أشجار السَّنط بعد أن جردها أنصار المهدي من متعلقاتها. شواهد متناثرة تدل على الخسارة الفاحشة. رؤية آثار هزيمة الجيش المصري تقبض أنفاسي. أخجل من نفسي لأننا لم ندفن قتلانا بشكل لائق، فهل سيواريهم الإنجليز بدلا منا؟

بعد مسيرة ميل أو أكثر شاهدنا طلائع فرسان البجا من بين الضباب الرقيق الذي أحاط بنا. بادر أنصار المهدي بإطلاق الرصاص علينا، فتم إرسال إشارة للبارجة "سفنكس" الراسية في خليج ترنكتات لكي تطلق نيران مدافعها الثقيلة عليهم. سرعان ما انسحب فرسان البجا على عجل، فأرسل "جراهام" فرسانه الخفيفة لكي يتعقبوهم وليتفقدوا المواقع الأمامية للعدو.

صدرت التعليمات للقوات بالتوقف فترة من الزمن للراحة.

عجبت من هذا الأمر وخاصة أننا على مرمى البصر من أنصار المهدي. عند عودة فرق الاستطلاع تردد صوت النفير معلنا إشارة التقدم والهجوم على مواقع العدو. قام العساكر البريطانيون وتقدموا بخطوات واثقة نحو استحكمات المهديين. اقتربنا من التل الذي يقبع عنده مقاتلو البجا يرافقنا نواح مزامير القرب المصاحبة للحرس الأسكتلندي. ظهرت لنا مئات الأعلام التي رفعها المهديون مما ضاعف من رهبة تشكيلاتهم. على بعد مئات الياردات أمكننا رؤيتهم متحصنين خلف الأسوار الطينية التي تحيط بالآبار. بادروا بإطلاق نيران كثيفة فبانت كثرة أعدادهم مقارنة بما شاهدته يوم بيكر. ضربات مدفعيتهم كانت محكمة لدرجة لم يتخيلها أحد منا. كيف يمكن لأبناء قبائل بدائية مثل البجا والهدندوه أن يتقنوا تصويب تلك المدافع الحديثة بهذه الدقة؟ أصابت قذائف المدفعية مقدمة المربع وأصبح من الضروري القيام بمناورة تبعد قواتنا عن مرمى نيرانهم. عدة قذائف سقطت في قلب المربع بالقرب من الجنرال "جراهام" وأركان حربه، فأصابت شاظية فك بيكر باشا الذي رفض الرجوع إلى ترنكتات، وصمم على البقاء مع قوات الحملة حتى النهاية.

صدرت الأوامر للمربع بالدوران حول ميسرة العدو، بحيث تواجه مقدمة المربع أجناب تحصينات المهديين وتتفادى بذلك نيران مدفعيتهم المباشرة. هذه المناورة الصعبة سمحت لعساكر الإنجليز

بتوجيه ضرباتهم إلى ميسرة العدو المكشوفة. تقدم المربع إلى مسافة ثلاثمائة ياردة عندما بدأ تبادل عنيف للنيران وسقط بعض الجرحى والقتلى من الإنجليز. مدافع "جاردنر" الثقيلة أطلقت قذائفها على مواقع المهديين حتى أسكتت بطارياتهم. أعطى ذلك الفرصة للمربع بالتقدم نحو تحصينات المهديين التي تحيط بآبار التب. الغريب أن محاربي البجا لم يبادروا بالقيام بالهجوم المباغت الذي سحقوا به القوات المصرية والتركية المرة بعد الأخرى. ثبت عساكر "يورك" و"لانكستر" السناكي في مقدمة بنادقهم وانقضوا على خطوط العدو وهم يطلقون صيحات وحشية لإرهابهم. انتظر المهديون حتى وصلت طلائع الإنجليز لمسافة تقرب من الخمسين ياردة ثم قاموا بهجوم شرس على الصفوف الأمامية للمربع واستطاعوا فتح ثغرة عريضة كادوا أن ينفذوا منها إلى داخله. تملك مني الرعب من تكرار انهيار المربع، لقد تعرضت لهذه التجربة المريرة يوم هزيمة بيكر باشا. الوتر يتأرجح والفوز قد يؤدي في أي لحظة إلى الخسارة. هل سأعيش نفس الكابوس مرة أخرى؟ وهل سأخوض من جديد في وحل الهزيمة؟ لم ينقذ الموقف سوى ميمنة المربع التي تحرك أفرادها بسرعة لسد الفجوة وثبتوا في مكانهم بلا وجل. استمر القتال لمدة ساعة دون أن يتنازل أي من الطرفين عن شبر واحد من المواقع التي تشبثوا بها.

حاولت بكل الوسائل أن أحافظ على هدوء الدواب التي اضطربت

لسماعها أصوات انفجارات القذائف وطلقات البنادق. ربطت البغال ببعضها البعض ونخيت الجمال حتى بركت، وذلك لأتفادى الجلبة التي قد تثيرها إذا فزعت. في تلك الأثناء تقدم عساكر الإنجليز قليلا وتمكنت طليعتهم من الاستيلاء على مواقع العدو على الجانب الجنوبي الغربي من التل. كذلك انتزع جنود الحرس الأسكتلندي بطاريات المدفعية من أيدي المهديين وأداروا المدافع، ثم بدأوا بإطلاقها على مقاتلي البجا الموجودين بالقرب من معمل السكر المهجور. مع تراجع أنصار المهدي تفرق المربع إلى وحدات منفصلة اشتبكت مع العدو في المواقع الممتدة من دفاعاتهم عند آبار التب إلى الغلايات الحديدية الموجودة عند معمل السكر. خلال هذه اللحظات الحاسمة بقيت في الخطوط الخلفية حيث أمكنني رؤية عساكر الإنجليز وهم يتقدمون ببطء، في نفس الوقت تقهقر أنصار المهدي نحو القرية القريبة من آبار التب.

صوت النفير أعلن بدء هجوم الفرسان الإنجليز، فشاهدتهم وهم يقومون بحركة التفاف للهجوم على ميسرة المهديين. بسبب كثافة أشجار السنط والحشائش الطويلة اندفع الفرسان شاهرين سيوفهم في هجوم غير منتظم الصفوف، لكن عند وصولهم إلى مواقع مقاتلي البجا أعملوا فيهم القتل مستغلين الوهن الذي أصاب دفاعاتهم نتيجة للقصف المتواصل. سار كل شيء على ما يرام واستمر الهجوم حتى وصل الإنجليز إلى عمق خطوط المهديين،

فجأة تعرض الجانب الآخر من المربع لهجوم خاطف لخيالة العدو التي كادت أن تفتح ثغرة أخرى في صفوفنا. الموجة الثانية المقررة لهجوم الفرسان الإنجليز تم إلغاؤها، وتقرر توجيههم لمجابهة خيالة المهديين، فاشتبكوا معهم في قتال محتدم. بعد إبطال التهديد قام فرسان الإنجليز بشن هجوم ثان على صفوف العدو، لكن هذه المرة قوبلوا بمقاومة عنيفة من محاربي البجا الذين كانوا ينتظرون حتى تدنو الخيول منهم ثم ينبطحوا فجأة على الأرض حتى لا تطولهم السيوف، من ثمة يتمكنون من قطع أرجل الخيول وينقضون بعد ذلك على الأفراد المترجلين فيذبحونهم. أصيبت سرايا الفرسان بخسائر فادحة، فلم يجد فرسان الإنجليز بدا من أن يترجلوا وأن يبدأوا بإطلاق نيران طبنجاتهم على المهديين.

عرفت بعد ذلك أن الجنرال "جراهام" اقتحم القرية عند الساعة الواحدة ظهرا، وأن مقاتلي البجا والهدندوه انسحبوا بانتظام بعيدا عن محيط القرية حاملين معهم جرحاهم وأعدادا كبيرة من جثامين قتلاهم. عندما وصلت إلى القرية وجدت عشرات من جثث المهديين مبعثرة في المكان ومكومة داخل المباني القليلة القائمة هناك.

حصن الإنجليز محيط القرية بتقوية الخندق الموجود حولها وبإقامة زريبة في محيطها. بعد الانتهاء من تلك التحصينات عسكرنا هناك لكي نمضي ليلتنا. حمل الإنجليز جثامين قتلاهم إلى

المعسكر وداووا مصابيهم وجرحاهم. قضينا ليلة هادئة لم يهاجمنا عثمان دقنة ولم نشعر بأي تحركات حول مواقعنا.

لم يغمض لي جفن طوال الليل. أصبحت قاب قوسين أو أدنى من طوكر. هل سيتمكن الإنجليز من فك حصار حاميتها؟ لقد سلكت هذا الدرب المائج ولم أتوقف. فهل سيطيب لي الوصول إلى ما أتمناه وأصبو إليه؟ أتشوق إلى لقاء أخي عبد الرحيم، فهل سأجده ضمن من بقي من حامية طوكر؟

***



وش القملة

اغسطس، 1882

شقت صفارة القطار حالة الترقب التي اكتنفت الجماهير المزدحمة على رصيف محطة الزقازيق. علا الصخب وترددت الهتافات:

"سيمور يا وش القملة... من قال لك تعمل دي العملة

يا مولانا يا عزيز... أهلك عسكر الإنجليز"

جماعات متفرقة من الأهالي قصدت رصيف المحطة منذ ساعات النهار الأولى. الغبار يملأ الهواء ويغلف الوجوه المأخوذة بجسامة

الأحداث التي تشكل أيامنا. صبي يندفع نحوي من ناحية رصيف المحطة وهو يصيح:

– عرابي باشـــا وصل! عرابي باشـــا وصـــل ليقودنا للنصر المبين. اللـه ينصرك يا عرابي. اللـه أكبر. اللـه أكبر.

يوم حار من أواخر أيام موسم الفيضان، مياه النهر العتيد بدأت في الانحسار، ولكن زمتة النيل ما زالت تمسك بخناقنا. منذ الصباح الباكر تهافتت حشـــود من أعيان وعمد الشـــرقية وأرباب الطرق وموظفي الدولة على محطة القطارات مصطفين للقاء عرابي ومهيئين لاستقباله استقبال البطل المنقذ والقائد القادر على صد هجمة الإنجليز الشرسة. حركة الجموع المرحبة بزعيم الأمة أثارت غبارا اختلط برطوبة الهواء الخانقة. تركت أورطتي هذا الصباح وأسرعت إلى المحطة حيث وجدت عرابي باشـــا ومعه عبد اللـه النديم، بالإضافة إلى عدد من الضباط الذين رافقوه من كفر الدوار يستريحون داخل كشـــك المحطة. انتظرت حتى خرج عرابي باشـــا فأديت له التحية العســـكرية قبل أن يستقل عربة القطار في طريقه إلى معسكر التل الكبير. ركب عرابي باشا العربة وأخذ ينادي في حشود المجتمعين "أنا لها، أنا لها".

توارى القطار وسط الدخان وخفُت نداء عرابي شيئا فشيئا حتى تلاشى بين صيحات المودعين الذين تعالت هتافاتهم:

"العسكر بالطوابي، اللـه ينصر عرابي...

العسكر بالطوابي، اللـه ينصر عرابي"

***

منذ أيام قليلة صدرت الأوامر لأورطتنا بالتحرك من القاهرة ضمن آلاي المشاه الأول لدعم قوات الجيش المرابطة في التل الكبير. صدر هذا الأمر على عجل وجاء مخالفا لما كنا نتوقعه. في تلك الأثناء كانت الأنباء تصلنا عن القتال المحتدم حول كفر الدوار بين قواتنا وجيش الإنجليز الذي احتل الإسكندرية. استبسل جيشنا في الدفاع عن مواقعه حول الإسكندرية ورد أكثر من محاولة لاختراق دفاعاته عند كفر الدوار. في نفس الوقت رفض الخديو توفيق دعوة عرابي بالعودة إلى القاهرة، ثم التقي الأميرال سيمور بسراي رأس التين وبذلك أعلن انحيازه الكامل للإنجليز. وبلغ به الصلف مداه، فأصدر الخديو مرسوما بعزل عرابي من نظارة الجهادية بسبب عصيانه، ويدعو فيه المصريين أن ينفضوا عن عرابي وأصحابه وألا يدعموهم وإلا طالهم العقاب.

وصلتنا الأوامر بالتحرك من ثكنات العباسية إلى التل الكبير بعد أن أسر الإنجليز محمود باشا فهمي في "المحسمة". كان قرار التحرك من القاهرة مفاجئا لنا، لأن الآلاي الأول بقيادة علي باشا

فهمي كان منوطًا به الدفاع عن العاصمة إذا اخترق العدو خطوطنا في كفر الدوار. لكن المعلومات التي وصلتنا أخيرًا تشير إلى أن الأميرال "هيويت" احتل السويس وما تبع ذلك من ظهور "سيمور" فجأة في الإسماعيلية على رأس عدد من البوارج والبواخر التي حملت علي متنها قوة كبيرة من عسكر الإنجليز يقودهم الجنرال "ولسلي". فتح جبهة جديدة عند الإسماعيلية شكل خطرا داهما على العاصمة لم نكن مستعدين له. تحركت أورطتنا من ثكنات العباسية لدعم دفاعاتنا عند التل الكبير فوصلت بعد مسيرة نهار كامل إلى محطة سكة حديد مصر، حيث طال انتظارنا لقطار الزقازيق لما يقرب من ليلة كاملة. حال وصولنا إلى محطة الزقازيق طلبوا منا أن نعسكر عند أطراف المدينة حتى تصلنا الخرائط التي توضح مواقع تمركزنا في التل الكبير.

انتظرتُ على رصيف المحطة حتى ابتعد قطار عرابي واختفى عن الأنظار ثم توجهت بخطوات متثاقلة نحو الموقع الذي عسكرت عنده فصيلتي. شعرت بالاطمئنان لحضور عرابي بنفسه لكي يقود جيشنا ضد الإنجليز. مما لا شك فيه أن وجوده معنا سيقوي من عزم رجالنا ويحثهم على الثبات في مواجهة المعتدين. عند منتصف الطريق قابلني اليوزباشي محمد عباس بزيّه الناصع البياض الذي يتناقض مع طربوشه الأحمر وحزامه البني الداكن. أعطته خطوته الصارمة وطوله الفاره سطوة وهيبة بين جنوده وزملائه من

الضباط. أشار إليّ يحثني أن أسرع وهو يصيح:

– ملازم عبد الكريم صبري! أين ذهبت وفصيلتك على وشك التحرك؟

أصر محمد عباس أن يخاطبني بأسلوب ميري قح بغض النظر عن معرفته الوثيقة بي منذ طفولتي، وعلى الرغم من الصداقة القديمة التي ربطته بأخي الأكبر عبد الرحيم. نشأنا معًا بشارع الصليبة، وتوطدت علاقتنا بسبب صحبته المستمرة لأخي وقربه منه على مدى سنوات الدراسة التي قضياها سويا بالمدرسة التجهيزية. بعد ذلك التحق محمد عباس بمدرسة البيادة (المشاة)، بينما درس أخي بالمهندسخانة. بعد عامين تم انتخاب عبد الرحيم ضمن دفعة متميزة من طلبة المهندسخانة للالتحاق بمدرسة الطوبجية والهندسة الحربية. انخراطهما معا في صفوف الجيش وطد من صداقتهما وقرب بينهما. عندما انضممت لاحقا بالجيش جمعتني المصادفة البحتة بمحمد عباس في نفس الأورطة. في البداية أدهشني تعامله معي بشكل رسمي كلما وجدنا بين جنود سريتنا أو مع الضباط الآخرين. اليوم أتعجب من لهجته الرسمية على الرغم من بعدنا عن المعسكر. لم أعلق واكتفيت بالرد:

– أردت أن أؤدي التحية العسكرية لعرابي باشا عند وصوله إلى المحطة.

نظر محمد عباس إليّ متعجبا وسألني:

– وبماذا تفيدنا تحيتك العسكرية لعرابي؟ هل ستنقذنا من الوضع الحرج الذي أوقعنا فيه بتصرفاته؟

أربكتني شكوكه واللهجة التي يتحدث بها، ولم أعد أفهم سبب سخطه الشديد على الرغم من أنه كان من أشد المتحمسين لحركة الضباط الوطنيين منذ أيامها الأولى. ما زلت أذكر مناقشاته الساخنة مع أخي عبد الرحيم عن جدوى ثورة الجيش وما يمكن أن تؤدي إليه من تحقيق الحرية والعدالة للشعب المصري. أسرعنا الخطى نحو معسكرنا بينما حاولت أن أفصح له عما يعتمل بداخلي:

– أليس عرابي هو زعيم الثورة الذي طالما حاولت إقناعي بضرورة وقوف الشعب خلفه، لأنه الأمل الحقيقي لإعادة حقوق المصريين الضائعة. ألا يكفيك ما تسبب فيه الخديو وأعوانه من انقسام بين صفوف الأمة؟ على الرغم من صعوبة موقفنا، فإنني شخصيا أثق في قدرتنا على هزيمة الإنجليز كما هزمناهم في رشيد أيام فريزر.

علق عباس بنبرة حادة تعبر عن حنقه الشديد بسبب موقف قواتنا الحرج:

– الموقف عصيب حقا! لو فعلها عرابي وردم القنال، لما تمكن

الإنجليز من تهديد القاهرة بهذا الشكل المباشر. أنا لا أفهم لماذا لم يقم بذلك.

تذكرت يوم مظاهرة عابدين وصفوف عساكرنا الذين وقفوا مدة طويلة متلهِّفين لمعرفة رد فعل الخديو إزاء المطالب التي تقدم بها عرابي باشا. طالت المناقشات بينه وبين الخديو الذي نزل إلى الميدان بصحبة بعض قناصل الدول الأوربية فيهم "كوكسن" قنصل بريطانيا إلى الإسكندرية و"كولفن" المراقب المالي الإنجليزي. طوابير عساكرنا التي احتلت الميدان أحاطت بها جماهير غفيرة من الأهالي. الحماس تملك منا أثناء زحفنا نحو الميدان ونحن نردد: "نحن عاصون، نحن عاصون". كم كنا متلهفين لتحقيق آمالنا في الحرية والمساواة لكل المصريين. أثناء المناقشات التي استمرت لفترة طويلة بين الخديو وعرابي أخذنا نصيح مرددين: "يسقط رياض باشا... نريد الناظر محمد شريف باشا". كم كانت سعادتي طاغية عندما قرأ علينا عرابي في الميدان كتاب إعفاء رياض باشا وتكليف شريف باشا بالنظارة. استقبلنا هذا القرار بالهتاف المدوِّي، الأهالي من حولنا تعانقوا وشاركونا الهتاف. عمت الفرحة الميدان فقد شعرنا يومها أننا نجحنا في التخلص من استبداد رياض باشا وتفاءل الجميع ببزوغ عهد جديد يسوده العدل والحرية والمساواة. هذه اللحظة الرائعة تبدو كحلم بديع يكاد يتلاشى بعد مرور سنة واحدة. أعرف جيدًا أن موقفنا الحالي صعب للغاية، لكنني على

الرغم من ذلك لا أفهم أسباب غضب عباس، خاصة أنه كان معنا في عابدين ويعرف كم جاهدنا من أجل تحقيق أهدافنا المشروعة. حاولت تذكيره بجهود عرابي باشا للدفاع عن البلاد فقلت:

– عرابي باشا يقوم بكل ما بوسعه لصد هذا العدوان الغاشم. ألم تسمع بخراب الإسكندرية وتدمير طوابيها؟ وعلى الرغم من قصف بوارج الإنجليز واحتلال قواتهم المدينة، فإنه لم يستسلم وأعاد تنظيم دفاعاتنا واستطاعت قواتنا من الصمود في وجه العدو عند كفر الدوار، وجنودنا منعوا الإنجليز من التقدم على مدى أسابيع عديدة واستطاعوا أن يصدوا المحاولات المتكررة لاختراق دفعاتنا.

أحاطني عباس بذراعه قابضا على كتفي بكف من حديد وقال متبسطا:

– لا تغضب هكذا يا أخي. ولكن لا بد أنك تعرف أن محمود باشا فهمي رئيس أركان الجيش ومعظم كبار الضباط قد ألحوا على عرابي باشا بردم القناال لمنع الأسطول الإنجليزي من إستخدامها ولكنه تردد ولم يأخذ برأيهم. وبدلا من ذلك صدق وعود ديلسبس الكاذبة.

حاولت تبرير عدم قيام عرابي بسد القنال:

- لكن ديلسبس وعده بأن شركة قناة السويس ستحافظ على حياد الممر المائي، وأنها لن تسمح لأي من الجانبين باستعمال القناة لأغراض حربية. عرابي باشا وثق في ديلسبس وبنى خطة الدفاع عن البلاد على هذا الأساس. للأسف ديلسبس لم يف بعهوده.

توقف عباس عن السير وقال مستنكرًا:

- لقد سئمت تكرار هذه الحجة! أعتقد أن تلاعب ديلسبس بعرابي مصيبة كبرى. وما يزيد من خطورة وضعنا العسكري، أن استحكامات التل الكبير ضعيفة وغير جاهزة لصد هجوم كبير تشنه قوات لها كفاءة الجيش البريطاني.

لم أستطع معارضته فاستمر في سرد أسباب مخاوفه:

- أضف إلى ذلك وجود أفضل قواتنا حول كفر الدوار بعيدا عما يبدو أنه ميدان الحرب الحقيقي، وكذلك تمركز عبد العال حلمي ومعه الآلاي السوداني عند دمياط. وبالتالي لم يتبق لحماية الجبهة الشرقية إلا القوات الموجودة حول التل الكبير وفي الصالحية.

- هذه قوة كبيرة ومع بعض التعزيزات الإضافية يمكنها صد الإنجليز.

– أنت تعرف جيدا أن هذه القوات ليست مدربة بالقدر الكافي وغير مستعدة لمجابهة عدو قوي كجيش الإمبراطورية البريطانية.

حاولت أن أدفع نذر الشؤم التي تملأ نظراته:

– لهذا السبب تم استدعاء الآلاي الأول من ثكنات العباسية. بالإضافة إلى ذلك فإن أوامر التحرك نحو التل الكبير قد صدرت لقوات أحمد عبد الغفار من كفر الدوار ولأورطتين سودانيتين من دمياط.

حرك محمد عباس رأسه معترضًا على ما أقوله لكنني أضفت:

– ولا تنس وجود البارودي باشا على رأس الجيش المتمركز في الصالحية. أعتقد أن كل هذه القوات قادرة على صد الإنجليز ومنع تقدمهم نحو العاصمة. أضف إليهم كذلك البدو المسلحين الذين تعهدوا بالانضمام إلى الجيش وآلاف الخفراء الذين تم تجنيدهم في الآونة الأخيرة.

قاطعني عباس مناقضًا محاولتي للتهوين من خطورة موقفنا العسكري:

– جزء كبير من عساكرنا الموجودين في التل الكبير لم يتلقوا القسط الكافي من التدريب، والخفراء والبدو الذين

تم تجنيدهم على عجل لا يتقنون المناورات العسكرية المطلوب القيام بها في معركة حقيقية. ودليلي على خطورة الموقف الحربي هو ذهاب رئيس الأركان محمود باشا فهمي إلى "المحسمة" وهضبة "المسخوطة" ليشرف بنفسه على استحكاماتنا هناك. أحسب أنها كانت محاولة مستميتة لدفع عسكر الإنجليز بعيدا عن هويس ترعة المياه الحلوة عند القصاصين.

بدأ بعض القلق ينتابني بخصوص موقفنا العسكري. حاولت تفسير سبب حضور عرابي المفاجئ إلى الجبهة الشرقية، فقلت:

– الأخبار التي وصلتنا أخيرا تشير إلى هزيمة قواتنا عند "المسخوطة" وارتدادها عن القصاصين، ومما زاد الطين بلة، أنه تم أسر محمود باشا فهمي في تلك المعركة. هذا هو سبب حضور عرابي باشا بنفسه للجبهة الشرقية لقيادة جيشنا.

علق محمد عباس مؤكدًا وجهة نظره:

– من الواضح أن رئيس الأركان كان يهدف إلى احكام سيطرتنا على هويس القصاصين، وقطع الترعة الحلوة. حرمان الإنجليز من المصدر الرئيسي لمياه الشرب خلال هذه الأيام شديدة الحرارة كان سيصيبهم في مقتل.

وقوع رئيس الأركان في الأسر كان صدمة كبيرة لنا جميعا. محمود باشا فهمي بذل جهودًا جبارة لتنظيم دفاعات واستحكامات الجيش المصري على جميع جبهات القتال من كفر الدوار إلى التل الكبير. وقد قضى الأسابيع القليلة الماضية في حركة دؤوب لكي يتأكد من تحصينات مواقع قواتنا وقدرتها على صد المعتدين. عندما عرفنا أنه أسر في المحسمة، شعرنا جميعا بقلق عميق لثقتنا الكبيرة في قدراته الهندسية وعلمه بفنون القتال وفهمه للمناورات الحربية الحديثة. بعد احتلال الإسكندرية تمكن الجيش المصري من صد الإنجليز عند كفر الدوار بفضل تصميمات محمود فهمي لاستحكامات قواتنا حول الإسكندرية ورشيد وكفر الدوار. هل سنجد من يحل محله؟ وهل سنصد الإنجليز ونمنعهم من دخول محروسة مصر؟ إذا انهزمنا أمام المعتدين سيقضي ذلك على حلمنا بإقامة دولتنا الحديثة التي يكون الحل والعقد فيها لأبنائها من المصريين.

محمد عباس أسرع في سيره وهو يحثني أن أتبعه:

- ستتحرك سريتنا في غضون ساعة لكي تلحق بالقطار المتجه إلى التل الكبير. أمامنا الكثير من العمل حتى نجهز السرية للرحيل ونعدها للوصول لمواقعنا عند التل الكبير. الغريب أن الذخيرة المتوفرة لدينا تكفي فقط لأيام قليلة من القتال.

أجبته على الفور:

– لا بد من وجود مستودعات للذخيرة في معسكر رأس الوادي. وإن لم نجد ما يكفينا فقطعًا سترسل قيادة الجيش المؤن والذخائر اللازمة من أماكن أخرى.

أكمل عباس حديثه:

– والأدهى من ذلك، لم يمدنا أحد بخرائط توضح مواقع قواتنا، وكيف سنتمركز عندما نصل إلى معسكر الجيش في التل الكبير.

اقتربنا من أطراف مدينة الزقازيق فتجلت أمامنا مياه النيل الداكنة التي حجبت وجه الدلتا المتجهم فيما عدا تلال عتيقة وجسور قبعت فوقها قرى ونجوع متناثرة على مرمى البصر. النهر العتيق يحمل بذرة الحياة إلى هذه الأرض فتحيا بعد مواتها. الشمس ترمينا بأشعتها الحارقة فتلهب ظهورنا وتفتر من عزيمتنا. رائحة نتنة لجيفة طافية على صفحة المياه أصابتني بالغثيان وشتتت أفكاري. تعجبت لسلوك عباس الذي غلبت عليه حالة من السخط لا تفسير لها. داعبته لأخفف عنه:

– يا عم سيبك، ولا تشغل بالك. فما جدوى الخرائط؟ سيصل قطارنا إلى التل الكبير بعد المغرب، وسيحل الليل قبل أن

نصل إلى مواقعنا. بالتالي لن تفيدنا الخرائط في التعرف على نقاط تمركزنا في الظلام.

صمت محمد عباس قليلا ثم أضاف:

- يحلها ألف حلال عندما نصل إلى التل الكبير.

بدأت خيام معسكرنا بالظهور بين غمامة من الغبار أثارتها حركة رجالنا المنشغلين بلم مهماتهم وتجهيز مخالهم استعدادا للرحيل. زيهم ناصع البياض يتناقض مع سمرة وجوههم. لوهلة بدوا كأنهم يستشعرون هول الأيام المقبلة، يتلهّوْن بحركتهم الدؤوب عما يعتمل في نفوسهم من توتر وقلق. يستعدون لمواجهة مصير يتربص بهم، عاصفة تتجمع في الأفق ولا مفر منها إلا بالتشبث بما تعلموه من فنون القتال والتمسك بروح التحدي وبالرغبة في النصر.

عند أطراف المعسكر استقبلنا حسن العسقلاني جاويش فصيلتي. أدى التحية العسكرية الواجبة ثم أخبرني بلهجة صعيدية قوية أن أنفار الفصيلة مستعدون للتحرك عند صدور الأوامر لهم بذلك.

***

سباع قصر النيل

يوليو، 1882

تركت خلفي بواكي كلوت بك ووش البركة متجهًا نحو ميدان تياترو الأوبرا. قلب المدينة الجديد المفعم بالنشاط والنابض بحب الحياة وملذاتها. عرجت على شارع إبراهيم باشا مارًا بفندق شبرد حيث تجمع حول الساحة المقابلة لمدخله حشد من المكارية المصطفين بجوار حميرهم. رائحة الروث الخانقة تتخلل المتجمهرين أمام الفندق من الأهالي وعساكر الشرطة والباعة الجائلين. تعجبت من هذا الازدحام وخاصة أن معظم زبائن شبرد من الأجانب قد رحلوا

أو فضلوا البقاء في بيوتهم بعيدًا عن الاضطرابات المتوقعة نتيجة لغضب الأهالي بعد ضرب الإسكندرية. علت أصوات صخب لم أفهم له سببًا. كنت أنوي اختراق ميدان العتبة الخضراء قاصدًا قنطرة باب الخرق، ومن هناك يمكنني الوصول إلى شارع الصليبة عن طريق الدرب الأحمر. عند اقترابي من ميدان تياترو الأوبرا، سمعت صيحات غاضبة وظهرت مجموعات من الجماهير المتدفقة من وإلى ميدان العتبة الخضراء. عندما وصلت إلى نهاية سور حديقة الأزبكية انعطفت صوب الميدان، فرأيت أسفل تمثال إبراهيم باشا شيخا معمما يخطب في حشد من الأهالي. اتجهت نحوهم لأتبين سبب تجمهرهم.

في طريقي إليهم تركت خلفي تياترو الأوبرا. مبنى شاهق البياض يحتل قلب أهم ميادين القاهرة الجديدة. مثل هذا المبنى منذ إنشائه بؤرة لنشر الثقافة الأوربية التي حاول الخديو إسماعيل أن يغمس فيها البلاد، والتي شغفت بها الطبقة الراقية من أبناء الأتراك والمصريين. تياترو الأوبرا شكل واقعا يتناقض مع تمثال إبراهيم باشا الممتطي لجواده، والذي يمثل التقاء قمة العسكرية التركية العتيدة مع روح العسكرية المصرية الوليدة. لقد نشر الخديو إسماعيل التماثيل في شتى ميادين القاهرة والإسكندرية، مما شكل سابقة لم يكن لها مثيل منذ الفتح الإسلامي لمصر. بعد أن حكم العرب هذا البلد لم يُقم تمثال واحد في ربوعه. تلك الربوع التي

ملأها الفراعنة بتماثيل مهيبة ما زالت تتحدى الزمان بعد كل هذه القرون.

أستعيد ذكريات يوم خروجي في نزهة إلى أهرامات الجيزة مع أخي عبد الرحيم بعد إتمامه لدراسته بمدرسة الطوبجية. قرر مع زملائه الاحتفاء بهذه المناسبة، فنظموا رحلة إلى الأهرامات. اصطحبني عبد الرحيم معه بعد أن اشترك مع زملائه في استئجار عربة كارو يجرها بغلان. حملتنا العربة فوق كوبري قصر النيل بسباعه الرابضة عند مداخله ثم عبرنا كوبري البحر الأعمى حتى وصلنا إلى السكة الجديدة المؤدية إلى الأهرامات. ما إن استقرت العربة على أول السكة حتى أوحت لنا ضخامة الأهرامات بأننا قريبون منها، وأننا على وشك الوصول إلى سفحها. صارت الأهرامات تبتعد أميالا كلما اقتربنا منها خطوات. حكمة الأجداد تتسرب بين أنامل كل من حاول التواصل معها. نحل لغزا من ألغازها فتقذفنا بعشرات الأحاجي. نتصل بأولئك الأجداد بحكم المكان، ولكن تفصلنا عنهم آلاف السنين. نستشعر عظمة عهودهم لكن النسيان طمس دروب الرحلة الطويلة.

أخيرا وبعد رحلة استغرقت ساعتين وصلنا عند سفح الهضبة المهيبة التي شيدت فوقها الأهرامات، شاع بين المصريين أن الفراعين كانوا من العماليق مما مكنهم من بناء هذه الجبال منتظمة الأجناب.

الأخبار المتواترة عبر القرون تخبرنا أن ما يظهر من الأهرامات ليس إلا قمم جبال مدفونة، وأخفى الفراعنة كنوز العالم كلها أسفل أكبرها، وأنهم خبأوا تحت الهرم الثاني صحفهم التي دونوا فيها كل علوم وأسرار الكون، أما الهرم الثالث فقد دفنوا في باطنه رفات ملوكهم العظام. التففنا حول الهضبة وأقبلنا على الأهرامات من ناحية قرية "نزلة السمان". ما إن واجهنا الطريق الصاعد إليها حتى أطل علينا وجه تمثال مهيب قابعًا فوق صفحة الرمال التي غطت أجزاء من جسمه. هذا الرأس وحده يفوق في حجمه سباع قصر النيل التي طالما تعجبنا من ضخامتها. لم يكن لدى أي منا شك في أن هذا التمثال هو حارس الأهرامات وحافظ كنوزها من عبث الزمان. بهرني رأس "أبو الهول" بضخامته فأتعجب لامتناع المصريين عن تشييد التماثيل لعشرات القرون، وتسرب إلى نفسي اعتزاز بالتماثيل التي ملأ بها الخديو إسماعيل الميادين. ها هم الفراعين الجدد يشيدون تماثيلهم حراسا على الثروات التي ستعم بالخير على مصرنا الحديثة.

عندما اقتربت من الحشد المجتمع أسفل تمثال إبراهيم باشا خطر ببالي ضرب الإنجليز طوابي الإسكندرية وتدميرهم لأحيائها السكنية وما تم من إضرام النار بمبانيها قبل احتلالها. هذا الفعل الشائن أثار غضب أهالي القاهرة وزاد من سخطهم تجاه الرعايا الأجانب المستقرين في مصر. تقدمت حتى أصبحت على بُعد خطوات من الشيخ المعمم الذي وقف تحت قاعدة تمثال إبراهيم باشا وهو يشير

إلى تمثال البطل الفاتح ويخاطب الجماهير المحتشدة:

- يا إخواني إن ديننا قد حرم علينا إقامة مثل هذه التماثيل. ألم تروا أن انتشار تلك الأصنام في مصر خلال السنوات الأخيرة قد صاحبه الكثير من البلايا والمصائب؟ ألم تلاحظوا أن ظهورها قد تزامن مع انتشار الفرنجة الأوربيين بيننا؟ هؤلاء الذين ضيقوا علينا أرزاقنا فاحتكروا خيرات بلادنا ونهبوا أموالنا. ها هم يكشفون حقيقة مطامعهم فيرسلون بوارجهم تضرب أحياء الإسكندرية وتدمر مدينتنا الحبيبة. والآن يريدون أن يحتلوا بلادنا، ولكن هيهات أن نسمح بذلك.

قاطعه شاب ملتح وهو يصيح:

- هذا البلد آمن بإذن الله طالما صمد أبناؤه كالبنيان يشد بعضهم بعضا، وسيتأكد لنا ذلك حالما تخلصنا من الخونة والمنتفعين الذين باعوا ضمائرهم لأعدائنا، أعداء الوطن والإسلام. إخواني أمعنوا النظر في وجه هذا التمثال، ألا ترون الشبه القريب بينه وبين توفيق الخائن الذي انضم إلى الإنجليز ضد الوطنيين من أبناء هذا البلد.

زاد الصخب وترددت الهتافات الغاضبة بين الواجهات الفاخرة للمباني المقامة حديثا حول الميدان. ارتفعت صيحات عدد من

الشـــيوخ المحيطين بقاعدة التمثال وهم يحفزون الناس على إنزال التمثال عن قاعدته. صاح أحدهم:

– انظروا إلى هذا التمثال الذي يشبه وجهه الخديو توفيق.

صرخ شيخ آخر:

– لا يمكننا أن نترك هذا الخائن يطل علينا من عليائه. فلنسقِط هذا التمثال وننزله عن قاعدته.

تسـلق أحدهم قاعدة التمثال وشد حبلا سميكا حول جسد الجواد ثـم أطاح بطرفـه للمتظاهرين. رمى أحدهم بحبـل آخر تم ربطه بجسم إبراهيم باشا وحبل ثالث تم تثبيته حول رقبة الجواد. ابتعدت الجماهير عن قاعدة التمثال ثم بدأ الناس بجذب الحبال حتى سـقط التمثال من فوق قاعدته، فأثار كمًا هائلًا من الغبار وأصدر ضجيجًا أشـبه بانفجار هائل. رقد تمثال البطل الفاتح على جنبه وهو ممتطٍ جواده الذي كسـرت إحدى قوائمه. بعد أن هبطت الأتربة المثارة حول التمثال، أخذ الناس يكيلون له الضربات بالبُلغ والعصي. تعجبت مما يحدث، "كيف يسـتهين المصريون بهذا البطل الفاتح ومؤسس العسـكرية المصرية؟". وقف بجواري أفندي يظهر عليه شيء من الوقار، فعبرت له عن شعوري بالأسف لما يحدث:

– كيف نفعل هذا بإبراهيم باشا! هل نسينا انتصاراته في عكا وقونية والمورة ونصيبين؟

نظر إليّ شذرا وهو يلومني على ما قلته:

- إننا نعيش حالة ثورية حقيقية. لا بد أن نحطم أصنام العهد البائد لنشيد واقعنا الثوري الجديد. هل تعلم أن الجمهوريين في فرنسا أنزلوا تمثال لويس السادس عشر وحطموه أثناء ثورة 1848؟ فما الضرر إذا نفذنا شريعة ديننا الحنيف وفي نفس الوقت نكون قد اقتدينا بجمهوريي فرنسا.

تقدم الأفندي فوقف بجانب الشيخ المعمم وأخذ يلوّح بيده وهو يخطب في الناس:

- لا بد أن نحطم أصنام هذا العهد الفاسد لكي نشيد واقعًا جديدًا مبنيًا على أسس الحرية والأخوة والمساواة. هيا بنا إلى ميدان الإسماعيلية لكي نطيح بسباع كوبري قصر النيل فما هي إلا رموز لنظام الخديو الخائن.

تعالت صيحـــات وهتافات المتجمهرين. تقدم الأفندي الذي تبعه الشـــيخ، وقاد الاثنان الحشد وهما يوجهان المتظاهرين نحو شارع المدابغ يقصـــدون جميعا ميدان الخديو إسـماعيل وكوبري قصر النيل. تخلفت بجوار تمثال إبراهيم باشا حتى لم يبق معي إلا بضعة صبية امتطوا الجواد الراقد على جنبه. أخذ الصبية يتبادلون الأوامر العسكرية ويخوضون معارك وهمية، ثم بدأوا بالهتاف:

"يا محنّـي ديل العصفورة... عساكرنا هي المنصورة".

راقبت عن بُعد الحشد الغاضب المتجه نحو شارع المناخ. فجأة شعرت بيد ثقيلة تمسك بذراعي. استدرت لأجد سعد المويلحي يرحّب بي ويحتضنني:

– عبد الكريم... كيف حالك؟ لم أرك منذ رحيل أخيك عبد الرحيم إلى طوكر. هل لديك أخبار عنه؟

كان سعد من أقرب أصدقاء عبد الرحيم خلال سنواته الأولى بالمهندسخانة. ترك عبد الرحيم المهندسخانة ليلتحق بمدرسة الطوبجية بينما انصرف سعد عن الدراسة لحاجة أفراد أسرته لمن يعولهم بعد وفاة أبيه. بعد أن ترك المهندسخانة استمر سعد في علاقته الوثيقة مع أخي. كانا كلما التقيا تنشب بينهما حوارات ساخنة تدور حول مواضيع شتى. ما زلت أذكر مناقشاتهم حول مظاهرة عابدين، ومواقف شريف باشا، والقانون الأساسي للدستور، وصلاحيات مجلس النواب. احتضنت سعدًا وأنا أقول:

– وحشتنا يا سعد لم نرك منذ عدة أشهر!

ضمّني بقوة وسألني مستفسرا:

– عبد الرحيم بخير؟

– البوستة الواردة من طوكر غير منتظمة، وبالتالي فأخبار

عبد الرحيم تصلنا متقطعة وعلى فترات متباعدة.

نظر إليّ بود وهو يكرر نفس السؤال:

- ولكن عموما كيف حاله؟ إنني أفتقده وكم أود أن ألقاه من جديد لنكمل حواراتنا ومناقشاتنا التي لا تنتهي.

لم تكن لي معرفة حقيقية بأحوال عبد الرحيم في السودان. فخطاباته شحيحة والقليل الذي وصلنا منها لم يتضمن أي تفاصيل عن حياته هناك. جهلي بأحوال عبد الرحيم لم يمنعني من الرد على تساؤلات سعد بطريقة بدت مقنعة:

- طبعًا حياته هناك تختلف تمامًا عن حياتنا هنا في مصر، فمن المؤكد أن أحواله في طوكر أهدأ بكثير من أحوالنا هنا.

- نعم، فنحن نعيش أيامًا مضطربة بعد ضرب طوابي الإسكندرية واحتلال الإنجليز للمدينة.

سألته:

هل رأيت ما حدث لتمثال إبراهيم باشا؟ تفتكر مصر رايحة على فين؟

ابتسم سعد الذي أخذ يهز رأسه وهو يردد:

- كل خير! كل خير! الناس في حالة فوران وغضب بعد انضمام الخديو للإنجليز في رأس التين. على الأقل لقد

تخلصنا منه، والفرصة سانحة الآن لكي نقيم دولتنا على أساس من العدل والحرية.

قلت له:

– الحمد لله أن جيشنا ما زال صامدا عند كفر الدوار.

استطرد حديثه غير معنيٍّ بتعليقي:

– لا تنس السلطان العثماني الذي يجهز حملة عسكرية ستنقض على الإنجليز وتقضي عليهم وعلى أعوانهم. يقال إن السلطان ينصب مدافع عملاقة في كريت لضرب بوارج الأسطول الإنجليزي الموجودة أمام ثغر الإسكندرية.

تذكرت الآراء الغريبة التي طالما دافع عنها سعد باستماتة خلال مناقشاته مع أخي عبد الرحيم، وكيف أن تلك الآراء تميزت بمنطق فريد يغلب عليه أحيانا الشطط وتتضارب فيه الأفكار غير المتسقة. حاولت أن أشرح لسعد رؤيتي للوضع الحالي:

– لا يمكننا الاعتماد على السلطان العثماني ألم نشهد في الفترة الأخيرة عداء الضباط الجراكسة للضباط الوطنيين؟ السلطان العثماني نفسه طالما ساند الخديو ضد الوطنيين من المصريين. الحل الوحيد يكمن فينا وفي قدرة جيشنا على الصمود في كفر الدوار وهزيمة الإنجليز.

أصر سعد على وجهة نظره:

– صحيح! أنا متفق معك على أن الحل بأيدينا، ولكن السلطان كخليفة للمسلمين لن يتركنا نروح في ستين داهية.

مرة أخرى حاولت أن أشرح له حرج موقفنا الحربي:

– وضعنا في غاية الصعوبة وضيق الوقت لا يسمح للسلطان العثماني بأن يتدخل بأي شكل من الأشكال. هل تعرف أن أسطول "هيويت" قد احتل السويس، مما يهدد بفتح جبهة جديدة من الناحية الشرقية للبلاد.

أبدى سعد فزعه من احتلال السويس فصاح:

– يا نهار أسود! ماذا سنفعل لو هاجمنا الإنجليز من ناحية القنال؟ هل يمكن أن يكون أخوك محقا؟ ترى هل تسبب العرابيون في هذا الموقف العصيب؟

لم أعرف كيف أرد على هذا التساؤل الغريب، المناقشات السياسية مع سعد تقود غالبا إلى مواضيع لا تقدم أو تؤخر. حاولت أن أنهي المناقشة:

– ليس هذا وقت الكلام دون القيام بعمل جاد، يجب أن يجتهد كل منا في تأدية واجبه تجاه الوطن بإخلاص.

– بمشيئة اللـه سننتصر على الإنجليز المعتدين وعلى الخديو الذي تآمر معهم ضد شعبه.

قررت أن أمضي في طريقي، فمددت له يدي مصافحًا قبل أن أفارقه:

– سأذهب الآن يا سعد فلا بد من عودتي فورا إلى بيتي لقضاء ما تبقى من إجازتي مع العائلة. لا بد لي أن أرجع إلى ثكنات العباسية في الصباح الباكر.

رد سعد:

– اللـه معك ولا تنس أن ترسل سلامي إلى عبد الرحيم.

***

في طريقي إلى البيت تذكرت عناد عبد الرحيم وإصراره على انتقاد عرابي باشا ومحمود باشا سامي البارودي وما ترتب عليه من إبعاده إلى طوكر. لقد رأى أن العرابيين استفادوا من أزمة يناير، التي تسبب فيها موقف الرقيبين الماليين الإنجليزي والفرنسي. لقد استغل العرابيون هذه المشكلة ليسقطوا وزارة شريف باشا في فبراير. ثم دعموا سلطاتهم في أبريل بعد حادثة الضباط الجراكسة وسعوا إلى السيطرة على شئون الدولة. أسهم الضباط المصريون كانت في صعود مستمر منذ مظاهرة عابدين وما ترتب عليها من

استجابة الخديو لكل طلباتهم. التف الشعب حولهم وأصبحت حركة الجيش أمل المصريين في التخلص من هيمنة الأجانب والجراكسة. بعد أزمة يناير تولى البارودي باشا رئاسة الحكومة، وتقلد عرابي باشا نظارة الحربية. منذ تلك اللحظة أحس ضباط الجيش أنهم أصبحوا حماة البلاد وأمل شعبها. أخي عبد الرحيم كان من الضباط القلائل الذين لم يعجبهم الدور الجديد الذي انشغل به قادة الجيش. اعتقد عبد الرحيم اعتقادًا راسخًا في ضرورة ابتعاد ضباط الجيش عن السياسة لما فيها من مفسدة، وما قد يتبع ذلك من تدهور لأحوال المؤسسة العسكرية. كثيرا ما أكد عبد الرحيم أن إغراءات المناصب وما يتبعها من حياة مترفة لا تتناسب مع العسكرية الحقة. لم أشارك أخي الرأي، فقد بهرني ما قد تم تحقيقه على يد عرابي وأصحابه، وشعرت بأن النجاحات التي تم إنجازها بعد مظاهرة عابدين تتصل بآمال المصريين، وتحقق حلمهم بإقامة دولة حديثة تتبوأ مكانها الطبيعي بين الدول. في تلك الأيام أعجبت جماهير الشعب بعرابي باشا وقوة شخصيته. فالرجل له جاذبية لا تقاوم بهيئته المهيبة فضلا عن مصريته الخالصة التي قربته من قلوب الجميع.

ما زاد من صعوبة موقف عبد الرحيم أنه أبدى قدرًا كبيرًا من الجسارة أقرب إلى التهور، فحاول تشكيل حركة بين الضباط تطالب بتخلي العسكريين عن المناصب السياسية وعودتهم إلى الثكنات. لم أفهم لماذا صمم عبد الرحيم على مهاجمة عرابي باشا بالذات على الرغم من شعبيته الجارفة وحب الناس له.

في حقيقة الأمر أنا لم أبال كثيرا بما كان يدور حولنا في تلك الأثناء، كنا نمر من أزمة إلى أخرى لكن ذلك لم يقلقني. المطالبة بصلاحيات أوسع للمجلس النيابي، وتدخل الدول الأوربية في شئون مصر المالية، وموقف الخديو توفيق من الوطنيين، كل تلك الأمور لم تثر اهتمامي. بل اعتبرت ما يمر بنا حالة من التخبط السياسي التي ستنحصر عاجلا أم آجلا، وما عليّ إلا التغاضى عن كل هذه الفوضى وتركيز جهودي على عملي فقط. كنت ببساطة واثقا من أن إتقاني للمهارات العسكرية سيضمن لي النجاح الذي أرجوه لمستقبلي المهني. كل هذا الخلط الذي يسيطر على حياتنا السياسية لا بد له من نهاية بعدها نعود إلى الطريق السليم والأحوال الهادئة التي ستؤدي مع مرور الوقت إلى النهوض بالبلاد وتقدمها.

بدأ عبد الرحيم بعقد لقاءات متفرقة مع زملائه من الضباط، ولكنه فشل في كسب أي مؤيدين لآرائه. أفضل ما قوبل به كان النصح من بعض المخلصين بأن يتخلى عن دعوته قبل أن تبلغ أسماع الرتب الكبيرة من قادة الجيش. في نفس الوقت واجهته موجة من السخرية تشكك في وطنيته وتنعته بمحبة الضباط الجراكسة وتتهمه بالاستكانة لهم وطاعتهم. زادت هذه الأقاويل بعد أزمة أبريل فبالغ المغرضون من ضباط الأورطة في الإسفاف، وأشاع هؤلاء الأوغاد روايات عن علاقات حميمة بينه وبين بعض الضباط الجراكسة. أصبح عبد الرحيم وحيدًا كمن يسبح ضد تيار عات ولا يجد نصيرًا يمد

له يد العون. صار زملاؤه يتجنبونه ورفض بعضهم التحدث إليه. استمر هذا الأمر لفترة حتى تم استدعاؤه للتحقيق معه بتهمة إثارة الفتن بين الضباط المصريين والجراكسة، بالإضافة إلى اتهامه بعدم الانصياع للأوامر العسكرية. كانت فترة عصيبة فقد خلالها عبد الرحيم ثقته بالتقاليد العسكرية، فتبدل حاله ولم يعد ذلك الضابط المؤمن بالجيش وبقادته. اعتزل أصحابه خلال فترة التحقيق، التي توقع الجميع أن يؤدي إلى إحالته إلى محاكمة عسكرية وما قد يتبع ذلك من فصله من الخدمة. تصور عبد الرحيم أن إخلاصه للعسكرية المصرية وتفانيه في عمله قد يشفعان له، لكن نتيجة التحقيقات فاجأت الجميع، فقد تقرر نقله إلى السودان ضمن عدد من الضباط الذين أبعدوا بعد أزمة أبريل.

رحل عبد الرحيم إلى السودان منذ شهر تقريبا. يومها ودع العائلة في منزلنا بشارع الصليبة، ورفض تماما أن يصحبه أي منا إلى محطة السكك الحديدية. على الرغم من عناده صممت أن أرافقه، وبعد مناقشة طويلة وافق عبد الرحيم أن أذهب معه بمفردي دون أن يصحبنا أبي. طوال الطريق لم ينطق بكلمة وساد بيننا صمت ثقيل، كلما فتحت موضوعا للحديث أجابني باقتضاب وقطع قنوات التواصل بيننا. على رصيف المحطة، وقبل أن يصعد إلى عربة القطار، احتضنني ثم نظر إليّ وقال:

- يا عبد الكريم أنا لن أعود لمصر مرة أخرى. أوصيك بأمي وأبي وأختنا نفيسة.

لم يعطني عبد الرحيم فرصة للرد بل استدار وتسلق سلم القطار الضباط والعساكر المرحّلين إلى السودان. لوّحت مودعًا لكنه لم يلتفت نحوي بل ولج إلى داخل عربة القطار حيث ابتلعته جموع المسافرين. شملني شعور بالغضب فغمغمت:

- ما لك لا تأبه بأحد؛ كل ما يهمك هو إثبات سـلامة ما تؤمن به أنت وحدك. ما كل هذا الصلف والغرور؟

انتظرت على رصيف المحطة حتى انسحب القطار مبتعدا، ثم استدرت قاصدًا باب الحديد المؤدي إلى قلب قاهرة الثورة مرورا ببواكي كلوت بك ووش البركة.

***

القصّاصين

سبتمبر، 1882

تحركنا عند الثلث الأخير من الليل.

كانت سريتنا ضمن الآلاي الأول الذي تحرك على الجانب الأيسر من ترعة الإسماعيلية بقيادة أحمد بك فرج، ومعنا بطارية مكونة من ستة مدافع. استلم اليوزباشي محمد عباس الرسوم التي توضح التحركات والأوقات التي يجب أن تلتزم بها سريتنا. أوضحت الرسوم وجود آلاي عيد بك محمد في القلب تتقدمه بطارية من اثنى عشر مدفع كروب علاوة على ستة مدافع إضافية. وملحق بقواتنا على الجانب الأيمن من الترعة أورطة محمد أفندي الزملاوي ومعه أورطة

فرسان وعدد كبير من العربان والبدو. كل هذه القوات شكلت الجناح الأيمن للجيش المصري تحت قيادة اللواء علي باشا فهمي. على الجانب الآخر ضمت ميسرة قواتنا آلاي علي بك يوسف وأورطتين من العساكر السودانية، بالإضافة إلى بطارية مدفعية وست أورط من الفرسان بقيادة أحمد بك عبد الغفار. قوات هذا الجناح الأيسر كانت تحت قيادة الفريق راشد باشا حسني. الرسوم التي تم توزيعها على قادة السرايا كانت توضح خطة تقدم جيشنا على شكل نصف دائرة ليحيط بجناحيه بالجيش الإنجليزي المتمركز في القصاصين. كانت خطة الهجوم تتضمن أيضا وصول آلاي محمود باشا سامي البارودي من الصالحية عند الساعات الأولى من النهار ليوجِّه ضربة مفاجئة لميمنة الجيش الإنجليزي يتبعها بحصار قوات العدو والقضاء عليها.

قمر ضئيل أضاء لنا الطريق ليلا. على الرغم من تحركات أورطتنا فقد لفنا صمت مريب لا يقطعه إلا نعيق الضفادع أو صفير صراصير الليل. تقدمت عساكرنا دون أن ينبس أي منهم بكلمة. حتى لا يكتشف العدو تقدمنا، اتبع قادة الفصائل أسلوب يعتمد على الهمس لنشر أوامر التحرك. علقنا آمالا عريضة على مفاجأة العدو وتحقيق نصر حاسم. المعلومات التي وصلتنا تفيد بأن العدو يركز معظم قواته عند القصاصين. توجيه ضربة قاصمة للإنجليز ودفعهم بعيدا عن هويس الترعة الحلوة سيحرمهم من مصدر المياه الوحيد

مما سيسبب لهم مشاكل لا حد لها في هذا الجو شديد الحرارة. شيئا فشـــيئا بدأ ضوء الفجر يزيح غطاء الليل، وكشف وجوه عساكرنا التي غمرهـــا التصميم على النصر. بـــدأت المعركة عندما إلتقت طليعة جيشـــنا وثلاث أورط من الســـواري مع دورية من الفرسان البنجاليين بعمائمهم المزركشـــة ورماحهم الطويلة. تبع ذلك تبادل كثيف للنيران عندما اشتبكت طلائعنا معهم. تحرك فرساننا بسرعة ومهارة عاليـــة حتى كادوا أن يحاصروهم، فقتلوا منهم عددًا كبيرًا وأصابوا الكثيرين منهم، أما الباقون من فرســـان العدو ففروا نحو معسكرهم.

في ضوء الشفق ظهرت لنا خيام معسكر الإنجليز ومن وراءها أطلت علينا شمس ضارية. اتخذت فصائلنا مواقعها عند خط المواجهة مع العدو وبدأت بطاريات مدافعنا بإطلاق النيران على مواقع الإنجليز. ردت علينا مدفعية العدو على الفور كأنها كانت تنتظر هجومنا. نرى مواســـير مدافعهم تنفث الدخان قبل أن نسمع دويها. التلال والأكمة الرملية أعطت وحداتنا غطاء مناسبا عند بداية الاشتباكات مع العدو. اســـتمر إطلاق المدفعية لمدة نصف الساعة قبل أن تصدر الأوامر لتقدم طابور من أورطة محمد أفندي الزملاوي على الجانب الأيمن من الترعة بالتزامن مع الأورطتين السودانيتين من الجناح الأيسر. من موقعنا كان يمكننا رؤية هذه القوات وهي تتخذ تشكيلاتها القتالية علـــى جناحي العدو في توقيت واحد. دفعات طلقات البنادق تتابعت

بشكل منتظم ودويها المتكرر قلل من توتري. وأظهرت عساكرنا ثباتا وشجاعة كاللتين عهدناهما فيهم. تقدمت مجموعة من فرسان العدو على الجانب الأيمن من الترعة فقابلتها أورطة من فرسـاننا إنضم إليها أعداد غفيرة من العربان الراكبة يصعب رؤيتهم وسط الغبار الكثيف الذي أثاروه. علــى الرغم من عدم انتظام العربان إلا أنهم إمتازوا بالخفة وسرعة الإنقضاض حتى كادوا أن يحيطوا بفرسان الإنجليز واقتربوا من خطوطهم إلــى الحد الذي أجبر جنود العدو على تشـكيل مربعات دفاعية لمواجهة احتمال قيامنا بهجوم شامل بسلاح الفرســان. لصد هجماتنا ركزت بطاريات مدفعيتهم نيرانها على البدو بشكل مكثف حتى أجبرتهم على الانسحاب بعد أن نجحوا مؤقتا في إجبار فرسان الإنجليز على الفرار من أمامهم.

بعد هذه المناوشات الأولية بدأ الآلاي الأول بالتحرك متزامنا مع آلاي عيد بك محمد الموجود في القلب. تبادل عنيف لقذف المدفعية سـبق تحركنا واسـتمر لمدة طويلة. أصوات الانفجارات اختلطت بصرخات المصابين، زاد دوي القذائف من حماسـنا وشوقنا للقاء العـدو. كنا نعلم أن الهدف من هـذا الهجوم هو تثبيت قلب الجيش الإنجليزي حتى لا نسـمح لقواته بأن تناور أو تنسحب عندما يصل آلاي البارودي باشا من الصالحية. عندئذ سينضم فرسان الميرالاي أحمد بك عبد الغفار إلى قوات البارودي في حركة التفاف واسـعة لتطويق ميمنة العدو. الدور الذي كان علينا أن نقوم به هو الالتحام

مع قلب الجيش الإنجليزي والاستمرار في القتال بلا هوادة حتى يصل آلاي الصالحية. محمد عباس كان يقود سريتنا بينما تقدمت أنا على رأس فصيلتي. ثبت العساكر السناكي بمقدمة بنادقهم وتقدموا عبر خط المواجهة للالتحام مع العدو الذي تجمع في تشكيلات قتالية وظهر لنا عساكره بستراتهم الحمراء. عندما أصبح العدو على بعد مرمى بنادقنا، أصدرنا الأوامر بإطلاق النيران على جنوده. أحكم رجالنا نيرانهم وأظهروا جلدا شديدا في وجه ضربات العدو. بدأ الإنجليز في إطلاق النيران بكثافة مما أدى إلى وقوع إصابات في خطوطنا الأمامية وسقط ضمنهم بعض رجالي. انتقل محمد عباس بين الفصائل المكونة لسريته وهو يشد من أزر جنوده ويحثهم على القتال. بعد فاصل من التراشق بالنيران صدرت الأوامر لتقدم الفصائل الاحتياطية للضغط على العدو. أدى ذلك لتراجع صفوف جنود الإنجليز وبدأت بطاريات مدفعيتهم قذفنا بوابل من القنابل. سقط العديد من عساكرنا إلا أن رفاقهم لم ترهبهم الضربات المتتالية، بل ازدادوا حماسا وتواترت طلقات بنادقهم. ردت مدفعيتنا على بطاريات العدو بضربات محكمة حتى أسكتتها وظهر في الأفق دخان كثيف يتصاعد بين مواقعها.

الجاويش حسن استغل فترة من الهدوء النسبي لكي يسحب المصابين إلى الخطوط الخلفية واستفاد من الوقت المتاح لتنظيم صفوف باقي جنود الفصيلة. ناديت عليه للاطمئنان على كمية

الذخيرة المتوفرة للعساكر إستعدادا للهجوم على مواقع العدو إذا تقرر ذلك. لمحت خلف صفوفنا مباشرة اللواء على باشا فهمي وهو ممتطي جواده وسط عدد من الضباط يتفقد معهم عن كثب أحوال القتال الناشب مع العدو. قام الرجال بأداء التحية له وتعالت صيحاتهم الحماسية.

رأينا من موقعنا أن المواجهات على الجانب الأيسر من الجبهة كانت أقل احتداما، فيما عدا مناوشات متقطعة من جانب إحدى الأورطتين السودانيتين من قوات خضر بك خضر. استغل محمد عباس السكون المؤقت، فاقترب مني وهو يشير إلى صفوف ميسرتنا متسائلا:

– غريب جدا أنهم لم يحملوا على قوات الإنجليز مثل ما فعلنا. ماذا يفعل علي بك يوسف؟ لماذا لا يهاجم مواقع الإنجليز بالقوة اللازمة كما هو مخطط له؟

حاولت تفسير ما يحدث:

– لا بد أنه ينتظر وصول آلاي البارودي قبل الاشتباك مع العدو.

رد عباس متعجبا:

– كان من المتوقع أن يصل آلاي الصالحية عند أول النهار. لا أدري ما أسباب تأخره.

مرة أخرى تم اســتبدال الصفوف الأمامية بالفصائل القادمة من خطوطنــا الخلفية، وتلا ذلك إطــلاق كثيف للرصاص على مواقع العدو أعقبه هجوم ثان للعربان الراكبة وأورطة الفرسان في الجانب الأيمن من الترعة. تحت هــذا الضغط تخلخلت صفوف الإنجليز، وكاد فرساننا أن يصلوا إلى خيام معسكرهم مما بشر باكتساح ميسرة جيشهم. تعجبت لتباطؤ آلاي علي بك يوسف في الهجوم علي ميمنة قوات العــدو، خاصة أن الإنجليز بدأوا ينقلون جنودهم من الميمنة لمساندة ميسرتهم التي تتعرض لضغوط عنيفة. "أين آلاي البارودي؟ لماذا لم يصل حتى الآن؟ لا بد أن يهاجم علي بك يوسف وخضر بك خضر ميسرة العدو الآن، هذه فرصة لا تعوّض ولا بد أن نستغلها لكي نكسر صفوف الإنجليز".

تقدمنا بخطوات ثابتة للاشتباك مع فصائل العدو المتحركة من ميمنته والتي تحاول دعم قواته الموجودة في الميسرة. دخلنا في جحيم من النيران المتبادلة وتضاعفت أعداد المصابين والجرحى بين رجالي. فقدت ثلث جنود فصيلتي فقررت ضم باقي أفرادها للفصيلة المجاورة، عند هذه اللحظة لمحت أورطة من عساكر الإنجليز تظهر فجأة يسار موقعنا على مسافة قريبة جدا من صفوفنا. في عجلة أصدرت أوامري لكي تستدير تشكيلاتنا لمواجهتهم عندما انهال علينا الرصاص بكثافة رهيبة. سقط عدد من رجالنا ولكن بقيتهم صمدوا وتماسكت خطوطهم وبدأوا بتبادل النيران مع القوة التي هاجمتنا.

صمد جنودنا لفترة طويلة قبل اضطرارهم للانسحاب تحت وطأة الهجوم المضاد للإنجليز. جنودي في الصفوف الأمامية ارتدوا إلى ما وراء خطوط دفاعاتنا الخلفية، والتي تراشق أفرادها بالنيران مع الإنجليز حتى يعطونا فرصة للانسحاب بشكل منظم. حركة الغبار الكثيف على يمين الترعة دلت على ارتداد العربان وانسحاب أورطة فرساننا بعد أن كادوا أن يكسروا ميسرة العدو. زادت وتيرة طلقات البنادق من ناحية الجناح الأيسر لقواتنا، مما أوحى لنا بأن آلاي الصالحية وصل لأرض المعركة، وأنه بدأ الهجوم على ميمنة الإنجليز. شجعنا ذلك ودفعنا لتركيز الضرب على قوات العدو المواجهة لنا. لكن بعد قليل وصلنا نبأ يشير إلى أن الاشتباكات على الجناح الأيسر سببها هجوم قاده الفريق راشد باشا حسني بنفسه على رأس آلاي على بك يوسف والأورطتين السودانيتين. إضطر راشد باشا أن يقوم بهذا الهجوم دون أن ينتظر وصول آلاي الصالحية وذلك للتخفيف من وطأة الهجوم المضاد الذي شنه الإنجليز على جناحنا الأيمن وعلى قواتنا في القلب.

احتلت الشمس عرش السماء مضيفة لحرارة المعارك المحتدمة والقتال المستعر من حولنا. بعد أن خاضت سريتنا معارك الصباح بطوله ارتدت إلى الخطوط الخلفية لكي يتسنى لجنودها أن يستريحوا ولنتمكن من إعادة تنظيم صفوف فصائلنا. جلست بجوار الجاويش حسن أشاركه بضعة فطائر وكسرة من الخبز الجاف. ملابسه البيضاء

تلوثت بالغبار المعجون بعرقه المتصبب من كل جانب من جسمه العريض. الجاويش حسن ميزته نظرة هائمة تتناقض مع طبيعته العسكرية المنضبطة ولا تتناسب مع هيئته القوية. عندما تراه يحارب بشراسة ويفتك بالعدو في ميدان القتال لا تصدق أنه صاحب تلك الملامح الحالمة. قضم حسن فطيرة ومضغها ثم ابتلعها متسائلا:

– سنهزم الإنجليز اليوم، أليس كذلك؟ إن شاء اللـه، ربنا سينصرنا عليهم وستنكسر شوكتهم.

انفجارات عنيفة هزت الأرض من حولنا. عساكر فصيلتي الذين تحلقوا في بقعة قريبة منا لم يأبهوا لما يجري على خط المواجهة. لم أعرف كيف أرد على سؤال الجاويش حسن، فصمتُّ لوهلة ثم أجبته:

– عندما يصل آلاي الصالحية سنتمكن من حصارهم وسنقطعهم إربًا وسندفنهم في قاع القنال.

خلع حسن طربوشه، نفض الغبار عنه ثم أجاب وهو يتطلع في اتجاه جناحنا الأيسر:

– ولكن أين آلاي الصالحية؟ أين ذهب؟ هل تاه؟ لم يظهر حتى الآن.

لم أملك جوابا لكل هذه التساؤلات. الشك يقتلني، فالنهار كاد ينتصف والأمور لا تسير كما كان مخططا لها. عساكرنا تقاتل

بشجاعة واستبسال منقطعي النظير، ولكن كل وحدة تعمل منفصلة عن الوحدات الأخرى، تقاتل كل منها بشراسة ولكنها تقاتل منفردة في الميدان بلا تنسيق مع باقى الوحدات. إذا استمر هذا التشرذم وأهملنا الخطة المتفق عليها فلن يمكننا هزيمة الإنجليز. حاولت أن أدفع مخاوفي جانبا فأجبته:

– لا بد أن يظهر في أي لحظة، فالصالحية ليست بعيدة. وعلى أي حال سنهزم الإنجليز سواء وصل البارودي باشا أو لم يصل.

تشبع الهواء برائحة البارود بينما أخذ دوي الانفجارات وطلقات البنادق في التصاعد. قام الجاويش حسن وذهب ليتأكد من حصول جنودنا على حصص كافية من الذخيرة تمكنهم من استكمال القتال قبل أن ينشغل بتنظيم صفوف فصيلتنا التي تأهبت للعودة إلى الخطوط الأمامية. تقدمنا تحت غطاء وابل كثيف من قصف المدافع المتمركزة خلفنا مباشرة. اتخذنا مواقعنا على خط المواجهة وبدأنا بإطلاق النيران. لمحت اليوزباشي محمد عباس يسرع نحوي وهو يصيح:

– وصلتم في الوقت المناسب. لقد هاجمنا صفوف الإنجليز الأمامية ودفعناهم للخلف حتى كدنا أن نخترق خطوطهم ونصل إلى معسكرهم. عند هذه اللحظة توقف جناحنا الأيسر عن التقدم وارتد إلى الخلف. هناك شائعة قوية أن راشد باشا

أبو شنب فضة قد أصيب وهو يقود الهجوم الجريء الذي بدأه منذ ساعة تقريبا. يقال أيضا إن ضباطه حملوه إلى الخطوط الخلفية لتلقي العلاج. هذا التحول المفاجئ في سير القتال أعطى الإنجليز فرصة تجميع قواتهم والآن نتعرض لهجوم مضاد عنيف.

اقتربت منه وصرخت في أذنه ليتمكن من سماع ما أقوله:

– هذا يفسر القصف العنيف لمدفعيتنا التي تحاول عرقلة تقدم فصائل الإنجليز. لا تقلق سنمسحهم من على وجه الأرض إن شاء اللـه.

رد علي عباس:

– هل رأيت علي باشا فهمي وهو يتنقّل بين وحداتنا في الخطوط الأمامية ليتأكد من تماسك خطوطنا وليرفع من الروح القتالية لعساكرنا. طالما نحارب خلف قائد كهذا لن يتمكن منا الإنجليز أبدًا.

نظرت خلفي فرأيت عساكرنا في الصفوف الخلفية وهم يحفرون على عجل عدد من الخنادق التي يمكن استخدامها كمواقع دفاعية مؤقتة. هذه إشارة واضحة إلى احتمال انسحاب قواتنا إذا تعرضت للمزيد من الضغط. "وماذا يفعل علي بك يوسف؟ لماذا لا يواصل الهجوم الذي بدأه راشد باشا قبل إصابته؟". استمرت الخطوط الأمامية لقواتنا في إطلاق نيران محكمة ثبتت عساكر الإنجليز

ومنعتهم من التقدم. قصف مدفعية الإنجليز اشتد حتى أصاب عددًا من بطارياتنا ودمر الكثير من مدافعنا. تصاعدت شراسة هجوم الإنجليز على قواتنا الموجودة في القلب ولكننا صمدنا في مواجهتهم ودفعناهم للخلف أكثر من مرة. "لدى أحمد بك عبد الغفار ست أورط من الفرسان. لماذا لم يهاجم حتى الآن؟" رأيت محمد عباس يتحرك عبر صفوف سريتنا موجها الأوامر بانسحاب جنودنا إلى الخنادق التي تم إعدادها. احتفظ عساكرنا بانتظام خطوطهم وارتدوا بحركات متقنة حتى وصلوا للمواقع المعدة لهم. هذا الانسحاب المنظم للوحدات الموجودة في القلب قلل من خسائرنا، وأتاح لنا أن نواصل القتال لفترة أطول، لكننا فقدنا المبادرة ولم يعد ثمة أمل في النصر إلا إذا وصل آلاي الصالحية الذي قد يتيح لنا فرصة للتحول إلى الهجوم مرة أخرى.

استمر إطلاق النيران لفترة طويلة دون أن يحقق أي من الطرفين تقدمًا ملموسًا. كأن الطرفين قد قنعا بهذا الوضع. كل منهما لا يتطلع إلى التقدم أو الضغط على الطرف الآخر. صدرت لنا التعليمات بتوفير الذخيرة وعدم إطلاق النيران إلا للرد على العدو. التحركات على جناحنا الأيسر أصبحت محدودة منذ إصابة راشد باشا، والأوضاع أصبحت ساكنة تماما ناحية محمد أفندي الزملاوي على الشاطئ الأيمن للترعة. الشمس مالت نحو الغروب، وبدأ الإنهاك والتعب الشديد يحل بعساكرنا. اقترب مني محمد عباس وقد بدت

على وجهة مسحة من الحزن والأسى، فبادرته بالسؤال:

– ما بك؟ ماذا حدث؟

رد عباس بصوت بح من الصياح:

– علي باشا فهمي أصيب هو الآخر برصاصة في ساقه، وقد غادر الميدان مع عدد من ضباط أركانه إلى التل الكبير. يقال إنه بخير لكن لا بد من إرساله إلى القاهرة للعلاج.

أصابني الخبر بخيبة عضت في عزيمتي، فاستطردت بمرارة:

– لا أصدق أننا فقدنا علي باشا فهمي وراشد باشا حسني في يوم واحد. لا أثر للبارودي باشا حتى الآن وعرابي باشا بقيَ في خيمته في التل الكبير، ولم يحضر معنا إلى القصاصين ليشرف على تنفيذ خطة الهجوم. يا له من يوم غريب!

استمر إطلاق النيران على فترات متقطِّعة حتى بدأت الشمس بالغروب وكست خيام الإنجليز حمرة داكنة ما لبثت أن ذابت في رمادية غطت تحركات العدو القابع أمامنا. حز في نفسي أننا قاتلنا ببسالة وفقدنا من فقد منا حياته، ولكننا لم نتمكن من دفع الإنجليز بعيدا عن القصاصين. لقد كبدناهم خسائر جسيمة وكدنا أن نخترق صفوفهم أكثر من مرة، ولكن للأسف افتقدنا التنسيق الكامل بين وحدات جيشنا ولم نتقن تحركات فصائلنا بالشكل الذي يؤدي بنا إلى النصر الذي نأمل فيه. سقط منا شهداء لن ننساهم، وأصيب منا من

أصيب، لكننا أصبحنا أكثر ثقة بأننا أنداد للإنجليز وبأننا قادرون على الصمود لهم ودحرهم.

عند حلول الظلام بدأت قواتنا بالارتداد إلى مواقعها في التل الكبير. شعرنا بالأسف لأننا لم نتمكن من الاستيلاء على هويس القصاصين، ولكن في نفس الوقت شابت عساكرنا مسحة من الزهو والثقة لأنهم ثبتوا في مواجهة الإنجليز كالند للند. لوهلة تلاشت الهالة التي أحاطت بقوة الإنجليز الأسطورية وبأس جيشهم الذي لا يقهر، واعتقد رجالنا أنهم قادرون على هزيمة جيوش الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس.

***

المفتّقة

نوفمبر، 1872

مع أول ضوء للنهار، أقلق نومي صخب شديد ملأ ساحة الدار. قفزت من فراشي وخلعت جلباب النوم ثم ارتديت ملابسي. اغتسلت على عجل وأسرعت بالنزول إلى ساحة البيت، فوجدت سلامة صبي محل الدرب الأحمر الذي يعمل فيه أبي. توسط سلامة ساحة الدار وهو يعطي التعليمات والأوامر لعدد من الصبيان أخذوا ينقلون إلى غرفة الخزين قدور العسل الأسود وأكياس الدقيق والسمسم ومطحون الحلبة، بالإضافة إلى اللوز والفول السوداني. ناديت على سلامة:

– ماذا سيحدث اليوم؟ هل سيأتينا ضيوف؟

التفت سلامة إليَّ ثم أشار إلى قدور العسل الأسود وهو يرد:

– ألم تخبرك الحاجة؟ أنه يوم إعداد المفتقة.

مع قدوم الشتاء اعتادت أمي أن تعد كمية هائلة من المفتقة تملأ بها عشرات البرطمانات التى تكفي العائلة طوال أشهر الشتاء، وذلك لاعتقادها بفوائد المفتقة المضمونة في توفير الطاقة اللازمة لتدفئة أجسام أبنائها خلال أيام الشتاء الباردة. أضف إلى ذلك ثقتها بأن خلطة المفتقة السحرية ستسهم في نموهم بشكل صحي سليم. كنت قد شارفت على نهاية عامي العاشر وما زلت أحظى بقوام نحيل وقامة ضئيلة. أخي عبد الرحيم الذي يكبرني بثلاث سنوات أخذ عوده يشتد وعضلاته تتشكل كعضلات رجل قوي. خلال الأشهر القليلة الماضية اخشنّ صوته ونما أعلى شفتيه زغب خفيف بدأ يرسم معالم شاربه. ولأسباب أجهلها بدأت أشعر بابتعاده عني وعدم رغبته في اللعب معي أو مع باقي الجيران والأقران ممن هم أصغر سنًا. غلبت عليه مسحة من الجد المبالغ فيه ولم يعد راغبًا في مشاغبتي أو مداعبة أختنا الصغرى نفيسة. وبين الحين والآخر تتاح لي فرصة الاستماع إلى أحاديثه مع أبي عن مدرسة الطوبجية وفرص التحاقه بها. يشرح له أن احتمالات نجاحه في ذلك ستتحسن بشكل كبير إذا بدأ أولا الدراسة بالمهندسخانة حيث يمكنه قضاء

عامين يدرس الهندسة قبل أن ينضم إلى مدرسة الطوبجية.

سمعت أمي تنادي جاريتها السمراء "أم عواطف" التي نشأت معها في بيت جدي والتي أعتقها عندما انتقلت أمي إلى بيت زوجها الحاج صبري. لم تنفصل "أم عواطف" عن أمي بل انتقلت معها لخدمتها في بيتها الجديد، واستمرت في ذلك بعد أن تزوجت هي الأخرى في نفس العام الذي رزقت فيه أمي بطفلها الأول عبد الرحيم. ما لبثت أن لحقت بأمي ورزقت هي أيضا بابنتها عواطف.

انكفأت "أم عواطف" فوق الموقد تشعل ناره استعدادا لطهو المفتّقة، وأشارت لعواطف بأن تعد الحلل والمواعين اللازمة لذلك. عندما رأتني بادرت بسؤالي:

– هل تناولتَ فطورك؟

دخلت أمي علينا فأخذت بيدي وأجلستني بجوار طبلية وضعت عليها طبقًا من الفول المدمس ومعه قطع الجبن وأحاطته بالأرغفة الساخنة والبصل الأخضر. أقبلت على فطوري بشهية كبيرة حتى جاءتني عواطف بعودها الممشوق وسُمرتها الجذابة. جلست بجواري فأحسست بفخذها الرخيم وهو يحتك بركبتي. مدت يدها فاقتطعت لقمة من أحد الأرغفة وغمستها في صحن الفول ثم لقمتها بين شفتيها. كعادتنا اشتدت المنافسة بيننا على من يتناول أعظم قدر من الفول المدمس والجبن، ومن منا يقدر على التهام أكبر عدد

من الأرغفة. بشـــرتها تميزت بنعومة خلابة وزادها حسنا اختلاط سـمارها بخمرية رائقة. منـــذ صغري أحببت ملامســـة وجنتيها بأصابعي متلذذا بنعومة جلدها. ابتســـمت عواطف معلنة انتصارها ومؤكدة تناولها كمية أكبر من الطعام. مسحت رأسي بكفها وقامت لتساعد أمها في الإعداد لطهو المفتقة.

رفعت عواطف طبق الفول وعيدان البصل واللقيمات المتبقية، ثم قامت بمسح سطح الطبلية بفوطة مبللة. أحضرت أمي غربالًا دقيق الفتحات وحملت "أم عواطف" مفرشا نظيفا غطت به الطبلية. قامت عواطف بسكب السمسم في الغربال في نفس الوقت هزهزته أمي برفق لتنقية حبات السمسم من الأتربة والأوساخ العالقة بها. "أم عواطف" قامت إلى الموقد لتتأكد من اشتعال النار بدرجة كافية، ثم أحضرت حلة ضخمة ووضعتها فوق النار. جعلت "أم عواطف" تحمل قدور العسل الأسود الذي تقوم بسكبه في الحلة. تقدمت إليها ومددت سبابتي لأمسح لحسة من فم قدرة من قدور العسل. تناولت مغرفة وبدأت أقلب العسل الذي يتم سكبه في الإناء بشكل مستمر. كنت مدركا أهمية هذه العملية، وذلك لمنع التصاق العسل بقاع الإناء وحرصا على عدم احتراقه. نبّهتني "أم عواطف" إلى ضرورة الاستمرار في تقليب العسل في اتجاه واحد وألا أقوم بعكس اتجاه التقليب. يجب أن أفعل ذلك لمنع العسل الأسود من

الغليان. فاحت الرائحة الحادة للعسل الساخن، وازدادت كثافته مع استمرار تقليبه.

أجهدني التقليب المستمر، فما إن انتهت عواطف من غربلة السمسم حتى طلبت منها أن تحل محلي. اقتربت مني عواطف ومالت نحوي فلمس نهدها الأيسر كتفي قبل أن تتناول المغرفة من يدي. أشارت إليّ لكي أحضر كيس الحلبة المطحونة، وطلبت مني أن أضيفها إلى العسل عندما تبدأ الفقاقيع بالظهور على سطحه. أخذت عواطف تقلب العسل الممزوج بالحلبة حتى اختفت الفقاقيع مرة أخرى. استمرت في حركتها حتى تكورت حبات العرق فوق جبهتها مما زاد من لمعان بشرتها. رائحة العسل الممزوج بالحلبة اختلطت برحيق جسد عواطف، فأثارت مشاعر جامحة لم أملك القدرة على حل طلاسمها. اهتزاز نهديها مع حركة تقليب العسل أشعل في نفسي شهوة مبهمة. عندما عادت الفقاقيع للظهور، انحنت عواطف فوق الوعاء لتبعده عن النار. مشهد أردافها الملفوفة عندما مالت فوق الوعاء أطاح بما تبقى لي من رشد. أمي أقبلت علينا وهي تحمل طاسة مملوءة بزيت ووضعتها على النار وهي تخاطبني:

- ماذا حل بك؟ ولماذا تسمَّرت بمكانك هكذا؟ اذهب وأحضر لي أكياس اللوز والفول السوداني.

عندما عدت وجدت أمي تصف لعواطف كيفية تقليب الدقيق الذي

تمت إضافته إلى الزيت. التقطت أمي كيس الفول السوداني واللوز، ثم أخذت كبشتين من كل منهما وأضافتهما إلى الدقيق الذي تولت عواطف تحميره في الزيت. بعد دقائق قليلة صارت الخلطة ذهبية اللون وفاحت رائحة المكسرات المحمّصة. أضافت أمي قبضة من السمسم واستمرت عواطف في التقليب حتى أصبحت الخلطة شقراء اللون. رفعت "أم عواطف" الطاسة من فوق الموقد وأعادت حلة العسل إلى النار واستمرت في تقليبه. أمرت عواطف أن تحضر لها ملح الليمون من غرفة الخزين. قامت عواطف حافية القدمين يحتضن جلبابها الرقيق ثنايا جسدها البديع. تبعتها كالمأخوذ بتلابيبه والفاقد لإرادته، وما إن دخلت إلى غرفة الخزين حتى وثبت على ظهرها والتصقت بعجيزتها محتضنًا نهديها بكفيّ. رغبتي الجامحة دفعتني لأن ألصق جسمي النحيل بأردافها الممتلئة. خرجت من شفتيها آهات مكتومة ممتزجة بضحكة فائرة. وما هي إلا لحظات غمرتني بعدها لذة زلزلت كياني قبل أن أغيب عن الوعي.

عدت إلى وعيي فوجدت نفسي بين أحضان أمي التي أخذت تمسح رأسي وتستفسر عما حدث. عواطف شرحت أكثر من مرة أنني رافقتها لأريها مكان ملح الليمون، ولكنني فجأة وبلا مقدمات وقعت من طولي. نظرت أمي نحوي وهي تؤنبني:

- ألم أقل لك إنك لا تتناول ما يكفيك من طعام. من المؤكد أن المفتقة ستفيد جسمك النحيل الهفتان.

دخل عبد الرحيم فوجدني راقدًا بين ذراعي أمي، فعلق مستنكرًا:

– متي سيشتد عودك وتكف عن هذا الدلع؟

غمزت لي عواطف مبتسمة، فأحسستُ بالخجل من استسلامي لأحضان أمي. خلّصت نفسي من بين ذراعيها وذهبت لأحضر البرطمان الذي يحتوي على ملح الليمون. ناولت ورقة بها الملح لأم عواطف التي عادت إلى الموقد لاستكمال إعداد المفتقة. عبد الرحيم سخر مني قائلا:

– أغمى عليك يا فالح! وبالأمس عبّرت لي عن رغبتك في الالتحاق بمدرسة الطوبجية؟ طبعا في أول معركة ستتخلى عن مدفعك وتسقط من طولك. يا عبد الكريم يا حبيبي لا بد أن تلتهم نصف المفتقة التي ستعدها أمي لهذا الشتاء حتى تصبح رجلا قويًا وتكف عن هذا الدلع.

أغضبتني تعليقات أخي، "هو فاكر نفسه ميرالاي زمانه". تركته دون تعليق وعدت إلى حلة المفتقة فوجدت أمي تقوم بتسخين البرطمانات لتطهيرها قبل أن تملأها. أضافت "أم عواطف" ملح الليمون ثم خلطت العسل مع كميات من الدقيق والمكسرات المحمرة وقامت بتقليب المكونات المختلفة حتى كوّنت قوامًا متماسكًا. تركت "أم عواطف" الخلطة حتى بردت ثم أخذت تغرف منها لتملأ برطمانات مختلفة الأشكال والأحجام. أضفنا أنا وعواطف طبقة رقيقة من الزيت المخلوط

باللوز فوق سطح المفتقة قبل إحكام أغطية البرطمانات ثم حملناها إلى غرفة الخزين. ساد صمت فاتر بيننا فلم تداعبني عواطف أو تشاغبني كما اعتادت، وغمرني شعور بالذنب أقام جدارا فاصلا بيني وبينها. لقد تفتقت الصحبة البريئة التي كانت تجمعنا، ومنذئذ باعدت بيننا الأيام. لم أعاود الكرة معها على الرغم من سيطرة تلك اللحظة المحمومة على جوانحي. رائحة عواطف الممتزجة بأبخرة العسل الأسود التصقت بذاكرتي ورافقتني بقية سنوات حياتي.

***

الليل الطويل

سبتمبر، 1882

انتصف النهار واشتدت وطأة الحر فلجأت إلى الخُص المقام لضباط الأورطة لأتقي شمس الظهيرة. وجدت محمد عباس مع باقي الضباط مجتمعين والحديث يدور حول آخر المعلومات التي وصلتنا من وحدات الاستطلاع. نما إلينا من البدو المنتشرين في المنطقة أن الإنجليز لا ينوون مهاجمة قواتنا قريبا، وخاصة أنهم بحاجة لبعض الوقت لتنظيم صفوفهم بعد مواجهات القصاصين ولتوفير المزيد من الإمدادات. احتدم النقاش بين الضباط بخصوص عدم وصول آلاي البارودي باشا في الوقت المناسب لكي يحاصر

ميمنة الجيش الإنجليزي يوم القصاصين. كثر اللغط عن المجهود الجبار والدم الذي بذله عساكرنا لتثبيت قوة الإنجليز الأساسية حتى يصل آلاي البارودي باشا المخطط له أن يكيل لميمنتهم ضربة قاصمة تمكن الجيش المصري من محاصرتهم والقضاء عليهم. في صباح ذلك اليوم وبعد مسيرة ساعتين هاجمنا مواقع الإنجليز على جانبي الترعة العذبة. استمر القتال لساعات طويلة دون أن يظهر آلاي البارودي باشا الذي كان يجب أن يتحرك ليلا من الصالحية ليصل القصاصين مع أول النهار. صمدنا طول النهار، واشتبكنا مع الجيش الإنجليزي حتى كدنا أن نخترق صفوفه، ولكن للأسف لم يظهر أثر لآلاي الصالحية، فاضطررنا للانسحاب مع حلول الظلام. تقدم صفوفنا الأمامية قائد جيشنا راشد باشا حسني (أبو شنب فضة) الذي جرح في قدمه. أما اللواء علي باشا فهمي، قائد الآلاي الأول، فقد استبسل في القتال وعكف على توجيه عساكرنا حتى أصيب هو الآخر في ساقه.

أحد الضباط الموجودين حاول الدفاع عن غموض موقف البارودي باشا متعللا بأن قواته قد ضلت طريقها في الظلام. اليوزباشي عبد الله الدكروري من السرية الأولى شوّح بيده مبديًا استياءه:

– إذا ضل البارودي باشا بسبب ظلام الليل، فلماذا لم يجد

طريقه إلى القصاصين خلال ساعات النهار؟

أيّد محمد عباس هذا الرأي متعجبًا:

– كيف يمكنه أن يضل الطريق؟ الصالحية ليست بالبعيدة عن القصاصين ولو اكتفى بتتبع دويِّ طلقات الرصاص وانفجارات قذائف المدفعية لتمكن من الوصول إلى مكان المعركة.

تدخَّلت للتخفيف من حدة النقاش قائلا:

– هناك احتمال آخر وهو أنه تم تضليله.

ملازم شاب من السرية الثالثة حاول أن يشرح أسباب هذا التصرف الغريب للبارودي باشا:

– ربما لم يكن البارودي باشا واثقًا في قدرة جيشنا على هزيمة الإنجليز، وبالتالي فضّل أن يباعد بين نفسه وبين عرابي باشا. لقد اختلف الرجلان من قبل، ومحمود سامي البارودي لن يكون أول أو آخر شخص ينقلب على عرابي.

أضاف عباس بصوت تشوبه المرارة:

– آخر الشائعات تشير إلى أن الخديو قد أرسل سلطان باشا كمندوبه السامي إلى الإسماعيلية في صحبة "سيمور" و"ولسلي". ألم يكن سلطان باشا نفسه من قادة الوطنيين

ومـــن أصحاب عرابي قبل أن يختلـــف معه وينضم للخديو في الإسكندرية؟

تسرّب إلى نفسي شك لم أختبره خلال الأيام القليلة الماضية منذ أن فشل هجومنا في القصاصين، فتساءلت:

– وهل تعتقدون أن سلطان باشا سيأتي إلى الإسماعيلية برفقة الإنجليز دون أن يحاول استمالة بعض ضعاف النفوس من أهالي المنطقة أو من قواد جيشنا بالوعود والأموال.

انبرى اليوزباشي عبد اللـه للدفاع عن الضباط المصريين:

– قادة الجيش كلهم وطنيون مخلصون ولن يفرطوا أبدا في إخوانهم. التخوف الحقيقي هو إمكانية رشوة البدو المحليين أو بعض أعيان المنطقة.

الملازم الشاب عاد مرة أخرى للسؤال الأساسي:

– فبماذا تفسرون عدم انضمام آلاي البارودي إلى معركة القصاصين كما كان مخططًا له؟ وهل قرأ أي منكم فرمان الباب العالي الذي أعلن فيه عصيان عرابي باشا؟ هل سيؤثر مثل هذا المرسوم على قادتنا؟ العجيب أنني رأيته بحوزة بضعة ضباط من أورطتي! كيف تم توزيعه بيننا؟ ومن يمكنه القيام بذلك؟

استمرت المناقشات بلا جدوى كأن الضباط المجتمعين أرادوا أن يتقوا الخطر المطبق عليهم بكلامهم، أو أن يدفعوا بعيدا عنهم مصيرًا يستشعرون وطأته وينكرونه. لقد قمنا بهجوم جريء منذ يومين. تحركاتنا للأسف افتقدت إلى الدقة والإحكام، لكن لم تنقص عساكرنا الشجاعة. إصابة علي باشا فهمي وراشد باشا حسني في يوم واحد أدت بلا شك إلى تدهور معنويات رجالنا. ولم يساعد تعيين علي الروبي قومندان مريوط قائدا لجيشنا على استعادة الروح العالية لجنودنا. توجهت إلى زير قريب وملأت كوزًا من الماء شربت نصفه وسكبت الباقي فوق رأسي لأقلل من ضراوة الحر. سئمت النقاش فخرجت من الخص واستلقيت في ظل نخلة قريبة. حل بي إرهاق طاغ بسبب العمل المتواصل خلال الأيام القليلة الماضية، فاستغرقت في نوم عميقٍ ولم أشعر بعد ذلك إلا بيد عباس تهزني برفق.

- لقد تم إبلاغنا رسميا بأن الإنجليز لن يهاجمونا الليلة، لأنهم مشغولون بتنظيم مواقعهم بعدما فاجأناهم بالهجوم على القصاصين.
- لكننا جميعا نعرف ذلك من قبل.
- وصلتنا أيضا الأوامر بالسماح للعساكر أن يستريحوا، وأن يستغلوا هذه الفرصة ليروِّحوا عن أنفسهم. لقد حضر الشيخ

عبد الجواد من المنيا وتم نصب خيمة كبيرة له أسفل التل الذي أقيمت فوقه خيمة عرابي. هناك ستبدأ حلقات الذكر التي ينوي أن يقيمها الليلة ليستثير همم جنودنا ويشد من عضدهم.

الشمس انحدرت نحو المغيب ولانت قسوة الحر المستحكم. نسمة رقيقة تتردد فتحمل إلينا برودة مساء قادم، وتدفع عنا حرارة ظهيرة مدبرة. أقبل علينا الجاويش حسن ليتأكد من صحة الأومر التي تسمح براحة عساكر فصيلتنا. محمد عباس أكد الخبر ولكنه أصر على أن يبقى جنود سريته في مواقعهم وألا يغادروها. جلس عباس بجانبي متسائلا:

– متى سيهاجمنا الإنجليز؟ لقد حاولنا كسرهم في القصاصين. حاربنا بشجاعة ولكننا لم نتمكن من دحرهم. لو استطعنا احتلال الهويس لحرمنا الإنجليز من مصدر المياه الرئيسي في هذا الحر الذي لا يطاق.

أفصحت لعباس عن مخاوفي:

– نعم لقد وجهنا ضربة قوية للعدو ولكن الآن جاء دوره للرد علينا. علي باشا الروبي حضر إلى التل الكبير اليوم فقط لكي يقود جيشنا. ولكني أخشى من عدم درايته بكل تفاصيل موقفنا العسكري.

قال محمد عباس:

– إنها فرصة ذهبية للإنجليز لكي يهاجمونا، ولذلك أعتقد أنهم سيتحركون في وقت قريب، أقرب بكثير مما نتوقع.

– ما يقلقني هـو احتمال تأثر معنويـات الكثير من ضباطنا بمرسوم الباب العالي الذي أعلن فيه عصيان عرابي باشا.

أسند عباس ظهره إلى ساق النخلة وهو يحاول أن يشرح لي وجهة نظره:

– عصيان عرابي من عدمه، ما هو إلا شيء ثانوي. المهم هو كيف انتشر هذا المرسوم بين الضباط والعساكر؟

أضفت بشيء من الحماس:

– يجب تركيز كل جهودنا وألا نشتت قوانا فيما لا ينفع حتى نهزم الإنجليز ونمنعهم من التقدم نحو محروسة مصر.

تساءل عباس مرة أخرى:

– حتى الآن لا أصدق أن البارودي باشا ضل الطريق يوم القصاصين. كيف يمكنه ذلك؟ مجرد التقدم في خط مستقيم في اتجاه الجنوب كان سيؤدي به مباشرة إلى مكان المعركة. هل تعتقد بوجود خلافات بينه وبين عرابي؟

لم أفهم مصدر الشكوك التي طالما عبر عنها عباس خلال الأيام القليلة الماضية، فسألته:

– ماذا تعني؟

نظر عباس إلى السماء التي مال لونها إلى حمرة دافئة سالت من قرص الشمس الذي اتجه نحو الغروب، ثم أسهب بتلقائية لم أعهدها فيه:

– بعد مظاهرة عابدين كدت أطير فرحًا بالمكاسب التي حققها عرابي باشا وأصحابه. هذه المكاسب كانت ستؤدي بلا شك إلى تحسن أحوال الضباط المصريين والجيش المصري. منذ ذلك الوقت ازداد باطراد تدخل العرابيين في السياسة. وقد ظهر ذلك خلال أزمة يناير عندما سقطت وزارة شريف باشا، ثم في شهر أبريل حينما استغلوا أزمة الضباط الجراكسة واصطدموا مع الخديو. وزارة البارودي قادتنا إلى مواجهات مريرة بين الجيش والخديو وانتهى بنا الأمر إلى الوضع الحالي.

تعجبت من كلامه فنظرت إليه مذكِّرًا إياه بمواقفه السابقة:

– ولكنك كنت من أقوى المؤيدين للعرابيين ومن أشد المنتقدين لمواقف الخديو توفيق. ألا تذكر دفاعك المستميت عن عرابي وأصحابه عندما بدأ عبد الرحيم بالهجوم على

حكومة البارودي باشا. طالما عارضت دعوة أخي بعودة العسكر إلى الثكنات، وبأن يبتعد الضباط وقادة الجيش عن شئون السياسة.

أخفض رأسه ثم قال:

– مما لا شك فيه أن عرابي باشا هو بطل الثورة الحقيقي ويجب علينا أن نتبعه حتى النهاية. إنه يجسد إرادة الشعب المصري. لكن هل هذا يكفي؟

سكت عباس هنيهة ثم تابع كلامه:

– طوال الوقت اعتقدت أن عرابي وأصحابه هم الأمل الوحيد للتصدي لخطر التدخل الأجنبي السافر في شئون البلاد، وأن الخلاص سيأتي على أيديهم. لم أتصور أبدًا أنهم سيقودوننا إلى هذا الوضع الصعب.

– كلنا اعتقدنا أنهم سيقودننا إلى التحرر من الاستبداد.

– يبدو أن أخاك كان محقًا عندما ادعى أن السياسة مفسدة للعسكريين. عبد الرحيم طالما حاول توضيح أن انتصارات الجيش المصري منذ أيام إبراهيم باشا تحققت عندما اجتنب الجيش التدخل في شئون الحكم ومتاهات السياسة. على الرغم من اختلافي معه فإنني أقدر شجاعة أخيك وجراءة

دعوته بإبعاد ضباط الجيش عن المناصب السياسية وبضرورة قصر عملهم على المهام العسكرية. لم أكن متفقا معه في ذلك الوقت، لكن بعد كل ما حدث لا أستطيع إنكار وجاهة رأيه.

لم أصدق ما سمعته من عباس، وخاصة بعد مواقفه من أخي عند صدور قرار نقله إلى السودان:

– ولكنك لم تساند أعز أصدقائك عندما تقرر إبعاده إلى طوكر.

ظهر الأسف على وجه عباس الذي حاول الدفاع عن مواقفه السابقة:

– العناد والصلف سيطرا على أخيك، فتشدد وتمسك برأيه، ولم يستمع لنصائحي ونصائح أصحابه المقربين. أنا وغيري اعتقدنا أن نقاء قادة الحركة الوطنية سيحميهم من مفاسد السياسة.

– سلطان باشا نفسه، رئيس المجلس النيابي، اختلف مع العرابيين وانضم للخديو. وشريف باشا كذلك وقعت بينه وبين ضباط الجيش خلافات لا حصر لها.

– هناك احتمال أن يكون الصواب قد جانبنا، فمنذ أحداث

يونيه الماضي بدأت الشكوك تتسرب إلى نفسي حول الخلافات بين قادة الثورة بسبب المصالح الشخصية التي يصبون إليها. أكيد سمعت الشائعات التي كانت تشير إلى تطلع البارودي باشا إلى الجلوس على عرش البلاد بعد التخلص من الخديو.

علقت معبرًا عن مخاوفي:

- إن هذا التنازع والانقسام بين صفوف قادتنا قد أضعفا موقفنا، وقد يعرضانا الآن لما لا تحمد عقباه. كلما أطلت النظر في حالنا تأكد لي بُعد نظر عبد الرحيم وازداد سخطي على الظلم الذي وقع عليه. ولكني في نفس الوقت يملأني الغضب من عناده وإصراره على توجيه النقد المباشر لعرابي باشا ولحكومة البارودي. من هو حتى يفعل ذلك؟

قام عباس وأشار في اتجاه خيمة عرابي قائلا:

- دعك من هذا الكلام الذي لا يقدم أو يؤخر. من المؤكد أن وضع أخيك في السودان أفضل بكثير من حالنا هنا. لا أحد يعرف من منا سيبقى حيًّا حتى الغد؟ على أية حال فلنذهب إلى خيمة الشيخ عبد الجواد لكي نشارك في حلقات الذكر.

في طريقنا إلى خيمة الشيخ مررنا بعدد من السرايا والفصائل التي انشغل أفرادها بتحضير عشائهم أو جلسوا يتسامرون ويتضاحكون.

اقتربنا من الربوة التي نصبت فوقها خيمة عرابي فرأينا في ضوء الشفق فخامة الخيمة المصنوعة من القطيفة الحمراء المزركشة بالمشغولات الذهبية وقد أحاط بالخيمة الخدم والحراس. هي نفس الخيمة التي نصبت لسعيد باشا بمناسبة احتفالات بدء حفر قناة السويس. لم أفهم حاجة عرابي للإقامة في مثل هذه الأبهة بينما نعيش لحظة أبعد ما تكون عن الأجواء الاحتفالية. علق محمد عباس على المشهد الذي أطل علينا:

– في عز هذه "المعمعة"، لماذا يقيم عرابي باشا في هذه الحالة من الترف؟ مثل هذه التصرفات تقلقني وتزيد من شكوكي.

لاحت أمامنا على بعد مسافة قصيرة خيمة هائلة بيضاء اللون. أسرعت الخطى وأنا أشجع رفيقي:

– أسرعْ يا يوزباشي عباس حتى نلحق بصلاة العشاء في حضرة الشيخ عبد الجواد. لو تأخرنا قد لا نجد لنا مكانا قريبا من الشيخ.

***

ما إن انتهت صلاة العشاء حتى بدأ الشيخ عبد الجواد بالدعاء

لفترة قصيرة أتبعها بحلقة ذكر ضمت مريديه في المقدمة وخلفهم أعداد من الضباط والجنود لتمتلئ الخيمة بالذاكرين، فإذ هي شبكة من التواصل الروحاني تأسر ألباب الحاضرين، وتلهم عساكرنا حب الشهادة. بعد انتهاء الصلاة وقفت بجوار محمد عباس استعدادا لبدء حلقة الذكر. جلس الشيخ عبد الجواد على ركبتيه وظهره للقبلة مواجهًا أتباعه ثم أغمض عينيه. تبعه مريدوه وبدأوا يرددون ما ينشده في تمهل وعدم إفراط في التمايل أو رفع الصوت. طلب الشيخ من الحاضرين الاستغفار مرددا:

- أستغفر اللـه العظيم، أستغفر اللـه العظيم.

فاستغفرالجميع سرا. ثم حض الشيخ الحاضرين على ملازمة اليقظة والحضور، لأن ذلك يوصل القلب والمخيلة بحب اللـه ورسوله، ودعا الناس إلى قراءة الفاتحة فبدأوا يتلونها سرًا. عند انتهائهم جهر الشيخ بالصلاة على النبي:

- اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ونبيك ورسولك وحبيبك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم. فلنبدأ إن شاء اللـه بألم نشرح لك والإخلاص...

بدأ أتباعه ومعهم الضباط والعساكر بتلاوة سورة الانشراح سرا ثم تبعوها بتكرار سورة الإخلاص عشرا، وبعد انتهائهم جهر الشيخ بحمد للـه رب العالمين ثم أذن لأحد أتباعه بتلاوة بضع آيات

من الذكر الحكيم. بعد أن انتهى صاحبه المأذون له بالتلاوة، وقف الشيخ وتبعه أتباعه والحاضرون ثم أنشد ثلاثا بصوت أجش:

- على أكمل العالمين سيدنا محمد صلوات.

فيرد عليه أصحابه:

"اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاة أهل السموات والأرضين عليه عدد ما عندك من العدد في كل لمحة عين ونفس من الأزل إلى الأبد. الحمد للـه الذي أنعم علينا بنبينا محمد صلى اللـه عليه وسلم".

الصلوات على النبي أنزلت السكينة على فؤادي، وبعثَتْ في نفسي إحساسًا بالبأس والشدة. وقف جميع مريديه كبنيان خاشع لحضرة الشيخ عبد الجواد. ساد الصمت لوهلة حتى تدخل صاحب الشيخ المأذون له بتلاوة القرآن:

- أعوذ باللـه من الشيطان الرجيم، بسم اللـه الرحمن الرحيم ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

وتبع قراءته بآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيما﴾. بدأ الحائط الأبيض الممتد

أمامي بالتمايل في حركة متناسقة لا نشاز فيها أو خلط. بأصوات خاشعة ردد الجميع جهرا وهم يتمايلون بتمهل وتناغم:

"اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد بعدد كل داء ودواء وبارك وسلم عليه وعليهم كثيرا".

تقـــدم أحـــد أتباع الشـــيخ فخرج عـــن الصف وهـــو يرد على المنشدين:

– بنيّة الشفاء ورفع البلاء عنا وعنكم وعن إخواننا المسلمين.

ثم طالب الجميع بتلاوة الفاتحة والدعاء للجيش المصري بالنصر المبين ودفع المعتدين الغاشمين. بعد فترة من الدعاء سرا، فاض حماس الحاضرين فاشتعلت الوجوه بنشوة النصر الوشيك، وأكثر الذاكرون من التمايل وهم يرددون مرارًا وتكرارًا:

"أستغفر اللــه العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه توبة عبد ظالم لنفسه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا".

ثم عطف المنشدون إلى الصلاة على النبي بتكرار الصلوات على النبي. مرة أخرى تقدم المأذون له بالتلاوة وهو ينشد ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾. ثم أضاف "أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما

تنالوا جنة ونعيما. اللـه يجزي من يصلي مرة عشرا ويبقى في النعيم مقيمًا". علا صوت الجميع بفاصل من الاستغاثات الربانية والمدائح النبوية، يقتطف فيه المداحون ما لذ وطاب. فأنشد المنشدون:

"أرسل اللـه إلينا في الكرامات العظام

أرسل اللـه إلينا في الكرامات العظام أحمد

أحمد المختار، طه بين الرسل الكرام

فتهنوا يا رفاقي نلتموا كل المرام

بالذي قد جاءكم يدعو إلى دار السلام

قالت أقمار الدياجي قل لأرباب الغرام

كل من يعشق محمدًا في سلام وأمان

كل من يعشق محمدًا ينبغي ألا ينام".

شعرت بروحي تحلق حول الخيمة وأحسست بأنني أتحد وجدانيا مع كل الحاضرين فأخذت أتمايل وأنا أردد الأناشيد مع المنشدين. صرت ألمح عباس كلما ملت برأسي نحوه فأجده قد تصلب مكانه مطأطأ الرأس يحاول أن ينفصل عما يدور حوله. الحماس طغى على المنشدين الذين عرجوا إلى ذكر الجهاد:

"إن الجهـاد أكـبر المعـين

عليـه تنبني أمـور الديـن

تبـاع فيه النفس دون ريب

بلـذة عظيمـة فـي القلـب".

حمى وطيس الإنشاد والمديح، وتداخلت أهاجيز الجهاد مع المدائح النبوية. أخذ الجميع يكررون الصلاة والسلام على النبي، ثم هدأ الجميع فجأة ووقف الذاكرون كهيئتهم في الصلاة، وافتتح الشيخ عبد الجواد بـ"فاعلم أنه: لا إله إلا اللـه" فكرر أتباعه الذكر معه مئات المرات، يتمايلون يمينا وشمالا كأعواد القمح في غيط تداعبه نسمة رقيقة. جلس شيخنا فتبعه مريدون والحاضرون، وامتدت جلسته الصامتة لعدة دقائق ثم وقف الجميع وتقدم المأذون خطوة طالبا من الحاضرين أن يتلوا الفاتحة:

- إلى حضرة سيدنا رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم الفاتحة. إلى حضرة شيخنا ومربينا الفاتحة. إلى حضرة جميع الأنبياء والمرسلين والأولياء والعلماء والشهداء والصالحين ووالدينا ومن له حق علينا وأمواتنا وأموات المسلمين وأمة سيدنا محمد أجمعين: الفاتحة.

انتظر قليلا حتى انتهى الجميع من تلاوة الفاتحة ثم اختتم الجلسة بالدعاء:

"بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم أصلح أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

اللهم فرّج عن أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

اللهم استر أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

اللهم اجبر كسر أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

اللهم ارفع الكرب والشدائد عن أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

اللهم إنا نعوذ بك من الهم والحزن، ونعوذ بك من العجز والكسل، ونعوذ بك من الجبن والبخل، ونعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال.

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وألهمنا اجتنابه.

اللهم انصر المسلمين، اللهم انصر المسلمين، اللهم انصر المسلمين،

اللهم انصر المسلمين، واكسر الكافرين، أعداءك أعداء الدين".

أشار الشيخ لمريديه فاصطفوا في تشكيلات عجبت لهيئتها الحربية

الواضحة. بخطوات عسكرية سليمة تدفقوا خارج الخيمة ثم اتجه كل طابور منهم إلى إحدى الرايات المثبتة في محيط المكان فرفعوها وهم يلوِّحون بها. أقبل عليهم جمع من مريدي الشيخ يحملون صناديق خشبية ملفوفة بأقمشة خضراء كتبت عليها آيات قرآنية. اقترب الشيخ عبد الجواد من الصندوق الأول وأحاط به أتباعه وهم يحملون المشاعل والرايات. رفع الشيخ غطاء الصندوق ومد يده فأخرج سيوفا صار يوزِّعها على مريديه وسط تكبير الجميع. تفرقت صفوف مريدي الشيخ كل صف منهم ذهب في اتجاه فرقة من فرق الجيش. سرنا وراء أرباب الطرق المتجهين نحو مواقع أورطتنا، ملأني إنشادهم براحة لم أهنأ بها منذ أن غادرنا ثكنات العباسية. فجأة أخذ أتباع الشيخ عبد الجواد يلوِّحون بسيوفهم في الهواء كأنهم يقاتلون عدوًا خفيًا ثم تنتاب الواحد منهم نوبة من الهياج فيصيح بعلو صوته:

- لقد هجمت بمدد من السماء على فرقة من الكفار الغاشمين وأعملت فيهم القتل فقضيت على أربعين منهم أو أكثر.

يتبعه آخر وهو يقفز في الهواء ويركض حولنا في مسارات دائرية، ثم يقف فجأة ويلوِّح بسيفه معلنا من خلال أنفاسه المتقطِّعة أنه قتل تسعين من أعتى فرسان الإنجليز. أمسكت بذراع عباس الذي أسرع الخطى ليبتعد عنهم. ضوء المشاعل انعكس على وجهه فظهرت عليه مسحة أسى وغمغم قائلا:

- ماذا تراهم يفعلون؟ وهل يمكننا أن نحقق النصر بهذه الطريقة؟ عدونا ليس بالهين، فكيف يقضي جيشنا ليلة بأكملها مشغولا بمثل هذه الطقوس والاحتفالات؟

- لا تقلـــق، فالإنجليـــز لـــن يهاجمونـــا الليلة. هـــذه فرصة يا أخي لكي يروِّح عســـاكرنا عن أنفسهم، وأن يشحذ الشيخ عبد الجواد هممهم بذكر اللـه.

مررنا على إحدى الطوابي التي تمركزت بها كتيبة للطوبجية، فاقترب حاملو الرايات من مدفع "كروب" وقام أحدهم بتثبيت علمه فوق المدفع معلنًا أن هذا هو مدفع السيد البدوي، وتقدم آخر إلى المدفع المجاور له وثبت رايته معلنًا أنه مدفع سيدي إبراهيم الدسوقي، وأضاف وهو يلوّح بيديه في الهواء بأنه رأى، إنشاء اللـه، مدافعنا هذه وهي تصب الحمم على مواقع الإنجليز فتنسفها نسفًا وتقتل أورطة كاملة من الإنجليز وتبعثر عساكرهم. أحاط الطوبجية بالمشايخ وكثر التهليل والتكبير، بالمقابل ابتهج أرباب الشيخ لحماس الجنود فصاروا يكررون الدعاء:

"اللهم انصر المسلمين، واكسر الكافرين،

أعداءك أعداء الدين، يا ذا القوة المتين".

تخلفت فرقة من أتباع الشيخ مع الطوبجية فأقاموا حلقة ذكر خاصة بهذه الوحدة، بينما أكمل بقيتهم المسير في اتجاه وحدتنا

والوحدات التي تليها. أسرعنا الخطى خلف باقي أتباع الشيخ عبد الجواد مبتعدين عن الطابية، بينما أخذت أصوات المنشدين تلاحقتنا بأبيات المديح:

"يا أيها النبي والكوكب الدري، أنت إمام الحضرة وسلطانها الغيبي

يا من يراني ولا أراه انظر بعين الرضا لحالي

يا أيها النبي والكوكب الدري، أنت إمام الحضرة وسلطانها الغيبي

اغفر ذنوبي واستر عيوبي واكشف كروبي وأصلح لي حالي

يا أيها النبي والكوكب الدري أنت إمام الحضرة وسلطانها الغيبي".

ما إن وصلنا إلى موقع أورطتنا حتى بدأ أتباع الشيخ في إعمال سيوفهم في الهواء، ثم يعلنون مقتل مئات الكفار من الإنجليز. انضم إليهم جنودنا وهم يكبرون ثم بدأ الجميع بالذكر. شاهدت عباس وهو ينسحب إلى ركن بعيد ثم أقعى في خندق جاف يخفيه عن الضوء المنبعث من المشاعل. ذهبت إليه وقلت له مداعبًا:

– إذا لم يعجبك ما يحدث فلتأمر جنودك بالانصراف إلى مواقعهم.

رد بثقة:

- جنودي هم خير أجناد الأرض! وأنا أثق ثقة كاملة في قدراتهم وشجاعتهم، ولكنهم يحتاجون للترويح عن أنفسهم فكيف آمرهم بالانصراف؟ ألا ترى مدى إيمانهم ببركات الشيخ عبد الجواد وبقدرته على شحذ مدد السماء ليحارب معهم ضد الإنجليز؟ كيف أحرمهم هذا الأمل؟ وبما أننا لا نتوقع هجوم العدو الليلة فلا داعي للقلق.

نظرت إلى الأفق الممتد حولنا وسرعان ما انتشرت المشاعل حتى أنارت جميع مواقعنا على طول الجبهة، وملأت أصوات المنشدين السماء، بينما دارت حلقات الذكر بلا كلل حتى ساعة متأخرة من الليل.

***

التل الكبير

سبتمبر، 1882

أويت إلى خيمتي بعد أن خفتت أصوات المنشدين وهدأت حلقات الذكر. شغلني وضع قواتنا خاصة أن مواقعنا بالتل الكبير ليست على المستوى المطلوب من التحصين. معارك الأسابيع الماضية أثبتت أننا أقدر على التعامل مع العدو عندما تصبح استحكاماتنا محصنة تحصينا جيدا كما هي الحال في كفر الدوار. على الجانب الآخر فإن الإقدام على مواجهة الإنجليز فوق أرض مفتوحة ما هو إلا مغامرة غير مضمونة العواقب، والدليل على ذلك ما حدث في المحسمة والقصاصين. مجهود عظيم بذل لتحصين استحكامات

دمياط وكفر الدوار، ولكن للأسف مواقع التل الكبير لم تحظ بنفس الاهتمام. عامل الوقت أصبح غاية في الخطورة، حتى صرنا نسابق الزمن من أجل تحسين مستوى تحصيناتنا. خطوط الدفاع تمتد لعدة أميال شمالا من شريط السكة الحديد الموازي لترعة الإسماعيلية. على كل جانب من جانبي الترعة توجد طابية مسلحة بثلاثة مدافع. وتشكل هاتان الطابيتان نقطتين حصينتين للدفاع عن محطة السكك الحديدية والمعسكر الرئيسي للجيش الذي يقع خلف خطوطنا الأمامية. على الشاطئ الجنوبي لترعة الإسماعيلية في الاتجاه المقابل لمعسكر الجيش توجد محطة السكة الحديد والطريق المؤدي إلى قرية التل الكبير.

خط الدفاع الرئيسي يتكون من خندق بعرض ست إلى تسع أقدام، على هذا الخط توجد طابيتان تفصلان بين قلب الجيش وكل من ميمنته وميسرته. سلحت الطابيتان بعدد من مدافع "كروب" وهما بذلك تشكلان نقطتي الارتكاز الأساسيتين للدفاع عن قواتنا المتمركزة في الخنادق الأمامية. وتضاف إليهما طابية غير مكتملة عند أقصى شمال الخندق الرئيسي. خلف هذا الخط الرئيسي حفرت صفوف متوالية من الخنادق الجافة، عرض كل منها ست إلى تسع أقدام وعمقها يساوي تقريبا طول قامة رجل متوسط الطول. يتكون خط الدفاع الثاني لقواتنا من هذه الخنادق، لكن للأسف معظمها أقيم على عجل، وعددها الحالي لا يكفي الأنفار المطلوبين

لصد أي هجوم كبير من جانب الإنجليز. إذا لم نعمل بجد لتقوية تحصيناتنا خلال الأيام القليلة القادمة فإن وضعنا سيكون حرجا للغاية. زاد من تشاؤمي أن علي باشا الروبي لم يصل إلا اليوم فقط لقيادة جيشنا، وهو بالتالي لا يملك كل المعلومات عن مواقع قواتنا، وأشك أنه سيتمكن من وضع الخطط الضرورية في الوقت المناسب. على الجانب الآخر أجدني مطمئنًا لموقع معسكر جيشنا المتميز جغرافيا، وذلك لوجوده أعلى هضبة ترتفع نحو ثلاثين ياردة وتنحدر بالتدريج نحو مواقع الإنجليز. وجودنا على أرض مرتفعة يعطينا بلا شك اليد العليا عند الاشتباك مع العدو. ميزة أخرى هي أن أراضي الدلتا التي تغطيها مياه الفيضان تقع خلفنا مباشرة، وهي تشكل عائقا طبيعيا، وذلك لانتشار التلال والأكمة فوقها، مما يمكننا من استغلالها لمقاومة أي تقدم لعسكر الإنجليز. أورطتنا تمركزت عند خط الدفاع الثاني خلف الطابية الجنوبية شمالي شريط السكة الحديد بالقرب من الأورطة السودانية التي يقودها الميرالاي محمد عبيد.

شغلتني مخاوفي فلم أستطع النوم، خرجت من خيمتي التي ضقت بها أقصد الراحة في رحابة الكون الذي يحيط بنا، وأحسست بالجلال الذي يضيفه صمت الصحراء الممتدة أمامي. عند خروجي من الخيمة وجدت الجاويش حسن جالسًا أمام النار يعد الشاي في كوز نحاسي. اقتربت منه فدعاني لمشاركته شرابه. قعدت بجانبه

وأنا أداعبه:

– لماذا لا تأخذ قسطًا من الراحة؟ أليست لديك أعمال تقوم بها صباح الغد؟

– كانت ليلة طويلة وقد انتعشت روحي بحلقات الذكر وأناشيد الصوفية. أكره أن يسلبني النوم هذه الراحة التي أنعم بها الآن.

حاولت أن أحثه على الراحة:

– نحن نحتاج إلى الراحة لأننا سنخوض بالتاكيد معارك عنيفة ضد الإنجليز خلال الأيام القليلة القادمة.

قلب حسن جمرات النار بفرع جاف، ثم رفع رأسه فانعكس ضوء النار على بشرته السمراء، مما زاد من لمعان عينيه وهو يزهو بشجاعة اخوانه من عساكر الفصيلة:

– لقد أوقعنا بهم خسائر كبيرة في القصاصين. جنودهم ليسوا بأشد منا أو أقوى من عساكرنا، وإن شاء الله سنتمكن من هزيمتهم في أي معركة قادمة.

ناولني كوز الشاي فابتلعت رشفة منه وأنا أضيف:

– لن يتمكنوا منا مهما حاولوا. كن واثقًا من ذلك.

نظر إلى الظلمة المحيطة بنا كأنه يحاول أن يخترق الحجب، ثم قال:

– أهم شيء أن أعود لعيالي. لو وقع لي مكروه لا أدري ما سيحل بهم من بعدي.

تساءلت:

– أنت من أي بلد يا حسن؟

رد وابتسامة عريضة تحتل وجهه:

– أنا من "الفشن". هل تعرفها؟ إنها قرية فقيرة من قرى مديرية المنيا. تعرف يا فندم لقد كنت سعيدًا سعادة غامرة عندما طلبوني للجهادية على عكس معظم أقراني من أهل بلدتي. اعتبرتها فرصة للهروب من غلب وفقر "الفشن". ومع مرور الوقت اكتشفت أن الحياة العسكرية تناسبني، فالتحقت بالجيش كعسكري نظامي. وبعد أن استقرت بي الحال في الجيش تزوجت ابنة خالتي. أم العيال ملأت عليّ الدنيا ومنحتني ثلاثة أولاد وبنتًا.

حاولتُ أن أخفف من قلقه بالكلام عن أحوالي الشخصية:

– تعرف يا حسن، أنا ليست لديّ زوجة أو أبناء.

ابتسم وهو يرد:

– هذه هي حالكم يا أبناء القاهرة، لا تدخلون دنيا إلا في سن متأخرة جدًا.

استطردت مضيفًا المزيد من التفاصيل عن حياتي:

– في القاهرة ليس لديّ إلا أبي وأمي وأختي الصغرى. أخي الأكبر عبد الرحيم تم إبعاده إلى السودان منذ أربعة شهور.

فاجأني بعلمه ببعض تفاصيل إبعاد عبد الرحيم إلى السودان:

– لقد سمعت حكاية اليوزباشي عبد الرحيم صبري من ضباط السرية. هل صحيح أنه عارض تولي كل من عرابي باشا والبارودي باشا للوزارة؟ هل كان مساندًا للخديو وأعوانه؟

تعجبت من سؤاله الأخير فأجبته:

– لا لم يساند الخديو، لكن عبد الرحيم حاول أن يقنع ضباط أورطته بأن شرف العسكرية يلزم قادة الجيش بالبقاء في ثكناتهم وليس في مقاعد الحكم الوثيرة.

أراد أن يجاملني فعلق حسن على ما قلته:

– هل شاهدت مدى فخامة خيمة سعيد باشا التي نصبوها ليقيم فيها عرابي أعلى التبة؟

أطرق حسن لمدة طالت ثم نظر إليّ وقال:

– قد يكون أخوك عبد الرحيم على حق.

تقدم الليل وشارف الفجر على البزوغ، أحسست بلسعة هواء باردة. غلبني التعب فتركت الجاويش حسن وعدت إلى خيمتي. ما إن استلقيت على فرشتي حتى كنت أغط في نوم عميق.

***

استيقظت على صوت طلقات متفرقة تبعها نفير "نوبة الصحيان". أسرعت بالخروج من خيمتي وسط هرج ومرج عظيمين. في ضوء الشفق المتسلل رأيت عساكرنا في الخطوط الأمامية تطلق نيرانا كثيفة تجاه جحافل الجيش البريطاني التي أضحت على بعد مائة ياردة أو أقل من الخندق الرئيسي. وصلت إلى سمعي أصوات موسيقى القِرب التي اشتهر بها الحرس الأسكتلندي الرهيب. بحثت عن الجاويش حسن، الذي كان يغط بدوره في نوم عميق. صرخت فيه بأعلى صوتي لكي يستيقظ. استفسرت منه عن كيفية وصول الإنجليز إلى هذه المسافة القريبة من خطوطنا دون أن يشعر بهم أحد؟

بسرعة تجمع رجالي حولي ونهض الجاويش حسن وهو لا يدري ما أصابنا. على الفور أمرت جنودي باحتلال خنادقهم،

وطلبت من حسن الإسراع بإمدادهم بالذخائر اللازمة. الأورطة السودانية على يميننا نجحت في إطلاق موجات متتالية من النيران المحكمة في وجه قوات العدو المتقدمة نحونا. من موقعي استطعت أن أرى عشرات من عساكر الحرس الأسكتلندي وهم يتساقطون تحت الضربات المتتالية لجنود الأورطة السودانية. سمعت صوت محمد عباس وهو ينتقل من موقع إلى آخر في محاولة لتنظيم فصائل سريتنا:

– ملازم عبد الكريم حافظ على خطوطك، ودافع عنها بكل ما تملك من قوة. أحييك على تنظيم قواتك بهذه السرعة. لا أصدق ما حدث لنا! الكثير من ضباط الفصائل كانوا نائمين عندما بدأ الهجوم، وبعضهم لم يوجد حتى بالقرب من عساكرهم. لا أدري أين ذهبوا!

أبديت الدهشة متسائلا:

– من أشاع المعلومات المضللة بأن العدو لن يهاجمنا الليلة؟ أين ذهبت الوحدات المتقدمة من آلاي علي بك يوسف وأورطة السواري المنوط بها استطلاع الخطوط الأمامية للإنجليز؟ هل ناموا هم أيضا؟

الأورطة السودانية أمامنا استمرت في الاشتباك مع وحدات العدو التي حاولت أن تتجمّع مرة أخرى حتى تعيد الكرة. على

عجل انطلق الطوبجية إلى مدافعهم وبدأوا بتوجيه نيرانهم نحو صفوف الأعداء. وتبع ذلك اشتعال القتال على طول خط المواجهة. قبل أن ينتقل عباس إلى الخنادق المجاورة صاح بصوت مرتفع:

- لحسن طالعنا أن قائد الآلاي أحمد بك فرج يقود قواتنا بالقرب منا، ومحمد بك عبيد موجود في الخنادق الأمامية مع عساكره.

أحد جنود فصيلتي اقترب مني وأخبرني أن بعض جنود ميسرة جيشنا قد انسحبوا نحو مواقعنا، وأنهم يصفون أحوال ميسرتنا الكارثية، حيث لا وجود لمعظم قادة السرايا والفصائل. يقال إن عساكرنا هناك تتعامل مع العدو كل حسب مقدرته دون تنسيق أو تعاون. مدافع الطابية القريبة من مواقعنا بدأت تحكم نيرانها مما كبد العدو بعض الخسائر، وأشاع ذلك فينا شيئًا من الثقة في قدرة دفاعاتنا على الصمود. استمر هذا الوضع لمدة وجيزة حتى استغل الإنجليز حالة الهرج واضطراب قواتنا الموجودة في القلب، فشن جنودهم ذوو القمصان الحمراء هجومًا رهيبًا. رأيناهم على مسافة منا يحتلون جزءًا من الخندق الأمامي على يسار مواقعنا. أتبعوا ذلك بدفع بطاريتين من مدافعهم إلى النقطة التي احتلوها ثم بدأوا بتوجيه نيرانًا عرضية على قواتنا القابعة في الخندق الأمامي، والذي بات مكشوفًا على طول مرمى مدفعيتهم. أثار هذا الضرب فزع العساكر المتمركزين في الخنادق الأمامية التى تقع على يسارنا، فأخلوا

مواقعهم وبدأوا بالانسحاب بشكل عشوائي. زاد من البلاء غياب معظم الضباط الذين قضوا ليلتهم حول خيمة الشيخ عبد الجواد.

عويل مزامير القرب الأسكتلندية أعلن بدء موجة هجوم ثانية وبعدها ثالثة. تحت ضغط هجمات الحرس الأسكتلندي انسحب عساكر الأورطة السودانية وانضموا إلينا ليحتموا معنا بخنادق خط الدفاع الثاني. عسكري سوداني قفز داخل حفرتنا ثم مد يده ليستعيد طربوشه الذي سقط على حافة الخندق. عسكري آخر كاد أن يسقط فوقي عندما قفز في خندقنا. أصدرت أوامري بإطلاق النيران على قوات العدو المتقدمة نحونا، وعلى عساكر الحرس الأسكتلندي الذين تجاوزوا الخندق الأمامي وصاروا مواجهين لنا. أنفار فصيلتي وحدوا طلقات نيرانهم مع ضربات عساكر الأورطة السودانية مما أوقف تقدم جنود العدو. في خضم هذا الموقف المحتدم اقترب مني الجاويش حسن، وقد اضطربت قسمات وجهه كاشفة عما يعتمل داخله من خوف ورهبة. سألته:

– ما بك؟ ماذا حدث؟

رد بصوت أجش:

– الأخبار تنتشر من سرية إلى أخرى أن ميسرة جيشنا قد انهارت بعد أن حاصرها فرسان سواري الإنجليز بمصاحبة الخيّالة البنجالية. المصيبة الكبرى أن عرابي باشا قد شوهد

على حصانه وهو يفر من المعركة.

لم أصدق ما قاله حسن. فصرخت فيه:

- لا تصدق هذا الكلام! هذه شائعات مغرضة للحط من عزيمتنا. أنت ترى بنفسك أن عساكرنا في هذا القطاع قد كبدوا العدو خسائر كبيرة، ولن نسمح لهم بالتقدم إلا فوق جثثنا. حتى إذا انتصروا علينا اليوم فلا بد أن نصمد لأطول وقت ممكن، وأن نقضي على أكبر عدد ممكن من قواتهم حتى نعرقل تقدمهم ونفسد أي هجوم مستقبلي على القاهرة.

أشار حسن بيده في اتجاه المواقع الشمالية وهو يحاول أن يؤكد الأخبار المشئومة التي حملها لي:

- أنصت! لم نعد نسمع صوت طلقات المدافع أو البنادق من ناحية ميسرة جيشنا.

لم أعد أحتمل سماع مثل هذه الأنباء. طلبت من حسن ألا يلقى بالا لمثل هذه الشائعات، وأن يواصل المرور على خنادق فصيلتنا ليتأكد من استمرار حصول جنودنا على ما يكفي من الذخائر، وأن يشرف بنفسه علي نقل جرحانا إلى الخطوط الخلفية. وأضفت تعليماتي بأن يفعل نفس الشيء مع عساكر آلاي محمد عبيد الذين انسحبوا من الخندق الأمامي وانضموا إلى خطوطنا. عدت إلى

موقعي لأقود جنود فصيلتي الذين ازدحم بهم الخندق بمن انضم إليهم من العساكر السودانية. أخذت أوجه نيرانهم نحو خطوط الإنجليز الأمامية محاولا أن أوقف تقدم قوات العدو.

هذا الموقف الحرج استنفر حواسي فركزت على تحركات عساكر الإنجليز لأدفع أي هجوم قد يأتينا من جهة غير متوقعة. لم يكن أمامي إلا أن أصمد لأطول فترة ممكنة. تمكنت مني هواجس مخيفة عندما أيقنت أن أصوات بطاريات مدافعنا في القطاع الشمالي من الجبهة قد صمتت تماما، وأدركت أن رايتنا الحمراء أعلى الطوابي القريبة منا قد تم إنزالها. حتى كثافة نيران البنادق المسموعة من ناحية ميسرة جيشنا انخفضت بدرجة كبيرة هي الأخرى. طرحت مخاوفي جانبًا وحاولت قدر طاقتي أن أحافظ على تماسك فصيلتي التي بدأت تحظى بنصيب أعظم من نيران العدو. أبلى عساكري بلاء حسنا وانصهروا مع عساكر الأورطة السودانية الذين أظهروا شجاعة منقطعة النظير. الإصابات التي منيت بها قواتي زادت زيادة كبيرة مع استمرار تقدم جنود العدو. عويل القرب الأسكتلندية لا يقطعه إلا أزيز القذائف المتساقطة علينا من كل جانب. أضف إلى ذلك مدفعهم الضخم المقام على كساح السكة الحديد الذي بدأ يطلق نيرانه علينا من الناحية الجنوبية لمواقعنا. رأيت محمد عباس قادمًا من ناحية القنطرة المقامة على الترعة الحلوة عند محطة السكة الحديد. كان يتبعه بضعة عساكر يمشون بخطوات متثاقلة.

قفزت خارج الخندق تاركا موقعي للجاويش حسن، وأسرعت نحو محمد عباس لأعرف منه موقف باقي فصائل سريتنا، ما إن رآني حتى أغرب بوجهه بعيدًا عني. ناديته مشيرًا له بذراعي لينتبه لوجودي:

– يوزباشي محمد عباس! أريد أن أتحدث إليك.

التقيت عباس في منتصف المسافة التي تفصل بيننا. توقف في مكانه عندما صرت على بعد خطوات قليلة منه. أمر عساكره بالتقدم إلى خنادقهم وانتظرني حتى اقتربت منه ثم تنحى بي داخل حفرة ضحلة وأقعى بداخلها ليتقي الرصاص المتطاير من حولنا. ما إن تأكد من أمان موقعنا حتى بادرني بالمزيد من الأخبار السيئة:

– أمرني أحمد بك فرج بأن أقود بضعة جنود من سريتنا إلى قنطرة التل الكبير عند محطة السكك الحديدية لكي أقوم بتأمينها. أسرعت إلى هناك فوجدت الخيالة البنجالية برماحهم الطويلة وسواري الفرسان الإنجليزية قد سبقونا، وأنهم قطعوا طريق انسحاب قواتنا نحو التل الكبير. لقد احتلوا الطابيتين الواقعتين على جانبي الترعة، وأصبح من المستحيل زحزحتهم عن مواقعهم هناك.

– ولكن ما موقف قواتنا في باقي القطاعات؟

أمسك عباس بذراعي ثم جذبني نحوه وهمس:

- عند القنطرة وجدت أعدادًا كبيرة من جثث جنودنا الذين قتلوا وهم يحاولون الانسحاب في اتجاه التل الكبير. الباقين على قيد الحياة تفرقوا، فذهب من ذهب منهم في اتجاه الشمال نحو الصالحية والآخرين فروا غربًا عبر الصحراء محاولين الرجوع إلى قراهم في أعماق الدلتا. ما يؤكد الكارثة هو عبور عرابي باشا القنطرة في اللحظات الأولى من المعركة. يبدو أن ميسرة الجيش وقلبه قد انهارا منذ اللحظات الأولى للهجوم، وأن الجزء الوحيد من الجيش الذي استمر في القتال هو قطاعنا حيث يتمركز الآلاي الأول بجانب القوات السودانية بقيادة محمد بك عبيد.

لم أطق ما أسمع من أنباء مفزعة فسكت لحظات ثم غمغمت متسائلا:

- ماذا تعني؟

أجاب بأسى:

- يبدو أننا قد خسرنا المعركة. معظم قادة الجيش تخلوا عنا منذ اللحظات الأولى للهجوم، ماذا يمكننا أن نفعل الآن؟

لم أشأ أن أستسلم لليأس بهذه السهولة، فأجبته:

- لا بد أن عرابي باشا أسرع إلى القاهرة ليعيد تنظيم قواتنا الموجودة هناك لكي يستطيع الدفاع عن عاصمة البلاد. من واجبنا أن نصمد هنا لأطول فترة ممكنة حتى نتيح له الفرصة لكي يجهز الاستحكمات حول المحروسة.

الهواء حولنا تشبّع برائحة ثقيلة، وصرخات الجرحى خنقت عزيمتي. أجابني عباس بصوت تشوبه مرارة وبه لمسة تهكم لم أعهدها فيه:

- أي عاصمة محروسة تقصد؟ خلاص الحرب انتهت، وحركة الوطنيين من أنصار عرابي ستسحق، ومن المؤكد أن مجلس النواب سيتم حله هو الآخر. أهلا ومرحبا بأسوأ عهود الاستبداد. لقد انهزمنا هزيمة فاحشة!

طلقات النيران لم تتوقف، جنودنا ظلوا متشبثين بمواقعهم، وقد ردوا أكثر من هجوم شنه عساكر الإنجليز على خنادقنا من الجهتين الشرقية والشمالية في آن واحد. أظهر جنودنا شجاعة منقطعة النظير وبأسا لا مثيل له في وجه هذه الظروف القاهرة.

تقدم نحونا أحد ضباط الأورطة السودانية ثم ما لبث أن وثب داخل حفرتنا وأخبرنا بنبأ استشهاد محمد بك عبيد، وهو يقاتل في الخطوط الأمامية وسط جنوده. لم أعد أعرف ما يجب علينا فعله. نظرت إلى عباس الذي ترقرقت الدموع في عينيه ثم دفن وجهه بين

كفّيه وبدأ يبكي. اللحظة طالت والزمن صمت، لم أعد قادرًا على استيعاب كل ما يدور حولنا. الهزيمة أصبحت تحيط بنا وتخنقنا، تحكم الحصار حولنا فلا يمكننا الفرار من قبضتها. أمسكتُ بكتف محمد عباس وأنا أردد:

– لن نستسلم! وسنحارب. سنحارب!

خلع ضابط الأورطة السودانية طربوشه ثم مسح العرق الذي غطى جبهته وهو يقول:

– لا حول ولا قوة إلا بالله... لطفك يا رب! ما مصيرنا الآن؟

عباس أسند ظهره إلى كومة من التراب وهو يغمغم:

– لا أدري. لا أدري! خلاص انتهينا.

انفجار عنيف نبَّهنا إلى خطورة الموقف. تبادلنا نظرات تائهة نحاول من خلالها أن نتأكد من حقيقة هذا الكابوس المهين. لبس الضابط السوداني طربوشه مرة أخرى، ثم اقترح علينا أن نقود انسحابًا منظمًا عبر خنادق خطوطنا المتتالية لكي نحافظ بقدر الإمكان على عساكرنا ونخرجهم من هذا الموقف الصعب بأقل خسائر ممكنة. انتقلنا من خندق إلى آخر لكي نشرح لجنودنا خطة الانسحاب. ما إن هبطتُ داخل أحد الخنادق حتى انفجرت قذيفة على بعد ياردات قليلة مني. شظايا الانفجار أطاحت بعدد من العساكر السودانية الذين كانوا

يوجِّهون نيرانهم إلى الخنادق التي احتلها الحرس الأسكتلندي. لفترة لا أدري كم طالت سيطر الذهول عليَّ حتى نبهني صوت الجاويش حسن وهو يصرخ بأوامره للعساكر المتمكزين في مكان قريب مني. بعد وابل كثيف من نيران جنود الآلاي الأول والعساكر السودانية، قفز نصف مَن بالخندق من عساكر بخفة وانطلقوا بسرعة خاطفة نحو الخندق الموجود خلفنا. استمر إخوانهم بإطلاق النيران لحمايتهم أثناء انسحابهم. عندما وصلوا إلى المواقع الخلفية تمركزوا داخل الخنادق ثم بدأوا بإطلاق النيران لإتاحة الفرصة للأنفار الآخرين أن ينسحبوا إلى تلك التي تقع خلفهم. استمر تبادل الأدوار حتى تباعدت المسافات بيننا وبين قوات الحرس الأسكتلندي المواجهة لنا. هذه المناورة أخرجتنا من مدى ضربات مدفعية العدو وسمحت لنا بالإفلات من قبضة جنود الإنجليز ذوي القمصان الحمراء الذين أطبقوا على ميسرة خنادقنا، وكادوا أن يلتفوا حول مواقعنا ويحاصرونا من الخلف. تكبدنا خسائر كبيرة وسقط العديد من عساكرنا لكننا حافظنا على تماسك قواتنا. وصلنا إلى الخنادق المواجهة للقنطرة ولاحت لنا مباني محطة السكك الحديدية بقرميد سقفها الأحمر. من مواقعنا أمكنا مشاهدة جثث عساكرنا التي تناثرت عند القنطرة وفي بطن الترعة. في الخلفية ظهر لنا خيالة العساكر البنجالية ومعهم فرسان السواري الإنجليزية الذين احتلوا المحطة وسيطروا على القنطرة المؤدية إليها. لكي نستطيع الإفلات من هذا الكابوس كان لا بد لنا أن نواجه

هذه القوات حتى نتمكن من الانسحاب غربا نحو الدلتا عن طريق صحراء الصالحية أو أن نحاول عبور القنطرة مخترقين صفوف الخيالة للوصول إلى قرية التل الكبير. اتفقنا مع ضباط الأورطة السودانية على أن نقوم بتحرك سريع في الاتجاهين معا في نفس الوقت، وذلك لتشتيت العدو والتقليل من قدرته على ملاحقة عساكرنا. اختار ضباط الأورطة السودانية أن ينسحبوا نحو التل الكبير على أن يبدأ عساكر الآلاي الأول في الانطلاق غربا حتي يجذبوا إليهم فرسان السواري الإنجليزية، مما يفتح الطريق عبر القنطرة ويتيح للعساكر السودانية أن ينطلقوا في اتجاه التل الكبير.

عندما اقتربنا من القنطرة انقسم أنفار الأورطة السودانية لقسمين، الأول استمر في اطلاق نيرانه لتثبيت الحرس الأسكتلندي الذي يلاحقنا من خندق إلى آخر، بينما ركز القسم الثاني ضرباته على الخيالة البنجالية المتمركزة عند القنطرة. نيران الجنود السودانية فاجأت الخيّالة البنجالية الذين ظنوا أن المعركة قد انتهت فتوزعوا في مجموعات متفرقة. أتاح لنا ارتباكهم الفرصة لكي ننطلق غربا للهروب في اتجاه الدلتا. أخذت أعدو بأقصى سرعة ممكنة ومعي من تبقى من أنفار فصيلتي. لمحت بطرف عيني فرسان العدو وهم يستديرون نحونا لقطع طريق انسحابنا، وسمعت أصوات نيران بنادقهم. انتظر العساكر السودانيون حتى ابتعد الفرسان عن القنطرة ثم أسرعوا نحوها محاولين عبور الترعة الحلوة للوصول

إلى قرية التل الكبير. للحظات قصيرة تردد فرسان الإنجليز وخيالة البنجاليين بين ملاحقتنا أو الارتداد نحو القنطرة لقطع الطريق على العساكر السودانية. بعد وهلة قصيرة قرروا أنه من الأفضل سد طريق المنسحبين نحو التل الكبير. لم أصدق ما حدث فلقد كتب لنا عمر جديد. أخذت ألهث وأنا أعدو بأقصى سرعة. نظرت خلفي فوجدت الجاويش حسن يحاول اللحاق بي وهو قابض على بندقيته بيد، بينما يحاول باليد الأخرى أن يثبت طربوشه فوق رأسه. عندما ابتعدنا عن قوات الإنجليز تفرقت فصيلتي، معظم أفرادها لم يهتموا حتى بتوديعي، أما أنا فلم أبال بما سيفعلونه. بعض أفراد فصيلتي اتجهوا نحو الترعة الحلوة محاولين عبورها سباحة، والبعض الآخر استمر في السير غربا قاصدا قرى مديريات الدلتا. خلع حسن طربوشه وهو يندب حالنا:

- كيف ذاب جيشنا في أقل من ساعة؟ المعركة انتهت والشمس ما زالت متربصة بنا وبالكاد فارق قرصها خط الأفق الذي يفصل الأرض عن السماء.

مسحت العرق المتصبب من جبيني. نظرت حولي فلم أجد إلا الجاويش حسن بعد أن تفرق من بقيَ على قيد الحياة من جنود فصيلتي. غمغمت معبرًا عن مرارتي:

- قادة الجيش وضباط أركانه تركوا المعركة بعد أول طلقة. لا أصدق أن مقدمة الجيش تحت قيادة علي بك يوسف وفرسان

أورطة السواري لم يكتشفوا تقدم الجيش الإنجليزي خلال الليل ولم ينبهونا للهجوم المطبق علينا. أين ذهبوا جميعًا ولماذا تركوا مواقعهم؟ هل هو الخذلان أم هي الخيانة؟

صمت الجاويش حسن ولم يرد.

***

مصر للمصريين

يناير، 1882

دخل سعد المويلحي غرفتي وهو يحمل نسخة من مجلة أبو نظارة على غلافها كاريكاتير يسخر من السقوط المريع لوزارة شريف باشا. ناولني المجلة وهو يسألني:

– هل رأيت ما حدث لوزارة شريف باشا؟ أين عبد الرحيم؟ تُرى ما رأيه في كل هذه التطورات؟

نظرت إلى الغلاف فرأيت رسمًا لعرابي باشا وهو يحمل راية كتب عليها "مصر للمصريين"، بينما يوجد على يمينه عبد العال باشا حلمي دافعًا الخديو توفيق خارج الغرفة وعلى يساره يقف

علي باشا فهمي حاملا مبخرة في يده، وبجواره شريف باشا الذي حمل حقائبه استعدادا للرحيل. كتب تحت الرسم:

"سيد العرب عرابي يقول مصر للمصريين. عبد العال حلمي يهش الواد الأهبل وفهمي يبخر المحل حتى تزول ريحة بابا شريف وسيده".

لم أصدق ما أقرأ، فهذا الكاريكاتير يستخفُّ بالخديو توفيق وشريف باشا. ناولت المجلة لسعد وأنا أبتسم لغرابة الموقف وقلت معلقا:

– ما هذه الجراءة؟ ولماذا هذا التطاول على الخديو فينعتونه بالواد الأهبل؟ وما ذنب شريف باشا ليسخروا منه بهذا الشكل؟

تناول سعد المجلة ووضعها على المنضدة المجاورة لفراشي. جلس بجواري وهو يحاول الرد على تساؤلاتي:

– عرف العرابيون كيف يستثمرون موقفهم القوي بعد مظاهرة عابدين، لقد تمكنوا الآن من السلطة ولن يستطيع أحد أن يقف أمامهم، ولا حتى الخديو نفسه. الحمد لله رجعت مصر أخيرا للمصريين. تفتكر عبد الرحيم سيعجبه مثل هذا الكاريكاتير؟

- لا أدري ماذا حدث لعبد الرحيم. أحواله غريبة هذه الأيام. هل تذكر مدى تحمسه لعرابي باشا يوم مظاهرة عابدين؟ في ذلك الوقت بذل عبد الرحيم كل ما يملك من جهد لكي يقنع زملاءه الضباط بالمشاركة في ذلك الحدث الذي أطاح بعثمان باشا رفقي وحكومة رياض باشا. تلك المظاهرة قلبت حال الجيش المصري وخلصته من طغيان الضباط الجراكسة. عبد الرحيم كان من أسعد الناس بذلك التحول الكبير، فقد نتج عنه تحرر الضباط المصريين من الأوضاع المتردية التي عانوا منها طويلا تحت سطوة قادة الجيش من جراكسة وأتراك.

منذ أيام قليلة أرسل قنصلا إنجلترا وفرنسا مذكرة إلى الخديو توفيق يقرران فيها أن مناقشة مجلس النواب للميزانية تشكل اعتداء صارخا على نظام المراقبة الثنائية وقواعد عمل صندوق الدين، مما قد يضر بمصالح الدائنين الأوربيين. شريف باشا طالب مجلس النواب أن يؤجل تمرير الموافقة على بند الميزانية بينما يتم التصويت على باقي بنود اللائحة الأساسية للدستور. لم يوافق العرابيون على ذلك ولجنة الخمسة عشر من مجلس النواب قررت عرض مشروع اللائحة الأساسية بكل بنوده للاقتراع. هذه الأزمة أدت إلى استقالة شريف باشا، مما مهد للعسكريين وعلى رأسهم البارودي باشا أن يشكلوا حكومة جديدة. لم يكن سعد من المؤيدين

لمواقف شريف باشا، وطالما اشتبك مع عبد الرحيم في مناقشات ضارية حول أوضاع البلاد في تلك الفترة. قال سعد بحدة:

– عبد الرحيم اختلطت عليه الأمور تماما. كيف يمكنه الدفاع عن قبول شريف باشا بهذا التدخل السافر؟ ولماذا يتهاون رئيس الحكومة في حق من حقوق مجلس النواب مثل تقرير ميزانية الدولة؟ القنصلان الفرنسي والإنجليزي تعديا حدودهما بادعائهما أن إقرار مجلس النواب الوليد للميزانية قد يضر بضمانات الدائنين. الغريب أن اللائحة الأساسية نصت على استثناء أقساط الديون الخارجية من الميزانية التي يقرها مجلس النواب! فلماذا تدخل القنصلان أصلا في موضوع يخصنا كمصريين ولا علاقة لبلديهما به.

لم أقتنع برأي سعد فأجبته بهدوء:

– ولكن لا يمكن لأحد أن ينكر قيام حكومة شريف باشا في الشهور القليلة الماضية بقدر كبير من الإصلاحات. ويكفينا ما تحقق من مطالب الأمة بصدد تأسيس مجلس نيابي منتخب، وما ترتبت عليه من صياغة لائحة المجلس الأساسية التي تمثل الدستور الحقيقي للبلاد.

قاطعني سعد:

- ألم يحاول شريف باشا تقديم دستور مماثل عام 1879، في أواخر عهد الخديو إسماعيل، وفشل في إقراره في ذلك الوقت. إنه لم يستطع تأسيس الدستور إلا في ظل حكومة وطنية كتلك التي تكونت بعد مظاهرة عابدين.

أكملت حديثي غير مهتم بما قاله:

- المكاسب التي تحققت لا يمكن لأحد أن يغفلها، وكانت لا بد أن تشفع لشريف باشا في هذه الأزمة. ما زلت أذكر يوم افتتاح مجلس النواب حينما اصطفت أورطتنا من الآلاي الأول على جانبي الطريق لتشريف موكب الخديو القادم من سراي الإسماعيلية إلى القاعة التي اجتمع فيها المجلس بديوان وزارة الأشغال. يومها ازدحمت الشوارع بالجماهير وصدحت الموسيقات العسكرية بألحان الفرح والابتهاج.

قال سعد متهكما:

- يومها هتفتم بحياة الخديو توفيق عند مرور موكبه في طريقه لافتتاح المجلس.

أشرت إلى مجلة أبو نظارة محاولا الدفاع عن شريف باشا:

- يجب أن نتذكر قيام شريف باشا بالرد على قنصلي إنجلترا وفرنسا بخصوص مذكرة 7 يناير التي أرسلاها إلى الخديو،

وأعربا فيها عن مساندتهما للخديو حيال الأحداث الأخيرة.

أعرب سعد عن عدم اقتناعه برد شريف باشا بخصوص هذا الموقف المريب لقنصلي إنجلترا وفرنسا:

- رد ضعيف على تدخل وقح من جانب الإنجليز والفرنسيين. فهما يعتبران مجرد صدور الأمر الخديوي باجتماع مجلس النواب من الحوادث التي توجب تدخل دولتيهما لحماية حقوق الدائنين الأوربيين. أنا لا أفهم هذا المنطق الملتوي.
- لقد حاول شريف باشا أن يهادن حتى لا يشتعل الموقف.
- وقاحة القنصلين لا يمكن احتمالها. كأنهما يحرضان الخديو على استعادة سلطاته التي فقدها بعد مظاهرة عابدين. ولهذا السبب اعتبر رد شريف باشا على المذكرة قاصرا ولا يفي بالغرض. وقد ترتب على ضعف ذلك الرد أن زاد قنصلا الدولتين من وقاحتهما وأمعنا في التدخل فيما لا يعنيهما. أي شريعة تسمح لهما بالتدخل في وضع اللائحة الأساسية، وتحديد صلاحيات مجلس النواب بخصوص إقرار الميزانية؟

أقلقني غموض الموقف الأوربي وعدم وضوح الدافع الحقيقي له، في نفس الوقت كنت مقتنعا بسلامة موقف شريف باشا. علقت:

- أوافقك الرأي. هذا التدخل غير مبرر خصوصًا أن اللائحة

الأساسية تنص على احترام كل المواثيق والاتفاقات المبرمة بين مصر وكل الدول الأخرى بشأن تسوية الدين. شريف باشا حاول تفادي هذا الوضع الخطير بدعوته المجلس لتأجيل البت في بند الميزانية حتى تنزاح الغمة.

عاد سعد إلى الاستخفاف بموقف شريف باشا والخديو فأضاف:

- هذه مهادنة لا طائل من ورائها، وكان ينبغي لشريف باشا من مواجهة هذه الوقاحة بشدة وحزم. وبصراحة موقف الخديو في منتهى الغرابة أيضا خاصة بعد مقالته العصماء في حفل افتتاح مجلس النواب. ألم يقل في تلك المناسبة: "وفي علم الجميع أنني من وقت ما استلمت زمام الحكومة عزمت بنية خالصة على افتتاح مجلس النواب"؟ لا أفهم سببًا لهذا التخبط. الخديو يقف يوما مع مجلس النواب وفي اليوم التالي يتآمر ضده.

دخل علينا عبد الرحيم الذي ألقى نظرة سريعة على كاريكاتير أبو نظارة، ثم علق قبل أن يحيِّينا:

- لماذا رفض عرابي وزملاؤه من الضباط وعدد من النواب البارزين فكرة التأجيل؟ هذا الموقف شق وحدة الصف وأضعف الجميع. هذا الانقسام هو غاية ما يتمناه أعداؤنا من وراء ألاعيبهم تلك.

رد سعد:

- لماذا لا تحيّينا أولًا؟ أنا شخصيا أرى أن موقف شريف باشا المتساهل هو الذي فرّق بين الوطنيين. وتذكر أن أغلب النواب وافقوا على إقرار جميع بنود اللائحة التأسيسية، وقليلين منهم وقفوا مع شريف باشا.

أجابه عبد الرحيم:

- مجرد رفض تأجيل البت في هذا الموضوع من قبل العرابيين غير مفهوم، لأن ميزانية العام القادم تم إقرارها قبل انعقاد مجلس النواب. فما الضرر من تأجيل هذا الأمر لمدة سنة.

نظر سعد باستغراب نحو عبد الرحيم كأنه شبح تجلى لنا من دون سابق إنذار ثم غمغم:

- عرابي وأصحابه اتخذوا موقفهم على أساس مبدأ سليم، وهو عدم مهادنة القوى الأوربية. أنت أدرى بنيّات الإنجليز والفرنسيين.

هز عبد الرحيم رأسه وأجاب:

- الانقسام سيتسبب في خسائر لا نعرف مداها. عرابي باشا ومحمود باشا سامي البارودي رتبا مع معظم النواب أن تتم الموافقة على الدستور وإقرار بند الميزانية فورا، وشجعاهم

على عدم القبول بالحلول التي عرضها شريف باشا مما دفعه إلى الاستقالة. ألم يكن شريف باشا حليف العرابيين وموضع آمالهم يوم مظاهرة عابدين؟ فلماذا يهاجمونه الآن بهذه الشراسة؟

اعترض سعد:

- بل كان شريف باشا حليفا للخديو الذي يحمي سلطاته ومكانته، والدليل على ذلك أسلوبه الناعم وعدم رغبته في مواجهة الخديو أو التصدي لتدخل الأوربيين في شئوننا.

قال عبد الرحيم مستنكرا:

- لا أحد يمكنه المزايدة على وطنية شريف باشا وحبه لمصر، مواقفه على مدى السنوات تؤكد ذلك. لقد نجح الرجل بأسلوبه الناعم في تشكيل مجلس نيابي منتخب وإقرار لائحته الرئيسية التي تشكل أول دستور للبلاد.

- لكن يجب أن نتذكر أن ذلك لم يتحقق إلا بعد مظاهرة الجيش في عابدين وتحدي العرابيين لسلطة الخديو بشكل مباشر.

رد عبد الرحيم بلا مهادنة:

- تأجيل البت في حق مجلس النواب في إقرار الميزانية كان ممكنا، لأن ميزانية العام القادم قد تمت الموافقة عليها

وانتهى أمرها قبل انعقاد المجلس. فهذا البند لا أهمية له حتى ختام سنة 1882. للأسف الشائعات تشير إلى استغلال محمود باشا سامي البارودي وعرابي باشا هذه الأزمة للإطاحة بحكومة شريف باشا. هكذا سيستتب لهما الأمر ولأنصارهما من الحزب العسكري.

تدخلت في الحوار قائلا:

– من دون شريف باشا سيصطدم الخديو لا محالة بالحزب العسكري والوطنيين.

استطرد عبد الرحيم:

– يبدو لي أن ما حدث كان نتيجة لرغبة البارودي باشا الشديدة في رئاسة الحكومة بعد أن كان وزيرًا للحربية. ومما لا شك فيه أيضا أن عرابي باشا كان يتطلع إلى تولي وزارة الجهادية بعد أن كان وكيلا لها. أعضاء الوزارة الجديدة كلهم الآن من أنصار الحزب العسكري، وسيتسبب هذا في خلل بالغ قد يضر بنا جميعا. في نهاية الأمر سنستبدل طغيان الخديو باستبداد من نوع آخر.

رد سعد مداعبًا:

– عرابي باشا هو محبوب الجماهير، فاحترس مما تقوله يا عبد الرحيم، وتذكر أن "اللسان عدو القفا".

أضفت متسائلا:

– ماذا حل بك يا أخي لتغير رأيك هكذا؟ هل نسيت حماسك لعرابي باشا يوم مظاهرة عابدين؟ ولماذا يعتريك كل هذا الغضب؟ لا بد أن تتقبل مساندة طوائف الشعب لوزارة البارودي باشا، وأن ترضى باستقبال المصريين لها بابتهاج، لأنها جاءت محققة لرغبات الأمة وآمالها.

لم يستحسن أخي دعابة سعد أو تعليقي فقام كأنه يستعد ليلقي علينا إحدى مواعظه، لكنه استدار وغادر الغرفة. التفتَ سعد نحوي ثم وقف أمامي وهو يتساءل:

– ما له يتصرف بهذه الطريقة الغريبة؟ لم أعد أفهم أخاك.

خطوْت نحو الباب لأرى أين ذهب عبد الرحيم الذي اختفى بلا أثر. عدت إلى سعد محاولا تبرير دوافع أخي:

– عبد الرحيم يخشى استغلال بعضهم للجيش كأداة يسيطرون بها على السلطة.

تعجب سعد من المبررات التي حاولت أن أصيغها:

– وما العيب في ذلك؟ ألم يتحرك الجيش يوم مظاهرة عابدين للمطالبة بحقوق الشعب ووضع حد لاستبداد الخديو وسيطرة القوى الأجنبية.

حاولت أن أفسر موقف عبد الرحيم الذي يغلب عليه الانحياز الشديد لشريف باشا:

– عندما تظاهرنا في عابدين، طالب الثوار أن يتولى شريف باشا رئاسة الحكومة. وقد وافق الخديو على ذلك الطلب مما أدى إلى ابتهاج الشعب "بوزارة الأمة". ولكن ضباط الجيش بعد ذلك اليوم فطنوا إلى أن أهداف ثورتهم قد تجاوزت مجرد المطالبة بالمساواة بين الضباط المصريين والجراكسة. أصبحت حركة الضباط الوطنيين أداة للضغط السياسي وللتأثير على نظام الحكم في البلاد.

علق سعد قائلا:

– وما الضرر من ذلك طالما يعمل الضباط على تحقيق طموحات الشعب؟

– أنا شخصيًا لا أجد ضررًا في ذلك. لكن الرغبة في تغيير نظام الحكم تتناقض بشكل أساسي مع موقف شريف باشا ومؤيديه ممن يفضلون إبعاد الجيش عن السياسة. وجهة النظر تلك ترى أن زيادة نفوذ الجيش وتدخله في الحكم سيؤديان حتما إلى اختلال نظام الدولة، فضلا عن تدهور أحوال الجيش نفسه وانقسامه وفقدانه لروح النظام.

علق سعد:

- من قال ذلك؟ أخوك يصر على أن اختلال نظام الدولة سيتيح الفرصة للتدخل الأجنبي، وقد يؤدي إلى خسارة كل المكتسبات التي حصل عليها الشعب حتى الآن. أنا شخصيا لا أتفق معه في هذا الرأي.

تذكرت ما حدث لعرابي باشا بعد أن تولى شريف باشا النظارة في سبتمبر الماضي فقلت:

- مما لا شك فيه أن هذا التباين في المواقف كان السبب وراء قرار شريف باشا بنقل آلاي عرابي باشا إلى مديرية الشرقية في أكتوبر الماضي.

أيَّد سعد كلامي مضيفًا:

- لابد أن شريف باشا لم يثق في نيّات عرابي. لكن مع هذا انصاع العرابي لهذا الأمر وأكد على إنه يحترم كل ما يصدر إليه من أوامر. وقد بقيَ عرابي باشا في مديرية الشرقية، مسقط رأسه، حتى عيّنه البارودي باشا وكيلا لنظارة الجهادية فعاد إلى القاهرة منذ شهر واحد فقط.

تابعت حديثي مسترجعًا ما حدث يوم خرج عرابي إلى الشرقية:

- هل تذكر حماس أهالي القاهرة الذين خرجوا لتحية آلاي عرابي باشا يوم مغادرته للمحروسة؟ حيث شقت قواته

طريقها من ثكنات العباسية مرورًا بباب النصر حتى وصلت المسجد الحسيني تتقدمها الموسيقات العسكرية.

أجاب سعد:

– نعم لقد ذهبت إلى هناك لمشاهدة موكبه. أذكر تماما كيف اصطف الآلاي بكامل أفراده أمام ضريح سيدنا الحسين وعزفت موسيقاه "المارشات" العسكرية، ثم زار عرابي باشا وضباطه الضريح. بعد أن خرجوا من المشهد الحسيني، اتجه الآلاي إلى محطة السكك الحديدية وسط هتافات الأهالي الذين اصطفوا في شوارع الموسكي والبوستة وكلوت بك لتودعيه.

– هذا الحدث كان بداية موقف عبد الرحيم المناهض لتدخل قادة الجيش في السياسة، فقد اعتبر هذا التصرف استعراضًا للقوة لا داعي له وغير مرغوب فيه.

جلس سعد بجواري شاخصًا ببصره إلى مئذنة مسجد تغري بردي التي تطل علينا من خلال نافذة غرفتي. أطرق لحظات ثم قال:

– كلامك معقول. فمنذ ذلك الوقت ازداد رفض عبد الرحيم لكثير من الأفعال التي قد تنوّه إلى تطلع قادة الجيش إلى لعب دور أكبر في شئون البلاد.

أشرت إلى خبر غريب انتشر أخيرًا بين ضباط الجيش:

– وهل سمعت عن محاولة دس السم للميرالاي عبد العال حلمي؟ لقد استعملت هذه الحادثة للهجوم بشراسة على خصوم العرابيين.

أضاف سعد متعجبًا:

– ولكن الأنباء الأخيرة تشير إلى أن ابن زوجته هو الذي دس السم في اللبن لكي ينتقم منه لأسباب شخصية.

– على الرغم من شبهة كونها جريمة شخصية، فإن الضباط أصروا على أنها محاولة للتخلص من زعماء الجيش من الوطنيين، وقد استعملوا هذا الحادث لتهديد سلطة الخديو والتلويح بخلعه.

تقدم سعد نحو الباب متسائلا:

– أين ذهب أخوك؟

أنكرت علمي بمكانه ثم أضفت:

– أنا لم أعد أفهمه. في إجازة كهذه كنت أتوقع أن يقضي أطول وقت معنا. ولكنه لا يكاد يبدأ حديثًا مع أي منا حتي يغضب لأتفه الأسباب ويسرع بالابتعاد عنا.

استدار سعد وودّعني قائلا:

– على أي حال سأذهب الآن، ولكني سأعود غدا لتوديعكما قبل أن ترجعا إلى ثكنات العباسية.

***

استلقيت في فراشي مواجهًا نافذة الغرفة. أتأمل مئذنة جامع "تغري بردي" التي تؤنسني ولكنها لا ترد علي حيرتي. في كثير من الأحيان تلتبس الأمور وتسود الحيرة. من يملك الشرعية؟ هل هو الخديو أم سلطان الآستانة؟ هل تغير واقعنا بعد مظاهرة عابدين وأصبح العرابيون هم طليعة الثورة، وهم من يملكون حقا زمام البلاد؟ وما مدى صلابة موقف شريف باشا ومؤيديه من الإصلاحيين الذين عملوا لسنوات طوال من أجل إنشاء نظام نيابي وإقرار دستور يحد من استبداد الحاكم؟ بعد مظاهرة عابدين كون الجيش والإصلاحيون جبهة موحدة تقود مسيرة هذا البلد إلى الحرية وتحد من الطغيان. الآن وبعد انقسامهم، نحن مقبلون على تغيرات جسام، ولا أدري من يصلح لقيادة الأمة في هذه الفترة الحرجة. أستمع لآراء عبد الرحيم فأقتنع بوجاهتها، ثم أناقش رفاقي من الضبّاط فتتبدّل مواقفي.

من المؤكد أن الجيش يمتلك القوة الكافية لتحدي سلطة الخديو وإجباره على تحقيق مطالب الشعب. ولكن هل يفي هذا بالغرض؟ لقد وحد قادة الجيش كل القوى الوطنية، وساندوا شريف باشا لتأسيس

برلمان منتخب وعملوا مع أعضاء مجلس النواب لصياغة لائحته الأساسية لكن الآن قادة الجيش قد نحوا شريف باشا جانبا وهم يعدون أنفسهم لكي يستأثروا بالسلطة. من ناحية أخرى ربما يكون شريف باشا هو من انفصل عنهم وفضل التحالف مع الخديو. هل من المعقول أن ينسحب الجيش من الحياة السياسية بعد هذا النجاح الباهر؟ عبد الرحيم يصر على أن تدخل العسكر في حكم البلاد سيؤدي إلى إفساد الحياة السياسية، وبالتالي ضياع كل المكاسب التي تحققت. هل التهديد باستيلاء الجيش على السلطة سيؤدي إلى تدخل الأجانب في شئوننا؟ أم أن العرابيين هم الأمل الوحيد في الذود عن مصالح الوطن في وجه الطامعين؟ المصيبة أننا غير واثقين حتى في موقف الخديو نفسه، وهل هو مع الإصلاحات التي تحققت أم أنه يهادن القوى الوطنية بينما يتحين الفرصة لاسترداد سلطانه المفقود.

شريف باشا حاول أن يؤسس لحكم دستوري منذ أواخر عهد الخديو إسماعيل. ها هو يحاول من جديد مع ابنه توفيق، وقد بدا لي أننا على وشك قطف ثمار تلك الجهود. ولكن للأسف وفي اللحظة السانحة لتحقيق آمال هذه الأمة، يتراجع شريف باشا ويفضل المهادنة. هل يخشى التدخل الأجنبي أم يفزع من سيطرة العرابيين على البلاد؟ هل انحاز للخديو أم أنه يدافع عن الشرعية التقليدية غير مدرك أن الأحوال قد تبدلت وأن الشرعية قد تفرق دمها بين القبائل. لماذا هذا الخلط والإغراق في تحليل ومناقشة هذه الأوضاع المرتبكة

والمواقف المعقدة. القوى المتناحرة اصطفت على خطوط المواجهة وهي تستعد لتصادم حتمي. ماذا يمكنني أن أفعل وأنا الملازم البسيط الذي لا يملك من الأمر شيئا؟

***

الحلب

سبتمبر، 1882

عندما يصير التيه ملاذًا تختلج ذرات الحقيقة الناعمة ويسود صمت الرياح. صمت نقي لا يشوبه إلا صوت خطواتك وكأنك تسمع صدى خطوات الجاويش حسن الذي يتبعك على بعد ياردات قليلة. خلع حسن قميصه ولفه حول رأسه ليقيه ضراوة شمس متربصة بكما. علقت بندقيتك على كتفك وأخذت تحث حسن على السير محذرًا من أن يلحق بكما فرسان الإنجليز. لقد كتب لك عمر جديد. لحظات شاردة تفصل بين حلقات ذكر الشيخ عبد الجواد والهزيمة المريرة التي تترسخ مهانتها مع كل خطوة تخطوها. ماذا

حدث؟ لقد تبخرت شجاعة وبسالة الرجال الذين صمدوا في معارك كفر الدوار والقصاصين وكانوا حقًا أندادًا لعساكر الإنجليز. فماذا حل بهم؟ هل كان كل ذلك مجرد وهم من الأوهام؟ جيش كامل ابتلعته رمال الخذلان. أقدامك تغوص في أرض سبخة تمتد حولك بلا نهاية، بينما تلوح في الأفق ظلال أراضي الدلتا الخصبة راقدة أمامك تنعم بسلام هانئ وهدوء مريب.

حسن كأنه يلحق بك ويرفض أن يفارقك، ترى بقعة داكنة تغطي الجانب الأيسر من قميصه. دماء صامتة لجرح غائر امتص من جسده رحيق الحياة. تتناقض مرارة الهزيمة مع سعادة خجول تشعر بها بعد نجاتك من موت محقق. تسترجع مقولة حسن: "ماذا سيحدث للعيال من بعدي؟". هذا المسكين لن ينعم بعد اليوم بالحياة وسط عياله. لا وقت لتأمل الحالة الراهنة أو الخجل من بصيص الأمل الذي قد يلاحقك، لا بد أن تستمر في السير مبتعدًا عن مركز الكارثة التي أطاحت بجيش مصر. لقد كنت من المحظوظين وعليك الآن أن تنشغل عن جوهر المأساة بتفاصيل حياتك اليومية. ترى هل ستكون نجاتك مصدرًا لتعاسة متصلة؟ وهل كان من الأشرف لك أن تستشهد في الميدان؟ كيف سترفع رأسك بين الناس بعد ما حدث؟ وماذا سيفعل الإنجليز والخديو بك وبأهل البلد؟

لا تصدق كيف أطبق الإنجليز على خطوط الجيش المصري من كل صوب. هؤلاء الأبالسة لهم قدرات هائلة يحسدون عليها. انتظام

صفوفهم على الرغم من هرج ومرج المعركة شيء يفوق الخيال. عساكر الحرس الأسكتلندي انقضوا على فصيلتك واكتسحوا الخنادق بسرعة خلابة. لولا وجود الأورطة السودانية بجانب الآلاي الأول لما تمكنت أورطتك من الصمود. ترى ماذا كان مصير العساكر السودانية؟ هل تمكنوا من عبور القنطرة والوصول إلى التل الكبير؟ لا يمكن لأحد أن يتصور ماذا حدث لميسرة الجيش. كل الدلائل تشير إلى أنها انهارت انهيارًا كاملًا ولم يشترك أفرادها في القتال منذ اللحظات الأولى للهجوم. يبدو أنهم لم يطلقوا حتى رصاصة واحدة لصد الإنجليز.

تشعر بخطوات متتابعة بالقرب منك. تنظر حولك، فتلمح حسن وهو يشير نحو ذئب مر بالقرب منك متجها نحو أرض المعركة. تتوقف لوهلة رافعًا سلاحك حتي ابتعد الذئب. من سيدفن القتلى من المصريين؟ هل سيقوم الإنجليز بدفنهم أم سيتركون جثثهم في العراء لتنهشها الوحوش؟ الرمال تزداد سخونة. تحس بحرارتها تتسلل من خلال جلد البيادة لتلهب أصابع قدميك. على الرغم من ابتعادك عن ميدان القتال فإنك تسمع بين الحين والآخر أصوات طلقات نارية. هل يتصيد الإنجليز العساكر الذين يحاولون الهرب؟ أم تراهم يطلقون الرصاص على الخيول المصابة؟ كومضة شهاب في سماء مظلمة تذكرت محمد عباس الذي لم تره منذ أن حمل إليكما الضابط السوداني خبر استشهاد محمد بك عبيد. كيف نسيته

طوال هذه المدة؟ هل أصيب أو قتل؟ لقد كان يتحرك بالقرب منك في أغلب الأحيان. لا بد أنه سبح عبر الترعة ليتجه إلى إحدى القرى المحيطة بالتل الكبير. أنت تعرفه جيدا، سيحاول الوصول إلى القاهرة بأسرع ما يمكنه حتى يشارك في الدفاع عن العاصمة.

الشمس لا ترحم. العرق يتصبب بين ثنايا جسدك المنهك. ابتعدت عن الترعة لاعتقادك أن فرسان الإنجليز سيقومون بتمشيط شاطئيها، لأن العساكر الفارين سيبقون بالقرب من الترعة لكي يضمنوا الحصول على مياه الشرب. قررت أن تغوص في أعماق الصحراء، متجهًا نحو الصالحية مع السير بمحاذاة الغيطان المتناثرة حول أطراف الدلتا حتى لا تتوه. بعد مسيرة ساعات أصبحت الشمس لا تطاق خاصة بعد أن نفد الماء الذي تحمله. يلفح الهواء الساخن وجهك، أنفاسك تتقطع وبصعوبة يمتلئ صدرك بأسرار الحياة. ستقتلك الصحراء إن لم تفارقها، ولذا آن لك أن تحيد في مسيرتك نحو الغرب حتى تبلغ قرية من القرى القريبة، حيث يمكنك أن تتدبر ما تحتاجه من أكل ومياه. قرب العصر أصابتك حالة من الإرهاق الشديد، ظلك يستطيل خلفك وخطواتك تبطئ. هل ستقضي في هذه الصحراء اللعينة؟ قرى الدلتا لا تبعد كثيرا عن هذا المكان، ولكن الإرهاق أصاب منك ما أصاب فلم تعد تدري هل تسير في الاتجاه الصحيح، أم تراك تدور في دوائر متشابكة. تكاد تفقد وعيك، يخطر ببالك طيف حسن، ولكنك لا تدري أين ذهب.

اختلطت الحقيقة بالخيال، الوهم يدفع الحقيقة ويضمها إلى صدره، يتعانقان في رقصة أبدية، الخطوات ثقيلة، الأرداف متلاصقة، الشفاة مرتعشة، الأيام تدور، الحركة تضطرب والألحان تتابع. يتشبث بها، يحفر جسدها بأردافه، الصدور تتأوه والحقيقة ترتعش بين ذراعيه، وتغرز أسنانها في عنقه. دقات الطبول تعلو، والخطوات المضطربة تصبح أكثر ثباتا، الوهم يخلع أقنعته. يا له من ألم! الهزيمة تضعضع كيانك. تقبض على طرف قناعك وتنتزعه. وجهك يحترق وتذوب قسماته. تخلع أوهامك قناعا تلو الآخر، الألم لا يحتمل. الأرداف تتأوه والجنين يولد من رحم آلامك. هل هذا ميلاد الحقيقة أم ميلاد وهم جديد؟ فالقناع يلتصق بوجهك، كرحم أم يتشبث بجنينها. الميلاد لحظة... الحقيقة لحظة، والأيام تدور. الرقصة مستمرة ولا يبقى لك إلا الحنين.

***

يد هزتك برفق وفجأة انسكبت كمية من الماء البارد على وجهك. تتلذذ بعذوبة الماء الذي بلل شفتيك، يتجسد الحلم فيتحول ببطء إلى حقيقة. الحجب تنقشع ويطفو وجه حسن خلف شبح رجل مال فوقك. يحلق حسن حولك كملك يحرس أيامك ويحميك من الأهوال التي تتربص بك. هل تلاشت الكوابيس وانمحت أوهام الهزيمة؟

حسن ينظر إليك ويتمتم بصوت غير مسموع:

– هل أنت بخير؟

الشبح القابع أمامك وضع قربة المياه على شفتيك فرشفت منها بضع رشفات قبل أن يبعدها عنك. انزاحت أستاره وظهرت هيئته كأعرابي يرتدي جلبابا ترابي اللون ويحيط خصره حزام عريض من الجلد الداكن، بينما يغطى رأسه وشاح أبيض ثبته بعقال أسود اللون. بدأت تدرك ما يدور حولك، حيث تبين بوضوح وجه الأعرابي الواقف أمامك معلقا بندقية على كتفه. ملامحه تعكس طبيعة الصحراء القاسية. بشرة سمراء تشوبها حمرة خفيفة وشفتان تشققتا بفعل الرياح الحارة. حاولت الوقوف فلم تستطع. حسن يهمس لك:

– لا تستعجل الوقوف! لقد أصبت بضربة شمس. هذا اليوم اللعين أنهكنا، وكاد أن يقضي علينا. الحمد لله وجدت هذا الشيخ بالقرب من المكان، بدونه لما تمكنت من إنقاذك.

الأعرابي مال نحوك مادا يده:

– أنا الشيخ سلمان... هل تستطيع ركوب الحمار؟ سآخذك لتستريح في خيمتي.

وضع ذراعيه تحت إبطيك ثم شعرت به يحملك حتى استقرت بك الحال فوق حمار وقف يتأمل بحر الرمال الفسيح غير مبالٍ بما

يجري حوله. ملت بجسمك فوق رقبة الحمار، وشعرت بحسن يضع كفه على كتفك لكي يسندك ويمنعك من السقوط. بدأتما بالتحرك نحو الشمس الغاربة التي مالت فوق الأفق البعيد.

غبت عن الوعي مرة أخرى ولم تستيقظ إلا على صوت دق الدفوف وموسيقى الطبول. لم تدرك ماذا يحدث حولك، ضوء خافت تسرب من خلال خيوط الخيمة التي ترقد داخلها. ظلال تلونت درجاتها بشكل يعكس مكونات خيمة خشنة. تطغى على المكان رائحة لبن ممتزج برحيق العسل الأسود. صوت عذب اخترق الوجود من حولك. هل يعقل أن يصدح أحد بالغناء بعد ما حل بنا في هذا اليوم اللعين؟ ربما اتصلت أحلامك بكوابيسك، الهزيمة قد تكون وهما لا يتحقق. لكن ماذا تفعل هنا؟ وكيف انتهت بك الحال إلى هذا المكان؟ صداع لا يحتمل يفتك بدماغك ويشتت وجودك. تمكنت من الوقوف بصعوبة وتحركت بمشقة نحو مدخل الخيمة. أزحت غطاء المدخل فغشى بصرك الضوء المنبعث من النار التي تحلّق حولها مجموعة من الأعراب، وبدا حسن جالسا وسطهم وهو يرتدي جلبابا فضفاضا. أحد المتجمّعين يدق طبلته بمهارة وأمامه فتاة رشيقة تتمايل بنعومة على أنغام الموسيقى. عقدت الراقصة رأسها بطرحة سوداء تتناقض مع بهرجة ردائها الأحمر الذي تزينه حبات الترتر المتلألئة. كلما تسارعت طرقات الطبلة تحمست الفتاة وزادت من هز جذعها بدلال ودلع. جوقة من

حملة الدفوف تتحلق امرأة احتضنت عودا تتلاعب أناملها بأوتاره بينما أخذت تصدح بكلمات أغنية خليعة. الجاويش حسن افترش الأرض وسط هذا الجمع وهو متورد الوجه. هذا الموقف العبثي لا يمت بصلة لأحداث اليوم. هل نمت مائة عام مثلما حدث لأهل الكهف؟

الجاويش حسن نظر إليك ثم انتفض وقام مسرعا نحوك بينما تعالت ضحكات المحيطين به.

– صح النوم يا فندم. حمدًا للـه على سلامتك؟ كيف حالك الآن؟

سألته بحدّة:

– ماذا يحدث يا حسن؟ وماذا نفعل هنا؟

اقترب حسن وهو يهمس لك:

– لقد أنقذك الشيخ من الموت. لو لم يجدك لمت من العطش.

نظرت إليّ الجوقة والراقصة غير مستوعب ما يدور حولك، تساءلت مستنكرا:

– ولكـــن ما هذا الهرج؟ هل هذه جوقة مـــن الغوازي؟ وماذا يفعلون هنا مع أعرابي كالشيخ سلمان؟

لا بد أن هؤلاء من الحلب أو الغجر وليسوا من البدو العرب!

هم أهل كار، ويكتسبون قوت يومهم من أنشطة لا تقرها عاداتنا وتقاليدنا. يبدو لك الشيخ سلمان كزعيم لهم، لكنك غير واثق من ذلك الآن.تعجبت من انصياع الجميع لأوامر المرأة التي تعزف العود.

مال حسن نحوك وهمس:

– اخْبِني اليوم وأمتني غدا!

تلاشى طيف حسن بينما اقتربت نحوك الفتاة ذات الرداء الأحمر، لمعان حبات الترتر يغشى البصر ويعكس ضوء النار. صدرها الناهد يرتعش كلما تمايلت بخصرها وهي تخطو نحوك. ذراعها البض تألق بحمرة ضوء اللهب المتراقص. دنت منك حتى كادت أن تلتصق بك، ثم مدت يدها ولمست رأسك ببطن كفها وجعلت تمسح على شعيرات رأسك التي نبتت حديثا. همست في أذنك:

– خالي سلمان وصّاني عليك.

ابتلعتك نظراتها فسرت في بدنك قشعريرة اهتز لها كيانك. عيناها يرسمهما كُحل كثيف قاطع الحد، ذبح حده وجَلك وأخرجك عن رشدك. تكاد تسمع زميلتها تتغنى بكلمات لا تعيها أو تدرك معانيها. جذبتك من يدك وأدخلتك إلى خيمتها. منشد الأمس يناديك:

"اغفر ذنوبي، واستر عيوبي، واكشف كروبي، وأصلح لي حالي".

منشدة اليوم تأخذ بيدك وتمسح جراحك وتضمد آلامك. يوم لم يكتمل وكأنه مائة وألف شهر، سقط الآلاف وسيتبعهم من يذكر الأيام ومن ينشد الأحوال. الأيام عيون، فكم عشقت العيون صباك. ما زال مذاقها يملأ حلقك، وما زلت تبحث عن تلك النظرة الثابتة إلى الأفق الرحب الممتد. هل فقدتها بلا رجعة؟ أحلامك أحلام مسافر. يحتضن ذرات الوهم. البذرة البدائية تصرخ، والخيال يداعب حباتها. كل أرض جديدة تصبح رحلة لمسافر في انتظار عودته. يوم طويل، مرارة التراب تملأ الحلق، رائحة عرق، شمس حارقة، وجوه مكفهرة. لا تزال تضمها بين ذراعيك وتحفر رحمها، جذورك تخترق طيات أحشائها، والبذرة البدائية تسكن أطيافها. تبكي ومن دموعك يفيض النهر، ومن مياهه ترتوي الشجرة الباسقة، بينما يداعب النسيم أوراق الوهم.

هل يحجب النور نورًا أو تمحو الظلمة ظلامًا؟ استيقظت مع بزوغ زرقة نهار جديد. الأمس أصبح تاريخًا والنسيان رحمة. كل شبر من جسدك يصرخ بآلامه وأوجاعه. استلقيت على فرشتك ولم تقم إلا بعد بضع دقائق من صحيانك. انتبهت فجأة لعدم وجود بندقيتك معك. لا بد أن الجاويش حسن يحتفظ بها في مكان ما. ارتديت جلبابا أزرق وجدته بجوار فرشتك وخرجت من الخيمة بحثا عن حسن. وجدت قائدة الجوقة جالسة مع الفتاة وأمامهم وعاء مملوء باللبن. أشعلت المرأتان نارًا ووضعتا فوقها إناء انشغلت

الفتاة بتقليب محتوياته. اقتربت منهما متحرجًا. دعتك الفتاة للجلوس وهي تقول:

- نوم العافية.

ناولتك كوزًا ملأته باللبن الدافئ ومعه كسرة من الخبز. المرأة الأخرى أضافت ضاحكة:

- يا حبّة عيني! الجدع كان محتاج للراحة بعد مجهود يوم عصيب.

امرأة ناضجة في العقد الرابع من عمرها، ربطت رأسها بطرحة سوداء، ملامحها مرحة وعيناها يملأهما بريق امتزج فيه الدلال بصرامة واضحة. لم تستطع أن تتحدى هاتين العينين اللتين عبثتا بمشاعرك، تحدقان بك ولا تطرفان حتى اضطرتك لأن تنكس رأسك حرجًا. في ضوء النهار ظهر وشم دقته بطول ذقنها له ثلاثة خطوط خضراء زادوا من جاذبية ابتسامتها الخلابة. أدركت حجم فخذيها الممتلئتين من خلال التصاق جلبابها الأسود بعجيزتها. نظرت المرأة إلى الفتاة التي بادلتها ابتسامة ذات دلالة. قعدت على حجر يبعد خطوات قليلة عنهما، وأردت أن تقطع هذا التواصل بينهما الذي لا تفهمه فقلت لهما ملاطفًا:

- أنا ممنون لهذا الفطور. هذا كرم لن أنساه أبدا. لقد أنقذتما حياتي. هل تعرفان أين الجاويش حسن؟

ردت الفتاة بتهكم:

– الجاويش حسن مرة واحدة! نحن لا نعرف أحدًا بهذ الاسم، لا حسن ولا حسنين. خالي سلمان هو من أنقذك، أما أنا فقد فعلت بك أشياء أخرى.

أفلتت ضحكة من شفتي المرأة الأخرى. شعرت بحرج بالغ فحاولت أن تتماسك وسألتهما عن الشيخ سلمان. أخبراك أنه ذهب ليلة أمس مع أولاد أعمامه إلى التل الكبير ليجمعوا ما يمكنهم جمعه من الغنائم، وأفهماك أنها فرصة ذهبية لجمع قطع السلاح والذخيرة المتناثرة على أرض المعركة، بالإضافة إلى الأحذية والملابس والأطعمة. قامت المرأة وتركت الفتاة وحدها تقلب ما يحتويه الإناء الموضوع فوق النار. أقبلت نحوك وجلست بجوارك، مدت يدها داخل خُرج علَّقته حول رقبتها وأخرجت كيسا من الحرير وعلبة خشبية ووضعتهما على الرمال أمامك. ابتسمتْ لك ثم قالت:

– ما رأيك بقى؟ تحب تشوف بختك؟ أنا اسمي نعيمة.

لم تفهم ما الذي تريده هذه المرأة الحلبيّة، بدأت تتوجس مما قد تفعله بك. تمنيت أن يستيقظ حسن حتى تغادر هذه المضارب. العلبة جذبت انتباهك بخشبها المصقول الذي نُقشت عليه حروف وكلمات غير مفهومة. الزخارف التي تزيِّنها تبدو من الطراز الدمشقي الذي يتميز برشاقة رسومه ودقة خطوطه. أغراك سطح العلبة بملامسته

فمددت يدك التي أمسكت بها نعيمة قبل أن تصل إلى هدفها. وجهت لك نظرة لم تعِ مغزاها وقالت مبتسمة:

– حيلك... حيلك! لا تستعجل، كل شيء وله أوان.

وضعت كف يدك اليسرى برفق على الأرض بينكما، وطلبت منك أن تكبش حفنة من الرمال. فتحت العلبة وأفرغت فيها حفنة الرمال التي قبضتها في كفك. فتحت الكيس الحريري وأخرجت منه سبع قطع عظمية مصقولة شديدة البياض ووضعتها داخل العلبة ثم أغلقتها وناولتك إياها. أغمضتْ عينيها ثم طلبت أن تردد معها:

– لِمْ فألك وارم سؤالك... ولا تشكني ولا تشكرني.

أمسكت المرأة بيدك ورجّت العلبة بمحتوياتها. ثم فرشت وشاحًا أخضر سكبت فوقه محتويات علبتها. أغمضت عينيها ثم صمتت. هف محمد عباس على بالك، وخطر لك توتره وقلقه يوم وصولكما إلى التل الكبير. طال الصمت... حمدت اللـه أن عبد الرحيم قد تم إبعاده إلى طوكر. أمسكت المرأة بكفك ومسحت به القطع السابحة بين ذرات الرمال. قطّبت جبينها ثم بدأت بقراءة طلاسم العظام المبعثرة فوق الرمال:

– *أحلامك أحلامي!*

أما زلت تحلم بجسد تملؤه الطعنات؟

يركن إليك، يسكن جانبك ويطلب عونك،

تحتضنه ومن روحك تصنع الدواء،

ستبكي دموعا حارة تأبى أن تسيل.

سكتت لوهلة كأنها تلتقط أنفاسها ثم استطردت بصوت رخيم:

ـ بحار عاتية تفرق بين الإخوان،

وعواصف تفصل بين البلدان.

يا خير أجناد الأرض لا تنسوا حكم القدر،

خير أجناد الأرض ستُقهر لمائة وألف قمر،

خير أجناد الأرض ستُهزم لمائة وألف قمر.

فجأة أشاحت المرأة بوجهها بعيدًا عنك. نفضت الرمال عن الوشاح ولملمت أغراضها، ثم قامت وأومأت للفتاة لكي تتبعها. نظرتْ إليك وقالت:

ـ هذا نذير شؤم. لا بد أن تغادر مضارب خيامنا فورًا.

أزاحت الفتاة الإناء عن النار واختفت المرأتان داخل خيمة واقعة في طرف بعيد من مضاربهما. بعد لحظات ظهر الجاويش حسن مرتديًا نفس الجلباب الفضفاض الذي لبسه ليلة أمس. بدا على ملامح وجهه قلق غريب. اقترب منك وقال مستفسرًا:

– ماذا فعلت؟ لقد أغضبتهما والآن يريدان رحيلك فورًا.

هززتَ منكبيك باستهانة وقلت له:

– لم أفعل شيئًا يستدعي كل هذا القلق. ماذا قالت لك نعيمة؟

تقلصت قسمات وجهه ورد متحيرًا:

– لم تقل لي شيئًا، ولكننا يجب أن نغادر المضارب في الحال.

قمت من مكانك ونظرت إليه بارتياب وأنت تقول:

– ما هذا الخبل؟ يجب علينا أن نرحل على أي حال. لا بد أننا قريبان من محطة القطارات عند أبو كبير. عندما نصل إلى هناك يمكننا أن نعرف معلومات أدق عن الموقف الحربي، ثم نختار إما الذهاب إلى القاهرة لنشترك في الدفاع عنها أو إلى دمياط لننضم إلى آلاي عبد العال حلمي. فلنجهز أغراضنا ونرحل عن هذا المكان.

ابتسم الجاويش حسن الذي غمغم:

– لم تعد لدينا أغراض نلملمها. لقد قايضت حياتك بكل ما تملك. الشيخ سلمان حصل على كل ما معك مقابل الماء والطعام. أعطيته الملابس والسلاح والذخيرة وحصلت منه على الجلباب الذي ترتديه.

صرخت فيه:

– ماذا تعني؟ هل قايضت السلاح والذخيرة بجلباب؟ كيف سنحارب الإنجليز عندما ننضم لقواتنا في مصر أو دمياط؟ والبيادة هل قايضتها هي أيضا؟

مط حسن شفتيه ورد بسخرية:

– النفس غالية يا فندم. لم يكن ثمة بد من ذلك.

لم تصدق أذنيك، ولم تستسغ أسلوب حسن المتهكم. زاد غضبك فرددت بحدة:

– هذا يفسر احتفال الأمس. لقد قايضت شرفي بالتراب.

لم يبالِ بما قلت، كأنك لم توجه له كلامًا. نظر حوله ثم قال:

– لا بد أن نذهب! لا يمكننا أن نغضب نعيمة. يجب أن نرحل قبل عودة الشيخ سلمان وأولاد عمومته.

لم تستطع أن تكظم غيظك فصرخت فيه:

– كيف تجرؤ على بيعنا بهذا الثمن البخس؟

لم تؤثر ثورتك على هدوئه، بل رد عليك ببرود عجيب:

– يا فندم الحرب انتهت وسلاحنا لم يعد له جدوى. الآن يجب أن يكون كل همك هو البقاء على قيد الحياة والعودة إلى

ديارك سالمًا. خلاص لقد قضيَ الأمر ولم يعد بمقدورنا تحقيق آمال الحرية والعدالة التي كنا نصبو إليها، لقد تبددت أحلامنا.

تساءلت بحنقة:

– ماذا تقصد؟ لا يمكننا القبول بهذا الواقع الكريه.

علت وجهه ابتسامة طيبة قبل أن يرد:

– لا خيار لنا يا فندم. أهم شيء أن تحافظ على نفسك لكي ترجع لأهلك سالمًا، بعد ذلك "يبقى يحلها ألف حلال". على الأقل قضيت ليلة لطيفة، بدلا من الموت بحسرتك.

عجبت من تبسّط حسن معك، ولكن أسلوبه نبهك إلى حقيقة ضياع الجيش المصري، وأن الرتب العسكرية أصبحت بلا قيمة. أدركت لأول مرة أنك لم تعد قائد فصيلتك، ولم يعد حسن جاويشها. لقد رجعت إلى أصلك كفرد عادي يبحث عن ملاذ آمن. لمحت قربة ماء وبجانبها قفة بها كسرات خبز. حملت القربة والأرغفة وأسرعت بالتحرك في اتجاه الغرب لكي تصل إلى شريط السكة الحديد بالقرب من أبو كبير. هناك ستختار وجهتك.

بعد مسيرة ساعات تركت الصحراء القاحلة خلفك، وأقبلت على أرض الدلتا التي غطتها مياه الفيضان. النهر العتيد قد أنهكته

الرحلة الطويلة. فيضه الوفير قد تبعثر فوق أرض الدلتا الخصبة قبل أن يلتقي بأجاج البحر الفسيح الذي يحتضن أرض الشمال. كل فيض ينحسر وكل نهر يلقي ماءه العذب في أجاج مصيره المحتوم. خيط رفيع من المياه الداكنة يصل الأرضين. النهر يفيض فيجلب الخير كشهاب خاطف في سماء الأيام، أو كرشفة ماء تشفي ظمأ المسافر.

فاض الصمت... تركك حسن في حالك ولم ينطق بحرف، وفي نفس الوقت لم تشأ أن تبادره بالكلام. من الأفضل أن تصمت فالسكوت راحة، لقد انقلبت حالك في يوم وبعض يوم، وحل الخوف والوجل محل الهمة والإقدام. لقد صرت وحيدًا وكتب عليك الضياع. قُضي من قضي وتاه من تاه ولم يبق لك إلا خوفك من الأيام المقبلة. عندما التحقت بمدرسة الحربية كان الجيش المصري يحارب في الحبشة بعد أن وحّد أراضي مصر والسودان، وفتح أعالي النيل حتى وصل إلى بحيرة إبراهيم باشا. علموك أن مصر هي الجسر الذي يربط القارة المظلمة بالحضارة الحديثة الآتية من الشمال، وأننا كمصريين مسئولون عن نقل ما أخذنا به من حداثة إلى قلب قارتنا السوداء. ولكن لم يخطر ببالك السؤال الأهم، وهو كيف ننقل لهم أفكار ومبادئ حضارة لا نفهمها؟ لقد وثقنا في قوة جيشنا وكفاءة تدريبنا، وتصورنا أن حداثة سلاحنا ومناعة استحكاماتنا ستحقق أهدافنا. وللأسف عند أول اختبار حقيقي لم نصمد وانكسرنا

في غمضة عين. هل خذلنا قادتنا؟ ألم يؤمن هؤلاء القادة حقا في قدراتنا على تحقيق النصر؟ هل ورَّطونا وزجوا بنا في محرقة حرب غير متكافئة؟ تشعر بنهر من المرارة. هل هي مهانة الهزيمة أم ضياع الأحلام التي تحطمت؟ ترى ماذا سيفعل عبد الرحيم عندما يعلم بهزيمتنا؟ ذلك المغرور هل ستسعده مهانة عرابي وغيره من قادة الجيش؟ أم سيشعر بالأسى لهزيمتهم وسيحزن على من مات من عساكر وضباط؟

الآن ما جدوى الحاميات المصرية في السودان وأعالي النيل؟ لقد ذهب عبد الرحيم إلى طوكر مسلحًا بأفكاره عن الحرية والعدالة والدولة الحديثة. نهتف هنا "مصر للمصريين"، فهل يهتف أهل السودان مثلنا "السودان للسودانيين"؟ لا يمكن لأفكار عبد الرحيم المثالية من التأثير بأي حال من الأحوال على طوكر وأهلها أو على الأوضاع عموما في السودان. تتعجب من كبر النفوس وضآلة التأثير. عبد الرحيم ليس الفاتح المستنير كما أنه لن يكون المستعمر المستغل. هل ستتبدل أحواله بين حال وحال؟

الأرض الطينية الرطبة تحنو على قدميك بعد أن ألهبتها سخونة رمال الصحراء. بضع قرى ظهرت أمامك ورويدًا رويدًا بدأت تقترب منك. اختفى أهلها واختبأ فلاحوها خوفًا من جيش الغزاة. لم يقابلك مخلوق فيما عدا الجرذان التي اتخذت من جسور الغيطان

مسكنا لها. تفاديت القرى خوفا من رد فعل أهلها وداومت السير متجنبًا الغيطان التي غمرتها المياه، ومتخطيا كل ما يقابلك من ترع وقنوات. فجأة لمس حسن كتفك وهو يشير بسبابته إلى خط لامع ظهر فجأة في الأفق البعيد، جذبك بريق الأمل حتى وصلت إلى شريط السكة الحديد. سرت بمحازاته حتى وجدت نفسك عند دوران حاد للشريط الحديدي. قررت انتظار أول قطار يمر بهذا المنحنى مما يضطره إلى الإبطاء من سرعته. هذا سيتيح لك اللحاق به، وسيمكنك من تسلق إحدى عرباته. تساءل حسن عن اتجاه القطار الذي تنوي ركوبه ثم توارى. لم ترد فلم تعد وجهتك تهم، فلتستقل أول قطار يمر بك.

***

خدمة الغُز

يونيه، 1882

لا أكره شيئا أكثر من النفاق وعدم الصدق. بعد عودتي من إجازتي الأخيرة يعاملني ضباط الأورطة كأنني آفة حلت بالمعسكر، لا أقترب من أحد إلا وأسرع بالابتعاد عني بعد أن يقوم بتأدية التحية العسكرية الواجبة. لماذا لا يواجهني أحد بحقيقة رأيهم فيما حل بعبد الرحيم؟ رافقته منذ أيام قليلة إلى القطار الذي حمله إلى النفيشة، ومنها تتحرك مجموعته من الضباط المبعدين إلى السويس، حيث يستقلون إحدى مراكب الأسطول التي ستحملهم إلى السودان. من المفروض أن ترسو المركب في ميناء سواكن، ومن هناك سيتم

إرساله إلى سنكات أو طوكر حسب حاجة الحاميات المتمركزة في تلك الأنحاء. أسماء تلك المدن النائية لها سحر أي سحر، مثلها مثل الكلمات المبهمة التي يدونها المشايخ في تلافيف أوراق تعويذاتهم، يطوونها مرات ومرات كأنهم يركزون خلاصة سحر الكلمات ويختزنون قوتها في تلك الوريقات التي يلفونها في نهاية الأمر بقطعة قماش ينقشون عليها حروفا ورموزا غير مفهومة. أصابعي تتحسس الحجاب الذي تصر أمي أن تحيكه إلى ملابسي الداخلية. السودان بلاد السحر تملكها وحوش هائمة من السباع والضباع، وتحيط بها جبال شاهقة، وصحراوات مترامية، وغابات كثيفة. ترى كيف سيكون مقام عبد الرحيم في تلك البلاد القصية. الأنباء التي وصلتنا أخيرًا تشير إلى تزايد الاضطرابات في دارفور وكردفان نتيجة لتصاعد نجم أحد الدراويش الذي ينتحل صفة المهدي المنتظر، وقد تبعه الكثير من أهل السودان في حركة تمرد واسعة ضد الإدارة المصرية في الخرطوم.

الآن وقد رحل عبد الرحيم قدر لي أن أتحمل وحدي تبعات شطط أخي وتهوّره. لم أفهم أبدا أسباب تصميمه على انتقاد حكومة البارودي باشا، وإصراره على أن قادة الجيش يطمعون في السيطرة على البلاد وعزل الخديو. العجب كل العجب أن عبد الرحيم لم يحتفظ بآرائه لنفسه بل جهر بها بين أترابه من الضباط. الآن ذهب عبد الرحيم وعليّ أن أتحمل أنا وِزر أفعاله. على الرغم من عدم

اقتناعي بأفكاره، فإن معظم ضباط أورطتي يعتبرونني شريكا له في كل ما كان يقوله ويجهر به. هل هذا قدري كأخ أصغر لهذا المغرور العنيد؟

في نهاية ممر القشلاق رأيت اليوزباشي محمد عباس يلوّح لي ثم يقترب مني بخطوته العسكرية المعهودة. عندما صار على بُعد خطوات قليلة خلع طربوشه ثم سألني:

– هل رحل أخوك؟ أنا آسف لما حدث له. لقد حاولت بشتى الوسائل أن أثنيه عن أفعاله بلا فائدة. ما دخله بمشاكل الضباط الجراكسة؟ هذا الموضوع لا يخصه بأي شكل من الأشكال.

قلت:

– إنه يستحق كل ما حدث له. وفي حقيقة الأمر أنا لا أتعاطف معه بالمرة، فعبد الرحيم لم يعرني أو باقي أهله أي اهتمام، بل مضى في نقده لقادة الجيش غير آبهٍ بما قد يحدث له، وكيف سيؤثر ذلك على والديه وباقي أفراد عائلته.

أضاف عباس:

– أنا بصراحة لم أفهم أسباب حنقه الشديد على وزارة الثورة التي أعلنت الدستور في فبراير الماضي، وأجبرت الخديو

على إصدار مرسوم به. من منا كان يصدق أننا سنتمكن من تحقيق ذلك.

اتجهنا إلى شجرة جميز ضخمة تتوسط الساحة التي تفصل بين مباني الثكنة. احتمينا بظلها من حرارة شمس شهر يونيه الملتهبة. عباس بدا عليه القلق وتخلى عن صرامته المعهودة وهو يقول بعد تردد:

– الحمد لله الخديو أصدر أمره بإعادة عرابي لنظارة الجهادية. لم نكن سنرضى بأي حال من الأحوال بغير عرابي ناظرًا للجهادية. لقد أرسل كبار ضباط الجيش بتلغراف للخديو يحذرونه من أنهم غير مسئولين عما قد يحدث في البلاد إذا لم يرجع عرابي إلى نظارة الجهادية. هل قرأت نص البيان في إصدار اليوم من جريدة الوطن؟

علقت قائلا:

– لقد مر علينا أسبوع عصيب منذ أن استقالت حكومة البارودي. ولكن هل تعلم أن عرابي باشا عندما غادر مقر نظارة الجهادية أبلغ الضباط أنه سيظل "رئيس الوطن" وأنهم يجب ألا يلقوا بالا لقرار استعفاء الوزارة.

استطرد عباس:

- وبعد استعفاء الوزارة أحجم الجميع عن مسئولية تأليف حكومة جديدة، ويبدو أن الخديو يرغب في الاحتفاظ بكل السلطات في يده.

سألته:

- هل قرأت المنشـور الـذي أصدره الخديو منـذ أيام قليلة يطالب فيه مديري المديريات بالتأكد من حسن سير الأعمال والأشغال المتعلقة بهم حتى يتم تأليف حكومة جديدة.
- لقد رأيت المنشور الذي يأمرهم فيه بالمحافظة على الأمن والنظام لمنع القلاقل التي قد تحدث بسبب استقالة الوزارة.
- مواقف الخديو وعرابي متضاربة، ولا أحد يفهم ما يفعلان بالضبط. هذا الصراع الحاد على السلطة لا يطمئن أحدًا.
- هذا المنشور لا يعني إلا شيئا واحدا. الخديو قد تحمل بنفسه مهام نظارة الداخلية، وأنه ينوي تقوية سلطاته خلال الفترة القادمة. ويبدو أنه سيتولى وحده معظم شئون الحكم بدون تعيين وزارة جديدة، وسيكون ذلك بدعم كامل من الإنجليز وموافقة الفرنسيين.

أضفت مستنكرا:

- لقد قرأت ذلك المنشور في عدد الأمس من "الوطن".

وما لا أستسيغه في هذا المنشور هو دفاع الخديو عن دخول البوارج الإنجليزية والفرنسية إلى مياه الإسكندرية، وإصراره أن مهمتها سلمية تماما ولا تمثل أي تكدير للسيادة المصرية.

أسهب عباس في شرح الدوافع التي أدت إلى تصرفات الخديو الأخيرة:

– مما لا شك فيه أن الخديو حاول استغلال وصول البوارج إلى الإسكندرية للتخلص من العرابيين. الغريب أنه بعد ذلك رجع عن مخططه، وأعاد عرابي باشا لنظارة الجهادية. حدث ذلك غالبا بسبب تهديد الجيش وتحت ضغط الموقف السياسي الصعب.

تساءلت:

– ماذا تعني؟

حاول عباس أن يشرح لي رأيه في الموقف المتأزم:

– الموقف السياسي ازداد صعوبة بسبب تصاعد المواجهات بين الخديو والعرابيين. هذا الصدام واكب ظهور أزمة الضباط الجراكسة التي بدأت في شهر أبريل.

أيدت مقولة عباس مذكرا إياه بمناقشاتنا السابقة:

- في حقيقة الأمر هذه المشاكل بدأت مع استقالة الوزارة في يناير. هل تذكر الكاريكاتيرات التي نشرتها الجرائد في ذلك الوقت؟ وعلى الرغم من كل الإصلاحات التي تمت، قبل وبعد استقالة شريف باشا، استمر الهجوم على شخص الخديو مع النقد العنيف لشريف باشا وسياساته السابقة.

كلب ذو فراء مترب رقد تحت وطأة شمس حارقة بعد أن انسحب ظل شجرة الجميز من حوله. قام متكاسلا وانتقل إلى نقطة قريبة منا، لوى عنقه ولف رأسه ساندًا إياها على فخذه. بدأ يحك جلده مصدرا حفيفا تصحبه خشخشة مزعجة. ضايقتني الأصوات التي يصدرها فقذفته بحجر لأبعده عنا. كف عن الحك ولكنه لم يتحرك من مكانه ورمقني بعدم مبالاة. نظرت إلى عباس الذي تعجب من رد فعل الكلب، ثم أكمل حديثه:

- أنا أعتقد أن بقاء عرابي باشا في نظارة الجهادية يعني سيطرته على الحكومة من جديد، مما سيدفع بالبلاد إلى مواجهة شرسة مع الإنجليز والفرنسيين.

أطرقت لحظة ثم سردت لعباس بعض الأنباء التي بلغتني أخيرًا:

- ألم تسمع بما حدث في بيت سلطان باشا، رئيس مجلس النواب، بعد استعفاء الوزارة. لقد اجتمع العرابيون هناك مع

أعضاء مجلس النواب وكبار العلماء. يقال إن عرابي باشا حضر إلى ذلك الاجتماع ومعه محمد بك عبيد وعبد العال باشا حلمي وعلي باشا فهمي وغيرهم من قادة الجيش.

– نعم، لقد سمعت بدخول عرابي وأصحابه بيت سلطان باشا فيما يشبه المظاهرة العسكرية، وهددوا كل من أظهر الولاء للخديو. ويقال إن عرابي ألقى خطبة حماسية هاجم فيها الأسرة الحاكمة. ثم نادى بخلع الخديو وطلب من كل من يؤيده أن يقف، فقام كل الضباط بينما رفض النواب والعلماء فلم يقف أحد منهم.

رميت حجرًا ثانيًا مر بالقرب من الكلب الراقد في ظل الشجرة ثم تابعت قائلا:

– الواضح من هذا الاجتماع أن النواب لم يوافقوا على خلع الخديو، حتى بعد أن هددهم محمد بك عبيد بسيفه، رفضوا الوقوف لإظهار التأييد لعرابي.

صمت عباس لوهلة كأنه يحاول أن يربط سلسلة الأحداث المتلاحقة ثم رفع رأسه مضيفا:

– أخشى أن الموقف السياسي يزداد تعقيدا. أنا شخصيًا أعتقد أن جذور هذا الوضع الخطير ترجع إلى قضية الضباط الجراكسة الذين حاولوا اغتيال قادة الجيش من المصريين

ومن بينهم عرابي باشا نفسه.

نقلت له ما سمعته أخيرًا عن هذه القضية:

- من المعروف أن المحاكمات أكدت تآمر راتب باشا وعثمان باشا رفقي ناظر الجهادية أيام وزارة رياض باشا، الله لا يرجعها. أظهرت التحقيقات أيضا اشتراك نحو أربعين ضابطًا جركسيًا في محاولة اغتيال عرابي باشا. وقد صدر الحكم بتجريدهم من رتبهم ونياشينهم وإبعادهم إلى أقاصي السودان.

كرر عباس ما يعرفه عن موقف أخي من هذه القضية:

- كان عبد الرحيم مقتنعا أن هذه القضية تم استغلالها لكي يتمكن العرابيون من إحكام سيطرته على الحكم. ودليله على ذلك هو دعوة عرابي لخلع الخديو وتعيين الأمير حليم باشا بدلا منه. الآن ندرك أن هذه الأفعال قد أعطت الإنجليز والفرنسيين ذريعة لإرسال أساطيلهم إلى الإسكندرية.

- وما تبع ذلك من إرسال المذكرة التي طالبوا فيها باستقالة الوزارة وإبعاد عرابي باشا وعبد العال باشا حلمي وعلي باشا فهمي.

مجموعة من العساكر مروا أمامنا. توقفوا للحظة وأدوا التحية

العسكرية لنا ثم مضوا لحال سبيلهم. الكلب الراقد بجوارنا تمطّى ثم قام وتبعهم وهو يهز ذيله. أكمل عباس تحليله للموقف:

– على الرغم من تأييدي لموقف الضباط الوطنيين في مواجهة الخديو توفيق، فإن الموقف ملتبس إلى درجة قد تجر قادة الجيش إلى مواجهات سياسية لا تفيدهم وقد تضر بجيشنا.

تذكرت مناقشاتي مع عبد الرحيم ومقولته التي لم يمل من تكرارها: "إن واجب الجيش هو الدفاع عن الوطن وليس مناصرة طرف دون آخر أو استهداف السيطرة على سلطة الحكم". صمتُّ برهة وأفكاري تقلب الموقف على جميع وجوهه. بعد وهلة أضفت:

– الصراع بين الخديو والعرابيين خطر داهم علينا جميعا. كل طرف لا يرى إلا ما يخدم مصالحه السياسية الضيقة. إنهم يدفعون البلاد دفعًا إلى منعطف حرج سيؤدي إلى مخاطر لا يعرف أحد مداها.

أقبل علينا اليوزباشي عبد الله الدكروري الذي اكتسى وجهه بعلامات القلق والاضطراب. حال وصوله بالقرب منا بادر بسؤالنا:

– هل سمعتما آخر أخبار مهدي السودان؟

أجابه عباس:

– كلنا نعرف أن درويشًا يدعي أنه المهدي المنتظر قد ظهر في جزيرة "آبا" بالسودان منذ نحو سنة، وأن أتباعه في ازدياد مستمر مما يشكل خطرا على سلطة الإدارة المصرية هناك.

أضفت:

– في البداية أرسل رؤوف باشا حكمدار السودان التجريدة تلو الأخرى إلى جزيرة "آبا" لإخضاعه. ولكن قوات الجيش المصري انهزمت أمام "الدراويش" أنصار المهدي الذي استطاع الفرار بأتباعه من جزيرة آبا إلى جنوبي كردفان، وهناك هزموا راشد باشا مدير فاشودة عند جبل قدير.

استطرد عبد اللـه:

– منذ أيام قليلة وصلت أخبار جديدة عن وقوع هزيمة مروعة لتجريدة يوسف باشا الشلالي، والتي أوقع بها الدراويش في كمين على الطريق إلى جبل قدير بالقرب من فاشودة.

هز عباس رأسه أسفًا وصاح:

– لا أصدق أن نهزم مرتين على يد مجموعة من الدراويش. هل لديك المزيد من التفاصيل عما حدث هذه المرة؟

أكمل عبد اللـه روايته:

- أنصار المهدي كمنوا لقوات الشلالي على الطريق لجبل قدير وباغتوا جنود الحملة ليلا وهم نيام فقتلوا منهم أعدادًا كبيرة، ناهيك عن الفتك بيوسف باشا الشلالي نفسه. تكرار مثل هذه الهزائم ستضعف من هيبة الحكومة المصرية وسيؤدي حتما إلى فقدان السودان.

أضفت مستنكرا:

- ألا نتعلم من أخطائنا! هذه الكارثة تجيء بعد هزيمة راشد باشا على يد دراويش المهدي ومقتله مع ألف وخمسمائة من جنوده منذ ستة أشهر فقط. لقد أوقع بهم أنصار المهدي الذين كمنوا لهم على الطريق المؤدي إلى جبل قدير. نفس الطريق ونفس الكمين!

قاطعني عباس قائلا:

- مثل هذه الانتصارات تقوّي من عزم المهدي وأنصاره. كلما هزم المهدي تجريدة ترسلها حكومة الخرطوم لإخضاعه كلما تضاعف عدد المؤمنين به، ووثق أنصاره بكونه حقا المهدي المنتظر وأنه يتلقى الوحي.

- بسبب هذه الانتصارات ستزداد أعداد أتباعه الذين يعتقدون أنه سيتمكن من إحياء الدولة الإسلامية الحقة. وبالتالي سسينتشر الاعتقاد بأنه المهدي الذي سينقذ العالم الإسلامي

من حالة الانحطاط والتردي التي نعاني منها.

واصل عبد اللـه:

- بعد هذه الهزائم، شاع أن المهدي يحارب بسيف القدرة، وأنه قادر على تحويل رصاصات أعدائه إلى ماء فلا تضر بأنصاره. ويقال أيضا إن نارًا تخرج من سيوف الأنصار وحرابهم فتحرق عساكر الترك والمصريين.

قال عباس الذي أطبق ذراعيه خلف ظهره وتجهّمت ملامحه:

- بعد هذه المعارك غنم المهدي كميات من الأسلحة الحديثة التي لم تكن بحوزته من قبل. مجرد حصوله على هذه النوعية من السلاح سيجعل أي محاولة لإخضاعه والقضاء على تمرده أمرا شديد الصعوبة.

استنكرعبد اللـه سوء أداء جيشنا في السودان:

- لا أصدّق كيف يستطيع هؤلاء الدراويش الذين لا يملكون إلا الأسلحة البدائية، أن يهزموا جيشًا نظاميًا مدربًا تدريبًا جيدًا مثل الجيش المصري.

تعجبت من وضعنا السيئ في كردفان وفشل الإدارة المصرية هناك في إصلاح ذلك الموقف المتردي. نظرت إلى رفيقيي وأحسست بمدى توترهما بسبب الأحوال السيئة في كل من مصر

والسودان. حاولت أن أشرح لهما تقييمي للأوضاع في السودان:

- عندما استفحل أمر ثورة المهدي وخاصة بعد هزيمة راشد باشا، أراد شريف باشا أن يرسل الآلاي السوداني لتعزيز القوات المصرية هناك ولإخضاع المهدي، لكن عرابي وأصحابه رفضوا ذلك واستمروا على موقفهم حتى بعد أن أصبح عرابي باشا وزيرًا للحربية في فبراير 1882.

عبد اللـه الدكروري أوضح وجهة نظره:

- العرابيون رفضوا بعث التعزيزات إلى السودان ظنا منهم أن القوات الموجودة هناك كافية للحفاظ على أمنه، بالإضافة إلى أن إرسال هذه القوة سيقلل من حجم الجيش الموجود في مصر مما سيضعف موقفهم المعارض للخديو، ويقلل من إمكانية التصدي لأي عدوان خارجي.

عدت إلى تكرار آراء عبد الرحيم غير مبالٍ برد فعل اليوزباشي عبد اللـه:

- المصيبة أن الكثيرين لا يفهمون أهمية السودان بالنسبة لمصر ولا يعيرونه الاهتمام الواجب. بالنسبة لهم السودان لا يمثل إلا منفًى للمغضوب عليهم من موظفي الدولة وضباط الجيش. هذا قصر نظر رهيب وخطأ لا يغتفر.

لوى عباس شفته السفلى مبديًا أسفه وقال:

- لا تكثر من هذا الكلام يا عبد الكريم. أخطأ أخوك عندما تحمس للدفاع عن الضباط الجراكسة بلا داعٍ. فأرجو ألا تكرر خطأه.

نظرت إلى عباس باستغراب وقلت:

- مصيبة عبد الرحيم هي اعتقاده أن تلك الحادثة قد استغلت ليحكم العرابيون قبضتهم على السلطة. عندما هاجم عبد الرحيم العرابيين نكلوا به، وقرروا إبعاده إلى السودان ضمن الضباط الذين يتم إرسالهم سنويا إلى هناك.

أضاف عبد الله:

- الغريب حقا أن في الوقت نفسه الذي حل فيه العقاب بأخيك وبصغار الضباط المغضوب عليهم، خفف الخديو الحكم على الضباط الجراكسة، وأرسل قادتهم إلى الآستانة، حيث سيعيشون هناك مكرمين منعّمين.

علق عباس:

- من حسن حظ عبد الرحيم أنهم أرسلوه إلى طوكر في شرق السودان، حيث الأمور هادئة نسبيا مقارنة بكردفان.

ربت عبد الله على كتفيّ:

- لا تنشغل يا عبد الكريم بهذه الأمور، فغالبا الأحوال في طوكر أفضل بكثير من أحوالنا هنا في مصر.

عباس هجر ظل الشجرة متجهًا نحو مبنى القشلاق فتبعناه تحت شمس قاسية وأنا أكرر:

- صدَقَ من قال "آخر خدمة الغُز علقة".

***

عودة المنتصر

سبتمبر، 1882

دخل الجنرال "ولسلي" القاهرة منتصرًا يوم الجمعة 15 سبتمبر. قبل ذلك بيوم واحد احتل مصر المحروسة الجنرال "دروري لو" الذي قاد حركة التفاف سلاح فرسان الإنجليز حول ميسرتنا في التل الكبير. استطاع الجيش البريطاني بهذه المناورة الجهنمية أن يطوق قواتنا، وكانت هي السبب الرئيسي في انكسار جيشنا. كيف تُقهر القاهرة؟ وكيف يُهزم من يقهر؟ تعجبت من أننا لم نقاوم الجنرال الإنجليزي الذي تقدم على رأس بضعة آلاف من قواته، واحتل مدينة بحجم القاهرة زاخرة بأهلها وعساكرها. الحاميات المصرية

الموجودة في ثكنات العباسية ومعسكر القلعة واستحكامات جبل المقطم لم تحاول صد جيش الغزاة أو مقاومته.

الشائعات انتشرت في أنحاء المحروسة كالنار في الهشيم حتى قبل أن يدخلها الإنجليز. شاع أن عرابي كان مجتمعا مع رفاقه في منزل علي فهمي، وعندما عرف بوصول طلائع الجيش البريطاني إلى مشارف العاصمة أرسل أوامره بتسليم حامية العباسية. بعد انتهاء الاجتماع رجع محمود سامي البارودي إلى بيته معلنا أنه ذاهب إلى منزله، فإذا أرادوه فإنهم يعرفون أين يجدونه. في مساء نفس اليوم ارتدى عرابي باشا بذته العسكرية وأخذ سيفه، وركب عربة بصحبة طلبة باشا وتوجها بها إلى ثكنات العباسية. لما بلغاها كان الجنود المصريون قد استسلموا وتم تجريدهم من سلاحهم. سلم عرابي باشا وطلبة باشا سيفيْهما للجنرال "دروري لو" الذي أمر بحبسهما في إحدى غرف الثكنة.

فيما بعد قرأت في جريدة الوقائع المصرية، أنه في نفس الليلة سلم علي بك يوسف مفاتيح القلعة واحتل الإنجليز قشلاقي العباسية وقصر النيل. جنودنا في الصالحية وكفر الدوار سلموا أسلحتهم لضباطهم وتوزعوا قاصدين قراهم وبلادهم. الأخبار التي وصلتنا خلال الأسبوع الماضي تشير إلى أن الإنجليز استولوا على كل القلاع والأبراج والطوابي، ودمروا مدافعها وأتلفوا إبر إطلاق النار فلم تعد صالحة للاستعمال. الوحيد الذي رفض الاستسلام

هو عبد العال باشا حلمي قائد حامية دمياط الذي ظل مرابطا في الطوابي ومنع عساكره من التسليم للعدو. أهل المحروسة الذين قاموا بثورات هائلة في وجه الفرنسيين أيام نابليون وكليبر لم يتحرك منهم إلا أهالي باب الشعرية والحسينية الذين خرجوا إلى الشوارع يحملون الهراوات والسكاكين بغرض قتال الإنجليز، لكن محافظ العاصمة بعث بقوة من ضبطية عابدين لردهم منعا لسفك الدماء. في نهاية الأمر نجح في السيطرة على الموقف وحال دون احتكاكهم بعساكر الإنجليز. ومن سخرية القدر أن يدخل الجنرال "ولسلي" القاهرة بصحبة سلطان باشا، نائبا عن الخديو، ومعهما الدوق أوف كنوت النجل الثالث للملكة فيكتوريا. استقر الجنرال في سراي عابدين ونزل الدوق في قصر النزهة بشبرا.

دخلت القاهرة سيرًا على الأقدام بعد أن توارى الجاويش حسن. عند منحنى شريط السكة الحديد بالقرب من "أبو كبير" لحقت بأول قطار مر بي. وجدت القطار متجهًا من الصالحية إلى مدينة المنصورة، وعلى متنه التقيت أعدادًا غفيرة من عساكر وضباط آلاي البارودي قاصدين بلادهم وقراهم في قلب الدلتا وعلى امتداد صعيد مصر. عرفت منهم أن الإنجليز قد احتلوا محطة الزقازيق وأنهم يأسرون جميع الضباط والعساكر المصريين الذين يجدونهم على أي من القطارات. من المنصورة ركبت أحد القطارات المتجهة إلى طنطا ومنها إلى إيتاي البارود فكوم حمادة حتى وصلت إلى

بولاق الدكرور. ترجلت تاركا حسن العسقلاني خلفي وأسرعت شرقا نحو مدينة القاهرة. شعرت بالأسى وأنا أستعيد كلماته: "ماذا سيحدث للعيال من بعدي؟"، هذا المسكين لن يمكنه أن يسعد بحياته وسط عياله.

تسللت إلى بيتنا بالصليبة مع أول ضوء للنهار، فوجدت أمي جالسة على دكة في ركن من فناء دارنا. في هذا الوقت من اليوم كنت تجدها شعلة من النشاط وهي تستعد للنهار الجديد. تبدأ بتحضير الفطور لأبي قبل ذهابه لصلاة الفجر. بعد ذلك كانت توقظنا وتبدأ الأعمال الخاصة بالبيت التي تعاونها فيها أم عواطف وأختي نفيسة. يوم عودتي وجدتها صامتة لا تلوي على شيء، جالسة على الكنبة الإسطنبولي في المنضرة وقد أغمضت عينيها اللتين أحاطتهما هالات سوداء. تسللت إليها، احتضنتها ودفنت رأسي في صدرها. بحركة تلقائية أخذتني في حضنها، ثم وضعت كفها تحت ذقني ورفعت رأسي برفق لتتأكد من حقيقة وجودي بين ذراعيها. قطرات دموعها الدافئة بللت وجهي وشعر رأسي. ضمتني مرة أخرى لتضمن أنني لن أفارقها. أطالت النظر إليّ ثم همست:

– لم أفقد الأمل أبدًا، كنت واثقة من رجوعك، ومتأكدة من عودتك منتصرًا. أبوك لم ينقطع عن الصلاة والدعاء لك، وأنا كنت متأكدة من كرم ربنا. لقد دعوت اللـه باستمرار لكي يحميك ويحفظك.

غمغمت بأسى:

– الإنجليز هزمونا وقتلوا الآلاف منا.

جففت دموعها وابتسمت غير مصدِّقة وجودي في حضنها ثم أكملت حديثها غير مبالية بما قلته:

– لقد عدتَ لي، لقد عدت منتصرًا ومرفوع الرأس.

تلفتُّ حولي وسألتها:

– أين أبي ونفيسة؟ وأين ذهبت أم عواطف؟

ردت بهدوء:

– أبوك ذهب لصلاة الفجر وأم عواطف لم تغادر بيتها منذ أن دخل الإنجليز مصر. أما نفيسة فلم أشأ أن أوقظها في هذه الساعة المبكرة، هي الأخرى حالتها صعبة بعد أن وصلتنا أخبار التل الكبير.

قمت من بين ذراعيها لكي أخبر نفيسة بعودتي سالمًا، لكنها أمسكت كفي بقوة رافضة أن تدعني أذهب، ثم قالت محذرة:

– مخبري "تمن" الدرب الأحمر أتوا إلى البيت مرتين بحثًا عنك. لا يمكنك أن تتصور الأمل الذي أحياه في نفسي سؤالهم عنك. أيقنت أنك ما زلت حيًّا، ولم يمسسك مكروه.

تعجبت مما سمعت وسألتها معربًا عن دهشتي:

- ماذا فعلت لكي يتحرى عني مخبرو "التمن"؟
- رجال الخديو يلقون القبض على كل الضباط الذين ناصروا عرابي أو حاربوا معه.
- لكني لم أفعل شيئًا غير الدفاع عن مصر وأهلها. لقد ضحى الآلاف من رفاقي بحياتهم من أجل هذا البلد.

أضافت بأسى:

- لا يمكنك يا حبيبي البقاء هنا في البيت لأنهم حتما سيعودون المرة تلو الأخرى حتى يجدوك. ولا أحد يعلم ماذا يمكنهم أن يفعلوا بك. إنهم غالبًا ما يحضرون في الصباح الباكر فلا بد أن تذهب فورا. سأخبر أختك وأباك بعودتك سالمًا. يجب ألا نسمحِ لهم بالقبض عليك والزج بك في السجن.

لم أفهم من أين لأمي بكل هذا الجلد والقوة. اغتسلت على عجل وارتديت ثيابا نظيفة ثم غادرت البيت منتشلا نفسي من بين أحضانها ودعواتها. أعطتني مِخلة ملأتها بأرغفة من العيش والفطير وبعض الجبن. كما ناولتني كيسًا به قطع من ملابسي. قبلّت جبينها وودّعتها ثم خرجت إلى شارع الصليبة لا ألوي على شيء. فكرت في الذهاب إلى محل أبي بالدرب الأحمر لتحيته لكنني خشيت وجود مخبري "التمن" هناك. قررت الصعود في اتجاه القلعة، اقتربت من مسجد تغري بردي فرفعت نظري إلى قبته ذات الخطوط الضخمة

البارزة التي تتناقض مع المألوف من زخارف باقي مساجد القاهرة. مررت أمام مدخله الذي تميزه مقرنصات وتلابيس رخامية رشيقة وتعتلي بابه آيات قرآنية كريمة محفورة بخط رصين. في هذا الوقت من النهار ما زال الشارع خاليًا من المارة. شغلتني مخاوف وظنون شتى... أين أذهب؟ ومن يمكنه أن يأويني؟ اقتربت من مسجد شيخون الذي يحتضن شارع الصليبية ويتقابل جانباه كأحسن ما تكون المقابلة، وتعتلي كل جانب منهما مئذنة تتماثل مع رفيقتها التي تنتصب على الجانب الآخر. النصف الأيمن للمسجد به مدفن الأمير شيخون وتكية للمتصوفة. جذبني صوت خاشع ينشد:

"عطّر اللهم روض المصطفى... بصلاة وسلام سرمدي

زيدنا حبا وقوي لي نشوتي... هب لنا نورا وفتحا لقوتي

هيئ اللهم جمعي وإخوتي... كي يقبّل فاهنا الراح الندي

عطر اللهم روض المصطفى... بصلاة وسلام سرمدي

واجعل الأحباب كل قد دنا... كي يروا نورًا به سنا

هم به لا تخش لومة لائما... كي تراه يقظة أو نائما

عطر اللهم روض المصطفى... بصلاة وسلام سرمدي".

دخلت المسجد فوجدت مجموعة من المتصوفين الذين انشغلوا بإنشاد أبيات المديح. تربعت وأسندت ظهري إلى أحد أعمدة الإيوان المقابل لهم. أحسست براحة تتسلل إلى أطرافي كأنما أهوال أيامي

قد ذابت وتلاشت. لأول مرة ومنذ وقت طويل لا أشعر بحاجتي لكي أفعل أي شيء. استسلمت لخدر لذيذ يسري في بدني، فردت جسمي بجوار قاعدة العمود.

أسند رأسي فوق ذراعي وأغط في نوم عميق. عبد الرحيم يظهر أمامي وقد وقف بجانب مدفعه. ينظر نحوي فيجدني مختبئًا خلف كومة من تراب. يمد يديه نحوي ويخاطبني محذرا "صديقي يا من تنشد الراحة، ها أنت تفزعني من جديد. أي راحة تنشد؟ أي وهم تعيش؟ ألا ترى ما أرى؟ لقد كنا في انتظار هذه اللحظة، لحظة أن يدرك كل منا أنه يسلك طريقه وحيدا. صديقي يا من حفرت أيامنا قلب هذه الكلمات فصارت جوفاء لا معنى لها. أي راحة تنشد فإنها أقرب إلى الموات. اغفر لي كلماتي فمأساتك مأساتي. هل تذكر طفولتنا، يوم تعاركنا، تركتني والدموع في عينيك، لحقتك فوجدتك وكأنك في انتظاري. أي راحة تنشدها؟ الهواء من حولك تملأه أنفاس تعبة، ماذا فعلت لتنعم بهذا القدر من الراحة؟ وبعد ذلك تنشدها، وكأنك تستريح منها. ألا تكفيك راحة بدنك فسعيت وراء عقلك هو الآخر لتريحه. أرتجف وأنا أرى ملك الموت يفتح ذراعيه ليحتضنك، ستعيش بقية حياتك في ركنك الصغير، منكمشًا على نفسك، تلتحف كفنك. تتكلم أحيانا، تخجل من كلماتك فتصمت، تمل مكانك، تتلفت يمينًا ثم يسارًا، وتحلم أنك تناضل، تتسلق الجبال، تتغلب على كل الصعاب وتجلس فوق قمة الحياة لتستريح".

انتفضت مستيقظًا من نومي، العرق بلل ثيابي على الرغم من برودة الصباح. المتصوفة الذين تحلقوا في الساحة المقابلة ما زالوا يرددون الأدعية والأذكار.

"رقنا حتى نرى آلاءها... واعطنا التوفيق مد ولائها
ونرى المختار في عليائها... ونقل للنفس طيبي واسعدي
عطر اللهم روض المصطفى... بصلاة وسلام سرمدي".

قمت من مكاني، خرجت من المسجد وأكملت مسيرتي في اتجاه القلعة. عند مروري بالسبيل الذي يتوسط الطريق، تناولت كوبا ملأته من ماء الحوض البارد وشربت منه حتى ارتويت. تذكرت الشيخ سلمان ولسبب مجهول ابتسمت خلسة. وصلت ميدان الرميلة حيث تطل علينا القلعة من فوق أسوارها الهائلة. بواباتها الضخمة أغلقت على ثكنات جوفاء هجرها عساكرها وحل محلهم جنود الإمبراطورية البريطانية. مدرسة السلطان حسن على الجانب الآخر من الميدان تتوازن مع كتلة القلعة المهيبة وتتحدى سلطانها. الهواء يثير دوامة من الغبار لا تمنعني من استكمال مسيرتي نحو مدافن المسلمين بالقرب من مقام الإمام الشافعي. صعد بي الطريق ملتفا حول القراميدان مرورا ببوابة القرافة حتى وصلت عند المدافن المتناثرة فوق وجه صحراء المماليك.

وقفت أمام مشهد الصحراء التي يحدها جبل المقطم، فملأني شعور بالرهبة، وأدركت أنني لم أعد ذلك الملازم البسيط الذي لا

يملك من أمره شيئا. ترى من سيجرؤ على حمل مسئولية هذا الشعب في المستقبل؟ لسنوات عديدة لن يأتينا عرابي آخر راكبا حصانه وشاهرًا سيفه. نحلم بزعيم يتمكن من إلهام الناس وقيادتهم إلى طريق العدالة والحرية والكرامة. ولكن هل سيمنحنا القدر بطلا آخر يملك الشجاعة لكي يجازف من جديد بمصير هذا الشعب؟ عرابي اختار هذا الطريق وقرر أن يتحدى عصره. وقف في وجه المجهول ولم يدرك إن كانت لديه القدرة على النجاح، أو إن كان يتمتع بالقوة التي تمكنه من تحقيق الحلم. ربما لم يتخاذل ولكن الخذلان هزمه، ربما أدرك ما يخبئه القدر ولكنه واجه مصيره بشجاعة وجلد، ربما تهور وقاده الغرور إلى جحيم الخسارة والخسران. في جميع الأحوال اتخذ عرابي قراره، والآن يجب عليه تحمل المسئولية كاملة ويبقى لنا نحن أن نتحمل تبعات هزيمته. أدرك تماما أن القرارات المصيرية لا تصدر من فراغ، بل يختارها شخص محدد أو مجموعة معينة من الناس لمجابهة تحديات فرضت عليهم فرضا أو صاروا إليها بكامل إرادتهم. مهما يكن السبب فإن من يستهين بعواقب قراره قد يُمتهن، لكننا جميعا ندفع الثمن في النهاية. يوم نفقد الإيمان بقدراتنا، نخون أنفسنا وكل ما نؤمن به. هل سنبتلَى بأجيال من المقهورين لمائة وألف قمر؟ بأجيال يجتنب أبناؤها وزر أمانيهم؟

قعدت في ظل إحدى مقابر المماليك التي تزينها قبة استطالت فطاولت السماء. أخرجت رغيفا وقطعة جبن من مخلتي وتناولت

فطوري على مهل. وصلني صوت أذان الظهر من مسجد قريب فقمت إليه لأداء الصلاة. عدد قليل من المصلين اصطفوا خلف الإمام. أكملت صلاتي ثم قمت لركن من الجامع الفسيح وأسندت ظهري إلى الحائط. سيمضي كل منا في طريقه وحيدًا.

ظهر فجأة أمامي بلا مقدمات فلم أره وهو يتقدم نحوي. كان يرتدي جلبابا أزرق اللون له نفس طراز أهل الريف، وعلى رأسه طاقية من الجوخ. هيئته الريفية تتناقض مع لكنته القاهرية وأسلوبه في الكلام. وجهه ممتلئ ومتورد نتيجة لتعرضه المستمر للشمس وله لحية مشذّبة يتخللها بعض الشيب. ألقى عليّ السلام ثم أقعى بجانبي. تلفت حوله بلا سبب فقد خلا المسجد أو كاد، ثم رمقني بنظرة ذات مغزى وقال:

- أنت لست من أهل هذه المنطقة. هل تبحث عن شيء محدد؟ ربما تريد شخصًا بعينه؟ أستطيع مساعدتك إذا أردت.

فاجأني أسلوبه المباشر، لم أرد فماذا يسعني قوله. حركة عينيه تمسح ساحة المسجد بطريقة أثارت شكوكي. لم يهتم بصمتي بل استرسل في حديثه:

- من الواضح أنك قاهري حتى النخاع، ولم تنتقل إليها من الأرياف، لا من قِبلي أو من بحري، وطبعا لم تأت إلى القرافة لتدفن صديقًا عزيزًا أو قريبًا غاليًا.

بدأت أحس بقلق شديد من كونه أحد مخبري "التمن" واحتمال أنه تبعني سرًا إلى هذا المكان. ولكن إذا صدق حدسي فلماذا أنتظر ولم يقبض عليّ حتى حضرت إلى هنا. كان من السهل عليه أن يوقفني عند مسجد شيخون أو بالقرب من قراميدان بدلا من السير خلفي كل هذه المسافة. لم أر معه سلاحا ولو حاول أن يمسك بي فمن السهل طرحه أرضا ثم الفرار. حاولت أن أقوم ولكنه ثبت ركبتيَّ بيد من حديد وقال بتهكم:

– أين تنوي الذهاب؟ أنت اليوم ضيفي.

تأكدت مخاوفي، وأحسست بحبات العرق تبلل ظهري. أبعدت يده مبديًا ضجري بأسلوبه الفظ:

– ماذا تريد مني يا أخ؟

واصلت عيناه التلفت في جميع الاتجاهات ثم ابتسم قائلا:

– الظاهر أنك قلق من طريقتي. أنا حتى الآن لم أعمل معك واجبًا.

صحت به متحديًا:

– أي واجب؟ ماذا تريد أن تفعل بالضبط؟

واصل ابتسامته الساخرة ورد بهدوء:

– أريد أن "أضيِّفك" يا سيدي.

انتفضت واقفا ثم رفعت مخلتي وحاولت شق طريقي نحو مدخل

المسجد فلحق بي مناديًا:

– حيلك! حيلك! انتظر لحظة أنا أريد التحدث إليك. هل تتصور أن دخول الحمام كالخروج منه؟

تعجبت من طريقته المستفزة فصحت به:

– ماذا تعني؟ ما هذا الكلام الفارغ؟ دخول الحمام أو الخروج منه! نحن في مكان للصلاة، على الأقل احترم هذا المسجد.

تبعني حتى خرجنا من المسجد. شمس الظهيرة أشعلت الصحراء التي تحيط بالمسجد العتيق. استمر في مخاطبتي بشكل عدائي:

– ما أنت داخل علينا بلا "إحم أو دستور"، وعندما أعرض عليك ضيافتي تغضب بلا مبرر وتحتد بهذا الشكل.

لا بد أنه أرسل من أبلغ "التمن" حتى يزودوه بمدد من العساكر والمخبرين لكي يعاونوه في القبض عليّ. هو الآن يماطل ويحاول منعي من الهرب حتى يحضر أعوانه. أسرعت بالسير بمحاذاة سور القلعة في اتجاه صحراء الدراسة. لمحت عن بعد العلم البريطاني ثلاثي الألوان يرفرف فوق أحد الأبراج، ومن نفس الاتجاه رأيت ثلاثة رجال يقتربون نحونا على عجل. ها هم يطبقون عليّ وسيمسكون بي عاجلا أو آجلا. استدرت محاولا الهرب نحو الجبل ولكن رفيقي خمن ما اعتزمت عمله فسبقني وقطع الطريق عليّ. توقفت على بعد خطوات قليلة منه وأنا مستعد للإطاحة به إذا

اضطرني الأمر لذلك. نظر نحوي باحتقار واضح وصاح مهددًا:

– مخبر مثلك لا يساوي ثلاثة أبيض يدخل منطقتي ويخرج على مزاجه بدون استئذان. "القرافة" هنا لها حرمة.

التقطت حجرا بحجم كفي لكي أدافع به عن نفسي. سألته:

– ماذا تقصد بمخبر؟ هذا هراء لا أساس له من الصحة.

تقدم نحوي خطوتين موضحًا أسباب تصرفاته:

– لماذا يخرج قاهري مثلك إلى "القرافة" بدون أن يحضر جنازة أو أن يزور مدفنا من المدافن؟ والعجيب أنك اخترت الحضور في عز الظهر وفي هذا اليوم شديد الحرارة. فاكرني مختوم على قفايا؟

بدأت أفهم ما الذي يحدث، وأدركت أن هناك سوء تفاهم أدى إلى هذا المشهد العجيب. بادرت بتوضيح ما اختلط عليه من الأمر:

– ما مشكلتك بالضبط؟ أنا أيضا كنت أظنك مخبرًا من "تمن" الدرب الأحمر.

انطلقت منه ضحكة رددت صداها صخور جبل المقطم وأحجار أبراج القلعة. انتفخت وجنتاه وصاح بصوت أجش به سطوة ممتزجة بطيبة أولاد البلد:

– فاكرني مخبر! أنت أهبل باين عليك! هل يعقل أن المعلم صالح البيومي يصبح مخبرًا على آخر الزمن. كفاك استعباطًا وأخبرني

بحكايتك. لماذا تحاول الهروب من مخبري "تمن" الدرب الأحمر؟ الظاهر واللـه أعلم إنك عامل عملة سوداء؟

أصحابه اقتربوا منا ولكن بإشارة منه توقفوا خلفي على بُعد خطوات قليلة. ترى هل أخبره بأحداث الأيام الماضية؟ ماذا يمكنني أن أفعل؟ قررت أن أختلق قصة تبدد شكوكه:

– أبدا أنا ضربت عسكري إنجليزي وهربت. من ساعتها والدنيا مقلوبة، ورجال ضبطية "الدرب الأحمر" يبحثون عني في كل مكان.

غطت وجهه ابتسامة تعكس سروره بروايتي وقال:

– والنعمة أنت رجل جدع. وواضح أيضا أنك ابن ناس.

أسعدني رد فعله، فقررت الاستمرار في الدور الذي بدأته وحاولت استغلال الموقف لصالحي:

– أنا محتاج مكان للمبيت بعيد عن عيون الحكومة، وحبذا لو وجدت شغلانة آكل منها عيش.

اقترب مني فاردًا كفيه أمام صدره ورد:

– بسيطة خالص، ومن الجائز أن نجد لك عملا معنا.

سألته:

– لا مؤاخذة، ما عملك بالضبط؟

– أنا "تربي" قد الدنيا. أنا وأولاد عمي الواقفون وراءك نعتني

بأمور المقابر البحرية في منطقة الإمام، وجزء من مدافن باب الوزير الواقعة تحت جبل الدراسة. بما أننا لم نتعارف بشكل لائق، فما اسم المحترم؟

– عبد الكريم صبري.

خبط بكفه على صدره وقال:

– تسلم! محسوبك المعلم صالح البيومي.

قهقه بصوت أجش أعقبه فاصل من السعال. أشار بيده لأولاد عمومته فاستداروا وهبطوا في اتجاه مدافن باب الوزير. اقترب مني وأطبق على ذراعي بقوة، قائلا بتبسط:

– ساوفر لك مكانًا معتبرًا في أفخم حوش في زمام منطقتي، بشرط أن تعمل لحسابي وتُخلِص في عملك.

لم أصدق أن القدر قد حل لي كل مشاكلي في أقل من بضع ساعات. لقد وجدت عملا وسكنا في نفس الوقت، والأهم من كل ذلك فإن الشرطة لن تعثر عليَّ بسهولة في هذا المكان.

***

الهوجة

سبتمبر، 1882

اليوم يصل الخديو توفيق إلى عاصمة ملكه في حماية الإنجليز. يرجع أخيرا إلى عاصمته بعد أن شدد سلطان باشا، قائم مقام الخديو، قبضته على القاهرة وتم اعتقال كل من ناصر الثورة بشكل أو بآخر. العجيب أن الخديو قضى عشرة أيام يتلقى التهاني في قصر رأس التين بالإسكندرية قبل أن يقرر العودة إلى محروسة مصر. منذ الصباح الباكر تقف بالقرب من قنطرة الليمون منتظرا وصول قطاره. ازدحم الناس أمام المحطة فاخترت نقطة تستطيع أن تكشف منها مدخل محطة السكة الحديد، وأن ترصد حركة

الناس من جميع الجهات. قنطرة الليمون تعبر فوق نفس الترعة التي تصل مياه النيل الحلوة إلى التل الكبير والقصاصين. أقيمت الزينات على طول الطريق من قصر عابدين مرورا بالأوبرا وبواكي ميدان قنطرة الدكة. اصطف عساكر الجيش الإنجليزي على جانبي الشوارع المؤدية إلى محطة مصر. علقت الأعلام المصرية الحمراء التي تتوسطها الأهلّة والنجوم، ورفرفت الرايات المصرية التي عانقت الأعلام البريطانية ثلاثية الألوان.

في طريقك نحو ميدان الفجلة شاهدت مجموعات من الأوربيين يحتلون الشرفة الأمامية للوكاندة شبرد. اصطف عساكر الإنجليز على طول الطريق حتى كوبري الليمون وميدان المحطة. من الطبيعي أن يحتشد الأجانب بهذ الشكل، فلقد استقرت لهم الأمور وانزاحت الغمة بعدما انتهت هوجة عرابي. ولكنك لم تتوقع ازدحام الشوارع بهذا الكم الهائل من الأهالي الذين بدا عليهم الارتياح والرضا. أين كان كل هؤلاء عندما هرب الخديو توفيق إلى الإسكندرية ولجأ إلى الأميرال "سيمور"، بينما صمد عرابي باشا والوطنيون في وجه الإنجليز عند كفر الدوار؟ هل نسوا أو تناسوا من سقط من عساكرنا في كفر الدوار وعزبة خورشيد والقصاصين والتل الكبير؟ هل ذاب من ثار من الأهالي أم تغيرت أحوالهم وتبدلت أيامهم؟ أخبرك المعلم صالح البيومي أن رجال الخديو يعتقلون كل من حامت حولهم الشكوك بسبب مساندتهم لعرابي،

ويحبسون كل من حرّض على الثورة بأي شكل من الأشكال. معظم الضباط الذين قاتلوا في الإسكندرية وكفر الدوار والتل الكبير قد سجنوا ومعهم أعداد غفيرة من الأعيان والعلماء وخطباء المساجد وكل من وقف مع عرابي ضد الخديو. الوحيد من زعماء الحركة الوطنية الذي اختفى تماما هو عبد اللـه النديم الذي لم يجدوا له أثرا بعد التل الكبير كأنه فص ملح وذاب.

زيّنت الأعلام مبنى المحطة، وفرشت الأبسطة من مدخلها حتى وصلت إلى المركبات التي أعدت لموكب الخديو توفيق. عدد من المدافع استقرت أمام المبنى وأحاط بها الطوبجية منتظرين وصول قطار الخديو. تشاهد المركبات التي أقلت كل من الجنرال "ولسلي" وسلطان باشا ورياض باشا تصل تباعا، وقد انضم إليهم الدوق أوف كونت نجل الملكة فيكتوريا والسير "إدوارد مالت" المعتمد البريطاني. تستمع لأصوات مناقشات هادرة، معظمها يدور حول الموقف السياسي، تصلك من كل صوب ويشدك إليها الحماس المبالغ فيه، والذي قد يدهش له المتجادلون أنفسهم، لا تعي معاني الكلمات التي تصلك من وجوه ألفْتها وأحببتها منذ نعومة أظافرك، وتتساءل: "من هؤلاء؟" وسط الزحام الشديد ترى على بعد ياردات قليلة نفس الأفندي الذي شاهدته من قبل يحث الناس على إسقاط تمثال إبراهيم باشا، تراه يلوح بعلم مصر ذي الأهلة، وتبدو على وجهه السعادة البالغة بعودة الخديو إلى عاصمته، لوهلة لا تصدق

ما تراه وتتعجب من تبدل حاله بهذا الشكل غير المفهوم، حملقت فيه وسمحت للشك أن يتسرب إلى نفسك، ربما تكون مخطئا أو تكون ذاكرتك قد خانتك، تهمس في سرك "يخلق من الشبه أربعين".

دوي طلقات المدافع هز ميدان المحطة ونبهنا إلى وصول قطار الخديو. ما هي إلا دقائق حتى ردت مدافع القلعة التحية. زاد الصخب وتعالت الصيحات، واشرأبت الأعناق لتشاهد الخديو ومستقبليه من علية القوم حال خروجهم من المحطة. أخذ الحاضرون يرددون الأدعية للخديو وينادون بحياته قائلين: "يعيش الجناب العالي مؤيدا بالنصر والإجلال". استقل توفيق باشا المركبة الخديوية المعدة لموكبه وجلس بجانبه الدوق أوف كونت وأمامهما في نفس المركبة الجنرال "ولسلي" والسير "إدوارد مالت". منذ اللحظة الأولى ها هو يحيط نفسه بمنقذيه من الإنجليز. حتى شريف باشا الذي ساند الخديو ورافقه في رحلته من الإسكندرية ومعه رياض باشا وسلطان باشا وغيرهم من الأعيان فقد استقلوا المركبات الخلفية. سار الموكب بين صخب وتهليل الأهالي الذين تزاحموا وراء صفين من جنود الإنجليز الذين أمنّوا جانبي الطريق من ميدان المحطة إلى شارع لوكاندة شبرد حتى عابدين. تحركت المركبة الخديوية في حراسة كتيبة من فرسان الإنجليز سارت خلفها مباشرة، وفصلت بينها وبين ما تلاها من المركبات التي استقلها من رافقه من الأمراء والوزراء والعلماء والأعيان. أراك تهرول خلف الموكب تحت ظلال المباني

الأنيقة والشرفات الرشيقة التي تزين قاهرة الخديو إسماعيل. توقفت قبل وصول الموكب عند مبنى ضبطية عابدين تاركا العربات التي انحرفت غربا متجهة نحو سراي الإسماعيلية.

تشعر بسخط شديد نحو هذا المشهد العبثي. لا تفهم لماذا تهرول هكذا في شوارع القاهرة لمشاهدة موكب الخديو المنتصر. عنقاء النظام القديم تبعث من بين رماد ثورة لم تكتمل. تسرع مبتعدا عن ضبطية عابدين عائدا في اتجاه تياترو الأوبرا. بعد مرور موكب الخديو بدأ العساكر ذوو المعاطف الحمراء بالتجمع عند نقاط محددة تاركين المارة يعبرون الشوارع كما يحلو لهم. تعجبك كفاءتهم في تنفيذ الأوامر التي يُصدرها ضباطهم بلهجة متسلطة، اندفع عساكر الإنجليز بهمة لتكوين التشكيلات التي يأمرهم بها ضباطهم كأنهم في وسط معركة حامية الوطيس. الصرامة والدقة التي ينفذون بها الأوامر تتناقض مع ما يحيط بهم من مظاهر احتفالية وأعلام وزينات وقوم يهللون للخديو المنتصر، ويلعنون عرابي المنهزم. هؤلاء سيقهرون خير أجناد الأرض لمائة وألف قمر.

مجموعة من عساكر الإنجليز إصطف أفرادها في ركن ظليل من أركان حديقة الأزبكية يطل على تياترو الأوبرا. وقف قائدهم أمام صفوفهم شاخصًا فيهم غير مهتم بما يدور حوله من هرج المحتفلين. ثبت العساكر في أماكنهم منتظرين أوامر قائدهم الذي لم يأبه بحرارة الجو، بل استمر في فحص كل واحد من جنوده لفترة

طويلة. تتابعهم من الجانب الآخر من الشارع مهتما بكل تفاصيل إنهاء مهمتهم التي أدوها بالتزام عسكري منقطع النظير. بعد أن تأكد قائدهم من احترامهم الكامل لتقاليد وأعراف العسكرية الإنجليزية سمح لهم أن يستريحوا تحت شجرة "تين بنجالي" قريبة منهم. في لحظات قليلة تبدل حالهم من الانضباط الشديد الذي التزموا به، الصرامة تحولت إلى صخب شديد تعالت معه أصواتهم مختلطة بضحكات وقهقهات يزينها زهوهم بالنصر الذي حققوه.

على أطراف حديقة الأزبكية تجمع عدد من المكارية الذين وقفوا بجانب حميرهم يداعبهم الأمل في أن يستدعيهم أحد جنود الإنجليز. أراك تفتقد الجاويش حسن وكل رجال فصيلتك، الحسرة تعتصر قلبك حزنًا على من دفع حياته دفاعًا عن هؤلاء المحتفلين الذين نسوا أو تناسوا أنفسهم. كل هذا الهرج والمرج ما هو إلا تدنيس لذكرى قتلانا الذين لم تبرد جثامينهم في ميادين القتال. تمتمت بسورة الفاتحة ترحمًا على أرواحهم، وتذكرت محمد عباس الذي تاهت أخباره ولا تعرف حتى الآن ماذا حدث له. طالت وقفتك في نفس المكان فقررت أن تبتعد حتى لا تكون مصدرًا للشكوك بسبب متابعتك لتصرفات عساكر الإنجليز. تسرع الخطى نحو منطقة وش البركة وكلوت بك، قابلت مجموعات صاخبة من المصريين والأوربيين دفعوا بك بعيدًا عن الرصيف، فوجدت نفسك في منتصف الشارع الذي امتلأ بأفندية ومعممين يتبادلون التهاني

بإنتهاء "هوجة" عرابي. امتزجت النكات الماجنة التي تنال من الوطنيين مع السب العلني لعرابي ورفاقه، تسمع تعليقات الأهالي ما بين مؤكد النجاة من الخراب التام الذي كاد أن يحل بالبلاد لو تمكن عرابي وأصحابه من السلطة، إلى زاعم بأن عرابي نفسه قد خرج عن الإسلام نتيجة عصيانه للخديو. ناهيك عن رفضه لفرمان السلطان العثماني خليفة المسلمين.

أراك تنسحب تحت ظلال البواكي التي تحتضن شارعًا انتشرت على جانبيه المقاهي والحانات. الزبائن طغت عليهم البهجة والسرور باستقرار الأمور، وانتهاء حالة الخلل الأمني التي استشرت في الشهور القليلة الماضية. خلف إحدى البواكي ظهر شاب أسمر له لحية مشذبة يرتدي قفطانا أنيقا. وقف في بقعة هادئة يحدق في مظاهر الاحتفالات التي تزين شوارع محروسة مصر. تقبل عليه فتراه يبكي وهو لا يلوي على شيء حتى إنه لم يحاول تجفيف وجنتيه أو ذقنه التي بللتها الدموع. بضع قطرات تعترض نهرًا هادرًا من الوهم لا ندرك أين سينتهي به المطاف. أراك تفزع من تناقض اللحظة وتسرع بعبور نهر الطريق مبتعدا عن ذلك الشاب كأنك تخاف عدوى مشاعر كبتها ودفنتها في مقبرة حياتك اليومية. أطاح وهم استعادة الأمن والاستقرار برشد الناس وذهب بعقلهم. كل هذه الجماهير تشع ارتياحا غير مفهوم بعد القضاء على الحركة الوطنية ووأد ما راودنا من آمال في الحصول على حريتنا الوليدة.

هذه الحالة الغريبة تهدر الدم الذي تشربت به رمال الصحراء وتتنصل من آلاف الوطنيين الذين زج بهم في السجون.

لمحت بطرف عينك مجموعة من مخبري "تمن" الأزبكية يعنفون الشاب الملتحي. انضم إليهم ضابط يرتدي الزي الميري. جذبك المشهد حين شرع الضابط في استجواب الشاب بغلظة، بينما أحاط به العساكر ومعهم مخبرو الضبطية. تمكن الخوف منك فتصلبت مكانك ولم تستطع أن تحيد ببصرك عنهم. تضاعف فزعك عندما أومأ الضابط لرجاله فكبلوا يدي الشاب خلف ظهره وساقوه أمامهم. تملكك الذعر من أن تفضحك تعبيرات وجهك وترشد إليك رجال النظام الذين انشغلوا بملاحقة أي شخص تبدو عليه أي مسحة من التعاطف تجاه العرابيين. هل لاحظوا ارتباكك؟ أي انقباضة لعضلات وجهك أو رعشة لشفتيك أو لفتة لعينيك قد تعلن عن التوتر الذي تشعر به.

أراك تسرع بالابتعاد عنهم وتفر منهم إلى حارة من الحارات متفرعة من صفوف البواكي التي تواكب مسيرتك. تتخيل ما يمكن حدوثه لو علموا بحقيقتك أو عرفوا أنك أحد الضباط الذين ساندوا عرابي، وأنك حاربت معه في التل الكبير والقصاصين. ابتلعتك عتمة البواكي التي تصطف على جانب من جانبي الحارة الضيقة. جذبك صوت غناء يغويك بغنجه وتهتكه:

"محبوبي لابس برنيطة... ودكتة عقدة وشنيطة

طلبت وصله قال لي أسبيطه

ما أحلى كلامه بالطالياني

يا سلام من عيونه... عيون غزلان

واصّلني يا حلو الكلام...

يا سلام".

ستائر من الظلال انزاحت لتكشف عن باب ثقيل من الخشب يحجب مدخل حانة أو بار مهمل. تشعر أن هذا المكان مناسب تماما لإخفاء ارتباكك ولدفن توترك. تحسست كيس نقودك لتتأكد من قدرتك على الوفاء بثمن ما أنت مقبل عليه. تدفع الباب وتنزلق نحو عالم تقطنه ظلال آدمية لا علاقة لها بما يحدث خارج تلك الضلفة الخشبية التي أغلقتها للتو خلفك.

"ما أحسنك يا فرط الرمان... لما تنادي بالأمان

وفي إيدك ماسك الفرمان... تبقى الرعية قلبها فرحان

يا سلام".

بضع ثوان كانت كافية لتزيح المزيد من الحجب وتسمح لبصرك أن يتأقلم مع ظلمة المكان. امرأة تتمايل بين مقاعد شغلها عدد من الرجال الذين انقسموا بين مداعبين يلقون إليها بتوليفة من الكلمات الصفيقة وآخرين يتفرّسون حركاتها الخليعة ولا يكفون عن محاولة تحسس مفاتن جسدها كلما سنحت لهم الفرصة. قميصها الأسود

ينشق عند المنتصف فيكشف عن ثديين نافرين، مع كل اهتزازة لصدرها تنكشف حلمتان متوردتان تزينان نهدين خمريين.

"أوحشتنا يا ساري العسكر... تشرب القهوة بالسكر
وعسكرك داير يسكر... وفي البلد حبوا النسوان
يا سلام".

أراك تخطو ببطء نحو مقعد شاغر ينفرد بعامود يفصلك عن جملة الزبائن الآخرين. حال أن جلست تقدم إليك صبي ووضع أمامك سطلًا من "البوظة".

فجأة برزت لك من ركن مظلم وأقبلت عليك بخفة ودلال ثم قعدت عند قدميك بجوار سطل "البوظة". قلبك يكاد يقفز من بين ضلوعك عندما لمحتها وهي تقترب منك. كأن المرأة الحلبية قد تجسدت أمامك مرة أخرى بشحمها ولحمها. ما الذي أتى بها إلى هنا؟ هل يمكن أن تكون هي نفس المرأة؟ تناولت السطل ورفعته إلى فمك واحتسيت الشراب المر. المرأة لمت شعرها الأسود الغزير وغطت به أحد كتفيها ثم وضعت رأسها على فخذك وأدارت بصرها نحوك ناسجة شباك الغواية الأزلية. قميصها الأبيض يشف عن جسد بض ومفاتن صاخبة. سبّلت عينيها وقالت بدلع:

– اسمي غالية... غالية الزايطة... أعجبك؟

أفلتت منك ضحكة لغرابة اسمها. لم تهتم غالية التي أشارت إلى المرأة التي ترقص وأضافت:

- أم تفضل زينب الصرة؟ لو شاهدتني أرقص لما نظرت أبدا إلى امرأة أخرى.

زادت زينب الصرة من حركاتها الخليعة، رفعت يديها معا بينما رنات الصاجات تتوالى، ثم أخفضت ذراعيها ومرت بكفيها أمام عينيها، مالت بجذعها وأكملت غناءها بصوت أجش به بحة جذابة:

"أوحشتنا يا جننار... يا جميل يا راخي العذار

وسيفك في مصر دار... على عرابي والعربان

يا سلام".

لم تلق بالا لغالية وتجاهلت سؤالها فقد جذب انتباهك رجل غليظ الهيئة يجلس في مواجهتك بجوار مائدة عريضة، رأسه الضخم تغطيه تلفيحة مزركشة تتواءم ألوانها مع جلبابه الأسود الأنيق. شدك حضوره المهيب وقدرته على تسيير الأمور في الحانة بمجرد إدارة بصره في المكان. دفنتَ أصابعك بين خصلات شعر فتاتك التي تأوّهت بغنج:

- صحصحت أخيرًا يا روحي. صباح الجمال يا حبة عيني.

صمتت لحظة ثم كتمت ضحكة عذبة وهي تضيف:

- تحبني أسعد صباحك بحق وحقيقي يا حبي؟

لم تكترث بقولها بل أفزعك دخول الضابط ومعه مخبريه الذين رأيتهم منذ قليل يعنفون الشاب الملتحي بالخارج. لم يلقوا بالا لأي

من الموجودين، بل قعد المخبرون عند المدخل وأسرع صبي الخمارة ليقدم لهم سطلا كبيرا من البوظة ليتشاركوا فيه. نظراتهم تعلقت بجسد الراقصة التي زادت من دلال حركاتها وملأت المكان بغنائها وهي تملّس على سعرها المنسدل.

"أوحشتنا يا سيمور... يا جميل يا راخي الشعور

من يوم ما جيت مصر فيها نور... زي قنديل من بللور

يا سلام".

تقدم الضابط نحو الرجل ذي الجلباب الأسود وجلس بجواره، أطرق الرجل بعد أن حياه الضابط الذي أخذ يهمس له والآخر يستمع باهتمام لما يقال له. على الرغم من محاولتك للانشغال بفتاتك لم تستطع أن تكبح جماح فضولك فسألتها:

- من هذا؟

اتسعت عيناها وردت بصوت تشوبه نبرة فخيمة أقرب إلى الهزل منها إلى الجد:

- تقصد البكباشي حلمي الكاشف من "تمن" الأزبكية، إنه أشهر من نار على علم. أنت غريب عن الحتة باين عليك.

زاد اضطرابك وخشيت أن تظهر عليك علامات القلق، فهؤلاء المخبرون لديهم قدرة فذة على التقاط رائحة الخوف. ضحكت غالية التي لمحت اضطرابك وكأنها أرادت أن تزيد من حرج موقفك فأكملت حديثها:

– البكباشي صديق عزيز للمعلم أيمن طواجن وحامي حمى الخمارة.

تسألها محاولا ألا تظهر اهتماما حقيقيا:

– وهل يتلقى إتاوات من المعلم؟

ضحكت مرة أخرى وأجابت:

– لا يا حبي... المعلم لديه وسائل أخرى يدفع بها المعلوم للبكباشي.

لم تفهم ما قالته وظهرت الحيرة في عينيك، فابتسمت وقبّلت ركبتك قبل أن ترفع عينيها المكحّلتين وتسألك:

– أنت ما لك وما له؟ هل تخافه؟ ماذا تداري عني يا روح عيني؟

أربكك سؤالها فلم تدر ماذا تقول، وحاولت أن تنشغل بها حتى لا يخونك قلقك ويكشفك اضطراب حالك. تنثني بجذعك نحوها. تقبّل شعرها الكثيف ويملأ أنفك رائحة صابون رخيص مصحوبة برحيق زيت اللوز. تترك يدك تنزلق في شق قميصها لتتحسس نهديها، تقبض على حلمة ثديها وتضغط عليها بقسوة. تشهق غالية وتعاتبك وهي تقبّل ذراعك بشفتين نديتين:

– عيب عليك يا رجل... كده عيني عينك أمام كل الناس... الظاهر إنك ولد شقي بحق.

تملصت منك لتواجهك وضغطت بثدييها على فخذك ونظرت

إليك مصوبة سهام رغباتها التي حملت إليك رسائل تفصح عن ولعها بك. موسيقى الجوقة المصاحب للراقصة تسارعت وتيرتها كمقدمة لنهاية الرقصة. ارتفعت حدة دقات الدربكة والطار مختلطة مع رنات الصاجات.

"يا سيمور عسكرك داير فرحان... في قطع دابر عرابي والعربان

يا سلام يا سلام ... يا ملك الأمن والأمان

يا سلام".

ناولتك غالية سطل "البوظة" بعد أن ابتلعتْ شربة منه ثم لحست شفتيها بطرف لسانها دون أن تحيد ببصرها عنك. تناولت السطل منها ورفعته إلى فمك دون أن تنزله حتى فرغت منه. قامت والصقت جذعها بوجهك وهي تهمس لك لتقوم معها.

"قم بنا يا سيدي نسكر... تحت ظل الياسمين

نقطف الخوخ من على أمه... والعوازل شايفين

يا سلام".

قادتك غالية إلى سلم خشبي متوارٍ خلف العمود الذي كنت تجلس بجواره، وأومأت للمعلم طواجن بنظرة ذات مغزى. قمت معها وأنت تكبت فضولك في أن ترى رد فعل المعلم طواجن وتقاوم رغبتك الشديدة في إلقاء نظرة أخيرة على البكباشي حلمي ومخبريه.

***

القرافة

نوفمبر، 1882

طرْق عنيف يدق باب الحوش بعد ظهر يوم بارد تدفئه شمس قصية. عابد الراجحي دفع الباب ودخل ليجدني مستلقيًا في فراشي. أيقظني وطلب مني اللحاق بالمعلم صالح البيومي عند مقام الإمام الشافعي. اغتسلت بهمة وارتديت جلبابا من الصوف ثم أسرعت إلى المقام. تناثرت حول الطريق شواهد قبور متراصة بين الأحواش المحاطة بالأسوار. أصوات عويل النسوة قادتني إلى المكان الذي أنشده. عند وصولي وجدت أهل الفقيد قد تجمعوا حول مدخل المقام، السواد يلف الفسحة الأمامية ويسد الطريق إلى المسجد. انحشرت

وسط النسوة محاولا الوصول إلى البوابة الأمامية. رائحة الحزن والأسى اختلطت مع عرق النائحات فكادت أن تخنقني. الزحام يسحقني، أحسست بوهن شديد، وبعد مشقة استطعت الوصول إلى مدخل المسجد. ولجت من الباب لأجد نفسي في رحاب قبة مرتفعة تعلو مسجدًا فسيحًا. المشيّعون اصطفوا أمام المحراب وقد بدأوا صلاتهم. تسللت إلى الصفوف الأمامية وشاركت المشيعين صلاتهم. الأصوات الملتاعة تصلنا مسحوقة من خلال الحوائط السميكة. لمحت النعش الذي غطته كسوة خضراء تزينها آيات قرآنية. أهل المتوفي وضعوه أمام الصف الأول للمصلين الذين توسطهم صالح البيومي بجلبابه الرمادي وطاقيته المقصبة بخيوط من الفضة تتناغم مع الشيب الذي يزين لحيته.

حال انتهاء الصلاة استدار المعلم صالح وعيناه تمسحان ساحة المسجد كأنهما تبحثان عنّي بالذات. أسرعت نحوه حتى وصلت بالقرب من النعش الذي يرقد بداخله جثمان المتوفي، انحنيت لأحمله مع من تقدم إليه من أهله. رفعنا النعش معًا وأخذنا نشق به طريقنا بين المصلين للوصول إلى الفسحة الخارجية. رأيتها واقفة وسط غيرها من النسوة متشحة بالسواد. تغطي رأسها "عزيزية" انحسرت قليلا فظهرت خصلة من شعرها. وجهها يغطيه "يشمق" من الحرير الأبيض الشفاف يتناقض مع سواد عينيها ويبرز تألقهما. بهرني حسنها وأثار شجوني الحزن الذي انسكب من عينيها

اللامعتين بدموع حبيسة. النعش ثقيل على الرغم من كثرة حامليه، تبادل المشيعون حمل النعش ولكنني لم أترك موقعي، الهواء بارد والطريق طويل. التفت خلفي فلمحت المعلم صالح يسير وسط أهل الميت، وقد تأبط ذراع أحد أنجال المتوفي بينما غطى وجهه وقار يناسب الموقف. سار خلف الموكب جمل يحمل صخّارتين عبِّئت فيهما "الرحمة" من خبز وتمر جاف التي يوزعها أهل المتوفي على المارة. كلما اقتربنا من المدفن تعالى نواح النساء اللاتي أحطن بموكب الجنازة.

وصلنا إلى المدفن حيث وجدنا في انتظارنا أعدادا غفيرة من أهل ومعارف المتوفي الذين حضروا من القاهرة في مركبات اصطفت على مقربة من الحوش. تعالت أصوات نواح متواصل تتخلله ولولة متقطعة ونحيب مرتعش. بعد أن تخطينا المدخل وجدت عابد بصحبة أخويه الذين رفعوا البلاطات الحجرية الضخمة التي تسد مدخل المقبرة بعد أن أزالوا الأتربة التي تغطيها. أنزلنا النعش أمام الدرج الهابط إلى غرف الدفن وسط بسملة وحوقلة المشيّعين، بينما صدح صوت الشيخ نعام بتلاوة متأنية لآيات من سورة الرحمن. المدفن أنيق ارتصت في جوانبه شواهد رخامية أقيمت فوق القبور. أبهة المكان تدل على ثراء مالكيه. في ركن من الحوش أقامت العائلة استراحة بديعة لها شرفة فسيحة درجها من المرمر، ويظللها سقف خشبي مشغول بأشكال نباتية ترفعه أربعة أعمدة رشيقة من

الرخام الأبيض. كنت واقفًا بجوار عابد عندما مرت المرأة أمامنا في طريقها إلى الشرفة محتضنة عجوزًا تساعدها على ارتقاء درجات السلم. أجلست السيدة على أحد المقاعد بعد أن صعدتا إلى الشرفة ووقفت بجوارها. الهواء تشبع بذرات التراب المختلطة بما تسرب من القبر من روائح عطنة.

خلعت "بلغتي" ورفعت الكسوة الخضراء التي تغطي خشبة النعش كاشفًا جثمان المتوفي الملفوف بكفن ناصع البياض. انضممت إلى عابد وأخويه وحملنا الجثمان برفق هابطين به الدرج الحجري المؤدي إلى قبو مكون من ممر واسع وعلى جانبيه عدد من الغرف الضيقة المعدة لاستقبال جثامين الموتى. لحق بنا أسفل الدرج أنجال المتوفي، الذين أشاروا إلى غرفة الدفن التي اختاروها لتكون المثوى الأخير لأبيهم. عابد أحضر قصعة ملأها بملاط وحمل أخواه ألواحًا من الحجر الجيري المعدة مسبقا لسد فتحة غرفة الدفن. أنزلنا الجثمان في القبو، وضعنا رأس المتوفي في اتجاه القبلة، بعد أن تلونا الفاتحة على روح المتوفي، بدأت برص الألواح الحجرية لسد مدخل الغرفة، بينما خلط عابد الماء بالملاط الذي استعملناه لسد الفراغات التي تفصل بين الألواح. بعد أن تأكد أبناء المتوفي من أن غرفة الدفن قد تم سدها بالكامل، رفعوا أكفهم وهم يتلون الفاتحة ثم صعدوا الدرج ونحن خلفهم. استقبلنا الهواء البارد والضوء المبهر. المعلم صالح وقف أمام المدخل بين أهل المتوفي من الرجال، بينما

تجمعت نساء العائلة في شرفة الاستراحة. أغلقنا سرداب المقبرة بمجموعة من البلاطات الحجرية ثم قمنا بإهالة التراب فوقها لإخفاء أي أثر للمدخل. ملأ عابد الدلو بالماء وأخذ يرش أرضية الحوش ليقلل من الأتربة العالقة في الهواء.

بعد أن انتهينا خرجت من الحوش برفقة عابد ووقفنا عند سوره الخارجي ننتظر المعلم صالح. لكزني عابد وهو يبتسم ابتسامة ذات مغزى. تعجبت من طريقته خاصة أنني حتى ذلك اليوم كنت أعامله بتحفظ ولم أسمح له بأن يرفع الكلفة بيننا. جلس عابد على مصطبة ملاصقة لجدار الحوش وأشار لي كي أقعد بجواره ثم بادر بالتلميح لما كان يدور في نفسي واعتقدت أنني لم أفصح عنه لأحد:

– لم ترفع عينيك عنها، لديك ذوق رفيع، لا شك فيه.

جلست بجواره وأجبته بدون تكلف:

– هل كان شغفي بها واضحًا بهذه الدرجة؟

هزهز رأسه بخفة وابتسامته العريضة لا تفارق شفتيه:

– كنت تختلس لها النظرات من وقت لآخر، لكن عينيك فضحتا الهيام الذي طغى على لفتاتك ونظراتك.

شعرت بالحرج لانكشاف أمري، فلم أستطع الرد عليه لكنه استطرد:

- لا تخف... لم يلحظ أحد من الموجودين نظرات الإعجاب التي غمرتها بها. أنا كنت قريبًا منك لدرجة تمكنني من ملاحظة حالتك. محسوبك يفهمها "وهي طايرة".

استدرجني عابد حتى خرجت عن تحفظي، فأطرقت وقلت له:

- أرجو ألا يكون أي من أهلها قد لاحظ حالتي. وترى هل سيمر أمر كهذا على المعلم صالح؟

- هذه المرأة، يا عبده، من طراز فريد. ألا ترى كيف تشع هذا القدر العظيم من الأنوثة؟ سأحكي لك واقعة غريبة وقعت لي مع امرأة كانت تشبهها بشكل كبير، لها نفس العينين الساحرتين والقد الميّاس. قابلتها يوما عند مطلع الدفترخانة الجديدة عند باب الوزير. كانت قادمة نحوي وأنا نازل في اتجاه قراميدان. نظرة واحدة منها طيرت عقلي.

ضحكت وقلت له مداعبًا:

- أنت "رجل خرع" يا عابد، نظرة واحدة بعثرتك.

رفع عابد كفيه إلى السماء كأنه يستحضر كل قوى الطبيعة لتعينه على ما يود سرده:

- صدقني نظرة واحدة كانت كافية، كأنها أمسكت بتلابيبي فلم أستطع الفكاك من سحرها. بلا مقدمات استدرت صاعدا في

اتجاه دار المحفوظات متتبعا خطاها. لا أعلم كيف أحسّت بي فأحكمت ملاءتها حول جذعها بطريقة أبرزت اكتناز أردافها وأشعلت نيران الشوق في صدري.

أعجبتني طريقته في سرد روايته فتبسّطت معه قائلا:

– أعرف بالضبط ما الذي تقصده.

تحمس عابد وأكمل سرد قصته كأنه يستعيد حرارة تلك اللحظة التي ملكت خياله لفترة طويلة من الزمان:

– بعدما صعدنا الطريق المؤدي إلى دار المحفوظات، اتجهت المرأة نحو الطريق الهابط إلى "قرافة" باب الوزير. زادت من تمايل جذعها ودلال خطوها كأنها تناديني فلبّيت النداء.

صوت الشيخ نعام وصلنا من خلال الجدار. نسمة ناعمة من الهواء مرت بنا. سكت عابد الذي أحكم شاله فوق رأسه وطوّق رقبته بطرفه ثم أكمل روايته:

– عندما اقتربنا من المدافن حادت بنا عن الطريق العمومي ومضت مترفقة بين شواهد القبور التي رافقت مسيرتنا، وأنا أنصت لحوار صامت زاده التهابًا تمايل قدّها المثير.

استحسنت وصفه فقاطعته:

– ما هذا الكلام الشاعري؟ أنا قاعد مع حانوتي أم مع حاتم الطائي؟

ضحك عابد وبدأ بمداعبتي:

– أنت أصلك لم تخرج من البيضة بعد، وأمامك طريق طويل حتى تستوعب مثل هذه الأمور. تكفيك نظراتك الهائمة لست الحسن الموجودة في الحوش. حاول ألا تقاطعني يا عبده حتى تستفيد من خبراتي.

هزهزت رأسي موافقًا:

– أكمل يا سيدي. أما أنا فسأسكت تمامًا.

هب واقفًا أمامي كأنه يستعيد موقفًا لن ينساه أبدًا:

– المهم أنها تعمّدت الإبطاء من خطواتها حتى ألحق بها. وصلنا إلى بقعة موحشة تحيطها مجموعة من الشواهد الضخمة. تطلعت حولي فلم أر أحدًا، اقتربت منها واحتضنتها بقوة ممسكا بصدرها فأحسست برعشة تسري في بدني. رمت الملاءة فوق شاهد أحد القبور واستدارت لتواجهني بعد أن أزاحت الطرحة التي غطت شعرها المنسدل فوق ظهرها. ابتلعتني بعينيها بينما تشبثت أنا بجسمها النافر. مددت يدي ورفعت طرف جلبابها فبان بياض فخذيها. غمرتني بقبلات حارة حتى ذهبت بعقلي ثم تمددت في ظِل شاهد مترب لقبر

عتيق، ألقيت بجسدي فوقها وحفرت طريقي بين ساقيها البضين. أحسست بشهد مكمنها فامتطيتها ولم تقاوم. عشت لذة لحظة ممتدة لم أدرك لها بداية أو نهاية حتى دفعتني بعيدا عنها معلنة أنها انتهت. ولأني لم أقض وطري لم أفهم ماذا تريد بالضبط، المفاجأة أربكتني فتركتها تسحب نفسها من تحتي. قامت ولملمت طرحتها وأغراضها. دهشتي ملكت كياني فتنحَّيت جانبًا بينما تسللت هي خلف الشاهد لتصلح من حالها. قمت لألحق بها ولكي أستفهم منها عن هذا التصرف الغريب لكني لم أجدها. لقد ذابت بين الشواهد الصامتة.

قلت مداعبا:

– ماذا تقصد؟ كيف تختفي "أم المحاسن" بمثل هذه الطريقة؟

رفع عابد كتفيه ليشير بعدم فهمه لما حدث له. تابعت مداعبتي:

– أبصم بأصابعي العشر أنها كانت جنيَّة مشتاقة لرجل من الإنس. لقد أغوتك "أم المحاسن" بعد أن تجلت لك وأخذت غرضها منك ثم هجرتك.

رد عابد:

– صدقني لا أعرف بالضبط ماذا جرى في ذلك اليوم. حتى الآن لم أستوعب حقيقة ما حدث لي.

خرج إلينا المعلم صالح فقمنا إليه ووقفنا بجواره بعيدًا عن مدخل الحوش، بينما تواتر أهل المتوفي وهم يغادرون المدفن، وبدأت مجموعات منهم تستقل المركبات التي اصطفت بالقرب من السكة العمومية. الشيخ نعام ألقى علينا السلام ومضى في طريقه بصحبة ثلاثة من إخوان عابد. من مكاني شاهدتها تعاون العجوز على الصعود إلى إحدى المركبات. التفتت نحوي والتقت عينانا، طالت اللحظة أثناء صعودها هي الأخرى واتخاذها مكانها في مواجهتي. تشبّث بصري بها حتى تحركت مركبتها.

أغلق المعلم صالح بوابة الحوش بقفل حديدي ضخم ثم نادى علينا ليعطينا أتعابنا مرددًا:

- إن للـه وإن إليه راجعون، لا حول ولا قوة إلا باللـه العلي العظيم.

تهلل وجه عابد لحصوله على أجر مجزٍ فقبّل كتف المعلم صالح وهو يردد:

- شكرا يا معلم، أنت الخير والبركة، وربنا يديم نعمته عليك.

عدل المعلم صالح من طاقيته وأشار لنا أن نتبعه. بدت عليه صرامة غير معهودة وتجهّم بلا سبب واضح له، فسأله عابد:

– ما بك يا معلم؟ هل أغضبك أحدهم؟

تمهل المعلم صالح في مشيته وهو يشرح وجهة نظره باعتزاز الواثق من نفسه والعالم ببواطن الأمور:

– أبدا يا عابد وضع البلد غير مطمئن. الخديو ورجال حكومته مستمرون في مطاردة ضباط الجيش من أعوان عرابي، بالإضافة إلى قيامهم بحبس الكثير من الأعيان والعلماء والمشايخ. ما يقلقني أكثر من أي شيء آخر هو أطماع الإنجليز في مصر التي تتأكد لنا يوما بعد يوم.

عابد لم يبد تعاطفًا تجاه القلق الذي اعترى المعلم صالح، بل عارضه بحماس:

– من الطبيعي أن يحاول الخديو ضبط الأمن ومطاردة ضباط الجيش من أعوان عرابي! أليسوا هم المسئولين عن كل ما حدث من اضطرابات؟ لولا الهوجة التي تسبب فيها عرابي وانقلابه على الخديو لما انتهينا إلى هذا الوضع السيئ.

استمر المعلم صالح في حديثه غير مبالٍ بما قاله عابد:

– المصيبة أن الإنجليز أعجبتهم الحال في مصر. فهم لم يرحلوا حتى الآن مع أن الأمر قد استتب تماما للخديو. والأدهى من ذلك، أنه قام بتكريم قادة الجيش البريطاني

ومنحهم النياشين والهدايا الثمينة عرفانا بجميلهم.

قاطعتهما مضيفًا:

– لقد كثرت الأقاويل عن بقاء قواتهم لحماية القنال. أضف إلى ذلك استمرار وجود المراقبين الماليين وتقليل أعداد الجيش المصري لخفض المصروفات العمومية.

علق صالح وهو يتفحصني بعين خبيرة:

– كلامك مضبوط ولا غبار عليه، أكيد قرأته في الجرائد فأنت رجل متعلم، ولكن بعد مرور أكثر من شهرين لا أدري لماذا لم ترجع لأهلك. لا بد أن حادثة ضربك للعسكري الإنجليزي قد تم حفظها وانتهت بعد مضيّ كل هذا الوقت. أنا واثق أنك قادر على الالتحاق بعمل أفضل مما تقوم به هنا. أي صاحب دكان يتمنى كاتبًا نبيهًا مثلك.

قطعًا كنت سأجد فرصًا أفضل من هذا العمل البسيط كصبي "تربي" من صبيان المعلم صالح البيومي، لكنني مضطر للعمل هنا لكي أختبئ من المصير المجهول الذي يتربص بي. منذ أيام قليلة كنت قد خاطرت ونزلت الدرب الأحمر قاصدا صلاة الفجر في المسجد الذي اعتاد أبي الذهاب إليه. بقيت في الصفوف الخلفية لأتأكد من عدم وجود أحد من المخبرين ضمن المصلين ثم لحقت بأبي حال انتهاء الصلاة. أمسكت بذراعه فلم يلتفت كأنه ينتظرني

وأكمل مسيرته. سألني عن أحوالي وعندما طمأنته على وجودي في مكان آمن، باركني وطلب مني أن أبقى في مخبئي وألا أخاطر بمحاولة مقابلته مرة أخرى. أخبرني أبي أن محمد عباس قد قُبض عليه في أحد القطارات، وهو يحاول الوصول إلى القاهرة من التل الكبير. الغريب حقا أنه وسط حديثنا أبدى قلقه البالغ على عبد الرحيم بسبب تدهور أوضاع الحاميات المصرية في السودان، كأن كل شئوننا في مصر على ما يرام ولا تشوبها شائبة. قبّلت يده وتركته على عجل، أسرعت عائدًا إلى "القرافة" وكل ما يشغل بالي هو ضرورة التعايش مع هذا الوضع الغريب حتى تتحسن الأحوال.

نظرت إلى المعلم صالح وقلت له:

– أبدا، أنا سعيد بوجودي معكم، هواء الصحراء يلائمني وشغلتك يا معلم بها كل العبر لمن يعتبر. لكن تفتكر أننا كرمنا شهدائنا في التل الكبير بدفنهم بشكل لائق.

صمت المعلم صالح، بينما ردّ عابد بثقة:

– طبعا الحكومة تولّت دفنهم. كل شيء سينضبط ويرجع لمجاريه بعدما انتهت هوجة عرابي.

عقب المعلم صالح:

– من ضحى بحياته من أجل هذا البلد لن يهمه أن نطلق على الأحداث الأخيرة اسم هوجة أو ثورة.

هزهزت رأسي تعبيرًا عن شكوكي وقلت:

– أتصور أنها لم تكن مجرد هوجة.

قفز عابد أمامنا وهو يهزل:

– كانت هوجة، هوجة.

أجبته بصرامة:

– لا هي ثورة، ثورة.

نظر المعلم صالح إلينا شذرًا وقال بتجهّم:

– عموما محاكمة عرابي وأصحابه ستبدأ قريبًا. أرجو أن تهدأ أحوال البلاد بعد انتهاء المحاكمة.

***

الأضحية

أكتوبر، 1882

أشعر بالسعادة مع غالية!

بعد لقائنا الأول حاولت البقاء بعيدا عنها لأنني خشيت أن ينكشف أمري لأحد مرشدي الضبطية الذين يترددون على خمارة طواجن. قاومت رغبتي الملحة في العودة إلى كلوت بك. لم يدم ترددي أكثر من أيام قليلة. أستلقي في فراشي كل ليلة وأحلم بنعومة ملمس جسدها، وأصحو في الصباح مشتاقًا لأحضانها. ما أعجبني فيها كانت الطريقة التي عاملتني بها، استقبلتني بود وحنين صديق قديم. غالية لها طريقة جذابة في التواصل، بعد أسلوب الغواية الفج الذي استعملته معي في

صالة الخمارة، تغير حالها تمامًا عندما صعدنا إلى غرفتها. تحولت من الغواية السافرة إلى كم هائل من الحنان أغدقته عليّ وتبدلت لهجتها تماما. أظهرت اهتماما بالغا بي وبأحوالي، بدأت بسؤالي عما أحب وما أكره. لم تستعمل معي كلمات نابية أو ألفاظا فظة. أخذت وقتها معي تتحسس كل شبر من جسمي، وتتلمس أطرافي بأصابعها الرقيقة، في نفس الوقت انهمكتُ في خلع ملابسي قطعة بعد الأخرى. استقبلتني كأنني الرجل الوحيد في الكون كله، وكأننا نملك الدهر بأكمله لكي نستمتع بلحظات فانية. أخذتني على مهل فالتفّت ساقها بساقي، وبدوري رشفت رحيقها بشهوة تأبى أن ترتوي. لم أتركها تذهب وهي بدورها لم تستعجل الانتهاء مني، أتاحت لي أن أتلذذ بالرقصة الأزلية حتى ذاب الوجود من حولي.

بعد أن انتهينا أحضرت غالية إبريقًا ووعاء به ماء أضافت إليه بضع قطرات من ماء الورد. استعملت الإبريق لتسكب الماء فوق جسمي، واستخدمت فوطة بيضاء لتغسل أطرافي. بعد ذلك جففتني بمنشفة نظيفة قبل أن تعاونني على ارتداء ملابسي. عندما انتهت مني بدلت المياه الموجودة في الإناء، وجلست أمامي لتغتسل بدورها. بقيت في مكاني أستمتع بمشاهدة ثنايا جسمها البديع، أتابعها وهي تمسح أطرافها بحركة متأنية. أقعت أمامي وبدأتْ بدعك أردافها القوية وجذعها الملفوف، ثم صعدت بيدها ومسحت خصرها المصقول وصدرها النافر. دلكتْ نهديها بتمهل وتحسستْ

حلمتيها الورديتين بنعومة. ارتعش النهدان بين أناملها كأنهما لم ينسيا ملمس أصابعي. نظرت غالية نحوي وعلت شفتيها ابتسامة ساحرة ثم غضت طرفها في حياء وانشغلت بنفسها. أدركت في هذه اللحظة وجود شيء غامض لا أستطيع تفسيره يجذبني إليها. ارتدت سروالها وفوقه جلبابها. قبل أن تصحبني إلى الصالة وصفت لي في حديث مطول مدى النشوة التي أحست بها معي، وكيف أنها استمتعت بصحبتي. أسعدني حديثها ولكنني اعتبرته مجرد كلام اعتادت غالية تكراره للحفاظ على زبائنها ولضمان عودتهم لزيارتها. لكن لسبب مجهول حديثها جعلني أشعر براحة نفسية فاقت المتعة الحسية التي كان كياني يزهو بها. قبل أن نهبط إلى الصالة احتضنتني ثم طلبت مني أن أعود للقائها مرة أخرى. دفعت لها ما طلبته وأسرعت بالنزول. قبل خروجي إلى الشارع نظر البكباشي حلمي نحوي بلا اكتراث.

كم أشعر بالسعادة مع غالية! بعد أول لقاء لنا ظل خيالها يهف عليّ في كل ساعة من ساعات النهار وتداعبني ذكراها طوال الليل. في البداية قاومت شوقي إليها، وبصراحة منعني الخوف من العودة إليها. كنت مدركا أن تكرار عودتي إلى نفس المكان سيؤدي حتمًا إلى كشف حقيقة أمري. حتى أهلي لا أزورهم مطلقا بسبب خشيتي من الحبس، فلماذا أغامر بالذهاب إلى مكان كهذا؟ كنت واثقًا تمامًا من خطورة العودة إلى خمارة طواجن، والتردد على غالية بشكل

منتظم. على الرغم من ذلك لم أنجح في مقاومة شوقي إليها، فتخليت عن حذري واخترت العودة إلى أحضانها وليكن ما يكون. أصبح من عادتي أن أطلب غالية كلما عدت إلى خمارة طواجن، حتى لو كان في الصالة من البنات من تفوقها حسنا وجمالا. فضّلت دائما الذهاب في فترة العصرية. في ذلك الوقت من النهار تكاد تكون الصالة خالية من الزبائن مما يمكنني من قضاء أطول مدة ممكنة معها.

التردد على خمارة طواجن سمح لي أن أتعرف ببقية البنات اللاتي يعملن مع غالية. زينب الصرة وسيدة فلة أقرب البنات إليها. زينب كانت امرأة بديعة المظهر. خمرية ذات قوام ملفوف ولها صوت تميزه بحة جذابة. اشتهرت في الصالة بأغنية "محبوبي لابس برنيطة" التي نقلتها مع تعديلات بسيطة عن فريدة الفرنساوية وهي مغنية مشهورة ذاع صيتها أيام حملة الفرنسيس. سيدة فلة التي تميزت بخفة دمها كانت أقصر من باقي زميلاتها، لها لسان لاذع لا يسلم منه كبير أو صغير. أحلى ما في سيدة وجهها الجميل ذو الأنف الدقيق والعيون الواسعة التي تزينها نظرات صافية.

توطدت علاقتي بغالية، وبدأت أشعر أنني زبونها المفضل. لكن ما لم أتوقعه أبدًا هي دعوتها لي لتناول الغداء عندها في ثاني أيام العيد. وعدتني أن تعد لي فتّة لم أذق مثلها من قبل. سألتني عن أهلي وإذا كنت سأزورهم أول أيام العيد. لكي أداري حقيقة أمري كذبت

عليها وأخبرتها أنني مقطوع من شجرة بعد أن توفيت أمي يوم ولادتي، وأن أبي يعيش حاليا في السويس مع زوجته الجديدة.

يوم العيد واليومان السابقان عليه كانت من أشق الأيام التي خبرتها كصبي من صبيان المعلم صالح البيومي. يوم الوقفة حضر الكثير من الزوار إلى "القرافة" راكبين عربات الكارو ومحملين بالزاد والزوّاد. جاءوا إلى المقابر لقضاء وقفة العيد وأول أيامه بالقرب من ذويهم وأحبابهم الذين رحلوا عن عالمنا. المعلم صالح أحسن تنظيمنا لتحقيق أفضل خدمة ممكنة للوافدين. أكد على نظافة الأحواش التي أمرنا برشها بالماء، وطلب منا كنس تراب استراحتها. وفر لنا عددًا من العمال والمقرئين لتقديم الخدمات اللازمة للوافدين الذين أصر أن نستقبلهم وأن نعمل على راحتهم خلال أيام الزيارة.

وصل الزوار ومعهم قففهم المملوءة بفطير وشريك ينوون توزيعه على الفقراء والغلابة الذين عادة ما يزحفون على "القرافة" بمناسبة عيد الأضحى. بعض الأثرياء ذبحوا ذبائح الأضحية يوم العيد وقاموا بطهو لحمها وتقطيعه ثم أحضروه معهم لتوزيعه على الناس رحمة على موتاهم. كنا مسئولين عن تنظيم عمليات توزيع اللحم والفطير، والتأكد من توفير كل وسائل الراحة للزوار وتلبية كل طلباتهم.

في نهاية اليومين بلغ مني الإجهاد غايته، وصرت لا أفكر إلا في زيارتي المرتقبة لغالية. ثاني أيام العيد ارتديت ملابس أفرنجية

جديدة واتجهت إلى مسكن غالية الذي يقع في درب "الدحديرة" بالقرب من حانة طواجن. الطريق امتلأ بالأهالي المنتشرين في شوارع المدينة، ومعهم أطفالهم بملابسهم الزاهية. ازدحمت الشوارع والميادين بعربات الكارو والحناطير التي تنقل الناس من منطقة إلى أخرى. أثناء سيري حاولت تجنب برك الدماء التي غطت الكثير من الأرصفة، الرائحة المألوفة للدم الجاف ذكرتني بمذاق عيد الأضحى في بيت أهلي. تذكرت الحاج صبري عندما كان يعود إلى البيت بعد صلاة العيد لكي يُشرف بنفسه على الجزارين الذين يتولون ذبح خراف الأضحية. أمي كانت تنشغل بسلق لحم الأضحية وتقوم مع أم عواطف بحشو أرغفة العيش باللحم والأرز المطهو. قبل صلاة الظهر أذهب مع أخي وأبي إلى مقام السيدة زينب لنقوم بتوزيع الأرغفة المحشوة باللحم على الفقراء. عندما نعود إلى البيت نجد أمي قد أعدت لنا الفتة المعتبرة، ومعها كل ما نشتهيه من أصناف اللحم المحمر والمطبوخ. للأسف هذا هو أول عيد لا أحتفل به وسط أفراد عائلتي. ترى ماذا فعل أبي في ذلك اليوم بعد صلاة العيد؟ وكيف احتفلت أمي بالعيد بعيدًا عن ولديها؟

خرجت من القرافة ناحية القراميدان وسوق السلاح متجها نحو قنطرة باب الخلق. عند مدخل شارع عبد العزيز تجمع جمهور من الناس يشاهدون "قرداتي" يستعرض مجموعة من الحيل والألعاب "الأكروباتية" التي برع قرده في القيام بها. جذبت حركاته الطريفة

جمعًا غفيرًا من الناس الذين تجمعوا حوله وهم يطالبون القرد بالقيام بحركات معروفة ويلقون له بالفول السوداني. أكملت مسيرتي مرورًا بميدان العتبة الخضراء وتياترو الأوبرا. على الجانب الآخر من جنينة الأزبكية تجمع الأطفال حول مكارية يأجرون جولات بالحمير التي قاموا بتزيينها بمناسبة العيد. خلال رحلتي من "القرافة" إلى درب "الدحديرة" شاهدت من مظاهر الاحتفال بالعيد ما أقنعني بأن الناس قد رجعوا إلى روتين حياتهم العادية، وبأن الآمال العريضة للثورة قد أصبحت نسيًا منسيًا.

على مشارف درب "الدحديرة" استقبلتني رائحة الثوم والتقلية التي فاحت بين البيوت القابعة في هذا الركن من المدينة المقهورة. كانت هذه زيارتي الأولى لغالية في محل سكنها. عرفت يومها أنها تسكن هذا المكان مع زينب الصرة وعيشة الطاهرة. مدخل العمارة صغير، بابه خشبي له شرّاعة يزينها حديد مشغول على هيئة ثعبان التف حول فروع كرمة تدلت عناقيدها. صعدت سلمًا حجريًا تآكلت حوافه. وصلت إلى الدور الثاني واتجهت إلى الباب الواقع على يميني حسب وصفة غالية. لا يمكنني أن أخطئ المكان ورائحة التقلية تتسرب من بين شقوق باب مسكنها. سمعت حركة نشيطة بالداخل وأصوات مجموعة من النساء يتبادلن اللمزات والقفشات.

طرقت الباب فساد صمت مفاجئ حتى فتحت لي غالية. وقفت

أمامي حافية القدمين عليها جلباب من الحرير الأبيض. لفّت كتفيها بشال من الصوف تتداخل خطوطه الحمراء والصفراء في نسق بديع من الأشكال الهندسية الدقيقة. لم أتوقع وجود هذه الصحبة من زميلاتها، فقد تصورت أنني سأقضي اليوم مع غالية بمفردنا. أمسكت غالية بكفي وقادتني داخل الشقة المكونة من ثلاث غرف تتوسطها صالة صغيرة. في ركن من الصالة وجدت زينب الصرة وعيشة الطاهرة جالستين على كنبة بلدي وأمامهما وقفت سيدة فلة. زينب وعيشة وضعتا بينهما صينية عليها سبرتاية وكنكة قهوة وثلاثة فناجين. قامت زينب بخفة وطلبت مني الجلوس مكانها ثم لحقت بغالية التي سبقتها إلى المطبخ، بينما أحضرت سيدة كرسيًا خشبيًا لتجلس عليه بجواري. عيشة غمزت لي وهي تقول:

– أصل غالية أسطى بحق، وتعجبك في كل ما تقوم به.

علقت سيدة:

– عيشة تقصد الطبيخ طبعًا، حتى لا تفهمها غلط.

ضحكت عيشة حتى كادت أن ترفس الصينية. على الرغم من معرفتي بالبنات الثلاث فإنني لم أتحدث إليهن كثيرا من قبل. خلال الشهر الماضي حاولت جاهدا ألا أتكلم مع مرتادي الخمارة، وإن اضطررت إلى الحديث مع أحدهم، كانت ردودي مقتضبة بالقدر الذي لا يثير الشك. لاحظت أن عيشة تغمز بعينها اليسرى بطريقة

لا إرادية كلما تحدثت إليّ. كانت أول مرة ألاحظ هذه اللازمة على الرغم من لقائي بها عدة مرات في صالة الخمارة. أمسكت عيشة بالكنكة وسألتني وهي تغمز لي:

– تحب تشرب فنجان قهوة من إيدي قبل الغداء. غالية تحتاج لمزيد من الوقت للانتهاء من الفتّة و"الممبار".

جلست على الكنبة بجوار الصينية:

– ليس لديّ مانع.

– قهوتك سكرها مضبوط؟

– لا "على الريحة" من فضلك.

علقت سيدة بصوت أجش:

– يا روحي على الأدب والأخلاق.

ضحكت عيشة وأضافت:

– ولأنك رجل مؤدب ومحترم سأقرأ لك الفنجان بعد أن تشرب قهوتك.

وضعت الكنكة فوق نار السبرتاية بعد أن ملأتها بالماء ثم لقمتها بثلاث ملاعق من البن الغامق وأضافت ملعقة من السكر. قلبت عيشة البن والسكر ثم تركت القهوة تستوي على مهل. أقلقني عرض

عيشة بقراءة بختي وتذكرت المرأة الحلبية. أي أخبار ستكشف عنها عيشة؟ وأي مصير ستشكله كلماتها. دخلت غالية علينا ومعها زينب وقالت معتذرة:

– نصف ساعة وكل شيء سيكون جاهزًا.

أشارت غالية إلى زميلاتها وتابعت حديثها:

– هل البنات لطيفات معك؟ قل لي لو ضايقتك أي منهن وأنا سأتصرف معها.

اختفت مرة أخرى في المطبخ، بينما راقبت عيشة القهوة التي بدأت بالفوران ثم رفعت الكنكة قبل أن تنسكب ويفسد وشّها. ملأت الفناجين الثلاثة بالتساوي وناولتني فنجاني وهي تقول:

– بالهناء والشفاء يا سي كريم.

ضحكت زينب وعلقت بصوتها الرخيم:

– يا سلام يا ست عيشة خلاص أصبحتم سمن على عسل... "سي كريم" مرة واحدة وبدون أي تكليف.

تناولت الفنجان ورشفت القهوة مبديًا إعجابي بمذاقها:

– تسلمي يا عيشة، فنجان قهوة يعدل المزاج.

سيدة خبطت فخذيها بقوة ووقفت على حيلها وهي تقول:

– أموت في "الأونطة" يا عيال.

انتهيت من شرب القهوة فتناولت عيشة الفنجان ووضعت طبقه فوق حافته ثم رجّته وقلّبته بخفة. تركته في الصينية بجانب السبرتاية ثم غمست إبهامها في بقايا القهوة التي ملأت الطبق وبصمت على ظهر الفنجان المقلوب. انتظرت عيشة لحظة ثم رفعت الفنجان ووضعته على الصينية لتجف آثار البن الملتصقة بجدرانه الداخلية. زاد توتري مما قد يكشفه فنجاني. هل سينكشف المحجوب وينفضح أمري؟ تحصنت بالصمت منتظرًا ما ستقوم به عيشة. أمسكت عيشة بفنجاني ونظرت داخله بوجه عابس دون أن تنطق بحرف. سيدة قالت مداعبة:

– ما بك يا عيشة يا أختي؟ الشر بره وبعيد. ساكتة ومكشرة بطريقة مريبة ولم تقولي شيئًا لسي كريم ابن الأصول.

غمزت لي عيشة وهمست:

– أنت عندك هم كبير محوّشه كله في صدرك. شوف كمية البن التي تراكمت في قاع الفنجان، كأنها همٌّ على القلب. ماذا وراءك يا سي الجدع؟

أجبتها بصوت هادئ:

– كل واحد منا لديه ما يكفيه من مشاكل.

– لكن همك ثقيل، يملأ قاع الفنجان بالكامل، لكن لا تقلق فهناك راية مرفوعة بعد نقطتين.

نظرت إليها مستفسرا:

– ماذا تقصدين بنقطتين؟

اقتربت مني لتريني آثار البن المرسومة داخل الفنجان بينما أطلت زينب برأسها من فوق كتفي لتشاهد الأشكال التي تشير إليها عيشة. أرتني ما يشبه راية بيضاء تشكلت بالقرب من حافة الفنجان، وحاولت أن تشرح دلائل الرسوم التي ظهرت لها:

– الراية التي تراها تمثل نصرة أو فرجًا قريبًا.

تدخلت زينب في الحديث موضحة ما الذي تعنيه عيشة:

– هل ترى النقطتين المجاورتين للراية؟ هاتان تعنيان أن الفرج سيأتي بعد يومين أو شهرين أو سنتين.

صفقت سيدة بيديها ثم قالت وهي تضحك:

– أو قرنين من الزمن... يا من يعيش! هذا الكلام كله "بكش" لا تصدق ما تقوله بنت "الهجاصة" عيشة.

لم تهتم عيشة بل غمزت لي مرة أخرى بعينها اليسرى، وواصلت قراءة البخت وهي تشير إلى رسوم أخرى تراها في فنجاني:

– هل يمكنك أن ترى هذا الهلال وبجانبه طائر له هيئة صقر أو نسر كأنه يحلق في السماء فاردًا جناحيه؟ سيأتيك خبر مهم إن شاء اللـه مع الهلال الجديد أو ذلك الذي يليه.

زينب أطلت برأسها مرة أخرى:

– هناك أيضًا قط أو نمر على الجانب الآخر من الفنجان.

وافقتها عيشة وسألتني:

– هل تراه؟

هززت رأسي، فأكملت عيشة:

– هذا عدو فاحترس منه لأنه ليس بالهين بل هو جبار لا يرحم. نصيحتي لك أن تصون لسانك، لأن نقوشًا منمنمة تحيط بالنمر مما يدل على الرغي وكثرة الكلام.

عندما اكتملت دائرة النقوش وعادت عيشـــة لنقطة البداية كفت عــن معاينة الفنجـــان ووضعته مقلوبًا علـــى الصينية. مصمصت شفتيها وقالت:

– أنت الظاهر حكايتك حكاية! لم أر فنجانًا مثل فنجانك أبدًا.

أضافت زينب:

– فضفض يا سي الجدع يمكن ربنا ياخد بيدك. نحن مثل أخواتك.

جلست سيدة في مكانها مرة أخرى وهي تقول:

– "بكّاشة بالعشرة" وحياة أمي. لا تصدق حرفًا واحدًا من كلام عيشة، كله "بكش في بكش". وبعد كل هذا "البكش" ترجع ست زينب وتقول لك إننا مثل أخواتك!

رجعت غالية ووضعت يدها في خصرها وصاحت فيهن:

– أسيبكم لحظة... ألاقي عيشة استفردت بالراجل وضحكت عليه بالكلمتين إياهم. أوصيتك يا زينب بسي كريم ولكنك تركتيه لعيشة المفترسة. تعالوا ساعدوني في إحضار الطعام.

أزاحت غالية الكرسي وفرشت حصيرة في وسط الصالة. وضعت زينب طبلية كبيرة فوق الحصيرة، بينما أخذت سيدة شلت ومخدات الكنبة ووزّعتها على الأرض حول الطبلية لنجلس عليها. بدأت الأطباق تتوالى، وضعت غالية في وسط الطبلية طبقًا كبيرًا به فتة تعلوها قطع من لحم الضأن. البنات أحطن طبق الفتة بأطباق الممبار والكبدة المحمرة ووزعنَ بينها أطباق السلطة البلدي ومحشي الكرنب والبطاطس المطبوخة. وجبة هائلة بذلت غالية جهدًا عظيمًا في إعدادها ناهيك عما صرفته عليها من مال. لم أعرف غالية إلا منذ أسابيع قليلة، وها هي تكرمني كأنني صديق حميم. مهنتها لا تحتمل مثل هذه العواطف أو الصداقات الحميمة، مما أثار شكوكي

حول الطريقة التي تعاملني بها. فصّصت غالية قطع اللحم ووضعتها أمامي فالتهمتها مع كمية كبيرة من الأرز والفتة الموضوعة أمامي. زينب التي جلست بجواري ناولتني أصابع "الممبار" وقطع الكبدة، وأزاحت المزيد من أرز الفتة ناحيتي ليكون في متناول يدي. عندما اعترضت لقمتني غالية قطعة من اللحم في فمي وهي تقول:

– بالهناء والشفاء! مطرح ما يسري يمري.

ضحكت عيشة وغمزت لي بعينها. لاحظت أنهنّ لا يشاركنني أكلي، كأنهن يحرصن على التأكد من انتهائي أولا حتى أشبع. خطر لي أنها الطريقة التي اعتدن عليها مع المعلم أيمن. توقفت عن الأكل وطلبت منهن أن يقدمن على الطعام معي وإلا سأتوقف. رفضن رفضًا باتًا، غالية التي كانت أكثرهن إصرارًا قالت لي:

– لا يصح أبدا يا سي كريم. العين لا تعلو على الحاجب.

أجبتها:

– ولا عين ولا حاجب، لكي آكل براحتي لا بد أن تشاركنني الطعام.

امتنعتُ عن تناول الطعام حتى بدأن في الأكل على مضض كمجاملة لي. بعد أن انتهينا لمَّت سيدة الأطباق وأحضرت عيشة طبقًا به "سد الحنك" المسقي بماء الورد. أعدت غالية الشاي الذي

قدمته لنا في أكواب زجاجية صغيرة. كنت جالسًا على الكنبة أحتسي كوب الشاي وأستمتع بحلاوة مذاق "سد الحنك" عندما سمعنا طرقًا عنيفًا على باب الشقة. زينب فتحته فدخل المعلم أيمن طواجن الذي قال بتهكم:

- يا صلاة النبي... طابخين فتة! رائحة التقلية فاحت وغطت على الشارع كله.

نظر نحوي بعينين يملؤهما صلف يتواءم مع نظرته القاسية. له فم صارم يرسم خطًا رفيعًا تحت أنفه المدبب. ذقنه عريض مستقر على رقبة غليظة تنفر منها عروقه النابضة. جلبابه الواسع لا يخفي قوة عضلاته التي تشعر بها دون أن تراها. يشع قدرًا هائلًا من رغبة جامحة في السيطرة على كلّ المحيطين به. ضحك وواصل استخفافه بالموقف:

- ومن هذا بسلامته؟ شهريار!

"سد الحنك" ملأ حلقي ولم أستطع أن أنطق. أحسست بالنار تسري في عروقي. قامت غالية لتواجهه بينما تسمرت زينب بجوار الباب ولم تغلقه. أمسكت غالية بيده وحاولت أن تقوده إلى مكان الطبلية التي ما زالت في مكانها وسط الغرفة:

- أجيب لك لقمة تاكلها يا معلم؟ سي كريم زبوني وأنا دعوته للاحتفال معنا بالعيد الكبير.

نظر لها شذرًا وصاح فيها بتهكم:

– عيد مبارك... وكل سنة وأنتم طيبين! لكنك تعرفين جيدا يا غالية أن لقاء الزبائن في محل السكن غير مسموح به. لا يكون ذلك إلا في الصالة.

طأطأت غالية رأسها بينما حبست البنات الأخريات أنفاسهن. واصل المعلم أيمن عتابه:

– كيف سأحميك يا غالية لو زبونك طلع وغد وضربك أو حاول إلحاق الأذى بك؟ أنا همي مصلحتك قبل أي شيء. هل تفهميني؟

حاولت التحكم في أعصابي وألا أتهور. الشجار معه قد يتسبب في ضرر بالغ لغالية وصاحباتها، وقد يؤدي إلى كشف حقيقتي إذا وصل الأمر إلى "التمن". التفتَ نحوي وقال:

– أنا أعرفك جيدًا. أنت زبون العصاري، تجيء إلي الصالة وقبل أن تنتهي من مشروبك تصعد مع غالية إلى غرفتها، احترس منها ولا تسلم لها رقبتك، كلامها ناعم مثل الجلابية الحرير التي ترتديها.

غالية نظرت إليّ نظرة متضرِّعة كأنها ترجوني ألا أرد عليه. قمت من مكاني فأقبل نحوي المعلم أيمن. حدق فيّ كأنه يزن كل

خلجة من خلجاتي. أحكمت قبضة يدي كأنني أستعد للكمه. التفتتْ غالية نحوي ومسحت بكفها على كتفي ثمّ قالت بعذوبة:

– شرّفتنا يا سي كريم، تعال زورني في الصالة وقت ما تحب. عيد سعيد علينا جميعا.

احدّقت النظر في المعلم أيمن الذي أفسح لي طريق الخروج من الشقة. مررت من أمامه واشتبكت نظراتنا في نزال لا يطفئ حنق أي منا. لم تطرف لي عين حتى غادرت الشقة. كم وددت لو قتلته في التو واللحظة.

***

المحاكمة

ديسمبر، 1882

بعد عدة أسابيع من لقائي القصير مع أبي بعد صلاة الفجر، أردت أن أطمئنه على أحوالي. ادّعيت المرض ووصفت لعابد الطريق إلى محل العطارة الذي يعمل به في الدرب الأحمر. طلبت من عابد أن يسأل عن الحاج صبري لكي يسلمه رسالة مني وبالمرة يشتري لي "قرطاس" زنجبيل وبضعة أعواد من القرفة لأداوي بها مرضي. لم أزد في رسالتي على أنني بخير ولم أوقع عليها لكنني أضفت فيها توصية خاصة لنوعية الزنجبيل والقرفة المطلوبة. أوضحت لعابد أن رسالتي هذه ما هي إلا توصية للحصول على

أفضل الأصناف بأرخص الأسعار من المحل الذي كنت أعمل به قبل قدومي إلى القرافة. كانت علاقتي بعابد قد توطدت مع الأيام مما سمح لي أن أثق به لأداء هذه المهمة دون إثارة أي شكوك.

عند عودته دخل عابد الحوش واتجه فورا إلى غرفتي. رحبت به ثم قدته إلى الشرفة الأمامية لنتمتع بشمس شتوية دافئة. حملت معي موقدًا صغيرًا وكنكة لإعداد القهوة. لم نكد نرتقي الدكة المطلة على شواهد القبور البيضاء التي تحتل الجانب الشرقي من الحوش، حتى تنحنح عابد ممهدًا لما يود قوله. حكى لي أنه وجد في الحاج صبري شخصًا في غاية الغرابة. عندما ناوله الورقة التي حملها إليه ظهرت علامات الدهشة على وجه الشيخ، لكنها ما لبثت أن تحولت إلى مسحة من الحزن يشوبها بعض التوتر. طلب عابد الزنجبيل والقرفة بعد أن أعطاه الرسالة. أتاح ذلك الفرصة للحاج صبري لكي ينتحى جانبًا وسمح له ببعض الوقت لكي يقرأ الرسالة بتأنٍ. عاد بعدها الشيخ وناوله طلباته فلمح عابد في عينيه حزنًا حبيسًا وأحس منه ترددًا غير مفهوم كأنه على وشك السؤال عن أمر ما لكنه تراجع في آخر لحظة. شعرت بشوق جارف للقاء أبي. لديّ الكثير مما أود أن أحكيه له. شهور قليلة قد مضت وكأنها سنوات طوال. أكمل عابد روايته عن تصرفات أبي، الذي حاول أن يتعقبه بعد أن غادر المحل. عندما أحس به عابد بالقرب من جامع ابن طولون أسرع بالهروب بعد نهاية سور الجامع الكبير

صاعدًا الطريق المؤدي إلى مدافن الخليفة. بالطبع لم يستطع الشيخ اللحاق به وتمكن عابد من أن يفلت منه. أفصح بطريقته العفوية عن شكوكه تجاه الحاج صبري وتصرفاته، وأسر لي باعتقاده أنه يعمل مرشدًا لحساب مخبري "تمن" الدرب الأحمر ولذلك حاول تعقبه.

كم أحتاج في هذه اللحظة لنصح أبي. في جميع المواقف الصعبة التي تعرضت لها في حياتي كنت أجده بجواري ينصحني ويوجهني. أناقش معه شكوكي وأقلب معه اختياراتي فيبذل لي من خلاصة خبراته. يبدد قلقي ويدلني إلى الطريق القويم. أتوق إلى مسحة كفه على رأسي وأتشوق إلى نظرة عينيه التي يفيض منها اعتزازه بالنفس وثقته بالحياة. لماذا تركني أذهب؟

اختياراتي الشخصية هل هي ناتجة عن إرادة حرة أم جرفتني إليها اختيارات الآخرين؟ قررت الالتحاق بالجيش بتأثير من أبي الذي طالما أشاد بدراسة أخي عبد الرحيم في مدرسة الطوبجية وعمله كضابط بعد ذلك. من ناحيتي كنت دائما أحاول القيام بما يسعد أبي ويشعره بالفخر. وفي نفس الوقت كنت أفعل ما يجلب عليّ ثناء أمي، وما يثير في عينيها نظرات السعادة والرضا. حتى أخي عبد الرحيم حاولت تسوّل رضاه عن آرائي وأفعالي. فكثيرا ما دافعت عن مواقفه المناهضة للعرابيين على الرغم من عدم اقتناعي الكامل بما كان يدعو إليه. ها هو عبد الرحيم قد ذهب وعرابي قد

انهزم، فتغيرت مواقفي وصرت رافضًا للخديو ونظامه، وفي نفس الوقت متشككا في تصرفات عرابي وتهوره.

منذ أكثر من عام انضممت إلى مظاهرة عابدين. فعلت ذلك لأن معظم زملائي من الضباط قرروا المشاركة. يومها أحسست بحماس شديد لوجودي وسط أترابي وللمكاسب الهائلة التي حصلنا عليها. بعد ذلك صدرت الأوامر إلينا بالذهاب إلى التل الكبير واشتركت في حرب الإنجليز. لقد قاتلت في القصاصين والتل الكبير دفاعًا عن الوطن، ولكن عندما اشتد الوغى كان همي الأساسي هو الحفاظ على حياتي وحياة عساكر فصيلتي. لقد حارب كل جندي من أجل أخيه الذي يقف بجواره قبل أي شيء آخر. هل يعد هذا اختيارًا حقيقيًا؟ في القصاصين والتل الكبير بذلت كل ما يمكنني لكي نحقق النصر لكن في نهاية الأمر هزمنا الإنجليز. ما لم أدركه في ذلك الوقت أن كل اختياراتي كانت مرهونة فقط بمصيري ومصير الرجال الذين يحاربون بجانبي. أعرف الأن أننا صمدنا في التل الكبير بسبب صلابة الأورطة السودانية التي قرر مجموع أفرادها الصمود في وجه الهجوم المفاجئ عند الفجر. صمموا أن يستمروا في القتال والمقاومة مهما كانت العواقب وقررنا أن نصمد بجانبهم. ماذا كنت سأفعل لو تمركزت فصيلتي في مكان آخر؟ ماذا كان سيحدث لو لم تنضم إلينا الأورطة السودانية؟ هل كنت سألقي سلاحي وأهرب مع الهاربين أو أستسلم للإنجليز بدون قتال؟ هل

إرادتي مرتبطة بما يختاره المحيطون بي؟ هل سأهرب كل مرة لا أجد الأورطة السودانية بجواري؟

وحدة رتيبة استولت على أيامي ولا يمكنني التخلص منها. لقد رحل عبد الرحيم إلى طوكر، واختبأت أنا بعيدًا عن أهلي. لم تعد لي صلة بزملائي من ضباط الآلاي الأول، وفرقت الأيام بيني وبين أصدقاء طفولتي من حي الصليبة. لماذا هجرت حياتي السابقة؟ قدري يحتم عليّ أن أولد من جديد كإنسان مختلف عما أردته منذ طفولتي. الآن لم يبق لي إلا عابد والمعلم صالح وغالية الذين يرافقونني في حياتى الحالية المزيفة. قد تكون هذه الحياة غير مناسبة لي، لكن لا مفر منها. لقد أصبحتْ الاختيار المتاح في هذه الأيام الصعبة. الاختيار الوحيد الذي فُرض عليّ فرضا. احتسى عابد قهوته وسألني:

– سرحت بعيدا يا عبده... ماذا أصابك؟

ابتسمت وأنا أماطل كعادتي:

– أبدًا... تذكرت أيام عملي في المحل مع الحاج صبري.

رفع كتفيه وعاد إلى تكرار تحذيره السابق:

– لا بد أن تأخذ حذرك من هذا الرجل. حتى الآن لا أفهم لماذا حاول أن يتعقبني. ماذا كتبت له في رسالتك؟

تابعت أسلوب المراوغة والاستمرار في خلق واقع مزيف مستغلا جهل عابد بالقراءة:

- أردت أن أخبره أنني بخير، وطلبت منه التوسط لدى صاحب المحل لكي يحفظ لي وظيفتي حتى أعود إليها.

رفعت الكنكة عن الموقد وصببت فنجان قهوة آخر. ناولته لعابد ثم سألته متهكمًا:

- قل لي، هل تذكر حكاية تلك المرأة الفاتنة التي أغوت حضرة "العابد" الناسك عند مدافن باب الوزير؟

ابتسم عابد وهو يمسح مسند الدكة بكفه:

- حلوة منك تسميتي "بالعابد". لماذا تريد العودة إلى هذه السيرة؟

شربت قهوتي وحاولت أن أجد إجابة مريحة لحيرتي فتساءلت:

- لو لم تقابل تلك الجنية، هل كنت اخترت أن تذهب وراءها إلى المدافن بدلا من مواصلة طريقك نحو ميدان القلعة؟

لم يفهم ماذا أقصد لكنه رد بلا تحفظ:

- طبعا لا.

تلفحت بشال من الصوف تحت شمس دافئة غمرتني بالراحة

والسكينة. صوت مؤذن وصلنا من مسجد بعيد وأضاف جلالا لصفاء اللحظة التي أعيشها في مكمني البديع. الشواهد الرخامية البيضاء تراقب جلستنا من ركنها الذي احتلته على الجانب المقابل من الحوش. شدت انتباهي كومة الألواح الحجرية التي بدأت تأخذ شكل شاهد لقبور الذين سقطوا في القصاصين والتل الكبير. بعد أن استقرت بي الحال في هذا الحوش قررت أن أحفظ ذكرى إخواني ممن ضحوا بأراوحهم في سبيل هذا البلد. شرعت في حفر أسماء من سقط من عساكر فصيلتي في الميدان على شقف وبواقي ألواح الحجر الجيري التي أجد كميات كبيرة منها متناثرة بين الأحواش والمقابر. كنت قد بدأت بنقش أسماء من استشهد من عساكر فصيلتي ومن زملائي الضباط: مسعد الأبنودي... أحمد فاضل... حسين الشريعي... محمد عبده صادق. ثم قررت إضافة أسماء آخرين ممن عرفتهم من عساكر الآلاي الأول ومن عساكر الأورطة السودانية. مع مرور الوقت كونت كومة من الألواح المنقوشة كشاهد يذكرني بمن فقدت من رفاقي.

بعد انتهاء الأذان قرأت الفاتحة على أرواح من تذكرتهم من هؤلاء الرفاق، وتملكني شعور بالراحة والسلام.

عدل عابد من جلسته بينما بدت على وجهه علامات الجد وقال:

– على أي حال دعنا من هذا الكلام عديم الأهمية. هل سمعت آخر الأخبار؟

قمت لأحضر "القلة" الموضوعة على حافة نافذة الاستراحة وأنا أردد:

– جود يا عابد بكل ما تعرف. أنا لم أغادر القرافة منذ عدة أيام، هل سمعت أي أخبار عن محاكمة عرابي؟

قام عابد وفرد شاله كأنه يتقمص شخصية قاض من هيئة المحكمة. ابتسم ابتسامة عريضة وقال:

– لقد اكتملت محاكمات عرابي وأصحابه خلال الأيام القليلة الماضية. في أول جلسة دخل عرابي باشا مرتديا بزة عادية وجلس بجوار محامييه اللذين قدما لهيئة المحكمة العسكرية اعترافا مكتوبا بأنه ارتكب العصيان المسلح ضد الخديو. وبعد ذلك قرأ المستر "برودلي" بالفرنسية الورقة التي يعترف فيها عرابي بجريمته. بعد بعض الإجراءات الشكلية رُفعت الجلسة على أن تعقد مرة أخرى بعد ظهر نفس اليوم. الغريب أن الجلسة الأولى حضرها عدد قليل من المشاهدين نصفهم على الأقل من الصحفيين. غالبا الحكومة أبقت وقت المحاكمة سرًا حتى تحد من أعداد الحاضرين.

تعجبت من كلام عابد، ولم أصدق أن عرابي باشا يستكين هكذا ويستسلم بهذه السهولة:

– لا أفهم كيف يمكن أن يحدث هذا! لا بد أنهم أجبروا عرابي باشا على كتابة مثل هذا الاعتراف. قل لي يا عابد ماذا حدث في الجلسة التالية.

دخل علينا المعلم صالح البيومي معلنًا أنه جاء مخصوص لزيارتي بعد أن علم بمرضي. وقفت لتحيته فسلم عليّ وجلس بجواري. أكمل عابد وصفه لما حدث خلال المحاكمة:

– عادت الجلسة للانعقاد في الثالثة بعد الظهر كما تقرر لها. من اللطيف أن بعض السيدات الأوربيات حضرن المحاكمة وهن يحملن باقات من الزهور. فور إعادة افتتاح الجلسة أمر رئيس المحكمة كاتبه بقراءة الحكم الصادر بإعدام عرابي. هل تصدق أن هذه الجلسة استغرقت فترة لا تزيد على عشر دقائق؟

صدمني خبر الحكم الصادر بإعدام عرابي باشا. لم أتوقع أن يصل جبروت النظام إلى هذا الحد، فصحت مستنكرا:

– هل يعقل أن يحكموا على عرابي باشا بالإعدام؟ هل يعدم إنسان لأنه دافع عن بلده ضد معتدين طامعين فيها؟

هز المعلم صالح رأسه يمينًا ويسارًا ومال نحوي وهو يبتسم:

– صبرًا يا عبده ولا تتعجّل! الحكم تغيّر.

أضاف عابد:

- بعد تلاوة الحكم، قرأ حاجب المحكمة أمر الخديو بتخفيف حكم الإعدام إلى النفي المؤبد لعرابي من الأقطار المصرية وملحقاتها. وبصراحة هذا يوحي بأن هناك اتفاقًا مسبقًا بين عرابي باشا من ناحية والخديو والإنجليز من ناحية أخرى.

أحسست بشيء من الراحة غير المبررة. على الأقل إبعاد عرابي باشا وعدم إعدامه سيكون مقبولا للكثيرين، وسيؤدي إلى استقرار الأمور في البلاد. ناولت القلة لعابد بينما علق المعلم صالح:

- الحمد لله أنهم لن يعدموا عرابي باشا. ولكن لا يمكن أن يكون رجل مثله قد توافق مع الإنجليز، ومما لا شك فيه أن زعيمًا وطنيًا مثله لن يهادن الخديو والإنجليز.

بعد أن شرب من القلة، قعد عابد بجواري وهو يحكي لي مزيدًا من التفاصيل التي يتناقلها الناس:

- لا أدري... لكن يقال إن علامات الرضا ظهرت على عرابي بعد صدور الحكم، وأن بضع سيدات أوربيات قدَّمن له باقات الزهور مهنئات له على النجاة.

ربتّ على ركبة عابد وقلت له:

– لا فائدة منك أبدًا، فأنت دائمًا تقحم سيرة النساء المليحات في حكاياتك.

المعلم صالح أخرج ورقة مطبوعة من جيبه وناولني إياها ثم سألني:

– هل قرأت وصية عرابي التي بعث بها لجريدة التايمز بعد انتهاء المحاكمة؟ لقد أحضرت لك نسخة مترجمة للعربية يجري توزيعها على الناس في الشوارع.

أخذتها منه ولكني لم ألقِ لها بالا وسألته بعد أن وضعتها في جيبي:

– وماذا حدث لباقي زعماء الثورة؟

رد عابد متسائلا:

– أما زلت تسميها ثورة؟

أجبته بصرامة:

– طبعًا لقد كانت ثورة طموحًا هدفها أن يحكم المصريون بلادهم بأنفسهم. للأسف نتنكر الآن لهذا الحلم ونتوافق مع واقع رخيص.

ضحك عابد ورفع ذراعه معترضًا على ما قلته ثم أكمل:

– لا أريد أن نبدأ هذا النقاش مرة أخرى.

أضاف المعلم صالح:

– لمعلوماتك لقد صدرت أحكام مماثلة ضد زملاء عرابي الستة في الأيام القليلة التي تلت المحاكمة الأولى. طلبة باشا عصمت، وعبد العال باشا حلمي، ومحمود سامي باشا البارودي، ومحمود باشا فهمي وعلي فهمي باشا الديب ويعقوب سامي باشا حكم عليهم جميعًا بالإعدام ثم خُففت الأحكام إلى النفي المؤبد.

رجعت إلى نفس التساؤل الذي يؤرقني:

– وهل توافق كل هؤلاء مع النظام خوفًا على حياتهم؟

أجابني المعلم صالح بثقة:

– أنت رجل طيب يا عبد الكريم لدرجة أنك تجهل الحد الذي سيذهب إليه أي منا للحفاظ على حياته. هل تعرف أن البارودي باشا رئيس وزراء الثورة تنصل من أفعاله، وزعم أنه أقدم على ما فعل لأنه أكره على ذلك بواسطة زملائه من ضباط الجيش.

أضاف عابد مستنكرًا:

– ادعى البارودي باشا أنه وقّع مكرهًا على قرارات الجمعية

العمومية، الخاصة بإعلان مروق الخديو وباستمرار حالة الحرب مع الإنجليز، بسبب ضغوط عرابي وأصحابه. وأكد أن لديه عيالا وأموالا، ولذلك خشي أن يمسسهم ضر لو امتنع عن مناصرة العرابيين

غضبت لما قاله عابد فقلت بحنق:

– هذه شائعات غير معقولة، وكلامك لا أساس له من الصحة بل كله أكاذيب وافتراءات.

ضحك عابد الذي وقف وهو يردد مقولة يبدو أنها انتشرت بين الأهالي:

– سألوا البارودي "ممن الخوف؟"، فقال "من العسكرية بالنظر لما حصل في الإسكندرية".

أردت أن أجد عذرًا لزعماء الثورة الذين كانوا يومًا ما أمل هذه الأمة. كنا جميعًا نحلم بإنشاء وطن جديد يسطع بالحرية ولم يشك أي منا في إخلاصهم وتفانيهم. قلت:

– نحن لا ندري ماذا حدث بالضبط لهؤلاء الزعماء خلال فترة التحفظ عليهم. قد يكونون عذبوا وأجبروا بشكل أو بآخر على قبول هذا الوضع المتردي. هل تعرف ماذا حدث لباقي الضباط الذين تم القبض عليهم؟

أجاب عابد عن سؤالي:

- الوحيد الذي رفض أن يوقع على الإقرار بالعصيان هو علي باشا الروبي، ولذلك تقررت محاكمته منفردًا ولم يحاكم مع باقي قادة الجيش. أما الرتب الصغيرة فستعقد محاكماتهم في نهاية الشهر.

تساءلت:

- وماذا سيحدث لصغار الضباط؟ أكتوبر الماضي أصدر الخديو مرسومًا بتجريد الضباط الذين اشتركوا في الثورة من رتبهم. ويدخل في ذلك كل من وجد تحت السلاح في 11 يوليو 1882 وبقيَ حاملا للسلاح إلى يوم "طاعة" الجيش. سمعت شائعات أن بعضهم ما زالوا محبوسين بلا أي اتهام.

رد عابد وهو ينظر إليّ متعجبا:

- لماذا تهتم بما سيحدث للضباط؟ لا تنشغل بمثل هذه الأمور، صحتك بالدنيا، أنا سعيد لأنك تعافيت وحمدًا لله على سلامتك يا عبده.

وقف المعلم صالح موضحًا أنه سعيد بشفائي وهمّ بالذهاب، قام معه عابد بعد أن حيّاني. تركاني جالسًا وحدي تدفئني شمس شفيقة ويلفني شالي الخشن. أخرجت من جيبي الورقة التي أخذتها من

المعلم صالح وقرأت عنوانها، "وصية عرابي السياسية التي أرسلها إلى جريدة التايمز من سجن القاهرة في 4 ديسمبر سنة 1882". واصلت القراءة:

"وعملا بما أشار عليّ به المحاميان اللذان توليا الدفاع عني وهما المستر "برودلي" والمستر "نابيير" اللذان لا أستطيع أن أفيهما حقهما من الشكر لما بذلاه في قضيتي من الجهد والإخلاص، اعترفت أمام القضاء بتهمة العصيان والخروج على الخديو، كما أن وزراء إنجلترا طالما صرحوا بعصياني. وليس من المنتظر أن يعدلوا بغتة عن هذا الرأي، وليس في استطاعتهم أن يفعلوا ذلك الآن. وأنا أقبل بكل ارتياح أن أذهب إلى أي جهة تريد إنجلترا أن ترسلني إليها. وأن أبقى في المكان الذي تعينه لي إلى أن يحل اليوم الذي تستطيع فيه أن تغير رأيها وتعيد النظر في أمري".

"ولست أشكو اليوم مما انتهى إليه أمري، ولا عن الحكم الذي صدر عليّ، فإنه يقرر على كل حال براءتي من تهم المذابح والحريق التي لم يكن لي يد فيها، ولا تتفق مع مبادئي السياسية والدينية. وقد صار الأمر كله موكولا إلى الحكومة الإنجليزية وإلى مكارم الشعب الإنجليزي. وأنا أغادر مصر مع الثقة التامة في حسن مصيرها، لأنني أعتقد أن إنجلترا صارت لا تستطيع أن تؤجل الإصلاحات التي قمنا للمطالبة بها وكافحنا من أجلها..".

ما هذا الكلام الفارغ؟ هل يدعو عرابي الإنجليز إلى إصلاح أحوال الدولة المصرية لكي تصبح مصر للمصريين يحكمونها بأنفسهم! من المؤكد أن هذه الرسالة دعاية رخيصة، من الواضح أن الغرض منها هو النيل من شأن الرجل وتشويه صورته. أشعلت الموقد ووضعت فوق ناره كوزًا نحاسيًا ملأته بماء أضفت إليه مزيج الزنجبيل والقرفة حسب الوصفة التي تعلمتها من أم عواطف. أشعلت النار في الورقة التي احتوت على الوصية المنسوبة لعرابي باشا ولم أتركها حتى احترقت تمامًا. سطعت الشمس فأضاءت فناء المدفن. آنست بصوت غليان خليط الزنجبيل والقرَفة. تذكرت أحد الرفاق الذين سقطوا يوم القصاصين فالتقطت شقفة من الحجر الجيري لأنقش اسمه عليها.



الأزبكية

يناير، 1883

طلبت مني غالية أن نذهب معًا إلى حديقة الأزبكية. وافقت على الفور خاصة أنني أصبحتَ الآن قادرًا على التحرك بحرية في أنحاء القاهرة. لقد صدر الحكم النهائي بخصوص مئات الضباط من أصحاب الرتب الصغيرة الذين اتهموا بالاشتراك في جريمة العصيان والخروج على الشرعية. تضمن الحكم تجريد الضباط من رتبهم وحرمانهم من معاش التقاعد، وتبع ذلك بأيام إصدار الخديو عفوًا عامًا عن هؤلاء الضباط، وبالتالي الإفراج عن المحبوس منهم. قرأت الحكم في جريدة الوقائع المصرية ووجدت اسمي ضمن قائمة

الضباط المعفو عنهم. سعدت سعادة بالغة لأن منطوق الحكم تضمن أيضا اسم محمد عباس. ذلك يعني الإفراج عنه في غضون أسابيع قليلة. انتظرت لقاءه بشوق بالغ وتمنيت خروجه الفوري من الحبس ولكن حتى الآن "لا حس ولا خبر".

وصلت إلى مسكن غالية في درب "الدحديرة" فوجدتها تنتظرني أمام باب البيت، وقد ارتدت فستانا أخضر اللون وعليه شال حرير أسود يزينه تطريز على هيئة باقات من الزهور الصفراء. على غير العادة لم تضع غالية الكثير من المساحيق على وجهها. اكتفت بطبقة رقيقة تزيد من حمرة وجنتيها، والتي يشف عنهما "اليشمق" الرقيق الذي يغطي وجهها. خطوط سميكة من الكحل الغامق تبرز جمال عينيها وتزيد من ضراوة رموشها.

كنت أتوقع نزولها في جلباب مصري ملفوفة بالملاية التقليدية لذلك دهشت لاختيارها الملابس الأفرنجية. عندما رأتني اندفعت نحوي بخفة ورشاقة زادتا من حسنها وبهائها. تأبطت ذراعي وسرنا معًا في اتجاه كلوت بك. من حين لآخر تتعرقل في مشيتها وتكاد تقع بسبب عدم اعتيادها على ارتداء الأحذية الأوربية ذات الكعب العالي. خلعت عن نفسها رداء الأنثى المثيرة التي عرفتها في زياراتي الأولى لحانة "طواجن"، وارتدّت إلى الصبيّة الرقيقة التي تسعد بأبسط المداعبات والإشارات. نسمة باردة أحاطت بنا فأحكمت غالية شالها الأسود حول كتفيها ونظرت إليّ متسائلة

عن المكان الذي سآخذها إليه. ابتسمت مذكرًا إياها أننا اتفقنا على الذهاب إلى حديقة الأزبكية. أفلتت منها ضحكة طفولية أحسستُ معها بفرحة محيّرة تملأ قلبي.

انطلقنا نحو الأزبكية بينما تأبطت غالية ذراعي. سرت بجانبها مظهرًا حرصي عليها وتقديري الزائد لها. ولسبب ما أشعرني هذا التصرف بمتعة حسية عجيبة. تسير بجواري وتتملكها لهفة طفلة صغيرة تكاد تتعثر من فرط حماسها. البهجة غمرت غالية التي ضغطت على ذراعي وقالت في صوت خفيض:

– لم يفرح قلبي هكذا منذ سنوات طويلة. متشكرة يا سي كريم على شهامتك.

عبرنا الشارع مقبلين على سرادق تباع فيه عرائس المولد. لمعت عينا غالية برغبة طفولية أمام صفوف العرائس المصنوعة من السكر والمزينة بورق الكريشة والألوان المبهجة. كل عروس يقف بجوارها فارسها ممتطيًا جواده وشاهرًا سيفه. ضغطتُ على كفها وهمست لها:

– تعرفي يا غالية، أنت أجمل فتاة التقيتها... أنتِ أشهى من العسل وأحلى من السكر.

على الرغم من سروري بصحبة غالية تملكني شيء من الحرج

بسبب خروجي معها. شغلني احتمال لقائي بأحد معارفي وأنا أسير بجوارها وهي متأبطة ذراعي. تأرجحت أحاسيسي بين البهجة والحرج. أسرعت الخطى ولازمت غالية خطواتي على الرغم من تعثرها من حين لآخر. اخترقنا وش البركة ثم خرجنا من تحت بواكي شارع جنينة الأزبكية لتظهر أمامنا رحابة الحديقة الغناء بأسوارها الحديدية. مررنا ببوابة الجنينة تاركين خلفنا شوارع القاهرة الصاخبة وانتقلنا إلى تلك الجنة الهانئة. استقبلتنا أشجار التين البنجالي الباسقة التي تدلت أغصانها وتشابكت، في نفس الوقت لاحت لنا على اليمين صفوف النخيل الرخامي ذي السيقان البيضاء. تشبثت غالية بذراعي عندما هفت علينا روائح زهور البنفسج والنرجس التي تزين الأحواض الموزعة بين المروج الخضراء الزاهية. رفعتُ نظري إلى سماء زرقاء تناثرت فيها سحب بيضاء محت إحساسي بالحرج وأسلمتني لحالة من النشوة. سعادتي بوجود غالية معي أزالت مخاوفي، وزادت من غبطتي باللحظة التي أعيشها. لا يهم من أكون ومن أرافق. لقد تخلصت من كل زيف، وصرت رجلا ينعم بصحبة امرأة بديعة زادها جمالًا وجودها في هذه الجنة البهية.

انبسط أمامنا ممشى الحديقة المفروش برمال صفراء، وتزين جوانبه رسوم شكلتها حبيبات من "الزلط" الملون. تتوزع على طول الممشى دكك خشبية يجلس عليها الزائرون. معظم هؤلاء من الأوربيين الذين يعشقون التريّض وقضاء أوقات الفراغ يتنزهون

في رحاب الطبيعة البكر أو بين مروج الحدائق المنسقة. وصلنا إلى البركة التي تتوسط الجنينة وجلسنا بالقرب منها نتأمل ماءها الرقراق. كشك خشبي صغير شيد على جزيرة صناعية كمأوى لطيور الإوز والبجع التي تسبح فوق صفحة البحيرة. اقتربت مني غالية والتصقت بي فأحسست بدفء جسدها مما زاد من ابتهاجي. على الجانب الآخر من البركة احتلت جوقة من العازفين كشك الموسيقى. بدأ أفرادها يعزفون مقاطع معروفة من المارشات العسكرية. شعرت بهناء طاغ لا تشوبه شائبة، وتشبثت بهذه اللحظة لا أريد أن أغادرها. التفتت غالية نحوي وقالت:

– تعرف يا سي كريم أنت أول رجل يعاملني هذه المعاملة الطيبة.

اقتربت منها وهمست:

– لم أفعل شيئًا غير عادي.

دفعتني بعيدًا عنها برفق وقالت بدلال:

– لا مؤاخذة أنت رجل أمير ولا تفهم هذه الأشياء، خروجك معي هكذا جهارًا نهارًا دون أي حرج يمثل بالنسبة لي معروفًا كبيرًا وهو شيء يفوق الوصف. لن أنسى أبدًا كرمك معي.

مر أمامنا أفراد عائلة أوربية في طريقهم نحو كشك الموسيقى،

امرأة شابة وزوجها ومعهما طفلان صغيران. أشرت إليهم وقلت لغالية:

- أنت لا تقلين عن أي من هؤلاء، فستانك الأخضر بديع وشالك الأسود يزيدك حسنًا على حسن، بلا مبالغة أنت أجمل من كل النساء الموجودات هنا في الجنينة.

أزاحت غالية طرف "اليشمق" وشبكته على الجانب الأيمن من خدها بطريقة أظهرت ابتسامتها الخلابة. قالت مداعبة:

- الآن صرت سافرة مثل بنات الخواجات.

علقت ضاحكا:

- والنعمة أنت أطعم منهن جميعًا، ودمك شربات مصفّي.

احمرّت وجنتاها وضحكت ببراءة لم أعهدها ثم غمغمت بصوت خفيض:

- الله يخليك يا سي كريم.

أردت معاكستها:

- أنا نفسي أعرف لماذا يطلقون عليك غالية الزايطة على الرغم من أنك هادئة كالحمَل الوديع.

لمعت عيناها بنظرة تملأها الشقاوة:

– لأني كنت زايطة في صغري.

حديثها البسيط زين هذا الصباح البهيج وزاد من بهاء صحبتها. لمست خصرها مرة أخرى وسألتها:

– زايطة إزاي؟

عدلت من جلستها وابتسمت ابتسامة رقيقة قبل أن تبعد يدي وترد بحرارة:

– في صغري كانت أمي تسمح لي بالجلوس وسط الجوقة التي تصاحبها عند أدائها لرقصاتها. عندما كانت تقوم لترقص أمام الزبائن كنت أنبهر بهيئتها وتسحرني حركاتها. أصفق لها وأزغرد وأعمل زيطة ما لها مثيل. كلما زدت أنا في الهيصة كلما تضاعفت "سلطنة" أمي وزاد تألقها. كانت تنطلق مزهوة بمفاتن جسمها واستحسان جمهورها فأزيد في الزيطة. سيبك أنت، كانت أيامًا جميلة وراحت لحالها!

صمتت وأطرقت برهة قبل أن تكمل:

– كم أحببت رقص أمي! في ذلك الوقت كنت أتمنى أن أصبح راقصة متألقة مثلها. كل ليلة بعد عودتنا إلى غرفتنا كنت أقضي ساعات طويلة أتخيل نفسي أرقص أمام الزبائن وخلفي جوقة آخر أبهة. لساعات طويلة أقف أمام المرآة

وأعيد حركات أردافها وأحاول إتقان دق الصاجات.

إوزة بيضاء طويلة الرقبة تركت البركة واقتربت منا وهي تتمايل. أخرجت غالية حبات الحمص من حقيبتها وألقت بها للإوزة فالتهمتها ثم بدأت في الصياح طالبة المزيد.

– هذه الإوزة زايطة مثلك تماما، والطيور على أشكالها تقع.

ضحكت غالية بتكلف واضح وقالت ساخرة:

– حرام عليك يا سي كريم، أنت رجل لطيف، لكن لا مؤاخذة نكتتك بايخة.

أظهرت غضبًا مفتعلا فصحت بها:

– أنا بايخ، يا بايخة!

عادت الابتسامة الخلابة لشفتي غالية التي همست لي وهي تضغط على كفي:

– أنت رجلي المفضل فكف عن استفزازي، لم ترني أبدًا عندما أغضب، وعلى فكرة أنا زعلي وحش قوي.

طفل صغير يرتدي قبعة بيضاء أخذ يطارد الإوزة التي أسرعت بالهرب نحو البركة. اندفعت أمه لتلحق به وأمسكت بذراعه لتمنعه من الخوض في الماء خلف الإوزة. سألت غالية:

– وماذا عن المعلم طواجن؟

قالت بصوت ناعم:

– المعلم أيمن هو ملاذي الوحيد. لقد تكفل بأمي في آخر أيامها، وأنا نشأت فوجدت أمي تعمل في خمارة طواجن. اللـه يرحمها، بعد رحيلها لم أجد من يرعاني إلا المعلم أيمن، اللـه يكرمه.

غضبت مما قالته غالية عن أيمن طواجن. هذا الرجل الذي لا يساوي "ثلاثة أبيض"، يستغل النسوان أمثال غالية أسوأ الاستغلال، ومع ذلك يخنعن له ويرضين بالفتات. لكن لماذا أغار عليها وهي التي ينال منها كل من هب ودب؟ هل وطأها المعلم أيمن من ضمن زمرة الزبائن؟ هل صدقت أنا أكذوبة نزهة اليوم؟ وتخيلت أنني أتنزه مع فتاة أحلامي في هذه القطعة البديعة من أوربا التي زرعت كأعجوبة في قلب قاهرة المعز. بسبب شعوري المفاجئ بالغيرة، تعمدت أن أجرح مشاعر غالية فتساءلت بشكل مستفز:

– وما مهنة المعلم طواجن بالضبط؟ وما علاقته بك؟

ظهر الضيق على وجه غالية فردت:

– وأنت يا سي كريم، ما شغلتك بالضبط؟

الإهانة التي وجهتها لغالية أشفت غليلي وقللت من حنقي، فقلت

بصوت هادئ:

– أنا "تربي" قد الدنيا.

تفتفت غالية في صدرها وقالت:

– الشر بره وبعيد. لا تزد في المزاح وقل لي الحقيقة.

أعجبني رد فعلها فأكدت المعلومة:

– "تربي" بجد وحياتك عندي.

استدارت غالية نحوي وأخذت نفسًا عميقًا كأنها تستجمع كل قواها قبل أن تنقل لي خبرًا مهمًا:

– يعني فيك من يدفن السر؟

حركت رأسي موافقًا:

– طبعًا! مستعد أدفن جملًا.

من خلال أنفاس متلاحقة أخبرتني غالية بمعلومة غريبة لا تتسق مع كل ما يدور بيننا من حديث:

– هل تعرف أن المعلم طواجن يقوم بأنشطة مريبة تدر عليه مكاسب هائلة؟ من الواضح في الشهور القليلة الماضية أن الأموال التي تدخل جيبه من تلك الأعمال تفوق بكثير ما يدره شغل الصالة.

صدمني ما قالته وتعجبت من كونها بهذا القدر من السذاجة حتى تتفاخر بمعرفتها ببواطن أمور المعلم أيمن. لا أصدق أنها تقوم بذلك على حساب سمعة المعلم أيمن طواجن الذي تدعي أنه ملاذها الوحيد. سألتها:

– ماذا تعنين؟

همست بصوت خفيض حتى لا يسمعنا أحد:

– الظاهر أن المعلم طواجن يعمل كمرشد لحساب حلمي الكاشف. الاثنان يلتقيان بكثرة هذه الأيام ويتحدثان معا لفترات طويلة. منذ نحو أسبوع سمعت بنفسي المعلم طواجن يتحدث مع البكباشي حلمي ثم يسلمه قائمة أسماء ويبلغه أنهم من العرابيين.

لم أصدق أذني فقلت مستفسرًا:

– أنا كنت متصورًا أن البكباشي حلمي بيأخذ "فِردة" مِن المعلم طواجن ليحمي الصالة.

ردت غالية:

– لا، العلاقة بينهما أعمق من حكاية "الفردة" بكثير. أنا متأكدة أن المعلم طواجن يتلقى من البكباشي حلمي ثمنًا محترمًا لكل شخص يرشد عنه من العرابيين. من يوم ما بدأ المعلم يقبض ثمن هذه "الشغلانة" جرى القرش في يده لدرجة أنه

لم يعد يدقق معنا في حسابات الصالة.

– هذا غريب حقا، ولماذا تورط طواجن في مثل هذا العمل؟ وكيف يحصل على معلوماته؟

– ستعجب من نوعية الرجال الذين يحضرون إلى الخمارة، في لحظات التجلي نسمع منهم حكايات لا تخطر على بال أحد، ولا في الخيال، حواديت زبائننا لا نهاية لها.

– وهل يبيحون بالمعلومات التي يسعى إليها المعلم أيمن؟

– معلومات! عندما ينسطل هؤلاء يبدأ كل واحد منهم بالتباهي بمعرفته بأغرب الأسرار وأعجب القصص. الحكايات عن أحوال كل من هب ودب تخر منهم بلا حساب.

أحسست بحنق شديد على المعلم طواجن. شخص وضيع مثله باع رفاقي ممن حملوا السلاح وضحوا بكل شيء. لم أرتح له منذ اللحظة الأولى التي رأيته فيها. خطر لي فجأة مدى خطورة زياراتي المتكررة لغالية التي كادت أن تودي بي إلى الحبس لو انفلت لساني وأفصحت لها عن حياتي السابقة. بلعت ريقي وقمت مشيرا إلى كشك الموسيقى:

– فلنذهب إلى كشك الموسيقى لنستمع إلى عزف الجوقة.

قامت متأبطة ذراعي وسارت معي وهي تتمايل بدلال. وصلنا

بالقرب من كشك الموسيقى حيث انشغل كل فرد من أفراد الجوقة العسكرية بأداء دوره بعناية. المستمعون كالعادة معظمهم من الأوربيين ولم يكن بينهم من الأهالي إلا أنا وغالية، بالإضافة إلى أحد المصريين المتفرنجين. عزفت الجوقة مجموعة من المارشات العسكرية المأخوذة من أعمال أوبرالية مشهورة. الموسيقى ساحرة لكنها لا تبدو متسقة مع حواري وأزقة القاهرة. حديقة الأزبكية بكل بهائها ما هي إلا جنة بديعة تلفظها مدينة عنيدة. جلسنا على دكة قريبة من كشك الموسيقى. أمسكت غالية بيدي وتحسست ثنايا كفي بأصابعها الدقيقة. أغمضتْ عينيها وأقلعت مبتعدة عني إلى أعماق أحلامها وأمانيها.

أمضينا أكثر من ساعة مستمتعين بهذه الحالة الفريدة التي تفصلنا عن حقيقة واقعنا. لماذا لا تدوم هذه الحالة وينمحي من أيامنا المعلم طواجن والإنجليز والخديو وكل من باع البلد وقبض الثمن. لماذا لا تتلاشى الحياة التي أعيشها في "القرافة" وتختفي صرامة المعلم صالح وعفوية عابد وبلادة إخوانه. لماذا لا تتحول حياتي إلى حديقة غناء تتردد بين أرجائها الموسيقى العذبة ليلا ونهارًا. لمست غالية بطن كفي بأصابعها وقالت:

- حيلك، حيلك، إلى أين سرح ذهنك؟

- أبدا! أستمتع بالموسيقى.

نظرت لي بدلال وقالت معتذرة:

– أنا سعيدة يا سي كريم بصحبتك ولا أريد لليوم أن ينقضي، لكني تأخرت ولا بد أن أعود إلى الخمارة وإلا سيغضب مني المعلم. هيا بنا يا حبي.

خرجنا من البوابة الحديدية للجنينة وركبنا عربة حنطور لتقلنا إلى بيت غالية. في منتصف الطريق طلبت من السائق التوقف أمام السرادق الذي يبيع حلاوة المولد. أسرعت بالنزول واشتريت عروسًا حلاوة أهديتها لغالية. التقطتها يداها ولمعت عيناها ثم سالت دموعها فبللت "اليشمق"، وساح الكحل فكسا جفنيها بهالات سوداء. ظلت تلعب برداء العروس المصنوع من ورق الكريشة الملون حتى وصلنا إلى بيتها. مسحتُ الكحل الذي سال فوق خديها. وودَّعتها ثم أمرت السائق أن يرجع بي إلى ميدان العتبة الخضراء. من هناك اتخذت طريقي نحو قناة الخليج المصري لأعبر قنطرة الموسكي متجها نحو المشهد الحسيني لكي أشاهد الاستعدادات للاحتفال بالمولد النبوي. بعد عبور القنطرة لمحت سعد المويلحي جالسًا مع رجل لا أعرفه في مقهى قريب. أقبلت عليه ونفسي تضطرب بأحاسيس متناقضة. عندما رآني قفز من مقعده كأنه رأى عفريتًا من الجان. أقبل عليّ وهو يلوِّح بذراعيه في الهواء ويصيح:

– ألف حمد لله على سلامتك. لقد سألت أسرتك عنك ولكنهم أخبروني أنك من المفقودين وأنهم لا يعرفون شيئا عن أخبارك.

احتضنته مدة طويلة قبل أن أبعده عني لأتفرس ملامحه. استنشقت رائحة زمن ولى أردت استرجاعه والاحتفاظ به لأطول مدة ممكنة. بعد عبارات التحية المعتادة صرحت له بما حدث لي:

- كنت مختبئًا بعيدًا عن عيون رجال الشرطة. لم أتصل بعائلتي، لأن بيتنا كان مرصودًا من مخبري الضبطية.

- المهم أنهم لم يصلوا إليك خلال تلك الشهور السوداء.

- الآن وبعد صدور الحكم بتسريحنا والعفو العام عن جميع الضباط الصغار أصبحت عودتي لبيت العائلة ممكنة.

- لكنك لم تعد إلى بيتك حتى الآن.

- أفضل البقاء بعض الوقت حيثما قضيت الشهور الماضية، لا أحد يضمن ماذا ستفعل بنا حكومة الخديو بعد أن يستتب لها الأمر.

وافقني سعد:

- الحرص واجب في هذه الظروف.

- عندك حق لأنهم قد يلموننا ويحبسوننا لأهون سبب.

استنكر سعد ما حل بباقي ضباط الجيش:

- بالطبع لا يمكنك أن تضمن أي شيء في هذه الأيام الهباب.

لكني لا أستطيع أن أخفي إعجابي الشديد بقدرتك على الاختباء بعيدًا عن عيون مرشدي النظام. واللـه طول عمرك جدع يا كريم.

– عمر الشقي بقي.

– من قبض عليه حبس لعدة أشهر حتى صدر أخيرًا الحكم بتجريد صغار الضباط من رتبهم والعفو العام عنهم. ولكن العجيب أن بعضهم لم يفرج عنه حتى الآن.

– محمد عباس ولم يفرج عنه حتى الآن. لقد زرت أهله منذ أسبوع وأخبروني أنه ما زال محبوسًا.

سألني:

– كيف أحوال عبد الرحيم؟

– الأوضاع في السودان سيئة، لكن أحوال طوكر أفضل من كردفان والأقاليم الغربية.

– سمعت أن نجم المهدي في صعود مستمر، وأتباعه يثيرون الكثير من المشاكل للحاميات المصرية في كردفان ودارفور.

– في الآونة الأخيرة عرفنا أن أنصار المهدي حاصروا مدينة الأبيض وأنها توشك على السقوط في أيديهم.

أطرق سعد ثم أمسك بذراعي وقال:

- حكومتنا لم تعد قادرة على فعل أي شيء. كان لا بد من القضاء على ثورة المهدي في أيامها الأولى. لكن حكومة البارودي لم تقدر خطورة الموقف في السودان.

صمت هنية ثم سألني:

- هل سمعت بما حدث لعرابي وأصحابه من قادة الثورة؟

- عرفت عن الأحكام التي صدرت بعد انتهاء المحاكمة بأيام قليلة. الحمد لله أن الخديو بدل حكم الإعدام لعرابي وأصحابه بالنفي خارج البلاد. لو لم يفعل ذلك كانت البلد ولعت.

قال متأثرًا:

- لقد تم كذلك تنفيذ الأحكام فيهم. هل تعرف أن عرابي وأصحابه تم تجريدهم من رتبهم ونياشينهم في ساحة ثكنات قصر النيل؟ غالب باشا قرأ عليهم أوامر التجريد، وعندما شرع الضباط في ذلك انخرط الكثير من العساكر الحاضرين في البكاء.

- قرأت في جريدة الأهرام أنه بعد يومين من تلك الواقعة ركب عرابي وأصحابه قطارًا خاصًا أقلهم إلى السويس حيث كانت في انتظارهم السفينة "مريوتس" التي أبحرت

بهم إلى منفاهم في جزيرة سرنديب.

علق سعد بأسى:

– من منا كان يتخيل أن نهاية عرابي ستكون هكذا؟

قلت بنبرة واثقة:

– هذه حال الدنيا سأذهب الآن لكني أود أن أراك قريبًا.

ربت سعد على كتفي وسألني:

– لماذا لا نحدد موعدًا الآن؟ أريد التحدث معك بخصوص أمر مهم.

أجبته:

– يمكننا أن نتقابل الجمعة القادمة هنا بعد صلاة العصر.

وافقني الرأي. مد يده مصافحًا ثم قال:

– حسنا سأنتظرك في نفس المقهى الذي رأيتني فيه اليوم.

***

المؤامرة

يناير، 1883

في الوقت المحدد حضر سعد المويلحي يرافقه صديق له إلى المقهى الذي تواعدنا عنده. احتضنني بقوة معبرًا عن فرحته برؤيتي وأبدى سروره البالغ لنجاتي. أخبرني أنه سأل عني في كل مكان بعد موقعة التل الكبير. قيل له إنني في عداد المفقودين، وبعد ذلك عرف أن الشرطة تبحث عني في كل مكان ولكنها فشلت في ضبطي. أبلغني أيضا بنبأ الإفراج عن محمد عباس منذ أيام قليلة. أعربت له عن رغبتي في لقائه حتى أطمئن على أحواله. ولكن سعد حذرني من أن عباس لا يريد مقابلة أي من معارفه أو أصحابه، وأنه يرفض الخروج من بيته بالصليبة.

جلس سعد على يميني وزميله في مواجهتي. شاب أنيق يرتدي ملابس أفرنجية ويغطي رأسه طربوش قصير من الطراز التركي. بادر إسكندر أفندي بالإشارة إلى معرفته الوثيقة بسعد الذي كثيرًا ما ذكرني بالخير مما شجعه على لقائي. وأضاف إسكندر أفندي أنه علم بموعد هذا اللقاء فطلب الحضور لكي يتشرف بمعرفتي. استقبلت كلامه بتلقائية ورحبت به معلنا أن أصدقاء سعد هم أصدقائي بلا حاجة لأي مقدمات. بعد أن طلبنا المشاريب تطرق حديثنا إلى السؤال عن الأحوال، وعما حدث لكل منا خلال الشهور القليلة الماضية، ثم تحول الحديث إلى نفس المواضيع التي كان يحلو لنا مناقشتها قبل التل الكبير. الآن وبعد أن هدأت الأمور ترانا نعود لسيرة عرابي ويحتدم النقاش بيننا مرة أخرى ما بين المعارض لأفعاله والمؤيد لمواقفه. دار الحديث حول أوضاع البلد المتردية، وإلغاء المجلس النيابي ولائحته الأساسية واستتباب الأمر للخديو. أخيرًا نظر سعد لصاحبه نظرة لم أفهم مغزاها وقال لي:

– لقد تم حبس العديد من الأعيان والعلماء وأهل الرأي، وكذلك قامت الحكومة بإغلاق عدة مجلات وجرائد. وأنت أدرى بمصيبة تخفيض أعداد الجيش وفصل معظم ضباطه. عرابي كان محقًا في محاولته الإطاحة بالخديو وأعوانه.

تحمس إسكندر مضيفًا:

- انظر ماذا يحدث لنا بعدما وقعت مصر في قبضة الإنجليز الذين احتلوها بدعوى الدفاع عن شرعية الخديو. هم طبعا لا ينوون الانسحاب منها قريبا.

توجست خيفة من الآراء التي عبر عنها سعد بلا تحفظ، وكذلك جرأته في تناول مثل تلك المواضيع أمام إسكندر الذي لا أعرفه ولا تربطني به صلة. قلقي من ناحية إسكندر منعني من الانزلاق إلى قول ما لا يحمد عقباه، فعلقت:

- كيف تدافع يا سعد عن عرابي وهو من قادنا إلى هذه الهزيمة القاسمة؟ لقد دفع البلاد بتهوره إلى مواجهة لا لزوم لها مما أدى إلى تدمير جيشنا، لن تقوم لنا قائمة بعد اليوم.

تجهم سعد وقال بحسرة:

- لا تؤاخذني فأنا لا أفهمك. على النقيض من أخيك عبد الرحيم كنت دائمًا من المؤيدين للحركة الوطنية وزعيمها أحمد عرابي. الآن أنت تقسو على عرابي وتنتقده بهذا الشكل. أنا لا أملك إلا أن أتعاطف معه لمجرد أنه كان معبرًا عن كل ما آمنا به وناضلنا من أجله. لقد كان عرابي زعيمنا وكان يملك قدرًا عظيمًا من الشجاعة دفعه للإقدام على محاولة تحقيق آمال هذه الأمة في التخلص من الاستبداد.

تذكرت مناقشات سعد مع أخي وطريقته التي تفتقر إلى منطق متسق، كلما أخذ الحديث منحى معينًا بادر سعد بطرح فكرة غريبة لا تمت بصلةٍ لموضوع النقاش. حاولت أن أبقى خيط حديثنا متصلا وألا نتحول من موضوع إلى آخر بطريقة عشوائية:

– نعم لقد كنت من أنصاره، لكني الآن أرى واقعنا المر على حقيقته. لقد سحرنا بقوة شخصيته وطموحه. حركة العرابيين عبرت عن آمالنا في أن تكون مصر للمصريين، وأن نقيم دولة يسودها العدل لا مكان فيها للاستبداد. وللأسف لم يمتلكِ عرابي المقدرة على تحقيق حلمنا.

تدخل إسكندر في حديثنا مضيفًا بصوت هادئ أقرب إلى الهمس:

– بمجرد أن حاول عرابي باشا تحقيق ما يتمناه المصريون تجمعت كل قوى الاستبداد لتقهره. لن يسمحوا أبدًا لهذا البلد أن يظهر على هذه المنطقة من العالم.

تساءل سعد:

– ألم تر ماذا فعل الأوربيون بمحمد علي باشا عندما مد سلطانه إلى الشام وهدد الاستانة نفسها؟ لم يكن أمامهم سوى أن يحطموه وأن يطيحوا بما كان يطمح إليه.

تملكتني أحاسيس موحشة تعكس قسوة الشهور التي قضيتها وحيدًا منذ التل الكبير. تابعت مراوغتي ولم أتخل عن حذري:

- أنا أشعر أنني قد خدعت وسرت خلف راية الهزيمة كأبله لا يدرك ماذا ألم به. كنت مستعدًا للتضحية بحياتي من أجل تأسيس دولة قوية تتبوؤ مكانتها الطبيعية بين الأمم.

تناولت كوب الماء الذي وضعه النادل على الطاولة أمامنا، بعد أن شربت منه أكملت حديثي:

- بعد كل الأخطاء التي ارتكبناها، أدرك الآن أننا لم نكن أهلا لما أردنا تحقيقه. المصيبة أننا لم نعِ ذلك إلا بعد أن ضاع كل شيء، بعد أن فقدنا استقلالنا واحتل الإنجليز بلادنا وانسحق الجيش القوي الذي أسسه محمد علي. لن تقوم لنا قائمة بعد اليوم، والغريب أننا نرفض الاعتراف بهذه الحقيقة.

إسكندر استكمل حديثه بطريقة متعالية كأنه يملك الحقيقة كلها، ولكنه في نفس الوقت حاول استمالتي بادعائه الاقتناع بكلامي:

- أنـــت محق فيما تقول، لكني أعتقد أنه لم يكن هناك مفر من هذا المصير ســـواء حدث ذلك بعرابـــي أو بدونه! مصر ستظل دائمًا مستهدفة من القوى العظمى.

أضاف سعد:

- لا شك أن مذكرة 7 يناير دفعت بعجلة الأحداث إلى هذا الوضع السيئ. لقد تم التخطيط لكل ما حدث منذ سنوات

عديدة وقام الأوربيون بإحكام الخناق علينا عندما بدأوا يتدخلون في شئوننا بحجة المحافظة على حقوق الدائنين.

ضايقني أسلوب إسكندر في الحديث على الرغم من موافقتي على وجهة نظره. وبدلا من أن أجاريه عارضت تفسيراته:

- لكننا لم نواجه مخططاتهم بشكل مناسب، ولم نعد لهم العدة كما ينبغي.

رد إسكندر:

- ولكن هذا لا يعني أن نستكين لهم.

- من منا يتكلم عن الاستكانة؟ لكن ذلك لا يعني أن نندفع في ردود أفعالنا بطريقة غير محسوبة فنتيح لهم تحقيق أهدافهم. لماذا اندفع عرابي في مواجهة تلو الأخرى مع شريف باشا ثم مع الضباط الجراكسة، وأخيرا مع الخديو نفسه؟ لم تكن هناك دوافع حقيقية لتلك المواجهات. لقد كنا قاب قوسين أو أدنى من تحقيق هدفنا في إقامة حكم دستوري وحياة نيابية سليمة لا مكان فيها لحاكم مستبد.

وافقني سعد مضيفًا:

- للأسف تم إلغاء المجلس النيابي واللائحة الأساسية التي أصدرها. ذلك الدستور كان سيؤدي حتما إلى القضاء على الاستبداد، وإلى أن يحكم المصريون بلدهم بأنفسهم.

إسكندر عاد إلى طريقته المتعالية:

– لا بد أن تفهم أن كل ما حدث في العام الماضي لم يكن إلا مسرحية هزلية لامتصاص قوة الدفع التي اكتسبها الجيش يوم مظاهرة عابدين. الخديو توفيق كان يناور طوال الوقت للوصول إلى غرضه.

لمس سعد كتفه بطريقة توحي بأنه ينوي قطع ذراعه وأضاف:

– أقطع ذراعي لو أن الخديو لم يكن يناور. لقد فعل كل ما يمكنه لكسب الوقت حتى سنحت له فرصة الانقضاض على العرابيين واسترجاع سلطاته كاملة. مشكلتنا تكمن في أننا لفترة طويلة اعتقدنا أن الخديو توفيق يساند مطالب الوطنيين، ولم ننتبه للخدعة التي كانت تحاك لعرابي وأصحابه.

عاندته وصممت على موقفي فقلت لهم:

– هذا لا يعفنا من المسئولية. لقد اخترنا المواجهة ولكننا لم نقدر تبعة أفعالنا. هل كانت تنقصنا خبرة التعامل مع مثل هذه المواقف الصعبة؟ ربما كانت هذه هي الحال، ولكننا نعرف أن النصر يتحقق قبل أن تبدأ المعارك. فلماذا لم نعد العدة لما أقدمنا عليه؟ قد نكون اندفعنا دون أن نقدر عواقب اختياراتنا، وقد يكون هذا المصير هو اختيارنا الوحيد ولم يكن أمامنا سواه. ترى هل سيتكرر ذلك لمائة وألف قمر؟

انحنى سعد نحوي وهمس لي بصوت لا أكاد أن أسمعه:

– الواقع نحن حضرنا اليوم للقائك وفي ذهننا طلب محدد.

لم أستوعب ما الذي يريده سعد، نظرت إلى زميله لعله يكشف عما يقصد. ابتسم إسكندر وأكمل ما كان سعد يحاول شرحه:

– بصراحة نحن غير راضين عما يحدث في البلد، لذلك نحاول أن نضم إلينا كل من يغار على مصلحة مصر، ولديه الشجاعة ليعمل معنا لإصلاح أمورها.

لم أتخيل أن الشطط يمكن أن يقود سعدا إلى هذا التوجه. من الغريب أنهم يكررون لفظ "نحن" بطريقة مبهمة. عن من يتكلمون بالضبط؟ أضاف إسكندر بصوت هادئ:

– نعرف أنك من المتعاطفين مع الحركة الوطنية، وعلى الرغم من غضبك الشديد بسبب هزيمة العرابيين، فإنك بالقطع غير راض عن وجود الجيش الإنجليزي على أرض مصر.

أضاف سعد:

– أعتقد أنك ساخط مثلنا على التعديلات التي أدخلها الخديو على نظام المجلس النيابي ولائحته الأساسية. لقد ألغى المجلس السابق وحل محله مجلس شورى القوانين الذي لا

يتمتع بأي سلطات حقيقة، لقد عدنا إلى المربع الأول حيث يستبد بنا الحاكم ولا نملك من أمرنا شيئًا. تذكر يا عبد الكريم أنك قاومت الاستبداد من عابدين إلى التل الكبير.

لم أتمالك نفسي فقلت:

– لقد حاربت ضد الاستبداد ورأيت زملائي يسقطون حولي في الميدان دفاعًا عن هذا البلد. لقد فقدوا أرواحهم بسبب عدم كفاءة قوادهم على أرض المعركة، وبسبب تهور زعمائهم الذين دفعوا بهم إلى حرب لم يستعدوا لها أصلا. للأسف ضيعً هؤلاء القادة أوقاتا ثمينة في مناقشات فارغة ومناورات سياسية لم تحقق لهم إلا أتفه المكاسب.

انحنى إسكندر حتى صار قريبًا جدًا مني، أشم رائحة فمه وأكاد أشعر بحرارة جلده:

– إذن فنحن متفقون! لقد أبلغني سعد أنك راوغت السلطات لمدة أشهر، وأنك موهّت على مخبري الحكومة مكان وجودك ففشلوا في القبض عليك، ولم يتمكنوا من الوصول إليك كما فعلوا مع الكثيرين من ضباط الجيش. هذا يدل على فراستك وقدرتك على مواجهة الشدائد.

عن أي فراسة يتكلم لقد قادتني الأحداث واختيارات رفاقي من موقف إلى آخر حتى وجدت نفسي على هذه الحال. لم أشعر بالراحة

تجاه هذه المناقشة. كيف يفاتحني سعد في هذا الأمر أمام رجل مثل إسكندر أقابله لأول مرة في حياتي؟ من يضمن لي أن إسكندر لا يتعاون مع مرشدي الضبطية؟ بعد كل ما عانيته قد تقودني حماقة سعد إلى التهلكة. رشفت رشفة من القهوة وقلت لهم:

– حتى الآن لا أعرف ماذا تقصدان بالضبط.

رد إسكندر:

– أعتقد أننا يجب أن نناقش هذا الأمر بعيدًا عن هذا المكان. مثل هذا الكلام ينبغي أن يقال فقط في مكان غير منظور وبعيد عن عيون الناس.

عقب سعد:

– معك حق، معك الحق.

دفع سعد ثمن المشاريب قبل أن نقوم. سبقنا إسكندر الذي عبر قنطرة الموسكي فوق الخليج المصري كأنه يقود مسيرتنا. قناة الخليج تصطف على جانبيها البيوت الأنيقة التي تتدلى مشربيات نوافذها وشرفاتها الخشبية على حافة المياه مباشرة. وتر مائي يفصل أحياء القاهرة القديمة وامتدادها نحو القرافة عن المناطق الحديثة التي شيدها إسماعيل باشا حول الأزبكية، وشوارع اللهو القابعة خلفها في وش البركة وكلوت بك. لفحة هواء باردة هبت علينا فأحسست

بقشعريرة. لاح أمامنا مبني سوق العتبة الذي اصطفت حول مدخله عربات الكارو المحملة بالبضائع. عبرنا الميدان بصخبه المعتاد في هذا الوقت من النهار، ووصلنا بالقرب من مسرح الأزبكية. انحرف إسكندر بنا في اتجاه كلوت بك ودخل مقهى "بالميرا". مكان هادئ لا يوجد به إلا زبون واحد استقر في ركن مظلم من أركانه. رحب بنا النادل بحرارة وأجلسنا في ركن خاص تفصله ستارة مزركشة عن باقي الصالة. قبل أن نجلس أمسك سعد بذراعي وأشار إلى إسكندر إشارة لها مغزى ثم قال بصوت منخفض:

- أنا وإسكندر أعضاء في حركة "المؤامرة الوطنية المصرية" وهي منظمة سرية من أهدافها مقاومة الاستبداد ومحاربة الإنجليز حتى يرحل عن بلادنا آخر عسكري من عساكرهم.

أضاف إسكندر:

- وبسبب معرفتنا بك وعلمنا بحرصك على هذا الوطن قررنا أن ندعوك للانضمام إلى حركتنا.

لم أصدق أذني، لقد تبدلت حال سعد بطريقة لم أتوقعها. بدا مختلفًا تمامًا عن الشخص الذي عرفته منذ طفولتي. لقد تبدلت حاله بشكل جذري عن الشخص الذي قابلته في ميدان العتبة منذ شهور قليلة. هذا الوقت القصير بكل أحداثه الجسام كان كفيلا بالتأثير على شخصيته بطريقة عجيبة. بدا أكثر ثقة بنفسه وأكثر استيعابًا

للمتغيرات السريعة التي تشكل الحياة في مصر. لكنه يسير في اتجاه خطير قد يصيبه بضرر بالغ. ألا يعرف أن ما يفعله قد يؤدي به إلى الهلاك؟ هل سيستطيع هو وتنظيمه تحقيق ما فشل فيه آلاف الجنود الذين حاربوا ضد الإنجليز؟ موقف حركته ميئوس منه تمامًا، لكن جسارة سعد زادت من احترامي له وتقديرى لقوة حجته. لم أتوقع أنه يمتلك كل هذه الشجاعة. سكتنا جميعا عندما دخل علينا النادل بعد أن أزاح الستارة، وقف أمامنا بقامته الطويلة ومريلته البيضاء. وضع على الطاولة وردة حمراء قبل أن يملي عليه إسكندر الطلبات. بعد أن ذهب النادل سألت إسكندر:

– ما مجال عملك يا خواجة إسكندر؟

عدل من جلسته ثم أجاب:

– أنا مدرس لغة إنجليزية بالمدرسة الخديوية.

أردت مشاكسته فسألته:

– أفهم من ذلك أنك خبير بثقافة الإنجليز وبلغتهم وآدابهم. ألا يؤدي ذلك لتعاطفك معهم؟

حرك رأسه نافيًا ما أقوله، فبالغت في استفزازه:

– لماذا إذن تعاديهم وتريد مقاومتهم؟ من الطبيعي أن تؤدي معرفتك بهم إلى التآلف معهم واحترام دوافعهم وأفعالهم.

احتد إسكندر بطريقة غير متوقعة وقال:

– إنها مسألة مبدأ، أنا واثق من أنهم جاءوا إلى مصر بسبب أطماعهم الاستعمارية، ولترسيخ وجود إمبراطوريتهم في هذه البقعة من العالم.

تدخل سعد في النقاش:

– وجود الإنجليز في مصر وسيطرتهم على القنال سيسمحان لهم تأمين الطريق البحري إلى مستعمراتهم في الهند والشرق الأقصى.

عاد إسكندر إلى هدوئه وحاول إضافة أبعاد أخرى لكلام سعد:

– لا يقتصر الأمر على طرق التجارة إلى الهند، لاحظ أن مصر ومعها السودان تمثلان البوابة التي ستسمح للإنجليز بالتغلغل في شرق أفريقيا. بعد مصر ستجدهم في السودان وأعالي النيل ثم تنجانيقا وزنجبار.

لم أسترح للأسلوب الذي يعبر به إسكندر عن أفكاره. تضايقت من نبرة صوته المتعالية التي يحاول من خلالها أن يؤكد ثقته في معلوماته، وأن يظهر معرفته الكاملة ببواطن الأمور. تناولت الوردة الحمراء التي تركها النادل على الطاولة، استنشقت عبيرها وواصلتُ معارضتي لسعد وزميله:

- هذا تحليل جيد، لم أسمع أحدًا يعرضه بمثل هذا الإيجاز والوضوح. ولكن أريد معرفة ما الذي يستطيع اثنان مثلكما عمله ضد جيش الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس؟ وما الذي سيمكنني إضافته إلى جهودكما؟

أجاب سعد بكلمات سريعة وهو يكاد يلهث من الحماس:

- إن تنظيمنا له أتباع كثيرون ونحن نسعى لضم أفضل العناصر إلينا، بدون ذلك لا نستطيع تحقيق أهدافنا التي تتلخص في تحرير مصر من الاحتلال والظلم والاستبداد.

أضاف إسكندر:

- لدواعٍ أمنية لن تلتقي بباقي أعضاء التنظيم إلا بعد قبولك بالانضمام إلينا.

غلبني إحساس بالمرارة فها نحن نتوهم أشياء لسنا أهلا لها ولا قبل لنا بها. قلت بحدة:

- المشكلة أننا نقول كلمات لا نعرف وقعها، ونفعل أفعالا لا ندرك تبعاتها. هذا بلد يتيم لن يجد من يدافع عنه عندما يجد الجد.

غضب إسكندر ورد بانفعال لم أتوقعه:

- لم أتوقع سماع مثل هذا الكلام منك أنت بالذات، خاصة

وأنت رجل شارك في مظاهرة عابدين وحارب الإنجليز في أكثر من معركة، رجل دوخ السلطات لأكثر من أربعة أشهر دون أن يتمكن أحد من القبض عليه.

أجبت بمرارة:

- أدرك سفاهة ما أنتم مقدمون عليه لا لشيء إلا أنني حاولت من قبل تحقيق كل ما يقوله سعد وفشلت.

هؤلاء المساكين يؤمنون أن الغد سيكون أفضل، مجرد التمسك بذلك الوهم يكفيهم ليستمروا في حياتهم البائسة. النادل سحب الستارة التي تحجبنا عن باقي الصالة فلمحت شخصًا آخر يجالس الزبون الوحيد الذي مررنا به عند دخولنا. وضع النادل المشاريب أمامنا، ثم انسحب بعد أن أسدل الستارة. وقف إسكندر وشبَّك ذراعيه وراء ظهره وبدا كأنه يستعد لإلقاء درسٍ من دروسه:

- هل سمعت عن "كميونة باريس" وكيف رفض الثوار الباريسيون دخول قوات ألمانية إلى عاصمتهم عام 1871 حسب الاتفاق المخزي الذي وقعته حكومة فرساي المنهزمة؟

لم أفهم ما الذي يقصده إسكندر بهذا السؤال فلم أسطع إجابته. لم ينتظر ردي بل استمر في إلقاء محاضرته بصوت رتيب:

- بعد هزيمة الجيش الفرنسي على يد الألمان، أرغمت الحكومة

الفرنسية على توقيع اتفاق مخزٍ يقضي بدخول القوات الألمانية إلى باريس للاحتفال بانتصارها بعد أن فرضت حصارًا قاسيًا على المدينة لمدة طويلة. بعد هروب الحكومة إلى فرساي قرر ثوار باريس الدفاع عن عاصمتهم، وأسسوا لمجتمع يحكم الشعب فيه نفسه بنفسه. بعد رحيل الألمان اشتد الخلاف بين الثوار من جانب وبين حكومة فرساي وفلول الجيش الفرنسي المنهزم من الجانب الآخر. ثوار باريس، الذين حكمت لجانهم جميع الأحياء، أقاموا المتاريس في الشوارع. الناس العاديون حملوا السلاح للدفاع عن حلمهم ضد الجيش النظامي الموالي لحكومة فرساي. الشيء الرائع في هذه القصة أنهم على الرغم من سوء تدريبهم وضعف تسليحهم صمدوا لمدة شهرين كاملين. كالشهاب الذي يسطع استطاع الثوار أن يقيموا حكما عادلا لا يقبل باستبداد أو بالتعايش مع الظلم.

ابتسامة عريضة علت وجه سعد الذي قاطع حديث إسكندر المطول:

– القاهرة بحواريها الضيقة يمكن بسهولة الدفاع عنها بعد إقامة المتاريس لسد محاورها الرئيسية.

أضاف صاحبه:

- المهم هو إيمان الشعب بقدرته على المقاومة، والأخذ بالأسباب بعد الكف عن الثرثرة وإضاعة الجهود في ترهات لا جدوى منها.

لم أحتمل تكرار هذه الأوهام حتى لو كان وراءها أنبل الأهداف. اعترضت على كلامهما:

- لا أصدق أننا ما زلنا نؤمن بمثل هذه الخيالات. كأننا لم نتعلم شيئًا من الهزيمة الفاحشة التي لحقت بنا. ما زلنا نتمسك بوهم تحقيق أهداف مستحيلة بدون تخطيط محكم أو استعداد مناسب.

تجهم سعد ونظر لزميله قبل أن يرد:

- بصراحة يا عبد الكريم، لا تعجبني روحك الانهزامية. إنك تدعو إلى الحكمة والحيطة وفي نفس الوقت يسيطر عليك سخط شديد على الخديو وعلى جيش الإنجليز الذي يدعمه ويحتل بلادنا. لماذا لا يدفعك غضبك إلى القيام بعمل حقيقي ضد ما تكره. إذا رفض كل منا مقاومة الاستبداد والاحتلال فلن تنصلح حالنا ولن تقوم لنا قائمة.

لأول مرة منذ أن حضرنا إلى هذا المكان تأملت النقوش التي تزين الستارة. لاحظت مجموعة متكررة من النباتات المتعانقة، إذا نظرت إليها من زاوية معينة تظهر في جملتها على هيئة حيوان

خرافي، بينما تبدو كأنها وجه عملاق يبتسم بطريقة مستفزة إذا تأملتها من زاوية أخرى. طال صمت مريب فلم أدر ماذا أقول. لم يبق لي إلا الاختيار بين ردين، إما أن أقوم وأتركهما لاقتناعي بعبثية ما يخططان له، أو أن أجاريهما وأرى ماذا سيحدث لنا بعد ذلك. الفضول يدفعني إلى معرفة المزيد عن سعد وأصحابه وتنظيمهم السري. كالعادة لم أتيقن من اختياري بل كان قراري وليد اللحظة كأن الظروف تفرضه عليّ فرضا، وكالعادة تحمله إليّ مصادفة غير متوقعة كالتي ألقت بسعد في طريقي عند قنطرة الموسكي.

أضاف إسكندر:

- هل تعرف أن الخديو عيَّن "إيفلين وود" سردارا للجيش المصري ورئيسًا لأركانه؟ إنه أول قائد إنجليزي لجيشنا، كيف تقبل بذلك وأنت ضابط سابق حارب ضدهم.

خبر تعيين "إيفليين وود" سردارًا للجيش المصري أثار حنقي عندما علمت به. كيف يسلم الخديو قيادة جيشنا لأعدائنا؟ الإشارة لإيفلين وود كانت كفيلة بترجيح قراري بالانضمام إلى جمعيتهما، ولكن شكوكي في نجاح التنظيم منعتني من الموافقة على عرضهما، فلذت بالصمت كبديل عن رفضي. حاول سعد التأثير عليّ بشكل آخر:

- ورفاقك الذين قتلوا في ميادين القتال، ومن تم القبض عليهم وحبسهم، من سينتقم لهم؟

خطرت ببالي الألواح التي نقشت عليها أسماء من فقدناهم. تذكرت أيضا المعلم أيمن ووقاحته معي. ترى كم من الضباط أرشد عنهم وتم حبسهم. تملكني غضب شديد لما فعله ذلك النذل. إذا كانت هناك قائمة تضم كل من أريد الانتقام منهم، فسيكون أيمن طواجن على رأسها. هل أقبل عرضهما؟ أبسط ما يمكنني تحقيقه بالانضمام لهذا التنظيم هو الانتقام من ذلك الرجل الخسيس. أدلهم عليه فيتخلصوا منه أو على الأقل سيساعدوني على تحقيق هذه الفكرة المجنونة. قبولي الانضمام إليهم سيكون بسبب رغبتي في الانتقام من طواجن. لن أسير خلف أحلام مثالية لا يمكن تحقيقها. لكنني باستهداف المعلم أيمن سأكون قد حددت هدفًا واضحًا دون الدخول في أوهام القضاء على استبداد الخديو وطرد الإنجليز من مصر. قلت لسعد:

- أنت محق فيما تقوله يا سعد، لا بد أن ننتقم لذكرى من سقطوا في الحرب مع الإنجليز. الهزيمة التي حلت بنا يستحيل نسيانها بين يوم وليلة.

رد سعد:

- هل تعني أنك تقبل الانضمام لتنظيمنا؟

هزهزت رأسي متحيرًا:

ـ لا أدري يا سعد، أنت لا يمكنك أن تفهم مرارة الهزيمة التي أشعر بها، والتي يحسها كل من حمل السلاح وحارب الإنجليز. لقد سقط العشرات حولي في ميادين القتال، ولم أستطع مساعدتهم أو إنقاذهم.

قام سعد من مكانه وواصل كلامه:

ـ لهذا السبب سيكون انضمامك للتنظيم دفعة كبيرة لنا، وسيحفزنا على تنفيذ المزيد من العمليات التي ستنال من الإنجليز ومن يساندهم.

أهداف التنظيم مستحيلة التحقيق وقد تؤدي بنا إلى التهلكة. ولكن الانتقام لرفاق السلاح، من قتل منهم ومن حبس، واجب لا يمكنني التنصل منه. قلت بعد تردد:

ـ يا سعد أنا مستعد لبذل كل غالٍ. أخبرني ماذا يمكنني عمله؟

إسكندر مد يده ليصافحني وهو يقول:

ـ إنه شرف عظيم أن تنضم إلى حركتنا، فنحن بحاجة إلى رجال أكفاء مثلك.

صافحني إسكندر بحرارة وهو يعصر كفي بقوة. في نفس اللحظة

قام سعد وخرج إلى الصالة الرئيسية. أشار إسكندر إليّ لكي أتبعه. وجدنا سعد يتحدث مع صاحب المقهى وباقي الزبائن الذين ظهر عليهم السرور بما يقوله. النادل توجه إلى مدخل "بالميرا" وأوصد بابه. أقبل الحاضرون عليّ مصافحين ومهنئين. أدركت أن كل الموجودين في المقهى هم أعضاء في تنظيم "المؤامرة الوطنية".

بعد أن أغلق النادل باب المقهى خلع مريلته وتوجه إلى خزانة ضخمة تحتل ركنًا مظلمًا من المحل ولها باب خشبي عريض. حمل النادل سلسلة ضخمة أدخل أحد مفاتيحها في قفل الخزانة وفتح ضلفتها الخشبية ثم ضغط على لوح بداخلها فانفتح باب آخر. ظهر من خلال الباب درج مؤدٍّ إلى سرداب يقع أسفل المقهى. تقدمنا النادل مسترشدا بضوء قادم من الغرفة السفلية الموجودة عند نهاية الدرج. تبعناه حتى وصلنا آخر السلم حيث جلس جمع من الرجال حول مائدة مستطيلة، وقف في طرفها البعيد رجل وقور في العقد الخامس من عمره يرتدي بزّة أنيقة، له شارب يغطي شفته العليا، في نفس الوقت انفرجت شفته السفلى عن ابتسامة رقيقة. "من هؤلاء القوم؟ وكيف تعرف إليهم سعد؟". تقدم إسكندر نحوهم وأعلن أنني قبلت الانضمام إلى تنظيمهم. أشار إلى الرجل الواقف عند نهاية المائدة وهو يعرفني بالحاضرين:

– هذا محمد بك طاهر والشاب الواقف بجواره هو ابنه مصطفى

والذي يقف خلفه هو الشيخ أحمد أنور وعلى يمينه الشيخ سعد زغلول الطالب بالأزهر.

استمر إسكندر في تعريفي بالحاضرين. الشيخ أحمد أنور أعطاني نسخة من القانون الأساسي للجمعية، ثم قرأ عليّ بعض مقاطعه:

– القانون الأساسي ينص على أن حركة "المؤامرة الوطنية المصرية" تقبل في عضويتها جميع الأشخاص بغض النظر عن جنسيتهم أو دينهم. من ينضم للجمعية عليه أن يدفع خمسة جنيهات لدعم التنظيم، وأن يقسم على الطاعة العمياء لقيادة التنظيم. هل توافق على هذه الشروط؟

نظرت إليه وسألته:

– ومن هم قادة التنظيم؟

رد الشيخ أحمد:

– موجود معنا اليوم معظم أعضاء اللجنة العليا لقيادة الجمعية، لكن ينقصنا بعض الإخوة من بينهم رئيس التنظيم. ربما ستلتقي بهم في اجتماعاتنا القادمة.

أضاف إسكندر:

– لمعلوماتك رئيس الجمعية مصطفى بك صدقي لا يجتمع بنا إلا عند التخطيط لعملية من عمليات المقاومة. وتكليف أحد

الأعضاء بعملية معينة يكون بعد الاقتراع لاختيار القادرين على القيام بالمهمة، ومن يملكون الكفاءة لتنفيذها.

وافقت على شروط الانضمام لجمعية "المؤامرة الوطنية المصرية" ولوهلة تخيلت أن إرادتي قد توحدت معهم واعتقدت أنهم سيساعدوني لكي أنتقم من المعلم طواجن. في نفس الوقت ما زلت أشك في إمكانية إسقاط الخديو أو إجبار الإنجليز على الرحيل، لكن النيل من طواجن سيكون هدفًا مشروعًا ونصرًا يسهل تحقيقه.

أحضر مصطفى طاهر طبنجة ووضعها فوق المائدة. دعاني محمد بك طاهر إلى وضع كفي الأيمن فوق الطبنجة وتلاوة قسم الولاء الذي نص على التزام الطاعة العمياء لقرارات الجمعية. إسكندر حمل صندوقًا خشبيًا وضعه على المنضدة. رفع غطاءه وأخرج منه طبنجة وخنجرًا. أشار محمد بك طاهر إليها موضحًا أن هذه الأسلحة تخصني الآن بعد انضمامي إلى الجمعية. شرح لي أنني أستطيع استخدامها فقط عند تنفيذ العمليات التي سأكلف بها في المستقبل.

***



زينب الصرة

فبراير، 1883

هل يركد الماء خوفًا من المصير الذي ينتظره على الجانب الآخر من حافة الشلال؟ قد يتلكأ وينشغل باللحظة الآنية أو يدور في دوامات وتيارات ضحلة متقاطعة. لا تدرك القطرات الراكدة على مشارف هذا الشاطئ عنفوان النهر الهادر على الجانب الآخر من الصخور التي تعوق سريانه. الخوف يخلق ساترًا ثقيلًا يفصلنا عن واقعنا، في ظله نلجأ إلى ركننا الهادئ بعيدًا عن صخب النهر الذي يشق طريقه نحو المصب. أنشد مكاني الآمن في هذا الحوش الذي أقطنه في القرافة. استراحة المدفن تغلب عليها رائحة غبار تشرّب بها

سجاد فرش أرضيتها لسنوات متواصلة. تتكون الاستراحة من مبنى أنيق له سلم رخامي يصعد إلى شرفة أمامية تظللها تندة من الحديد المشغول علي هيئة سيقان نباتية. هذه الشرفة، المأخوذة غالبًا من أنقاض سراي قديمة، احتضنت مكان جلوسي المفضل خاصة وقت الغروب. عندما تصعد إلى الشرفة تفضي بك إلى الغرف الداخلية من خلال باب خشبي له مقبض ثقيل من البرونز، وتكسو ضلفته صفائح نحاسية تزينها زخارف هندسية. الاستراحة بها غرفتان تتوسطهما صالة واسعة تنفتح على الشرفة الفسيحة. الجالس في هذه الشرفة تتربص به شواهد القبور الرخامية المنقوش على جوانبها آيات قرآنية كتبت بخط كوفي رصين. لقد استكنت لهذا المكان واستأنست بشواهده التي تذكرني بوحوش رابضة تبعث الرهبة في النفوس، رهبة تتناقض مع الخوف الهزيل الذي يغلف أيامنا ونعيش لحظاته. خوف يدفعنا للهرب من الفشل والإخفاق، ويتركنا نعيش بين ركام أوهام شكلها الخسران.

تمر عليّ أيام هادئة. دفنة تناولني للدفنة التي تليها. في أوقات الفراغ أجلس في شرفة الاستراحة أتأمل شجرة الغار التي نمت في ركن الحوش. من حين لآخر يفسد عابد بتصرفاته العفوية السكينة التي أنعم بها في هذا المكان، لكنني أغفر له أفعاله لأنه لا يعي ما أعانيه. المعلم صالح يأمر وينهي، ولكنه دائم الشك في أسباب وجودي أصلا في هذا المكان. كثيرا ما تظهر عليه علامات الحيرة

مما يفعله شخص مثلي في بقعة نائية تقع عند سفح الجبل، منطقة فريدة تفصل بين ضجيج المدينة وصمت الصحراء.

في يوم من الأيام قررت أن أصطحب عابد معي في زيارة لخمارة طواجن. وصلنا إلى هناك بعد العصر، دفعت الباب ودخلت. الصالة مكتظة بالزبائن على غير العادة، وفي وسطهم وجدت زينب الصرة تتمايل على أنغام الجوقة المصاحبة لها. زينب تتألق وهي تقلد رقصة الغواية التي قايضت بها سالومي الملك هيرودس حتى يقدم لها رأس يوحنا المعمدان على صحن من فضة. رأيت على أرضية الصالة عباءة سوداء لا بد أنها لفت جسد زينب بالكامل عند بداية رقصتها. على الجانب الآخر بالقرب من الجوقة لمحت شالا شفافًا من الحرير الأحمر خلعته هو الآخر قبل دخولنا. يبدو أن خبر أداء زينب الصرة لهذه الرقصة الجديدة قد انتشر فحضر عدد كبير من مريديها والمعجبين بها ليستمتعوا بمشاهدة عرضها.

في ركن مظلم من الخمارة جلست مجموعة من المخبرين وضعت أمامهم قصعة هائلة من البوظة يشتركون في احتسائها. أشرت لعابد حتى يتقدم إلى الناحية الأخرى من الصالة لنجلس بعيدا عنهم. نظرت حولي فلم أجد البكباشي حلمي أو المعلم أيمن. بعد أن خلعت زينب غلالة ثالثة صار عابد كالمسحور لا يستطيع أن يرفع عينيه عنها. خبطته على كتفه مداعبًا وسألته عن رأيه. لمس جبهته بكفه وأجاب:

– شيء من وراء الخيال! أنا كنت مخدوعًا فيك. تخيلت أنك أفندي محترم لا يعرف مثل هذه الأماكن.

قهقهتُ بصوت مرتفع لكن موسيقى الجوقة غطت على ضحكاتي. صحتُ فيه:

– يعني إنت ما شاء الله مقطّع السمكة وذيلها!

لم يعرني اهتمامًا، كأنه تائه في عالم بعيد. بدأ يصفق كفيه ويتمايل على كرسيه والسرور البالغ يشع من وجهه. ناديت النادل وفي نفس الوقت سألت عابد:

– ماذا تريد أن تشرب؟ أطلب لك بوظة والّا تحب كأس كونياك؟

رفع عابد كتفيه ورد:

– أنت تعرفني جيدًا يا عبد الكريم. أنا لا أشرب الخمر. لكن شيشة معمرة بالحشيشة ستكون مناسبة في ليلة كهذه.

اقترب مني "بركة" نادل الخمارة فهمست له بطلب عابد. أومأ برأسه نحو المخبرين الجالسين أمامنا وقال:

– هذا طلب مخصوص وسأقوم به من أجل زبون محترم مثلك يا سي كريم. وأنت تعلم جيدا أنك لا بد أن تمسّي على أصحابنا الجالسين هناك لكي نقدم لك الحشيشة المطلوبة.

أمرت بركة أن يحضر شيشة معمرة بالحشيشة لعابد، وأن يبعث بحجرين تحية منا لمخبري الضبطية. زينب أخذت تتمايل وهي تهز ثدييها بشكل مثير، أتبعت ذلك بخلع الغلالة الرابعة وبعدها الخامسة، فأصبحت شبه عارية يستر صدرها وشاح من الحرير الأبيض الشفاف، بينما تشف غلالة رقيقة عن أردافها. عابد المبهور بمفاتن زينب كف فجأة عن التصفيق وأخذ يحدق فيها غير مصدق ما يراه. أمسكت بذراعه وهززته برفق:

- عابد! هل أنت بخير؟

لم يرد، فجذبت ذراعه بقوة. مال نحوي لكن نظراته تشبثت بزينب. أحضر بركة الشيشة وثبت الكرسي الفخار المعمر بتوليفة من التمباك والحشيشة المخصوصة. سحب عابد نفسًا عميقًا ثم أخرج الدخان من أنفه على دفعات. من خلال سحابة الدخان التي نفثها رأيت زينب تخلع الشال الذي يغطي صدرها فبان نهداها المكتنزان. علت دقات الدفوف ممتزجة بصيحات الزبائن التي عبرت عن الإعجاب برقصة زينب وولع الحاضرين بمفاتنها.

مخبرو الضبطية أشاروا إلينا مبدين تقديرهم "للتحية" التي أرسلناها لهم. لم أجد غالية في الصالة. أردت أن أصعد إلى غرفتها، لكنني لم أستطع أن أترك عابد وحده. سرح خيالي بحثًا عنها. صيحات الزبائن ارتفعت مطالبة بأن تخلع زينب الغلالة الأخيرة، قبل أن تلملم

ما خلعته من ثياب وتغادر الصالة. هبّ عابد واقفًا وهو يصيح مع الصائحين ويصفق بحرارة. احتسيت رشفة من كاسي قبل أن أجذب عابد ليجلس في مكانه ثم ملت نحوه وسألته:

– ما رأيك يا سي عابد؟

بدأ يتمايل مرة أخرى وهو جالس على مقعده ثم همس لي:

– شيء بديع، لم أتخيل مثل هذه المفاجأة. كنت أعجب لاختفائك بين الحين والآخر لساعات طويلة. هل تعرف أن المعلم صالح بدأ يشك في أمرك بسبب كثرة غيابك عن القرافة.

تأكد لي عدم ارتياح المعلم صالح لأفعالي. لماذا لا يثق في تصرفاتي؟ لقد خدمته بكل إخلاص وتفانٍ، ومع ذلك ينتقد أفعالي باستمرار. على النقيض كنت دائمًا أشعر بالراحة مع عابد الذي حاولت أن أشرح له طبيعة علاقتي مع غالية:

– الآن تعرف بعض الأشياء عن أسباب غيابي عن القرافة. لكي ترى الصورة الكاملة لا بد أن تقابل غالية.

– غالية... غالية مين يا عبده؟

عادت زينب إلى الصالة مرتدية فستانًا أبيض، أقرب ما يكون بجلباب يحتضن جسمها الملفوف فيبرز مفاتنه. بشرتها الخمرية زادتها بهاء، ومشيتها الواثقة أضفت عليها جمالا آسرًا. استقبلها

جمهورها بتصفيق حاد وعبارات المديح والإعجاب. علق بعضهم بكلمات جريئة قابلتها زينب بدعابات نالت من وقارهم. وقفت عندما أقبلت علينا ودعوتها للجلوس معنا فتقدمت نحوي وحيّت عابد الذي قام ومنحها مقعده لتجلس عليه. سترت فمي بكفي وهمست لعابد:

– "الجنية" التي دوشتنا بها لا تساوي شيئًا مقارنة بالست زينب.

أومأ عابد برأسه مؤيدًا لكلامي وسحب مقعدًا ليجلس بجوار زينب ثم قال لها:

– عرض رائع يا ست زينب. أنا لي الفخر أن أجلس معك.

ضحكت زينب وهي تغمغم:

– متشكرة يا راجل يا ذوق! سي كريم، لماذا لا تعرِّفني بصاحبك؟

أجبتها:

– عابد من أقرب أصدقائي وله معزة خاصة عندي. أردت أن أرفِّه عنه قليلا فأحضرته معي ليشاهد عرضك الجديد.

قاطعني عابد مضيفًا:

– بصراحة رقصتك هذه ستكون قنبلة الموسم.

تعجبت من جرأته. أكملت مديحي:

– بسبب هذا العرض ستصبح صالة طواجن أشهر خمارة في وش البركة كلها.

تورّدت وجنتاها ومسحت بكفها على شعرها الأسود المنسدل فوق كتفيها وقالت:

– دائمًا مجامل يا سي كريم.

أمسكت بكفِّها وقلت لها:

– أبدا! ألم تري بنفسك مدى إعجاب الزبائن برقصتك البديعة. كلهم متشوقون للجلوس معك للحظات عابرة، وعلى الرغم من ذلك تفضلين قضاء كل هذا الوقت معنا قبل أحد آخر.

وضعت زينب ساقًا على ساق وهمست لي:

– أنت غالي علينا قوي يا سي كريم.

ثم التفتت نحو عابد الذي كان يتفرّس كل شبر من جسمها، ويكاد يتحسس رائحة عرقها الذي اختلط بعطر الياسمين. فجأة قرصتْ فخذه بأصابعها وأضافت ضاحكة:

– أنت وأصحابك كمان غاليين علينا.

انتفض عابد غير مصدق الذي يحدث له، فارتبك للحظة قصيرة لكنه تماسك واقترب من زينب وهو يقول:

- أنا عمري كله فداك.

مسحتْ فخذه بكفها واستمرت بمداعبته:

- عمرك كله، مرة واحدة!

أحضر بركة كأسًا من "الكونياك" ووضعه أمام زينب التي تناولت "الليي" من يد عابد وسحبت نفسًا عميقًا. مال بركة نحو زينب وأشار إلى مجموعة من الأفندية الجالسين بالقرب من طاولة المخبرين. تجاهلت ما دار بين زينب وبركة. علقت على ما قاله عابد:

- سيبك يا زينب من عابد فهو رجل غلبان وعلى قده.

لم تأبه بتعليقي وأخذت تتحسس رقبة عابد، فتجرأ وقال:

- لا تصدقيه، عبد الكريم أصله على نيّاته خالص. ولا يعرف إمكاناتي وما أقدر عليه من أفعال.

قاطعته مداعبًا:

- أنت رجل فاجر يا عابد! وأنا غلطان لأنني أحضرتك معي إلى هذا المكان المحترم.

عادت زينب فلملت شعرها الكثيف وطوّحته خلف ظهرها، ثم اعتدلت في جلستها وقالت معترضة:

- صاحبك هذا أمير ورجل ظريف جدًا.

سألتها:

– أين ذهبت غالية؟ لماذا لم تنزل إلى الصالة حتى الآن؟

– غالية خرجت مع المعلم أيمن ولم ترجع حتى الآن.

تدخل عابد في حديثنا بلا داعٍ:

– وهل لغالية حلاوتك وطعامتك يا "زوزو"؟

ضربَته على ظهره بكفها وزجرته وهي تقهقه:

– "زوزو" مرة واحدة يا مضروب! الظاهر إن الحشيشة سطلتك وأكلت دماغك.

قلت لها:

– الرحمة حلوة يا ست زينب. صاحبنا لن يحتمل مداعبتك.

نظر عابد نحوي بطريقة اختلط فيها اللوم مع العشم. لم أهتم به بل عدت إلى سؤالي عن غالية:

– هل تعرفين لماذا خرجت مع المعلم أيمن؟

أومأت برأسها وأجابتني وهي تهم بالوقوف:

– غالية لم تقل لي شيئًا. المعلم أيمن حضر إلى البيت وطلب منها أن تجمع أشياءها ثم حمل أغراضها وذهبا معًا.

انحنت زينب ثم قبّلت عابد بالقرب من أذنه واستدارت متوجهة نحو طاولة الأفندية. قبل أن تصل إليهم دخل المعلم أيمن الصالة، وقد انتفخت أوداجه وبان عليه علامات الرضا والسرور. أسرع بركة نحوه وهمس له بملخص سريع لما فاته من أحداث الصالة. أدار بصره نحوي ونظر لي نظرة عابرة قبل أن يتوجه نحو طاولة المخبرين ويجلس معهم. تخللت حديثهم الهامس وضحكاتهم الصاخبة نظرات صارمة كان المعلم طواجن يوجهها نحوي بين حين وآخر. انشغلت بحديث عابد عن جمال زينب فلم أشعر بالمعلم أيمن الذي قام من مكانه وعبر الصالة حتى أصبح على مقربة منا ثم صاح في:

– أهلا وسهلا بزبون الهنا.

تقدم نحونا وأمسك بالمقعد الذي تركته زينب شاغرًا وجلس عليه. بادلته النظرات غير مستوعب ما الذي يريده:

– أهلا بك يا معلم. مكانك ومطرحك.

أضاف عابد غير المدرك لحقيقة ما يدور بيننا:

– فاتك يا معلم عرض رائع يسلب الألباب بحق.

نظر المعلم نحو عابد باستخفاف وقال:

– ومن يكون حضرته؟

أجاب عابد بفخر:

– عابد الراجحي من كبار "تربية" باب الوزير والإمام الشافعي.

طواجن رفع كفه كأنه يؤدي التحية العسكرية:

– شرفتنا يا سي عابد. أهل باب الوزير أحسن ناس. هل تعرف أولاد المعلم عاشور الكابي؟

برقت عينا عابد قبل أن يرد بصوت هامس:

– طبعا هم أشهر من نار على علم. هم ملوك الحشيش.

عاد المعلم أيمن لتهكمه السمج:

– وأنت بقى صاحب سي كريم؟

نطق اسمي بصوت أنثوي لا يتناسب مع رجل ضخم مثله. عابد الذي لم يفهم مغزى أسلوبه الفظ أجاب بعفوية:

– أنا صاحب عبد الكريم الروح بالروح.

ضحك أيمن طواجن ثم شوح بذراعه وهو يقول باستهزاء:

– تبقى تقوم تروّح مع صاحبك لأنه بتاع مشاكل ولا خير منه ولا تجيء من ورائه أي منفعة.

انقبض صدري وعلت ملامح عابد علامات الحيرة قبل أن يسرع بالرد:

– عيب يا معلم. عبد الكريم رجل محترم.

المعلم أيمن وضع راحتي يديه على فخذيه ومال نحو عابد. حدق في عينيه ثم أضاف بأسلوب فظ:

– العيب عنده يا حضرة. ماذا تفعل بمن يدخل بيتك من غير "إحم أو دستور"، ثم يتخطى الحدود ولا يحترم الأصول؟

اختنق صوتي في حلقي وأحسست برعشة في نبراته عندما حاولت التدخل في الحديث المتبادل:

– ما الذي تقصده يا معلم؟ أنا زبون مثل باقي الزبائن.

التفت نحوي وهو يصيح:

– زبون ثقيل يتدخل فيما لا يعنيه.

حاولت أن أكبت حنقي وأن أهدئ من هذا الموقف المتفجر فعاتبته برفق:

– عيب يا معلم. لا يصح مثل هذا الكلام وأنا في محلك.

علا صوت طواجن فجذب أنظار الزبائن إلينا:

– العيب عيبك يا أستاذ. أنت نسيت فتة العيد والممبار والكبدة

المشوية. وبعد ذلك تأخذ "البت" غالية وتفسحها في حديقة الأزبكية. من وراء ظهري. أنت فاكرني راجل خرنق؟ كيف أضمن أنك لا تدبر أشياء أخرى من وراء ظهري وبدون علمي؟

سكت المعلم لوهلة حتى يلتقط أنفاسه ثم اختتم هجومه الهادر:

– وبصراحة أنت زبون عرة وغير مرغوب فيك.

مشاعر الكراهية تجاه أيمن طواجن ولدت مع أول يوم رأيته فيه، وتعاظم هذا الشعور بعد المشاجرة التي وقعت بيننا يوم العيد. لكن أن يصل الأمر لهذا الحد من الصفاقة، فهذا شيء لا يحتمل. قمت من مكاني وسحبت عابد من يده وغمغمت:

– فلنذهب من هنا قبل أن ينفد صبري.

المعلم طواجن صاح فينا:

– مع ألف سلامة يا أبو صبري!

قام عابد معي كالمأخوذ غير مستوعب ما حدث لنا. أنظار الحاضرين شيّعتنا حتى وصلنا إلى باب الخمارة. تمالكت نفسي بصعوبة وتمنيت لو كانت غالية موجودة الليلة في الصالة. لم أقدم على الشجار معه بسبب وجود مخبري الضبطية.

حمرة الشفق في الخارج بدأت تنسحب من حول مباني درب

"الدحديرة". خرجنا إلى بواكي شارع "كلوت بك" الذي أضاءته مصابيح الغاز. نظرت أمامي لا ألوي على شيء، بينما ساد بيننا صمت خجول قبل أن يبادر عابد بسؤالي:

– لا مؤاخذة يا عبده، أنا لم أفهم حقيقة ما حدث لنا في الصالة. كل شيء كان عال العال، حتى دخل علينا هذا الرجل البجح. لماذا عاملك بهذه الطريقة على الرغم من الترحيب الواضح من الست زينب والولد بركة وباقي العاملين بالصالة؟

أجبته بصوت آسف:

– المعلم طواجن هو صاحب الخمارة، وقد حصلت بيننا مواقف سخيفة بسبب عدم رضائه عن علاقتي بغالية.

غمغم عابد:

– كيف تقبل يا عبده أن يعاملك بهذه الطريقة؟ والله لولا جهلي بخلفية ما يدور بينكما لما سكتُّ أبدًا لهذا الخسيس.

– الشجار معه لم يكن سيجدي نفعًا بسبب وجود مخبري الضبطية في الصالة. المعلم طواجن صديق حميم للبكباشي حلمي من "تمن" الأزبكية. لو تعاركنا معه كنا رحنا في حديد.

علق عابد بغضب:

– رجل وضيع يحتمى في سلطة الحكومة.

أردت أن أنهي الحديث عن المعلم طواجن، فسألت عابد:

– ما حكاية عاشور الكابي الذي سألك عنه المعلم؟

أجابني:

– عاشور الكابي من معارف المعلم صالح البيومي. وهو من كبار تجار الباطنية.

– وما علاقته بالمعلم صالح؟

تعجب عابد من سؤالي:

– أنت عايش معنا طول هذه المدة ولم تسمع أي شيء عن عاشور الكابي، ولا تعرف طبيعة علاقته بالمعلم صالح!

هزهزت رأسي نافيًا علمي بهذا الأمر:

– لا أعرف أي شيء عن علاقتهما.

اقترب مني وقال بصوت منخفض:

– المعلم صالح يقوم بتخزين بضاعة عاشور الكابي في مدافن باب الوزير بالقرب من الباطنية.

لم أصدق أذني. المعلم صالح البيومي يقوم بعمل كهذا من أجل تاجر حشيش. بعد منع زراعة الحشيش وحظر استيراده أصبح

من الممكن تحقيق أرباح فاحشة من وراء تسويقه. لا بد أن المعلم صالح يحقق مكاسب هائلة من هذا العمل.

كنا قد اقتربنا من ميدان العتبة. خطر لي أن نذهب إلى مقهى "بالميرا" لعلني أجد محمد بك طاهر. بالقرب من سور حديقة الأزبكية قابلنا "الجننار" وجدي الذي وقف أمامنا بطوله الفارع وصدره الواسع. سترته مرصعة بالنياشين الصفيح المصنوعة من مخلفات الحانات والخمارات الموجودة في المنطقة. رفع يده مؤديًا التحية العسكرية لنا ودب الأرض بقدمه معلنا:

– مدافع بوارجنا دمرت الطوابي... هل لديكما أوامر أخرى؟

أمسكت بذراع عم وجدي وأخفضتها بجانبه وداعبته قائلا:

– الحرب انتهت يا "جننار" والهوجة خلاص عدت، ونحن الآن نعيش في أزهى عهود الاستقرار.

سار أمامنا بضع خطوات ثم التفت إلينا وهو يعلن للمارة:

– الحرب دائرة وشغالة لكن الناس لا تدري بحقيقة ما يحدث حولهم ومدى الأخطار التي تحيط بهم.

– لا بد أن تهدّئ من بياناتك النارية. مخبري "التمن" سيبهدلونك لو سمعوا ربع ما تقوله.

– أنا لا يهمني "تمن" ولا "ربع". الحرب مستمرة حتى يكتمل

النصر. طبول الحرب تدق، ترم ترم... ترم ترم...

أدى التحية لنا مرة أخرى وانطلق مبتعدًا عنا وهو يدب الأرض دبًا. ضحك عابد خبط كفًا على كف وقال معقبًا:

– لا حول ولا قوة إلا بالله. الناس خلاص فقدت عقلها.

سحبته من يده وقلت له:

– فلنذهب إلى مقهى آخر. أنا أعرف مكانًا مناسبًا نستريح فيه مما حدث لنا.

ابتسامة كبيرة ملأت وجهه:

– هل سنجد زينب أخرى هناك؟

– خلاص حبيبة القلب قبضت على تلابيب عقلك! لا يا سي عابد، لا توجد هناك زينب أخرى، فالمقهى الذي سآخذك إليه مكان محترم. نحتاج إلى مكان هادئ نريح فيه أعصابنا بعد حرقة الدم التي تسبب فيها ذلك الوغد.

جلسنا على طاولة قريبة من مدخل مقهى "بالميرا". النادل أقبل علينا وابتسامة واسعة تملأ وجهه. طلب عابد قرفة بالحليب بينما اخترت شراب الزنجبيل. همست في أذن النادل متسائلا عن محمد بك طاهر، فأومأ برأسه في اتجاه الغرفة الخلفية ذات الستائر وأخبرني أن ابنه مصطفى موجود هناك. التفت نحو عابد قائلا:

– يا عابد هناك شخص أود التحدث إليه. سأذهب لرؤيته ثم أعود فورًا.

ابتسم بعفوية:

– خذ راحتك! تكفيني ذكرى زينب الصرة لتسليني في وحدتي.

وجدت مصطفى طاهر جالسًا مع إسكندر أفندي. ألقيت عليهما السلام وجلست على مقعد خال بجوار مصطفى أفندي الذي وجدته متأنقا كعادته، شاربه المشذب بإتقان يعلو شفتيه الممتلئتين وتشع من عينيه نظرة حالمة. سألني عن أحوالي مشيرا إلى التجهم الواضح على ملامح وجهي. همس لي إسكندر أن الرفاق في اللجنة العليا للحركة يخططون لعدة عمليات، وأنهم متحمسون للقيام بضربات تحرج الخديو والإنجليز، وتظهر أن أحوال البلاد لن تستقر أبدًا. سررت بسماع هذا الكلام فبادرتهما باقتراحي:

– لديّ فكرة للقيام بعملية مؤثرة ستشكل ضربة قاسية لكل من يتآمر مع الخديو والإنجليز ضد الوطنيين.

مصطفى أفندي قال:

– خير... أخبرنا بما لديك.

مسحت بكفي سطح الطاولة وقلت له:

– أعرف أحد الأوغاد من عملاء الشرطة. لقد وشى ذلك

الخسيس بعشرات الوطنيين. وكان يقبض ثمن كل رأس يسلمها.

نظر مصطفى أفندي نحوي لوهلة قبل أن يسألني:

- هل تفكر في تصفية شخص كهذا؟ هل تعتقد أن التخلص منه ستكون ضربة موجعة للعملاء والخونة من أمثاله؟

- إذا تخلصنا منه، سيعيش كل خسيس من هولاء العملاء في حالة من الذعر المستمر معتقدًا أن دوره آتٍ لا محالة.

مال إسكندر أفندي نحوي وقال:

- لماذا لا تخبرنا بالمزيد من التفاصيل؟

سحبت مقعدي لكي أقترب منه، ثُم همست:

- المعلم أيمن طواجن يملك خمارة مشهورة في وش البركة. بعد التل الكبير استغل ما يبوح به زبائنه للحصول على معلومات عن العرابيين الهاربين فيقوم بالإبلاغ عنهم.

بدا الحماس على إسكندر الذي علق:

- سمعت عن خمارة طواجن. ذلك المكان مشهور بجمال فتياته.

أكملت حديثي متجاهلا تعليقه:

- يبدو أن المعلم طواجن على صلة وثيقة ببكباشي من "تمن"

الأزبكية، وبين الحين والآخر يمده بالمعلومات التي تصله عن العرابيين الهاربين. شخص كهذا يستحق أن يكون عبرة لغيره من الخونة.

أومأ مصطفى أفندي برأسه كأنه يؤيد رأيي:

– سندرس الأمر في الاجتماع القادم للجنة العليا حتى نتأكد من أنه عميل للشرطة، ولنتحقق من أنه وشى حقا بكل هؤلاء العرابيين. ثم نحدد ماذا سنفعل.

لم أفهم قصده وأحسست أن التردد في اتخاذ القرار سيضعف من تأثير عملية كهذه. قلت لهما:

– لكننا لا بد أن نقرر سريعًا ماذا سنفعل به. ولا حاجة لتضييع الوقت في بحث أمره، فأنا واثق كل الثقة من معلوماتي. ذلك النذل يتعاون مع السلطات في الإيقاع بالوطنيين الذين عارضوا استبداد الحكومة وقاوموا الاحتلال الإنجليز.

قاطعني إسكندر:

– الأمر ليس بهذه البساطة. سندعوك إلى الاجتماع القادم للهيئة العليا للتنظيم لكي تقدم لنا اقتراحك بشكل رسمي.

لم أصدق ما يقوله. ما فائدة منظمة ثورية تريد تغيير واقعنا لكنها تضيع الوقت وتخطط لعملياتها بحذر مبالغ فيه؟ لماذا يترددون هكذا. هذا يتناقض تمامًا مع ادعائهم الثورية. قلت متعجبًا:

– لا أفهم ماذا تقصد.

مصطفى أفندي قال بهدوء مبالغ فيه:

– عندما التحقت بتنظيم المؤامرة الوطنية شرحنا لك الطريقة التي نعمل بها. لا بد أن نصوِّت بالإجماع للموافقة على أي عملية قبل القيام بها.

قاطعته بحدة:

– هذه مضيعة للوقت ولا بد لنا أن نكون أكثر حسمًا في تحديد أهدافنا والعمل على تحقيقها بسرعة حتى لا نفقد زمام المبادرة. إذا حققنا ذلك سنثير الذعر بين الخونة من أعداء الشعب، وسنزرع الخوف في قلوب جنود الاحتلال.

تجهم وجه مصطفى أفندي الذي أصر على موقفه:

– لنا أسلوبنا في العمل، ولا بد من موافقة أعضاء التنظيم على أي عملية نقوم بها، حتى تكون المسئولية جماعية، ولكي لا نتضرر جميعنا نتيجة لعمل فردي طائش.

أضاف إسكندر:

– لا بد أن تلتزم بطريقتنا. أرجو أن تتفهم ذلك.

قمت من مكاني وصافحتهما وقلت:

– أشكركما على حسن استماعكما، وسأنتظر رد اللجنة العليا.

لم أرضَ بما قاله مصطفى أفندي طاهر. أدركت أن حركة المؤامرة الوطنية لن تنفعني في شيء. عليّ أن أبادر بالعمل منفردًا وإلا ستفوتنا الفرصة. بعد شهر أو اثنين سينسى الناس ما قام به طواجن من الوشاية بالعرابيين. لو تخلصنا منه بعد مدة طويلة لن يربط أحد بين عمليتنا وبين وشايته بالمعارضين للخديو. لا بد من التعامل معه فورا وإلا سيفقد عملنا معناه ولن تكون له قيمة.

عدت إلى عابد الذي انهمك في شرب القرفة. جلست معه وشرعت في جمع معلومات قد تفيدني في المستقبل:

– هل قابلت عاشور الكابي من قبل؟

رفع كتفيه كأنه ينفض عن نفسه هذه العلاقة:

– لم أقابله أبدا، لكني أعرف أن المعلم صالح يذهب أحيانا للقائه في مقهى "السلحدار" عند سوق السلاح.

أخذت رشفة من كوب الزنجبيل وصمتُ. نهاية أيمن طواجن باتت مسألة وقت. لقد أهانني أمام الجميع، وأبعد غالية عني، وطردني الليلة من الصالة. الآن أعرف جيدا كيف سأتعامل معه. أستطيع الانتظار حتى تتاح لي الفرصة وأتمكن منه. لا أملك سوى ذلك. لا أملك سوى الانتظار.

***

السيدة نفيسة

مارس، 1883

كان لا بد من زيارة أمي قبل أن أقدم على ما عقدت النية عليه. منذ بضعة أيام قمت بزيارة سريعة لسكن غالية فلم أجدها، عيشة الطاهرة أخبرتني أن المعلم قد أخذها لتعيش معه في مسكنه في درب "البرقي". صرحت لي بأن طواجن منعها من الخروج إلى الشارع، وأمرها بألا تخطي عتبة البيت. منذ ذلك اليوم لم يرها أحد. كنت قد حسمت أمري، وبدأت في وضع خطتي للنيل من طواجن في سرية كاملة. شعرت بضرورة أن أكون قريبًا من أمي في الأيام القليلة التي سبقت تنفيذ ما عزمت عليه. قربي منها

يريحني ويقوّي من عزيمتي، ولو شاءت الأقدار وأصابني مكروه، أكون قد أمضيت ساعاتي الأخيرة بالقرب منها.

مررت بسبيل قايتباي وبعد خطوات قليلة ظهر ركن من بيت أبي وبجواره أطلت مئذنة مسجد "تغري بردي". دخلت إلى إيوان البيت فاستقبلتني أم عواطف وعلى وجهها ابتسامة طاغية. قادتني إلى غرفة أمي حيث وجدتها متربعة في مكانها المعتاد على الكنبة الإسطنبولي. قبّلت رأسها وملأت روْحي برائحتها الطيبة. لوهلة جلست بجوارها لا أدري ماذا أقول لها. بادرت هي بالحديث:

– أهلا بك يا ضنايا، وحشتني.

قبّلت كفها، فأكملت:

– شكلك هفتان ومحتاج للراحة. لماذا لا تعود لتعيش معنا في البيت؟ لقد صدر قرار العفو منذ شهور. ولو على الشغل يستطيع أبوك أن يوظّفك معه في الوكالة.

– ظروفي لا تسمح في الوقت الحالي.

نظرت حولي فلمحت سرير أمي النحاسي ذا الأعمدة الرشيقة. تذكرت يوم أن صفعني أبي بسبب مشاجرة بيني وبين عبد الرحيم الذي استفزني كعادته فركلت قصبة ساقه. صرخ عبد الرحيم وأسرف في الشكوى حتى نهرني أبي ثم صفعني بقوة. غضبت أمي من تصرفه وأخذتني إلى غرفتها لتطيب خاطري. لن أنسى

الدفء الذي شعرت به تحت لحاف سريرها الوثير، ما زلت أذكر إحساسي العميق بالعرفان، لأنها واجهت بطش أبي ولم تتخل عني. نصرتني ووقفت بجانبي لتدفع عني ظلمًا لم أعِ كنهه.

نظرت نحوي وقالت متعجبة من منطقي:

– ماذا تعني؟ أي ظروف تباعد بينك وبين أهلك بهذ الشكل؟ كانت هناك أسباب مفهومة لبعدك عنا قبل أن تصدر المحكمة قرار العفو.

– قد يتبدل قرار العفو بين يوم وليلة. بعضهم يدعي أن الغرض الحقيقي من هذا القرار هو الكشف عن العرابيين الذين لم يقعوا بعد في يد الشرطة.

مسحت كتفي براحة يدها قبل أن ترد:

– زملاؤك من الضباط الفارين رجع معظمهم إلى أهلهم، حتى محمد عباس أفرج عنه أخيرًا.

دخلت علينا أم عواطف وفي يدها صينية الشاي. وضعت الصينية بيننا على الكنبة قبل أن تترك الغرفة. تناولت كوب الشاي وأخذت منه رشفة ثم قلت:

– دعيني أبقى في مكان إقامتي الحالي لفترة وجيزة حتى أتأكد من نية الحكومة.

– على كيفيك يا بني، لكن حرام غيابك عن هذا البيت. لقد أبعدوا عبد الرحيم إلى السودان، وأنت الآن ترفض أن تعود للعيشة معنا. ارحمني وارحم أباك.

أردت أن أغيّر موضوع الحديث فقلت لها:

– يوم من الأيام سآخذك أنت ونفيسة لنزور سيدنا الحسين، وقد تسنح لنا الفرصة لزيارة السيدة نفيسة.

لمعت عيناها:

– منذ زمن طويل لم أذهب لزيارة الحسين. أبوك دائما مشغول بعمله ولا أجد من يرافقني في زيارة كهذه.

– ما زلت أذكر زياتي الأولى معك لمقام سيدي أبو السعود وبعدها ذهبنا مع أبي لزيارة سيدي عمر في وادي "المستضعفين".

نظرت أمي إلى ركن الغرفة كأنها ترى أيامها التي ولّت ثم أضافت:

– أنا في شبابي كنت لا أنقطع عن هذه الزيارات. أما الآن فلقد ثقلت حركتي ولا أقدر على التنقل إلا بصعوبة.

– يمكننا كذلك أن نذهب إلى الغورية أو ربما آخذك لحديقة الأزبكية.

ضحكت وعلت وجهها مسحة من الحياء:

– عيب يا ولد! تأخذ أمك إلى حديقة الأزبكية وسط الخواجات والمتبرجات. أبوك كان ذبحك وذبحني معك.

أحببت ارتباكها عندما عرضت عليها زيارة حديقة الأزبكية. أمي ما زالت على سجيتها ومتمسكة بعاداتها القديمة. لم تر بعد التغير الكبير الذي طرأ على البلد. سألتها:

– كيف أحوال أبي؟

– دائم القلق عليك وعلى أخيك عبد الرحيم.

– هل وصلتكم أي أخبار أخيرًا من عبد الرحيم؟

أشاحت بوجهها بعيدًا عني وشردت قليلا قبل أن تطأطئ رأسها وتقول:

– الحال في السودان يزداد سوءًا خصوصا بعد ظهور المهدي. لكن الحمد لله المنطقة حول طوكر وسواكن هادئة. في آخر رسائله أشار عبد الرحيم إلى أن قبائل المناطق المحيطة بطوكر لم تنضم لتمرد المهدي.

– أرجو أن يكون ذلك حقيقيًا لأن الأحوال المتدهورة في مصر وتدخل الإنجليز في أمورنا سيؤثران على أحوال السودان.

ظهرعلى وجهها بعض القلق:

– ماذا تقصد؟

– الجيش المصري تم تخفيض عدده، بالتالي الحاميات المصرية في السودان ستعاني من الضعف والتدهور مع مرور الوقت. مع الثورات المتكررة من قبل القبائل المحلية، وعدم وجود حلول حاسمة سيكون موقف حامياتنا حرجًا للغاية. شخصية كالمهدي يمكن أن يكون لها سحرها الخاص.

– لماذا كل هذا التشاؤم؟ لقد انتهت هوجة عرابي والآن كل شيء سيعود لأصله. وربما سيأمر الخديو بسحب الحاميات المصرية من السودان.

ككل أهل البلد تعلقت أمي بأمل عودة الاستقرار بعد القضاء على هوجة عرابي. لست متشائمًا وأعتقد أن تقديري للموقف واقعي للغاية. ولكن للأسف نحن نشهد نهاية طموحات دولة محمد علي باشا. لقد استتب الأمر لحفيده توفيق، لكن الثمن الذي دفعناه جميعًا كان فادحًا ولن نملك قرارنا بعد اليوم. حركة المهدي ما هي إلا تمرد محدود وفي الوقت الحاضر تأثيرها علينا ضعيف، وتبدو بعيدة عنا كل البعد. لكن هل سينقلب السحر على الساحر ويجيء اليوم الذي تهدد فيه المهدية كيان الدولة المصرية التي نعرفها.

دخلت علينا نفيسة فاحتضنتها وقبّلت وجنتيها قبل أن أدعها تجلس بجوار أمي. داعبتها:

- كبرت يا نفيسة وبقيتي عروسة. كل يوم تزدادين حلاوة. لا ينقصك إلا العريس.
- يا "أبيه" بلاش هزار في هذه المسائل أحسن تقلب بجد.

تدخلت أمي في الحديث:

- ما الضرر في أنها تقلب بجد يا ست نفيسة؟ كلها سنوات قليلة وتصبحين عروسًا لا يجاريها أحد في الحسن والجمال.

احمرّت وجنتا نفيسة وطأطأت رأسها خجلا فسألتها:

- تحبي عريسًا مثلي أو مثل أخيك عبد الرحيم؟
- الاثنان أحسن من بعض.

ضحكت:

- بقى كده! وأنا كنت فاكر أنني أخوك المفضل. ماذا ستفعلين بزوج مُتكبر مثل عبد الرحيم أفندي؟

اعترضت أمي بحرارة:

- لماذا تقول ذلك على أخيك الكبير؟ لو حضرنا اليوم كان شاف شغله معك. على العموم ربنا يسهل له أموره ويحميه حتى يرجع لنا سالمًا من السودان.
- لن يسحبوا أحدًا من السودان. ولو حضر عبد الرحيم اليوم

لقلت له نفس الكلام في وشه.

قطّبت أمي جبينها وقالت:

– حرام عليك يا عبد الكريم. لا تكن قاسيًا على أخيك.

انزعجت مما قالته. لقد أتيت إليها لكي أشعر معها بالراحة والأمان. منذ أيام طفولتي كنت دائما الولد الهادئ قليل الكلام. في أي مجلس كنت أقل الناس حديثًا. على النقيض أفصح عبد الرحيم دائما عن آماله وآرائه وطموحاته. يطنطن ويعيد ويزيد في الروايات التي يحسن صياغتها عن بطولاته وإنجازاته. بالمقارنة معه كان أبي يقصر أحاديثه على عمله وأحوال الوكالة، وقليلا ما كان يتطرق إلى الكلام عن أخبار أصحابه أو أقاربه. نفيسة كانت كثيرًا ما تطلق تعليقاتها الطريفة وتسلينا بحركاتها المضحكة التي تسعد الجميع. أما أنا فكنت ألتزم الصمت وسط أهلي وأقراني، أجلس في هدوء أراقب ما يدور حولي، أشاهد كل التفاصيل وقلما أنطق بحرف. أسكت وأنتظر. مما كان يستفز أقراني وأصحابي. أخي عبد الرحيم لم تعجبه طريقتي فأكثر من انتقاد تصرفاتي، وحاول مرارًا أن يغير من أسلوبي في التعامل مع الناس بلا جدوى. اليوم أعتزل صخب المدينة وأراقب ما يحدث حولي وأنتظر فرصتي. قلت لأمي:

– ألا تذكرين كيف رفض أن تصحبوه إلى محطة السكك

الحديدية لتوديعه. أبلغني يومها بعدم رغبته في العودة إلى مصر.

اعتدلت في جلستها وقالت:

ـ ما هذا الكلام الفارغ! لماذا يصرح عبد الرحيم بشيء كهذا؟ أخوك لم يقصد ما قاله.

ـ لم يكلف نفسه حتى أن يلتفت لتحيتي عندما صعد سلم القطار. اختفى وسط زملائه من الضباط والعساكر المتزاحمين وتركني واقفًا على رصيف المحطة كالأبله.

ـ أخوك دماغه ناشفة. لكنك أنت عاقل بتاخذ وتدي. فاصبر عليه وعلى أفعاله.

ـ عبد الرحيم يعتقد أنه فاهم كل حاجة، وأنه على حق دائمًا.

ـ تسامح مع أخيك، فظروف ترحيله كانت صعبة للغاية. والطريقة التي أرسل بها إلى السودان كانت مهينة لرجل مثله يؤمن بالعسكرية ويثق في قدراته الشخصية.

ـ أعرف ذلك يا أمي! فأنا أيضا ابن نفس التقاليد العسكرية. ولا تنسي أنني حاربت في سبيل هذا البلد.

احتضنتني أمي وقبّلتني:

– الحمد للـه ألف مرة على نجاتك من ويلات حرب الإنجليز. أنت أعلم بقلب الأم. أنا دعوت اللـه كل يوم لكي تعود سالمًا. والحمد للـه ربنا نجاك، وإنٍ شاء اللـه عبد الرحيم سيرجع لنا بخير. والنبي يا كريم خلّي بالك منه. ووصيتي أن تصبر عليه وأن تعينه عندما يعود إلى بلده وأهله.

أطرقتُ ثم قلت بصوت منخفض:

– قدري حتم عليّ أن أحارب من أجل بلادي، وعلى الرغم من المرارة التي أشعر بها بعد الهزيمة فسأفعل كل ما أقدر عليه. أنت تعرفين أنني لن أستسلم.

نظرت نحوي وعلقت:

– تستسلم لمن؟ ماذا تعني؟ لقد انتهت الحرب وراحت أيامها السوداء. الآن سيسود الأمن والاستقرار. ماذا تقصد بالضبط؟ أرجو ألا تغامر بعمل تندم عليه.

حاولت أن أهون عليها، فداعبتها:

– لا تخافي يا أمي، وتذكري أنني أحد الضباط القلائل الذين لم يقبض عليهم بعد التل الكبير، وأنني استطعت الإفلات من قبضة الشرطة لعدة أشهر ودوَّختهم السبع دوخات.

– لست مطمئنة للهجتك وطريقة كلامك. أنت ابني وأنا أعرفك جيدا.

– أرجوك لا تنشغلي بأمور لا أساس لها، كما قلت لك من قبل أنا لا أطمع إلا في التواري بعيدًا عن المشاكل. اطمئني سأكون بخير فلا داعي للقلق.

– ستعود قريبا لتسكن معنا. أليس كذلك؟

هتفت نفيسة:

– أرجو أن تفعل يا "أبيه".

– سأعود إن شاء الله. المهم أنني بخير فلا تقلقي يا أمي.

ساد صمت ثقيل. أمي نظرت نحوي بنظرة ذات مغزى:

– نفسي أفرح بك يا كريم. عبد الرحيم رحل إلى السودان دون أن يسعد قلبي.

قهقهت ومسحت الطرحة التي غطت شعرها:

– هل لديك عروسة؟

– بالطبع، فهذا أملى ومنى عيني!

مسحت وجهها بكفيها ثم أضافت:

– هل تذكر فضيلة أخت سعد المويلحي؟ طيبة وبنت حلال وأهلها ناس محترمين.

هتفت نفيسة بحماس:

- والنبي توافق يا "أبيه". أنا شفتها في آخر زيارة قمنا بها لأم سعد. فضيلة جميلة جدا كأنها قمر 14. يا رب تكون من نصيبك.

تعجبت من خبر زيارة أمي لعائلة سعد، في نفس الوقت شعرت بحرج لم أفهم له سببًا فغمغمت:

- أعرف فضيلة منذ أيام طفولتنا عندما كنت أذهب إلى بيتهم لألعب مع أخيها. كنت أستلطفها أكثر من البنات الأخريات.

في تلك السن الصغيرة كنت أتحرّج من التقرب إلى فضيلة خشية أن يسخر مني أصدقائي الآخرون من الصبيان. تذكرت يوم طلب مني أبي أن أشتري له بعض أغراض البيت. عبد الرحيم كان قد التحق بمدرسة المهندسخانة ولم يجد أبي غيري ليقوم بهذه المهمة. ولأنها كانت أول مرة أقوم بشيء كهذا، تملكتني رهبة غريبة. عندما وصلت إلى الوكالة التي وصفها لي أبي لم أجد لديّ الشجاعة الكافية لدخولها. غلبتني الشكوك. ماذا سيحدث لو لم أجد الأشياء المطلوبة؟ ماذا سأفعل لو كانت النقود التي أحملها معي غير كافية؟ ترددت ولم أدر ماذا يمكنني عمله، فقررت عدم التوقف عند مدخل الوكالة وأكملت مسيرتي بخطوات سريعة. عند نهاية

الشارع استدرت وأعدت الكرة من جديد. عندما وصلت مرة أخرى أمام باب المحل تجددت مخاوفي وارتبكت، فلم أتوقف وتابعت سيري في الاتجاه المعاكس. الشعور بالخجل سيطر عليّ تماما ولم أستطع الخلاص منه. قبضت على ما بيدي من نقود وتوقفت لوهلة في ظل شرفة المبنى المجاور للمحل. كبّلت الحيرة أفكاري، لا يمكنني العودة إلى البيت بدون الحصول على الأغراض التي طلبها أبي. تكررت رحلاتي ذهابا وإيابا وأنا أراوح بين دخول المحل أو الانسحاب والعودة إلى البيت، في كل مرة أستجمع شجاعتي التي لا تلبث أن تخذلني عندما أصل إلى بوابة الوكالة. بعد فشلي الذريع قررت أن أعود إلى البيت وأخبر أبي أنني لم أجد الأغراض التي طلب مني شراءها. في طريق عودتي أدركت مدى ضعف حجتي بسبب استحالة نفاد كل البضائع المطلوبة. توقفت في منتصف السكة كالتائه الذي لا يعرف طريقه. أخيرًا عدت أدراجي وكلي تصميم على أن أتم مهمتي. بصعوبة ولجت من خلال بوابة المحل واشتريت كل الأغراض المطلوبة. الآن وبعد كل هذه السنوات تبدو هذه الواقعة كأنها وهم من صنع الخيال. لم أفهم لماذا عانيت من مثل هذا الرهاب كلما أقدمت على موقف غير مألوف. كم ترددت في تلك الأيام ولم أحاول التقرب من فضيلة على الرغم من إعجابي بها. مع مرور الوقت بدلتني الحياة، واكتسبت المزيد من الثقة على مواجهة المجهول، حتى إنني صرت أندفع أحيانا في قراراتي بلا

تروٍّ. ولو حدث وترددت قليلا فإن وجلي لا يدوم طويلا.

ابتسمت أمي وبان عليها الرضا:

– لو تعجبك فضيلة، نتوكل على اللـه.

– ولماذا العجلة؟ لا بد أن تستقر أموري أولا قبل أن أقدم على شيء كهذا.

– الأمور مستقرة والحمد للـه. الحاج صبري يمكنه أن يجد لك عملا بالوكالة، وبالتالي سيتوفر لك دخل كافٍ لنفقات بيتك وعيالك.

– يسعدني أن أحقق آمالك يا أمي، لكني لا أستطيع الزواج الآن، ولا بد أن ننتظر حتى أطمئن على أحوالي.

وضعت أمي كفها على خدها وقالت كأنها ترجوني:

– لن تفهم أبدًا مدى السعادة التي سيجلبها زواجك ورؤية أبنائك قبل أن يتقدم بي العمر.

– إن شاء اللـه سيمتد بك العمر لتري أولاد أولادي.

نفيسة وقفت وهي تضم ذراعيها أمام صدرها كأنها تحتضن طفلا رضيعًا قبل أن تعلن بحماس:

– وأنا ساعتني بأولادك وأولاد أولادك.

أمي عندما أنجبت عبد الرحيم كانت أكبر سنًا من قريناتها، لأنها لم تحمل به إلا بعد عشر سنوات من زواجها. رزقت بعبد الرحيم ومن بعده بثلاث سنوات ولدت أنا. ثم انقطع حملها لسنوات عديدة حتى أتت نفيسة فملأت حياتها. عند ولادة نفيسة عاد إليها الأمل في إنجاب أورطة الأبناء والبنات التي تمنّتها. ولكن القدر حرمها من الإنجاب مرة أخرى فلم ترزق بأبناء بعد نفيسة.

يوم ولدت نفيسة حملتها أم عواطف إلى حجرتي في الصباح الباكر. ضوء النهار شع من خلال الباب فكون هالة لفّت المولودة بنور أغشى بصري. مالت أم عواطف نحوي لتريني الطفلة البديعة. دعكت عينيّ لأتأكد من حقيقة هالة النور التي أضفت قدسية على هذه اللحظة. بعد أن قبّلت خدها الناعم قلت:

– جميلة قوي يا أم عواطف، تشبه السيدة نفيسة الخالق الناطق.

– عندك حق يا سي كريم.

***

عطفة الليمون

أبريل، 1883

أتيت من ناحية قراميدان وميدان الرميلة حيث يواجه حصن القلعة الشامخ بأسواره الشاهقة مدرسة السلطان حسن. نقر المقذوفات التي تبادلها المتحاربون على مر الزمان تزين الواجهة العريضة للمدرسة التي تعلو فوقها مئذنتان رشيقتان. عبرت الممر الواسع بين العمارة الفخمة لمسجد السلطان حسن والمبنى الحديث الذي بدأ تشييده مكان الزاوية البيضاء المدفون فيها شيوخ الطريقة الرفاعية. من الواضح أن المبنى الجديد سيضاهي ضخامة مسجد السلطان حسن وبهاءه. لقد أعد ليكون مدفنا لخوشيار هانم أم الخديو إسماعيل وأبنائها. في

نفس الوقت تم الإبقاء على ضريحي الشيخين أبي شباك ويحيي الأنصاري بداخل المبنى الجديد تيمنًا ببركاتهما. البناء الحديث توقف بعد أن ارتفع عدة أقدام، وكأشياء كثيرة في مصرنا لا أحد يعرف إذا كان سيكتمل قريبا. وصلت إلى البوابة الموجودة عند مدخل سوق السلاح. سألت أحد الأفندية عن مقهى "السلحدار"، فأشار إلى أول حارة "الحلوات"، وأخبرني بأنني سأجد المقهى على بعد خطوات قليلة من مدخل الحارة التي تبدأ أمام أرض زاوية الرفاعية.

توجهت على الفور إلى المقهى، وجلست في ركن أنيق زينت جدرانه ألواح خشبية داكنة تعلوها المرايات التي غطت معظم الحوائط. أمضيت ساعتين في ركن من المقهى أراقب الزبائن الذين توافدوا على المكان. خليط من الأفندية والتجار يتحدثون بهدوء ومعهم مجموعة من الحرفيين تميزهم مناقشاتهم الصخابة وتعليقاتهم الساخرة. نظرت عبر الشارع الضيق فلاحظت وجود مقهى صغير على الجانب الآخر. يافطة صغيرة علقت فوق المدخل مكتوب عليها "مقهى الفرن القديم". أدركت أن الجالس في ذلك المقهى يمكنه رصد القادم إلى مقهى "السلحدار" والمنصرف منه. بعد هذه الزيارة بدأت أتردد على "الفرن القديم". وأمضي به ساعات طويلة أرصد زبائن "السلحدار" لعلي أرى بينهم المعلم طواجن.

أمضيت عدة أسابيع في مراقبة المكان لفترات طويلة. بدأت أفقد

الأمل، وكدت أن أقتنع بعدم جدوى هذا الترتيب. لكن في يوم ربيعي دافئ وصلت مبكرا إلى مقهى "الفرن القديم" بعد أن سمح لي المعلم صالح أن أترك الحوش بعد صلاة الظهر. كنت قد بدأت أشعر بالملل بعد ساعات أمضيتها في مراقبة مدخل مقهى "السلحدار". أوشكت على القيام من مكاني عندما رأيت المعلم أيمن طواجن يصافح رجلا ضخم البنية يرتدي عباءة سوداء موشاة بخيوط مذهبة وله شارب كثيف يغطي نصف وجهه. دخل الاثنان إلى المقهى وانسحبتُ بدوري كي أختفي بين ظلال حوائط "الفرن القديم". بقيت في مكاني أنتظر نهاية اللقاء. تحسست جانبي لأتأكد من وجود الخنجر الذي حصلت عليه من تنظيم المؤامرة الوطنية. في الأيام الأولى كنت أحمل معي الطبنجة، لكن مع تكرار الزيارة لنفس المكان خشيت أن يشك بي صاحب المقهى أو صبيه فاكتفيت بالخنجر الذي يسهل إخفاؤه.

سيطر عليّ شعور جامح بأن الفرصة سانحة لتنفيذ ما خططت له. بعد الساعات الطويلة التي قضيتها منتظرا اللحظة المناسبة، ها هي قد حانت. لقد أتاح لي القدر هذه الفرصة التي سأغتنمها ولن أتركها تضيع مني. هذا الخسيس سينال جزاءه. يمكنني أن أتعامل معه بعد خروجه. سأتبعه حتى أختلي به في الطريق ثم أجهز عليه. لكن هل هذه هي أفضل طريقة للتخلص من المعلم طواجن؟ ربما يجب عليّ أن أتمهل وألا أدع مشاعري تسيطر عليّ هكذا. أليس من الحكمة أن أعد لهذا الأمر عدته؟ لا يمكنني مهاجمته في وضح النهار بين

كل هؤلاء المارة. بالقطع لن أتمكن من الهرب بعد أن أجهز عليه. ربما كان من الأفضل الانتظار حتى ينتهي من مقابلته ثم أراقبه عن بعد لأعرف طريق العودة الذي يفضله. عندئذ سأحدد مساره المعتاد ومن ثمة يمكنني اختيار المكان والأسلوب اللذين سأتصيده بهما. بهذه الطريقة سأنال منه دون تسرع، وأتجنب الإقدام على فعل غير مدروس أو متهور. معرفة طريق عودته في حد ذاته سيكون مكسبًا عظيمًا لأنني سأتمكن عندئذ من التخطيط للهجوم عليه، وسأعد له كمينا محكما لن يستطيع الهرب منه. ربما أرسل له رسالة تدعوه لمقابلة المعلم عاشور في وقت متأخر من النهار، وعندما يترك مقهى "السلحدار" سيكون الليل قد حل فأهاجمه تحت جنح الظلام. سأتمكن من الاستفراد به والشوارع خالية من المارة مما سيتيح لي فرصة أكبر للهروب بعد التخلص منه.

أشفق على أمي وما سيحل بها لو لم أستطع الهروب بعد مهاجمة طواجن. لو قبضوا عليّ، هل ستعذرني وتتفهم دوافع فعلتي؟ هل ستتقبل حقيقة أن يصبح ابنها قاتلا؟ هل ستسامحني؟ بالنسبة لها كنت دائما الابن العاقل الذي يتخذ قراراته بتروٍّ وبعد إمعان التفكير في المواقف التي عليه مواجهتها. لم أكن أبدا الابن المتهور الذي يتورط في علاقات أو أعمال قد تضر به شخصيا أو بأي من المحيطين به. كيف سأفسر علاقتي بقواد يملك ويدير خمارة مثل المعلم طواجن؟ حتى لو شرحت لها دواعي فعلتي، هل ستستوعب

الأسباب الحقيقية التي دفعتني إلى القيام بمثل هذا العمل؟ بالطبع لن أتمكن من إخبارها عن طبيعة علاقتي بغالية، ومشاكلي مع المعلم طواجن. هل ستسامحني وتحتمل مصيبة ضياع ابنها الثاني بعد أن رحل بعيدا عنها ابنها الأكبر؟ هل سيمكنني أن أفعل هذا بها؟ لكن لماذا تساورني كل هذه الشكوك؟ هذا التردد لا يجدي الآن خاصة وقد سنحت لي أخيرا فرصة الانتقام من طواجن، وأوشكت على التخلص من نذل باع أهل بلده بثمن بخس. لا بد أن أنحي جانبًا هذه الأفكار التي تثبط من همتي.

طالت المدة التي أمضاها أيمن طواجن مع عاشور الكابي. انتهيت من ثالث كوب شاي، وعلى الرغم من اقتراب موعد صلاة المغرب لم يخرج الاثنان من المقهى. دفعت ثمن المشاريب لأكون مستعدًا للتحرك فور ظهورهما. مضت اللحظات متثاقلة ولم يظهر لهما أثر. سمعت أذان المغرب قادمًا من المآذن المحيطة بحارة "حلوات". الوقت قد تأخر مما قد يتيح لي فرصة نادرة لكي أهاجمه الليلة. أحسست بقلبي ينتفض بين ضلوعي، لقد حانت لحظة الحقيقة، واقتربت ساعة ذلك الخائن. بعد قليل سيغلف الظلام هذه الحواري الضيقة وسيسدل الليل حجبه مما سيمكنني من التعامل مع أيمن طواجن دون أن يراني أحد.

لا بد أن أتخلص الآن من أي تردد أو وجل. يجب أن أركز كل

ما أملك من إرادة على إنجاز مهمتي. ترى ماذا سيظن بي مصطفى أفندي عندما يعلم بقيامي بهذه العملية دون انتظار موافقة حركة المؤامرة الوطنية. مما لا شك فيه أنه سيستشيط غضبا هو ورفاقه، وفي الغالب سيفصلونني من التنظيم. لكن هذا الأمر لا يهم الآن، فأنا مقدم على فعل جلل. ماذا يظن أعضاء هذا التنظيم الذي يدعي الثورية ثم لا يستطيع أفراده أن يتخذوا قرارا بسيطا كالتخلص من شخص تافه مثل أيمن طواجن. بعد مرور كل هذه الأسابيع لم يناقشني أحد في مقترح التخلص من ذلك النذل. قطعا لن ألتزم بقواعد تنظيم مترهل كالمؤامرة المصرية، فمن الواضح أن الالتزام فضيلة الخانعين! كيف سيمكنهم محاربة الإنجليز إذا لم يحسموا أمر فرد واحد كطواجن. يضيعون كل هذا الوقت في دراسة عملية بسيطة أستطيع القيام بها وحدي وبدون مساعدة من أحد.

خرج الرجلان من المقهى ووقفا أمام مدخله يتبادلان حديثًا وديًا تحت ظلال المباني التي خنقت ما تبقى من الضوء الباهت للغسق. يبتسمان كأنهما قد أنهيا اتفاقا أسعدهما وأضفى عليهما قدرًا كبيرًا من الرضا والسرور. بدلًا من أن يعود أيمن طواجن إلى الشارع العمومي في اتجاه باب الوزير تقدم الشريكان إلى أعماق حارة "حلوات" في اتجاه الباطنية. قمت خلفهما وأنا واثق من ضرورة افتراقهما عاجلا أو آجلا. لا بد لطواجن أن يعود إلى الخمارة، فهو لا يستطيع أن يترك الصالة لصبيه بركة ولو حتى

لليلة واحدة. سارا معًا وهما منهمكان في حديث لا ينقطع. انعطفا لليسار مع دوران الحارة متجهين نحو شارع سوق السلاح. أعرف هذه الشوارع جيدًا لقربها من منزلنا في الصليبية. تبعتهما عن بعد حتى وصلا إلى عمارة مسجد اليوسفي وعنده انعطفا يمينا بعد خروجهما إلى الشارع العمومي. الآن يمكنني أن أقترب منهما متسترا بالمارة الذين ازدحم بهم الطريق الرئيسي. أسرعت الخطى لأقترب منهما وعبرت الشارع تحت ظلال سبيل مصطفى سنان. مددت يدي وتناولت الكوز بين القضبان النحاسية، ملأته بالماء البارد وشربت حتى ارتوى حلقي الذي تشقق. همست في سري: "تماسك ستتمكن منه الليلة". توقفا بالقرب من سبيل "رقية دودو" وتبادلا حديثًا قصيرًا قبل أن يفترقا. كنت قد تمهلت في سيري بين المارة حتى وصلت إلى قبة عتيقة على بعد خطوات قليلة منهما. شدت انتباهي الكتابة المنحوتة على واجهة السبيل:

"أيها الوارد إلى هذا السبيل اشرب ماء زلالا به يشفي العليل".

الكلمات أراحت قلبي المضطرب، إشارة واضحة بأن هذه هي اللحظة المناسبة. مما لا شك فيه أنني سأرتوي الليلة وأشفي غليل قلبي. افترق الشريكان حيثما عبر طواجن الشارع في اتجاه حارة "النصارى" التي يتصل الطرف الآخر من نهايتها بشارع "السروجية"، بينما أكمل عاشور الكابي مسيرته نحو الباطنية. من الواضح أن أيمن

طواجن سيذهب إلى الخيامية وتحت الربع ليعبر الخليج المصري عند قنطرة باب الخرق. أو ربما سيكمل مشواره إلى الغورية، ومن هناك سيواصل مسيرته نحو قنطرة الموسكي ليصل إلى الأزبكية. من حسن حظي أنه قرر الرجوع إلى وش البركة سيرًا على الأقدام. ربما يريد شراء بعض لوازم الصالة من الغورية أو ينوي المرور على أحد معارفه. هذه الاحتمالات لن تبدل من الأمر شيئًا. كل ما يهمني الآن هو أن أتخلص منه في ليلتنا هذه.

اقتنعت تماما أن هذه فرصتي كي أستفرد به وأباغته بالهجوم. معظم الحوانيت في حارة "النصارى" قد أغلقت أبوابها، وبدا المكان خاليا من المارة. أعرف هذه المنطقة جيدًا. قبل الوصول إلى شارع "السروجية" عند دوران عطفة "الليمون" يوجد عدد من الخرائب التي يخلو الطريق بالقرب منها. اعتقدت أنه بإمكاني مهاجمته هناك. قررت ألا أتبعه، بل سأسبقه من الجهة الأخرى لأكمن له في إحدى تلك الخرائب. انتظرت حتى دخل أيمن طواجن حارة "النصارى" وبدلا من السير خلفه عدت أدراجي إلى حارة "الشماشرجي". أسرعت الخطى حتى أسبقه والتف حول حارة "النصارى" لأقطع الطريق عليه عند عطفة "الليمون". أصحاب الورش والحوانيت أغلقوا محلاتهم. أضيئت مصابيح شارع سوق السلاح. دخلت حارة "الشماشرجي" التي خلت من المارة. بدأت أهرول لكي أصل إلى عطفة "الليمون" قبل المعلم أيمن. لا بد أن

أسبقه إلى دوران العطفة حتى أتربص به عند الخرائب الموجودة قرب نهايتها.

المساء يحل والظلام يتسلل إلى الحواري. ملامح الناس بدأت تتوه بين الظلال. منذ سنوات لم أتردد على هذه الشوارع القريبة من بيتنا. لم آتِ إلى هذه المنطقة منذ أن التحقت بمدرسة "البيادة". لو تمكنت منه في هذا المكان لن يعرف أحد أنني القاتل، وبسهولة سيمكنني الوصول إلى شارع "السروجية" والذوبان بين المارة القادمين من الغورية أو الذاهبين إليها. الأفكار تتسارع في ذهني بينما أخذت أعدو لكي أسبقه إلى المكان الذي خططت له. وصلت إلى حارة "دودو" ولم يكن أيمن طواجن قد أطل بعد من الجهة المقابلة. لا بد أن أعبر المسافة القصيرة الممتدة أمامي حتى أصل إلى عطفة "الليمون" قبل أن يظهر طواجن قادما من الاتجاه المعاكس. عدوت بكل ما أملك من قوة، ودخلت العطفة قبل أن يصل أيمن طواجن إلى الطرف الآخر من حارة "دودو". أكاد أسمع دقات قلبي وهو يتخبط بين ضلوعي. ألهث بين أنفاسي المتقطعة، لقد سبقته وهو الآن يتقدم نحو الفخ الذي أحكمت إعداده. نظرت أمامي فوجدت أن الخرابة الأولى قد شيد على أرضها بيت حديث. للحظات لم أعرف ماذا يمكنني فعله. لم يكن أمامي إلا أن أصل إلى الخرابة التالية التي تقع على بعد ياردات قليلة. لم أشعر بوجوده خلفي فقررت أن أقطع هذه المسافة على مهل. الحارة خلت تماما

من الناس، لكنني أردتُ مهاجمته بعيدًا عن البيوت حتى لا تثير الجلبة المتوقعة فضول سكان المنطقة. لم أنظر خلفي ولكنني بدأت أشعر بوجود مبهم تلفه ظلمة تتخللها أضواء خافتة تسللت من خلال فتحات مشربيات وشبابيك البيوت المصطفة على جانبي الحارة.

وصلت إلى الخرابة الثانية فتنحيت عن طريقي لأستتر بظل حائط البيت الملاصق لها. قبعت في مكاني منتظرًا أن يلحق بي الشبح القادم من الخلف. طالت فترة الانتظار فبدأ الشك يتسرب إلى نفسي. لم يصل بعد. ربما غير طواجن رأيه وسلك طريقا مختلفا. لماذا تركته واخترت أن أقوم بهذه المناورة العجيبة؟ كان من الأفضل أن أستمر في تتبعه بدلا من القيام بهذه المغامرة غير المضمونة. الشخص القادم نحوي قد يكون أحد سكان الحارة أو مجرد عابر سبيل. كيف لي أن أتأكد من حقيقته؟ الظلمة أطبقت على المكان والسكون ساد الطريق. فجأة سمعت خطوات واثقة تقترب من مكمني. ضربات قلبي تتسارع... لقد وصل أخيرا. أخرجت الخنجر من جرابه وقبضت على مقبضه بأصابعي. ظِل شبح ضخم زحف على الطريق أمام مخبئي، هيئة القادم قريبة الشبه بأيمن طواجن. لم أكن متأكدًا من كون الشبح الذي تلفه ظلمة الحارة هو هدفي المنشود. لم يكن ثمة مجال للحيرة أو التردد. كل ما أملك من دلائل تشير إلى أنه أيمن طواجن. يجب أن أتصرف بسرعة وإلا ستفوت هذه الفرصة الفريدة وقد لا أتمكن منه أبدا بعد ذلك.

عندما صار على بُعد خطوات قليلة خرجت من مخبئي وتقدمت نحوه ثم طعنته في ظهره. أحسست بنصل الخنجر ينفذ في لحمه. استدار نحوي فرأيت وجهه قبل أن أسحب الخنجر. صدرت منه آهة مكتومة فاحتضنته ووضعت راحة كفي على فمه لأكتم صراخه المتوقع، ثم أعدت طعنه مرة أخرى. عندما غرزت السكين في ظهره للمرة الثانية، أحسست بنصله يصطدم بعظام ظهره وشعرت بسائل دافئ يتدفق بين أصابعي. ترنح أيمن طواجن قبل أن يفلت من بين ذراعي ويجثو فوق ركبتيه، ثم مال ليتمدد بطوله على جانبه الأيمن. انحنيت فوقه وطعنته طعنة أخيرة في صدره، ثم قمت بسحب جسده بعيدًا عن الطريق وألقيت به في الخرابة.

أسرعت بالابتعاد عن المكان حتى وصلت إلى سبيل قريب من نهاية العطفة. التقطت الكوز الموضوع أمام الشباك وملأته بالماء. غسلت نصل الخنجر ووضعته في جرابه، ثم سكبت الماء البارد فوق أصابعي لأغسل الدماء اللزجة. ملأت الكوز عدة مرات وسكبته على يدي حتى تأكدت من نظافة أصابعي. ابتلعتُ شربة ماء ثم أكملت مسيرتي نحو شارع "السروجية". لم تصدر عنا جلبة أو صخب، وبالتأكيد لم يشعر بنا أحد. كم من معارك خضتها، وكم من رجال لقوا حتفهم على يدي. على الرغم من ذلك لم أتصور أبدا ما أحسه الآن بعد أن طعنت أيمن طواجن الذي احتضنته بين ذراعي ورأيته يتكوم على الأرض تحت قدمي. كنت أتخيل أن القيام بمثل هذا العمل

سيكون أفظع بكثير مما أحسست به. بعد الانتهاء منه صدمتني سهولة الأمر وبساطته. لم أشعر باي ندم أو خوف، تملكني فقط شعور عميق بالراحة. لقد حققت نصري الخاص.

قبل وصولي إلى شارع "السروجية" ظهرت على يميني تكية للدراويش ذات حوائط حجرية عالية وتحيط بها حوانيت متراصة أغلقت أبوابها في هذا الوقت المتأخر من الليل. شدني صوت عذب ينشد كلمات مألوفة:

"اغفر ذنوبي واستر عيوبي واكشف كروبي وأصلح لي حالي

فإني عبد حملي ثقيل ولي ذنوب كثيرة مثل الرمال".

ضوء خافت ظهر من خلال مدخل التكية الذي يرتفع بابها أمامي كأنه يدعوني للدخول. هالني ما أفعله، غير مصدق حالة الهدوء التام التي سيطرت عليّ. أليس من الضروري أن أسرع بالفرار؟ هل من الحكمة أن أبقى قريبا من جثة طواجن التي تركتها في الخرابة. دخلت التكية فوجدت نفسي واقفًا في دهليز ضيق ينقسم بعد بضع خطوات إلى اتجاهين. فجأة سمعت الأذان يأتيني من نهاية الدهليز. عبرت ممرا قصيرا قادني إلى فسحة نمت فيها شجرة باسقة يحيط بها عقود تعلوها قباب حملتها أعمدة رشيقة ويتدلى من كل قبة قنديل رسمت عليه كتابات نورانية. رأيت محرابا اصطف أمامه عدد من دراويش التكية بجلاليبهم المرقعة. توضأت في النافورة

التي تتوسط الفسحة ثم انضممت إليهم. أقام الصلاة أحد الدراويش ثم تقدم ليؤمها شاب له لحية تغطي نصف صدره. بعد الانتهاء من الصلاة قبض على ذراعي شيخ قصير له لحية شقراء مشذّبة بعناية. ارتجفت لملمس يده فترك ذراعي وقال:

– ما بك؟ أراك مضطربًا، هل ألمّ بك سوء؟ لماذا أتيت إلى التكية في هذا الوقت المتأخر من الليل؟ لو لديك مشكلة ما، فيمكنك أن تحدثني عنها. أنت في رحاب مقام "إبراهيم القادري" والكثير من الناس تنزاح عنهم الغمة عندم يلجأون إلى كنف شيخنا.

ازداد قلقي من وجودى في هذا المكان، فقد يربطني أحدهم بالجريمة التي وقعت على بعد خطوات قليلة من هنا. غمرني الدرويش بنظرة ثاقبة فغمغمت:

– ليست لدي مشاكل، كنت مارا أمام التكية عندما سمعت أذان العشاء فدخلت لأصلي.

– يمكنك أن تعود لمقام سيدي القادري متى شئت. هذا المقام من أزكى المحال التي يمكنك أن تسكن إليها وتأنس بها.

– لن أنسى ذلك، السلام عليكم.

خرجت إلى الشارع العمومي. استدرت يسارا متجها نحو شارع "السيوفية" المؤدي إلى بيت العائلة في الصليبة. سرت وحدي في

الشارع الذي انقطع عنه الناس ما عدا قلة من زبائن أحد المقاهي الذين لمحتهم عند مروري أمام مدخله، فهرولت مبتعدا حتى لا يراني أحدهم. أكملت مسيرتي والزهو يملؤني، فلقد تمكنت من أيمن طواجن وانتقمت من هذا الخائن الوضيع. ترى ماذا سيحدث الآن؟ هل سأتمكن من رؤية غالية مرة أخرى؟ ماذا سيحدث لحانة طواجن؟ هل ستغلق أبوابها أم سيديرها صبيه "بركة"؟ لم أعد أعيش على حافة المدينة بعيدا عما يدور فيها من أحداث جسام، ولكنني الآن صرت في مركز الأحداث متورطا في هذا الفعل الدموي. ماذا ستأتي به الأيام القليلة القادمة؟ ماذا سيظن سعد المويلحي عندما يعلم بفعلتي؟ هل أبادر بإخباره بما حدث حتى لو لم يبادر بسؤالي؟ هل سيغضب محمد بك طاهر وابنه وباقي أعضاء المؤامرة المصرية لأني لم ألتزم بشروطهم؟ لقد نفذت العملية بنجاح ولن ينالني مكروه. الفرصة سنحت لي ولم أستطع أن أتركها تضيع مني. ألم أقل لكم إن الالتزام فضيلة البليد!

دفعت الباب الخشبي الثقيل ودخلت إيوان بيتنا في شارع الصليبية. نفيسة هرولت نحوي وهي تصيح:

– "أبيه" عبد الكريم، أهلا وسهلا، نينة موجودة في المنضرة.

قابلتني أمي التي كانت تعد العشاء لأبي، نظرت نحوي وتركت ما بيدها، اقتربت مني واحتضنتني:

– خطوة عزيزة يا ضنايا، أهلا بك.

أبي قام لتحيتي وقال:

– لقد افتقدناك يا عبد الكريم في الفترة الأخيرة، ولم نرك منذ أسابيع. ما بك؟ تبدو مرهقًا.

قبّلت يده وأجبته:

– أنا آسف، لقد شغلتني أمور كثيرة، وفي معظم الأحيان يصعب النزول إلى الصليبية أثناء النهار.

مسحت أمي رأسي براحة كفها وأضافت:

– كريم زارني الأسبوع الماضي، ولكنك يا حاج كنت في المحل.

أردت تبرير زيارتي المفاجئة لأسرتي:

– اليوم ذهبت لزيارة أحد زملائي من الضباط الذين أفرج عنهم أخيرًا ولن أستطيع العودة للقرافة في العتمة.

احتضنتني أمي مرة أخرى وقالت:

– يسعدنا أنك ستقضي الليلة في بيتك ومطرحك، ليتك تعود للإقامة معنا. يبدو عليك التعب وصحتك تتدهور باستمرار.

نفيسة جلست بجواري وأخذت تداعبني. تدخل أبي في الحديث:

- يمكنك البقاء معنا حتى ولو لفترة محدودة. الكثير من زملائك رجعوا لأهاليهم. لماذا لا تعود لتعيش معنا؟ هل سمعت أي أخبار عن محمد عباس؟ هل رأيته بعد أن أفرجوا عنه؟

أجبت بحدة:

- نعم لقد التقيت به. لكن الإفراج عنه لن يفيده بشيء.

تعجب أبي مما قلت. حاولت أن أشرح له حقيقة مشاعري:

- لن يمحو ذلك مرارة الهزيمة. لن يعود إلينا محمد عباس الضابط الهمام الذي كانت تضرب به الأمثال في الشجاعة والإقدام.

أمي أحضرت أطباق العشاء ووضعتها على طاولة أقامتها أمامنا وعلقت:

- الله يكون في عونه وعون إخوانه.

أضفت:

- عندما تحارب من أجل وطنك وتنهزم ثم يقبض عليك تُسجن لمجرد أنك تدافع عن بلدك، فهذا شيء مُحزن.

رد أبي:

– أفهم تماما ما تعانيه. اللـه سييسر لنا أمورنا.

– على الرغم من أنني لم أُسجن فإنني أشعر كأن ما مر بي كابوس لا أستطيع الاستيقاظ منه.

– ألا تؤمن بحكمة ربك؟ إن له في الأمور حكمًا.

أجبته:

– بالطبع أنا مؤمن بالقدر خيره وشره. ما علينا إلا أن نسعى واللـه سيوفقنا لما فيه الخير.

أحضرت أمي لحافا ووضعته بجانبي ثم قالت:

– لا بد أنك تعبان يا ابني. لماذا لا تأكل لقمة مع أبيك ثم تذهب لتستريح في غرفتك. لقد أعدت أم عواطف فراشك.

لم أتوقع أن يكون الأمر بهذه البساطة. بعد أن طعنت المعلم أيمن أجدني جالسًا مع أهلي أتناول عشائي وأتحدث إليهم عن مشاكل الحياة وأحوال البلاد. لم يظهر عليّ أي اضطراب أو ارتباك. كل ما في الأمر أنني أشعر ببعض الإرهاق. سأقضي ليلتي هنا ثم أعود مبكرا إلى القرافة حتى لا يدري أحد بغيابي. بعد مرور أيام قليلة سأذهب لأتفقد خمارة طواجن لكي أتعرف على تطورات الموقف هناك، وربما أتمكن من رؤية غالية. تناولت لقيمات ثم قمت حاملا اللحاف الذي أحضرته أمي. حل بي إرهاق شديد وأحسست فجأة

بأنني منهك تمامًا. اتجهت نحو غرفتي بخطواط بطيئة. خلعت ملابسي وألقيت بنفسي على فراشي. من شدة التعب تكومت تحت اللحاف وفي ثوان كنت أغط في سبات عميق.

***

يوم غائم سحابه تدلى فكاد أن يلامس سعف أشجار النخيل التي تمتد حولنا إلى مرمى البصر. أحمل نعش غالية فوق كتفي ويعاونني في ذلك محمد عباس، وسعد المويلحي، وعابد الراجحي، والجاويش حسن. أقدامنا تغوص في أرض سبخة تعيق حركتنا فنتقدم ببطء شديد. النعش يكاد يفلت من بين أيادينا التي بللها المطر، بينما ننتشل بصعوبة أقدامنا التي غاصت في الطين. أنظر خلفي فأرى زينب الصرة وسيدة فلة منهمكتين في ثرثرة لا تنقطع. النبرة الحادة لصوت سيدة تخترق وقار الجنازة. قلبي ينقبض... أقرب الناس إلى غالية لا يأبهون لرحيلها. زينب خلعت حذاءها وحملته تحت إبطها ورفعت ذيل جلبابها فكشفت عن ساقيها الملفوفتين. المعلم بيومي يتصدر الجنازة وهو يردد:

"ربنا ارحمنا وارحم موتانا وأدخلهم فسيح جناتك

ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار"

انفتحت بوابات السماء وهطلت الأمطار غزيرة كأن كل ماء

الأرض قد انسكب فوق رؤوسنا. تعالت أصوات نواح متصل لا ينقطع. دخلنا حوش المدفن فرأيت البلاطات الحجرية الضخمة التي تسد مدخل المقبرة مرفوعة من مكانها. أحدهم يردد:

"اللهم اجزها عن الإحسان إحسانا

وعن الإساءة عفوا وغفرانا

فإن كانت محسنة فزد في حسناتها

وإن كانت مسيئة فتجاوز عن سيئاتها

يا رب العالمين"

أنزلنا النعش أمام الدرج الهابط إلى غرف الدفن، انحنيت فوق النعش لأكشف الجثمان الملفوف بكفن بلله الماء المنهمر. حملنا الجثمان هابطين به الدرج الحجري المؤدي إلى القبر. عابد أشار إلى غرفة الدفن حيث وضعنا جثمان غالية. أحسست براحة غريبة وشرعت في رص الألواح الحجرية لسد مدخل غرفة الدفن بينما أعد الجاويش حسن الملاط الذي استعملناه لسد الفراغات التي تفصل بين الألواح. يصل إلينا صوت مقرئ يتلو:

"الرحمن. علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان..".

شعرت بوهن شديد وضاق صدري برائحة القبر. استعجلت عابد كي يتمم الدفنة. بعد الانتهاء من مهمتنا صعدنا الدرج فاستقبلتنا

الأمطار المنهمرة. عابد ألقى السلام على المقرئ. التفت إليه فوجدت له هيئة أيمن طواجن وقد علت وجهه ابتسامة عريضة.

كيف رجع المعلم أيمن؟ لقد طعنته وتركته ينزف في الخرابة! أفزعتني ابتسامته، فارتبكت وكدت أن أنزلق داخل القبر لولا يد محمد عباس التي امتدت بسرعة وأمسكت ذراعي بقبضة من حديد.

استيقظتُ فوجدت نفسي في فراشي. أحكمتُ اللحاف حول بدني المنهك لأتقي برودة هذه الساعة المتأخرة من الليل واستسلمت للنوم مرة أخرى.

***

الدحديرة

مايو، 1883

طيف غالية يثير في نفسي شجونًا وآلاما لا أجد لها تفسيرًا. لقد تخلصت من النذل طواجن لكنني لم أستطع العودة إلى الخمارة مرة أخرى. ترى هل أغلقت الصالة أبوابها أم تولى "بركة" إدارتها بعد مقتل صاحبها؟ لم أجرؤ على العودة إلى درب "الدحديرة" بعد فعلتي، خاصة أني لم أذهب إلى الخمارة منذ المشادة التي وقعت بيني وبين طواجن. حملتني المصادفة إلى شارع "باب البحر" عندما طلب مني المعلم صالح أن أشتري له بعض معدات الحفر. وصف لي محلا بالقرب من حارة "الرويعي" حيث يمكنني شراء

تلك الأغراض. قرب المحل من درب "الدحديرة" أغراني بالذهاب للبحث عن غالية. قاومت بشدة فكرة العودة إلى خمارة طواجن لكن شغفي بغالية دفعني للمجازفة والإقدام على هذه الخطوة.

دخلت الدرب الذي ألفته وترددت عليه مرارًا في الشهور القليلة الماضية. قلة من المارة يقطعونه ذهابًا وإيابًا. تقدمت نحو بوابة الخمارة وحاولت دفع بابها لكنني وجدته موصدًا. تعجبت من أن المكان مغلق. ربما غيّر "بركّة" مواعيد الصالة أو يكون اليوم عطلة. عبرت الشارع متجها نحو بيت غالية. وجدت باب العمارة الصغير قد أغلق بسلسلة حديدية. المكان لم يرتده أحد منذ فترة. تلفتُّ حولي علني أجد إجابة شافية لتساؤلاتي.

من منا يملك مفاتيح الحياة؟ لقد قتلت طواجن بيدي، ولكنني لا أشعر أنني الفاعل الحقيقي. لقد طعنته وغرست خنجري في ظهره ولكن يدي تتنصل من ذلك العمل، كأن لا علاقة لي بالأصابع التي قبضت على الخنجر وغرزته في جسد ذلك الوغد. الأمر كان بسيطًا للغاية، بسيطًا لدرجة لم أتوقعها. والمدهش أنني بعد أن طعنته انفصلت تمامًا عما قمت به. ها أنا أجوب شوارع المدينة ولا أحد يهتم بي. لم يربط أحد بيني وبين هذه الحادثة ولا أحد يشك فيّ. كأن هذه الحادثة لم تقع أصلا وكأنني لم أرتكبها. أستعجب من رعشة أصابع يدي التي لا أفهم لها سببًا. تنتابني الرعشة كلما

حاولت أن أقبض على شيء بأصابعي. لكن لماذا أهتم وأنشغل بهذا الأمر؟ قد أكون حرا اليوم، لكن هل سيتركني البكباشي حلمي أنعم بالحرية في أيامي القادمة؟ ذلك الوغد الآخر الذي جنى ثمار الشوك.

لم أجد غالية أو أيا من البنات. لم يعد لديّ أحد في ذلك الدرب الكئيب. خطر لي أنني ربما أجد غالية وصاحباتها في بيت طواجن. عدت إلى شارع كلوت بك متجها نحو درب "البرقي". أستظل ببواكي الشارع التي يناولني كل عقد من عقودها للذي يليه. فجأة ظهر أمامي "الجننار" وجدي مؤديًا التحية العسكرية المعتادة. سألته:

– يا "جننار" هل تعرف ماذا حدث لخمارة طواجن؟

دق الأرض بقدمه وصاح:

– أورطة من عساكر "التمن" هاجمتْ الخمارة وقبضتْ على كل الموجودين بداخلها. المدافع دكت الطوابي والقتلى والجرحى تناثروا في كل مكان.

ذلك البائس لم ينته من الهوجة التي أفسدت عقله. رجوته أن يجيب عن سؤالي:

– هل رأيتهم يا عم وجدي؟

رفع ذراعه وأشار نحو الأفق بكفه:

– أنا كنت على رأس سرية من عساكر الميمنة. المدافع دكت المكان وفرقعات البواريد ملأت السماء. طلقات رصاص وحرائق، ماتوا كلهم، وجثثهم تبعثرت في الطوابي.

توسلت إليه:

– ركز معي يا عم وجدي ولا تذهب بعيدا. أنا أسألك عن خمارة طواجن.

وجّه لي نظرة يملؤها الشك ثم قال:

– البكباشي قاد الحملة وقبض على كل الناس.

– وبنات الصالة، هل تعرف ماذا حدث لهن؟

هز رأسه ونظر نحوي باستغراب ثم تركني ومضى في طريقه. قد يكون ما رواه "الجننار" مجرد تخاريف. لكن هناك احتمالًا كبيرًا أن البكباشي حلمي قد تولى بنفسه قضية مقتل طواجن، وقد يكون هو الذي أغلق الحانة وقبض على من وجد بها لكي يحقق معهم. أخشى أن يكون البكباشي حلمي قد حبس البنات ومعهن غالية. أسرعت إلى بيت طواجن في درب "البرقي". أردت أن أتأكد من عدم وجود البنات هناك، وأقنعت نفسي بإمكانية انتقال "بركة" إلى بيت المعلم أيمن. لو وجدت "بركة" هناك سيمكنني معرفة مكان غالية. اقتربت

بحذر من البيت خوفا من أن يكون المكان مراقبًا. توقفت عند مدخل الشارع لكي أعاين المكان. عندما تأكدت من خلو الطريق من المارة، تقدمت بحذرٍ في اتجاه المنزل الذي أوصد مدخله بلوح خشبي سميك ثبت بعرض بوابته. أكملت مسيرتي بلا مبالاة حتى وصلت قرب الناصية المقابلة. من داخل أحد المنازلٰ ظهر فجأة شخصان تبدو على ملامحهما صرامة مألوفة. تقدما نحوي وقبض أحدهما على ذراعي قبل أن ينطق:

– هل يمكنك أن تأتي معنا؟

– من أنتما؟ إلى أين تريدان الذهاب بي؟

أشار إلى بيت طواجن وقال بتجهم:

– لاحظنا أنك تحملق في مدخل هذا البيت ونود أن نسألك عن علاقتك بساكنه.

أمعنت النظر فيهما محاولا ربطهما بأي من المخبرين الذين شاهدتهم مرارا في خمارة طواجن. كان الأول قصير القامة، مفتول العضلات، تنبثق من عينيه نظرة قاسية وله أنف ضخم يحتل الجزء الأكبر من وجهه. المخبر الآخر أطول منه قليلا وذو قوام ممشوق. له شارب كثيف ويبدو عليه أنه أكبر سنا من زميله. أجبتهما:

– يمكنكما سؤالي عما تشاءان. أنا مجرد مار بهذا الشارع في

طريقي "لباب البحر" وقد شد انتباهي اللوح الخشبي الضخم الذي ثبت بعرض مدخل البيت.

سألني المخبر الأكبر سنا:

- ومــاذا أتى بــك إلى هنا ولمــاذا تريد الذهــاب إلى "باب البحر؟".

قادني الفضول إلى هذا المكان. ماذا دهاني؟ لقد رأيت بنفسي أن الخمارة مغلقة، وأن بيت غالية موصد بالسلاسل. كان لا بد أن أذهب إلى حال سبيلي. فلماذا عدت إلى بيت طواجن؟ أجبته:

- أنا "تربي" من قرافة الإمام وأتيت إلى "باب البحر" لأشتري بعض الأغراض.

المخبر القصير ثبت نظراته عليّ متفحصًا كل شبر من جسمي. زادت رعشة أصابعي ولم أعد أتحكم بها. سألني:

- هل تعرف المعلم طواجن صاحب هذا البيت؟

هذه لحظة فارقة. من منا يحمل مفاتيح الحقيقة؟ لا يمكنني أن أنكر معرفتي بطواجن. ربما رأوني هناك في إحدى زياراتي للخمارة. حاولت أن أتمالك نفسي وأن أتحكم في رعشة يدي.

- نعم... أعرف حانة طواجن التي تقع في درب "الدحديرة" بالقرب من هنا، ولقد زُرتها عدة مرات.

– هل كنت على صلة وثيقة به؟

– كنت أراه أحيانا في الخمارة، ولكني قلما تحدثت إليه.

الخناق يحكم عليّ شيئًا فشيئًا. أسير بخطوات ثابتة نحو نهايتي. لنِ أستطيع الخروج من هذا المأزق. لو أخذوني إلى قسم الشرطة سيتعرف إليّ البكباشي حلمي. المخبر الأكبر سنا لامس شاربه بأصابعه وحدق في عيني لفترة طويلة كأنه يحاول أن يكشف عما يعتمل في نفسي ثم قال بتبسّط غير متوقع:

– بنات الصالة يفقن كل وصف. كل واحدة منهن أحلى من أختها.

قهقه زميله وأضاف:

– عندك حق وبوظة الولد "بركة" لا يعلى عليها.

شيء من الارتياح تسرب إلى صدري. كلماتي التي أنطق بها تتحور لتصبح فخًا للمغفلين. لم أتوقع أن يرفعا الكلفة بيني وبينهما بهذه الطريقة. لا بد أن الملل قد تسرب إليهما بعد قضاء ساعات طويلة في مراقبة المكان بلا جدوى، طول الانتظار والملل جعلهما يتخليان عن صرامتهما. قلت:

– يبدو أنه سبقت لكما زيارة خمارة طواجن.

نظر كل منهما للآخر ثم ضحكا بطريقة تكاد تكون متطابقة

وقال المخبر قصير القامة:

– ذهبنا مرات قليلة مع البكباشي، لقد التحقنا "بتمن" الأزبكية منذ شهر واحد فقط.

من المؤكد أنهما لم يحضرا مشاجرتي مع طواجن. لو كانا هناك يومها لتعرفا عليّ بالتأكيد. سألتهما:

– لكن لماذا كل هذه الأسئلة عن المعلم طواجن؟

المخبر الأكبر سنًا تفحص وجهي وقال بصوت به حشرجة عميقة:

– لقد قتل المعلم طواجن منذ أسبوعين. طعنه أحدهم بالقرب من شارع "السروجية". درويش من الصوفية وجد جثمانه في خرابة مهجورة بالقرب من تكية "السليمانية".

شعرت بالقلق. ترى هل يكون هو نفس الدرويش الذين قابلته ليلتها؟ أخشى أن يظهر الاضطراب على ملامحي. رددت بتلقائية:

– لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

– لقد كان طواجن يتعاون مع كبار تجار الحشيش. قبل مقتله التقى المعلم عاشور الكابي في أحد المقاهي بسوق السلاح. البكباشي يشك في وجود صلة بين مقتل طواجن وعلاقاته بتجار الحشيش.

هل أصبحت خارج دائرة الاتهام؟ لا يوجد دليل أو شاهد يربطني بما حدث لطواجن. ما زلت غير قادر على التحكم في رجفة أصابعي. كل ما أخشاه أن تتحمل غالية والبنات الأخريات وزر فعلتي.

– يبدو أن لا علاقة لك بما حدث. لكننا قد نحتاج إليك لاستكمال التحقيقات. لماذا لا تترك لنا اسمك وعنوانك؟

تنفست الصعداء ووصفت لهما مكان الحوش الذي أقطنه. أردت أن أتركهما لأسرع إلى "باب البحر". أمسك المخبر قصير القامة بذراعي وقال بتهكم:

– رايح فين يا سيد؟ الأمر ليس بالهين كما تعتقد.

أكمل صاحبه:

– ستأتي معنا لنتأكد من تفاصيل ما تقوله.

أدهشني ما يحدث وفي نفس الوقت أدركت خدعة تبسطهما معي. رفْع الكلفة بيني وبينهما أشعرني بالراحة فأفصحت لهما ببعض ما أعرفه عن طواجن والخمارة. بسرعة البرق استعرضت في ذهني كل ما قلته لهما. ملأني الخوف من مغبة ما أخبرتهما به. قد أكون نطقت بأشياء أندم عليها فيما بعد. طغى عليّ خوف شديد من أن يلاحظا أي امتعاض يظهر قلقي أو تجهم يكشف ارتباكي.

تقدم نحوي المخبر الأكبر سنا وأمسك بذراعي الأخرى بقبضة حديدية. حاولت أن أتملص منه بلا جدوى. لم أنتبه للإشارات التي تبادلاها قبل أن ينقضا عليّ، لقد تمكنا مني ولن يتركاني. لقد غفلت عما يدور حولي وتملكت مني ثقة زائدة بالنفس، فتركت لنفسي عنان الكلام ولم أنتبه لما يخططان له. أحدهما لوى ذراعي وثبت كفيّ معا وهو يقيدني "بالكلابشات". أحاطا بي وأمسك كل منهما بذراع وجذباني بقوة في اتجاه "التمن". يا لي من مغفل، لم أفهم كيف وقعت في الخية. بعد أن أظهرا قدرا كبيرا من الذوق والأدب، فجأة تبدلت أحوالهما وانقلبا إلى سافلين لا رحمة في قلوبهما. سحباني من ذراعي وهما يحثاني على السير. الشارع العمومي ازدحم بالمارة الذين جذب منظرنا انتباههم. كلما حاولت الإبطاء لكزني أحد المخبرين في ضلوعي. أحد المارة أشار نحوي وهمس لصاحبه. ملعون الفضول الذي قادني إلى هذه الورطة، لم يكن ثمة داعٍ للذهاب إلى بيت طواجن.

***

بعد عرضي على الصول النوبتجي، أخذوني إلى قبوٍ أسفل مبنى القسم. فكُّوا قيدي وزجوا بي في زنزانة لا نوافذ لها. تركوني في مواجهة الظلمة الدامسة والجدران الصماء. ضوء ضئيل تسلل من

إطار باب الزنزانة المصمت. أرضية غرفة الحبس رطبة تفوح منها رائحة نتنة. وقفت وحيدًا لا أدري ماذا أفعل بنفسي. في البداية لم أدرك أنهم سيتركوني في هذا الحبس الانفرادي لمدة طويلة، أدركت فيما بعد أنني قضيت هناك أكثر من يوم كامل. ركنت ظهري على الحائط لتأففي من أن أقعى على الأرضية العفنة التي أعجز عن رؤيتها. تركوني بدون ماء أو طعام ساعات طويلة حتى بدأت أشعر بتعب شديد. أسمع الأذان من حين لآخر. يتسلل إليّ صوت المؤذن مسحوقًا من خلال جدران الزنزانة وبابها الحديدي السميك. يؤنسني الصوت الخفيض، فلقد أصبح هو حبل اتصالي الوحيد بالعالم الخارجي.

الظلام الدامس منعني من معرفة الأوقات نهارا كانت أم ليلا. تذكرت يوم عوقبت سريتي في مدرسة "البيادة" بسبب مشاجرة وقعت بين أحد الطلاب وعريف فصلنا. بعد حالة الهرج والمرج التي صاحبت العراك تم توقيع العقوبة على جميع أفراد السرية بكل فصولها. أمرونا أن نصطف في حوش المدرسة تحت الشمس الحارقة لنهار كامل دون السماح لنا بحركة أو لفتة. حرمونا من الطعام والماء فنال منا الإعياء الشديد، وفي نهاية اليوم كان الإرهاق قد أنهكنا جميعا. تصلبت أطرافي وانقسم ظهري وتملك مني التعب. في المساء فور عودتي إلى عنبر النوم استلقيت فوق فرشتي ودون أن أشعر استغرقت في سُبات عميق.

مدرسة "البيادة" كانت تتكون من مجموعة من القاعات الرحبة التي يتم توزيع فصول الطلبة بداخلها. كل سرية تحتل إحدى تلك القاعات، حيث تنقسم السرية إلى عدد من الفصول. يحتل كل فصل منها منضدة مستطيلة على رأسها عريف مسئول عن ضبط نظام الطلبة. ألحت عليّ ذكرى ذلك العريف السمج الموكول إليه أمر فصلنا طوال السنة الأولى من دراستي. كان شابا فظا لا يفوِّت فرصة لكي يقلل من شأننا وينال من كرامتنا. في صباح يوم بغيض تجمع طلبة الفصل حول المنضدة المخصصة لنا واتخذوا أماكنهم المعتادة. بدأ العريف جولته فزعق فينا "ضعوا أياديكم على المنضدة وأصابعكم مفرودة أمامكم". مر خلفنا يتفحص أصابعنا ليتأكد من نظافتها. بعد الانتهاء من فحص أيادينا صاح فينا "انتباه" فوقفنا رافعين رؤوسنا ونافخين صدورنا. عندئذ بدأ بالتفتيش على ملابسنا. صاح في أحد الطلبة مؤنبا لوجود بقعة باهتة على قميصه. ثم اقترب من طالب آخر وبدأ ينهره لأن زيه غير مهندم. كعقاب له أمره بتكرار رفع ذراعيه أعلى رأسه ثم خفضها ألف مرة. غمغم الطالب بلفظ ناب. حدث ذلك في لحظة نادرة سكت فيها كل الطلبة فسمعنا جميعا ما تلفظ به زميلنا بوضوح. العريف لم يحتمل الإهانة فصفع الطالب الذي رد على الفور بدفعه في صدره. سرعان ما اشتبكا معًا وأمسك كل منهما بخناق الآخر. تطور الموقف إلى شجار عنيف وساد صخب عظيم أدى إلى إنزال العقاب بالسرية بأكملها. لن أستسلم هذه المرة،

سأصمد حتى أخرج من أزمتي هذه.

علمونا ما يجب عمله في المواقف الصعبة. أوضحوا لنا أن تكرار الحركات بانتظام فيه تقوية للعزيمة. قضيت الساعات الأولى من محبسي أخطو بدءًا من أحد الجدران حتى أصل إلى الجدار المَقابل، ثم أستدير وأقطع نفس المسافة عائدا إلى نقطة البداية. أحصي خطواتي وأكرر هذا الروتين كي أبعد عن نفسي اليأس. بعد ساعات طويلة من الحركة نال مني الإرهاق حدا قررت معه أن أقعِيَ في ركن من أركان الزنزانة غير آبه بالأرضية الرطبة أو الرائحة العفنة المنبعثة منها. اشتد بي العطش حتى جف حلقي. الهزيمة تقطع أوصال الممكن وتذبح طموحاتنا، ماذا سيبقى لنا بعد ذلك؟ عندما نفقد كل شيء يصير الخوف هو المعيار الذي نقيس به أفعالنا. أسندت رأسي على كفي وسرعان ما غلبني النوم.

نتحدى القدر فنقرر فجأة أن نأخذ بزمام الأمور في أيدينا. ربما يتحول أحدنا إلى فارس مغوار يمتطي جواده ويشهر سيفه ليمحو به الخسران. فعلتها وأزلت طواجن من الوجود. لقد أحرزت نصرًا حقيقيًا والآن يمكنني أن أرفع رأسي قبل أن تعيد أمواج الهزيمة ضرباتها. مرت الساعات كئيبة لا أدرك كنهها. أفكاري تاهت في عالم الرؤى والأحلام. عواطف تقلّب العسل الممتزج بالحلبة. اهتزاز نهديها أشعل حنيني لأحضانها. المعلم صالح رفع الألواح الحجرية فظهر الدرج الذي سيقودنا إلى غرفة الدفن. غمامة كثيفة

انبعثت من القبر، رائحتها خانقة. أشحت بوجهي لأتجنبها. عند مدخل الحوش وجدت عبد الرحيم جالسًا فوق حصيرة متربة. للحظات ظننته عابد يدخن الشيشة. أرهقتني الحيرة. ماذا يفعل عبد الرحيم هنا؟ ومتى عاد من السودان؟ أخي ناولني مبسم الشيشة وهو ينفث سحابة من الدخان ويتغنى بجمال زينب الصرة. تركته وخرجت مسرعًا من الحوش حتى ابتعدت عن المقابر ووصلت إلى مشارف الصحراء. صوت اللقالق ملأ السماء من حولي: "الملك لك لك يا صاحب الملك". الشيخ سلمان أقبل نحوي بخطوات متمهلة. أخرج من جرابه الخنجر الذي طعنت به المعلم طواجن وناولني إياه ثم تركني وذهب. انطلقت في اتجاه صحراء رحبة يغطيها الضوء الفضي للقمر. ضوء مائة وألف قمر.

***

البكباشي

مايو، 1883

الأوجاع سكنت مع مرور الوقت. انفتح الباب الحديدي ودخل عسكري طويل القامة. قيدك "بالكلابشات" وسحبك إلى الخارج. أعماك ضوء النهار عندما خرجت من الزنزانة المظلمة. أغمضت عينيك لتتقي الضوء المبهر. أحسست بحرارة الهواء التي تناقضت مع برودة محبسك. نال الإرهاق منك مبلغه فاستندت على جدار السلم الذي ارتقيته إلى غرفة الصول النوبتجي. وقفت أمام الصول الذي نظر إليك وهو جالس على مكتبه ثم أشاح بوجهه وانشغل عنك بالكتابة. وقف العسكري بجوارك متأهبًا لتنفيذ الأوامر. أحسست

بشرخ في حلقك بسبب العطش الشديد. كل ما تتمناه الآن هو كوب من الماء لتروي ظمأك. أشار الصول إليك لكي تقترب من مكتبه. تفحصك بعينين ثاقبتين وبدأ بمجموعة من الأسئلة الروتينية عن اسمك ومهنتك ومحل إقامتك. العسكري ربط فردة من الكلابشات في عمود حديدي قائم في ركن الغرفة، وقيد معصم يدك بالفردة الأخرى. بدأ الصول تحقيقه دون أن ينظر نحوك وفي الوقت ذاته انشغل بتدوين ردودك.

– ما ظروف ضبطك وإحضارك؟

– أنا كنت متجها إلى "باب البحر" وحاولت اختصار الطريق فمررت أمام بيت المعلم أيمن طواجن. أنا لا أفهم سبب التحفظ عليّ.

– ما قولك فيما هو منسوب إليك من تورطك في جريمة قتل المعلم أيمن طواجن؟

– لا علاقة لي بهذا الأمر. أنا لم أعلم بمقتله إلا من المخبرين اللذين ألقيا القبض عليّ.

غرفة واسعة بها نافذة عالية عليها قضبان حديدية. ضوء الشمس يخترق القضبان ويزيد من حرارة المكان. حبات العرق تدحرجت فوق ظهرك. تفحصك الصول لفترة من الوقت ثم سألك:

– لقد اعترفت بمعرفتك بأيمن طواجن. فما طبيعة علاقتك به؟

– أنا زبون من زبائن خمارة طواجن.

– لماذا ذهبت إلى بيته؟

– كما قلت سابقًا، لقد كنت أحاول اختصار الطريق إلى شارع "باب البحر". شد انتباهي مدخل البيت الذي كان موصدًا بلوح عريض من الخشب فأطلت النظر إليه. ما الجرم في ذلك؟

– ما قولك في أننا وجدنا الخنجر الذي طعنت به المعلم طواجن مدفونا في الحوش الذي تقطنه.

للحظة وجيزة اختلط عليك الأمر. أي خنجر يقصد؟ لقد دفنته مع الطبنجة في القرافة، لكنك فعلت ذلك في بقعة تقع على مشارف الصحراء بعيدًا عن الأحواش. هل وجدوه فعلا؟ الإعياء الشديد يخلط الأمور في ذهنك. تماسكت ونطقت بحذر:

– لا يوجد خنجر في الحوش الذي أقطنه. لا أملك سوى سكين صغير لا يصلح لذبح دجاجة.

العسكري الواقف بجوارك قيد يدك الحرة "بكلبش" آخر ربطه بالعمود الحديدي. لكزك بقوة وهو يزعق فيك:

– رد يا حمار على أسئلة حضرة الصول بلا مسخرة أو تهريج.

ظهر فجأة بجوارك كأنه خيال أو ظل يحوم بالقرب منك. لم تسمع خطواته وهو يقترب منك، لكن قبل إحساسك بوجوده لفحتك نسمة حملت معها رائحة دم جاف. وقف خلفك طويلا بظله الممتد عبر الغرفة حتى كاد يلامس الحائط المقابل. التفتَّ نحوه فنزلت كفه على وجهك بقوة صادمة. طعم الدم ملأ فمك. جذبت الكلابشات التي قيدت يديك وركلت الهواء بلا جدوى. الصفعة الثانية أكدت ضعفك وأظهرت الحجم العظيم للكف التي تعصف بك. أطاحت بك تلك الضربة حتى كدت أن تفقد توازنك، منعتك من السقوط ذراعاك المقيدتان في العمود الحديدي. أكمل الصول استجوابك:

– لماذا قتلت المعلم طواجن؟

تخيلت أنك تجيب:

– لم أقتله.

– أين كنت يوم مقتله؟

هواء يخرج من شفاه قطعتها الصفعات:

– لم أقتله.

– ما تفصيلات الجريمة التي ارتكبتها؟ هل كان لك شركاء؟

ركلت الهواء مرة أخرى قبل أن تنزل الصفعة الأخيرة على وجهك فسقطت على ركبتيك وانحنيت على الأرض بينما تعلقت ذراعاك عاليا في "الكلابشات". غبت عن الوعي لمدة لا تعرفها حتى أيقظك صوت الصول وهو يزعق في أحد العساكر. تركوك مستلقيا على أرضية الغرفة ولم ينقلوك للزنزانة. أحسست بألم بدأ في ذراعيك ثم امتد إلى كتفيك. وقفت على قدميك لتخفف الألم الذي يمزق عضلاتك. العرق يبلل ظهرك. أحسست بعطش شديد ولكن مذاق الدم المالح أراحك. التفت حولك فلاحظت أن خيال الظل قد غادر الغرفة. قال الصول بلا مبالاة:

– صح النوم، لقد أخرتنا. كان لا بد أن ننتهي منك بأسرع وقت ممكن.

أجبت بصوت حانق:

– أنا لم أرتكب أي جريمة، فلماذا لا تفرجوا عني؟

– لا ناصح يا ولد. ما قولك في الأسماء المنقوشة على شقف الحجارة والتي وجدناها في الحوش. هل هذه أسماء ضحايا آخرين من ضحاياك؟

– لا أعرف ماذا تقصد. أنا لم أر في الحوش أسماء منقوشة على قطع من الحجارة. ما الذي تعنيه بالضبط؟

– حسن العسقلاني... أحمد فاضل... محمد عبده صادق... مصطفى لطفي... سعيد الفيومي... هل تعرف هذه الأسماء؟

كأن الأسماء تبعث من لحودها بمجرد النطق بحروفها. العبث يحتضن الإعياء الشديد الذي تحس به. تتشكل الذكريات وسط دخان البارود والانفجارات المتلاحقة. لا يمكنك أن تنكر وجودهم وأنت من حفر ذكراهم على أحجار ملساء.

دخل عسكري معلنا وصول البكباشي حلمي إلى مكتبه. هندم الصول بذته لحظات قبل أن يخطو البكباشي حلمي إلى داخل الغرفة. خلع البكباشي طربوشه ووضعه على المكتب أمام الصول الذي وقف لأداء التحية الواجبة. جلس على الكرسي الموجود في مواجهة المكتب، وترك الصول واقفا خلفه. التفتَ البكباشي إليك وهو يقول:

– لماذا يعاملونك بهذه الخشونة؟

طلب منك الجلوس على الكرسي المقابل له بعد أن أمر أحد العساكر بفك قيودك. طلب لك كوبا من الماء. تهالكت على الكرسي وأنت تتوقع أن يتعرف إليك في أي لحظة.

– أخبروني بأنك تعمل "تربي" في مدافن الإمام.

– تمام يا فندم.

ابتسم بطريقة فجة وقال:

– شكلك مألوف وأعتقد أنني رأيتك أكثر من مرة في خمارة طواجن. فما الذي أدى بك إلى ذلك الماخور؟ أعرف أن بنات الصالة لا يعلى عليهن، لكن من الذي دلك على ذلك المكان؟

طأطأت رأسك ولم ترد. تابع البكباشي حلمي:

– لم يكن المعلم طواجن يستلطفك. لقد سمعته يصفك بأنك زبون سمج.

تناولت كوب الماء وأفرغته في جرعتين. أحسست بانتعاش مفاجئ. أجبته:

– الله يسامحه كان يعاملني بطريقة سخيفة ولا أعرف سببًا لذلك.

أكمل البكباشي استجوابه:

– هل تعرف شيئًا عن علاقة المعلم أيمن ببعض تجار الحشيش؟

– لم أعرف ذلك حتى أبلغني أحد "التربية" أخيرًا بوجود تلك العلاقة.

– أصبح الحشيش تجارة مربحة بعد الأمر العالي الذي صدر منذ بضع سنوات بحظر استيراده ومنع زراعته.

أومأت برأسك موافقا. ابتسم مرة أخرى وسألك:

– وهل تعرف المزيد عن هذا الموضوع؟

– لا يا فندم. أنا أعتبرتها شائعة مغرضة وكلامًا فارغًا... مجرد فض مجالس، فلم أعرها اهتماما يذكر.

خبط ركبته بكفه وقال:

– لقد قبضنا على المعلم عاشور الكابي، لأنه آخر من رأى المعلم أيمن قبل مقتله، فهل تعرف عن المذكور أي شيء؟

هزهزت رأسك نافيًا معرفتك بعاشور الكابي. استطرد البكباشي:

– هل تعرف أن الكابي من أكبر تجار الحشيش؟

– لا أعرفه ولم أسمع اسمه من قبل.

– لكن الكابي يعرفك جيدًا. لقد أخبرنا عن علاقتك بغالية وعن مشاجرتك مع المعلم أيمن في الصالة. ولا تحاول أن تنكر لأن عددا من مخبري التمن شاهدوا المشاجرة بينك وبين طواجن وسيمكنهم التعرف إليك.

لقد ضاقت الحلقات وأوشك البكباشي أن يوقع بك. تماسك ولا تفقد الأمل. سيمكنك المراوغة إذا لم يستمر البكباشي في الضغط عليك لمدة طويلة. لا بد أن تحاول تغيير مسار التحقيق بأي شكل

من الأشكال. توسلت إليه:

– أنا لا أريد بهدلة! ولا دخل لي بما حدث للمعلم أيمن.

أطرقت لحظة كأنك تسترجع تفاصيل المشاجرة مع طواجن ثم أضفت:

– يومها هاجمني المعلم أيمن بشراسة لا داعي لها، وسبّني بلا سبب واضح. وبصراحة لم أفهم أبدًا لماذا عاملني بهذه الطريقة.

– وماذا كان رد فعلك؟

– غادرت الصالة ولم أرد عليه. ولم أرجع للصالة بعد ذلك اليوم.

تفحصك بنظرة باردة ثم التفت إلى الصول وسأله عن دفتر الأحوال قبل أن يعود إلى سؤالك:

– هل قررت يومها أن تقتل أيمن طواجن؟

أخيرا سألك البكباشي حلمي السؤال الذي توقعته منذ أن دخل غرفة التحقيق. تعرف أنهم لا يملكون دليلا واحدًا ضدك. أجبت بثبات:

– هل يقدم عاقل على جريمة قتل لهذا السبب التافه؟

أشار نحو مقعد الصول الخالي بعد أن ذهب صاحبه ليحضر دفتر الأحوال:

– الصول أحمد أخبرني أنهم وجدوا الخنجر المستخدم في الجريمة مدفونا في الحوش الذي تقطنه. لا يمكنك طبعا أن تنكر دليلا كهذا.

تعجبت من أنه يكرر نفس الحيلة السقيمة التي حاول الصول استعمالها من قبل:

– هذا كلام غير صحيح. لا يوجد خنجر عندي في الحوش.

تحس بألم شديد في فكك. تحسست وجهك فشعرت بورم حول عينك اليمنى. البكباشي بدل أسلوبه وقال بحنق:

– أنا لطيف جدا معك حتى الآن، فلماذا لا تصارحني بكل شيء حتى تتجنب البهدلة؟

لم ترد وساد صمت طويل. تركك في حيرة من أمرك قبل أن يسألك:

– ما علاقتك بغالية وبقية بنات الصالة؟

– أعرفهم كأي زبون آخر.

– "بركة" صبي طواجن له رأي آخر. لقد أخبرنا أن علاقتك

بالبنات كانت مميزة، وأن شغفك الشديد بغالية تسبب في إغضاب طواجن.

لم يكن أمامك سوى إنكار مشاعرك نحو غالية. تحاشيت نظراته الفاحصة ورددت:

– لا أفهم ماذا تقصد يا فندم. غالية كانت مثلها مثل أي بنت من بنات الصالة. صحيح أنها أعجبتني لخفة دمها. لكن هذا كل ما في الأمر، ولا يمكن تضخيم علاقتي بغالية بالدرجة التي قد يصورها لك "بركة". ويا عالم! قد يكون هو المجرم الحقيقي، ولذلك يحاول اختلاق أسباب أخرى لوقوع الجريمة حتى يضلل الحكومة.

– لا ناصح ومفتّح.

هكذا علق البكباشي حلمي قبل أن يقوم من مكانه والغضب يغطي ملامحه. بعد أن خرج من غرفة التحقيق تقدم أحد الحراس وقيدك "بالكلابشات". لحق به حارس آخر وقادك الاثنان إلى محبسك وتركا يديك مقيدتين بالحديد. رائحة كريهة تنبعث من أركان الزنزانة. بعد فترة وجيزة دفعوا لك بطبق عليه طعام توحي رائحته بأنه أرز مطبوخ.

***

تورم جفنك فأطبق على عينك اليمنى وأغلقها تمامًا. لم تكترث بما فعلوه بك. يكفيك أنك صمدت أمام الموجة الأولى من التحقيقات. لقد حققت نصرًا حقيقيًا بعدم الاستسلام لهم على الرغم من ضربك والتنكيل بك. كنت في وضع ضعيف للغاية، ولكنك تشبثت بموقفك ولم تعترف بفعلتك. في الظلام تحسست طعامك ثم رفعت حفنة منه على أطراف أصابعك وتذوقتها بطرف لسانك. أرز مغلي لا طعم له. الجوع دفعك لالتهامه غير آبه بالحصوات التي قرشتها مع كل حفنة وضعتها في فمك أو بالقيود الحديدية التي تعوق حركة يديك. بعد أن انتهيت من طعامك أحسست ببعض الانتعاش وعاد إليك صفاء ذهنك. ما زلت تشعر بالإنهاك الشديد فركنت جسمك على حائط الزنزانة تنتظر الفرج وتستعد للجولة التالية.

الأفكار تتزاحم في رأسك. تتذكر يوم زرت أهلك في الصعيد مع أبيك وأخيك عبد الرحيم. تستحضر ذكريات ذلك اليوم البعيد فتصلك مشوشة لصغر سنك. ربما كنت في عامك الثالث أو الرابع على أقصى تقدير. اصطحبك أبوك أنت وعبد الرحيم يوم ذهب لتفقّد الأرض التي ورثها عن جدك وأراد بيعها. تذكر الغيطان الممتدة حولك في كل اتجاه. بعضها ملأت مياه الري أحواضها. سار الحاج صبري في المقدمة مع أولاد عمومته يخطون فوق الجسور الطينية التي تفصل بين الأحواض المروية. ابتعدوا عنك بمسافة أخذت في الاتساع مهما حاولت أن تسرع من خطواتك. عبد الرحيم تركك ولحق

بأبيك وأبناء عمومته. تصورت أنهم تخلوا عنك وأنك لن تستطيع اللحاق بهم مهما حاولت. بدأت تنادي عليهم وتصرخ بعلو صوتك لكنهم كانوا بعيدين عنك فلم يعيروك أي انتباه. قرص الشمس ملأ السماء أمامك بعنفوان أشعته المتناثرة التي زغللت بصرك ومنعتك من رؤيتهم. زاد ارتباكك فتعثرت وسقطت أكثر من مرة. آخرها كان بالقرب من بيارة ساقية تخيلتها فوهة شاسعة لا قرار لها. كأن الأرض قد انشقت من حولك تريد ابتلاعك. تملك منك الفزع فلم تستطع النهوض وبقيت ممددًا بجوار البيارة لا تقدر على الحركة بينما دقات قلبك تتصاعد بسبب خوفك من الوقوع فيها. بقيت على هذه الحال حتى أحسست بيد أبيك تنتشلك. سعدت به ولم تكترث عندما نهرك وأنبك لأنك تخلفت عنهم ونمت بجوار الساقية.

ترى أمك واقفة في مدخل الغرفة ومعها نفيسة التي تعلقت بذيل جلبابها. ماذا أتى بهما إلى هنا؟ تسألك عن فضيلة. ونفيسة تكرر أن فضيلة فتاة جميلة كقمر 14. تتذكر يومًا آخر من أيام طفولتك وقد تجمع أولاد وبنات الصليبية والسيوفية في بيت سعد، وقرروا أن يلعبوا لعبة "الاستغماية". انطلقتم في جميع الاتجاهات لتختبئوا من "المساك". دخلت دولاب الخزين لتختبيء به، فوجدت فضيلة بداخله. وقفت بجوارها وكتفك في كتفها، نظرت إليك وهي تبتسم ثم فجأة قبّلت خدك. أحسست بصاعقة تسري في جسمك وأجفلت لحظات قبل أن تخرج من الدولاب غير آبه بالمسّاك الذي يبحث عنك. أمك

تستمر في حديثها عن فضيلة وأخلاقها وأوصافها مؤكدة أنها تليق بك كزوجة. أراك جالسا مع فضيلة قرب كشك الموسيقى بحديقة الأزبكية وقد أمسكت بخصرها، تلتفت إليك فترى وجه غالية. يختلط عليك الأمر وتتساءل ماذا حدث لغالية والبنات. هل حبسهن البكباشي حلمي؟ لماذا فعل ذلك بها وهي لم تقترف ذنبًا؟ ربما ذنبها الوحيد أنها أوقعت بك وملكت زمام قلبك. لم تعرف المسكينة ماذا بإمكانك أن تفعل إذا غضبت. لقد كظمت غيظك وحبست مشاعرك فلم تبد حنقك تجاه طواجن حتى تمكنت منه، وعندئذ أجهزت عليه بضربة واحدة، وحققت نصرك الخاص. لقد واجهت الهزيمة والنصر في وقت واحد، وتعاملت مع هذين المراوغين على قدم المساواة. النصر مثله مثل الهزيمة، كلاهما ينبهنا إلى الواقع الذي يتشكل من حولنا. قد تخسر المرة تلو الأخرى لكن في النهاية لا تنهزم. ربما يتحقق لك النصر لكن نصرك هذا قد يقودك إلى خسران أكبر وأعظم. وأحيانا تكشف لك الخسارة آفاقا حجبت عنك حتى تلك اللحظة الكئيبة. قد تنفذ من خلال تلك الحجب بنفسك أو يقوم بذلك من يأتي من بعدك. المهم أن تتعامل مع هذين المراوغين بنفس الأسلوب، وألا تترك لهما الفرصة ليشكلا أيامك. قد نرى من حولنا كل ما هو عزيز يتحطم، لكن لا بديل عن أن ننحني فوق الركام المتناثر لكي نلملمه ونصلحه بأدواتنا البالية.

أصدر الباب الثقيل صريرا شتت أفكارك، اندفع حارسان نحوك

وغطيا رأسك بكيس من القماش ثم دفعاك خارج الزنزانة. رائحة الدم الجاف العالقة بالكيس تزاحم حواسك. عند خروجك من الزنزانة أحسست كأن حرارة الجو تبددت وحلت محلها نسمة مسائية لطيفة. لا بد أنها ساعة متأخرة من الليل. أدخلاك غرفة وأغلقا خلفهما بابها الثقيل. دفعك أحدهما في صدرك فسقطت فوق دكة خشبية. آلمك ظهرك لكنك لم تتأوه. ثبت الآخر ذراعيك في قائم موجود فوق رأسك وفجأة قبضا على قدميك وقيدوهما بحبل خشن. حاولت أن تركلهما بلا جدوى. بسرعة فائقة أكملا مهمتهما بإتقان. أصوات أفراد آخرين يدخلون الغرفة. جذب أحدهم الحبل فرفع قدمك في الهواء بينما ظللت أنت مستلقيا على ظهرك فوق الدكة والكيس الذي يغطي رأسك يحبس عنك الهواء. بعد أن تملكوا منك خلعوا فردتي حذائك. سمعت صوت الصول يأمر أحد مساعديه بإحضار الخيزرانة. تماسك فسوف تبدأ بعد قليل موجة جديدة من الانتهاك والتعذيب. استعديت لتلقي ضربات الخيزرانة عندما فوجئت بهم يلقون بماء آسن على الكيس الذي يغطي وجهك. فزعت لعدم قدرتك على التنفس وسحب الهواء. حاولت التملص من قيودك بلا فائدة. استنشقت نفسا مخنوقا من الهواء الملوث الذي تسلل إلى صدرك ثم تابعته بأنفاس قصيرة لاهثة. في هذه اللحظة سمعت صفير الخيزرانة وهي تشق الهواء قبل أن تشعر بنار تلهب بطن قدميك. حاولت الصراخ فتقطعت أنفاسك وقبل أن تتمكن من أي شيء هوت الخيزرانة على قدميك

عدة مرات متلاحقة. كدت أن تفقد الوعي عندما رفع الصول الكيس عن رأسك، ووجّه إليك نظرة باردة قبل أن يكرر سؤاله القديم الذي لا يمل منه:

ـ هل قتلت المعلم طواجن؟

أشحت بوجهك بعيدًا عنه وبصقت السائل القذر الذي تسرب إلى فمك. الصول غطى وجهك مرة أخرى وسمعته يأمر مساعده:

ـ شوف شغلك.

ضربات متسارعة نزلت على قدميك قبل أن يرفع الصول الكيس مرة أخرى فتراه وعلى شفتيه ابتسامة لزجة:

ـ هل غيّرت رأيك؟ لا تتمادى في العناد بلا جدوى.

الغريب حقا أنهم مصممون علي أنك متورط في هذه الجريمة، على الرغم من أنهم لا يملكون دليلا واحدا ضدك، ولا يوجد شهود يمكنهم إثبات الواقعة. تعلم أن لا هزيمة بلا استسلام لكن كيف تدفع الفزع الذي بدأ يتسرب إليك. لو استمروا في تعذيبك قد تقر بما فعلت في لحظة ضعف. غطى الصول وجهك مرة أخرى فانتظرت الخيزرانة كي تهوي على قدميك، لكن ذلك لم يحدث. تسمع همهمات لا تدرك مغزاها وتصل إليك أصوات وقع أقدام تسرع بالدخول والخروج من الغرفة. طال انتظارك وبدأت تشعر بشيء من الاطمئنان الحذر.

ترفض أن تقلل من تحفزك واستعدادك لتلقي الضربة القادمة. قد يكون هذا أسلوبهم في التعامل مع مثل هذه المواقف. يعطونك القليل من الأمل ثم سرعان ما يطيحون به لكي يحطموا معنوياتك وليتمكنوا من كسر عنادك.

الجاويش حسن ربط قميصه حول رأسه كأنه يتقي ضراوة شمس الصيف. ابتسم وطلب منك بلهجته الصعيدية أن تصبر وألا تستسلم. "الفرج قريب فلا تجزع". بعد فترة من السكون، سمعت صوت البكباشي حلمي يأمرهم بفك قيودك وبأن يطلقوا سراحك. خلع البكباشي الكيس ونظر إليك متفحصا ثم قال بسخرية:

– ماذا حدث لك؟ هل وقعت على وجهك؟

سكتُّ لوهلة ثم أكمل حديثه بصوت جاد:

– لا بد أن أخبرك أننا اكتشفنا القتلة ولا حاجة لوجودك معنا! يبدو أن هذه الجريمة كانت جزءًا من مخطط كبير للنيل من الخديو، وإحداث حالة من البلبلة والارتباك في الدولة.

تنهدت وتمتمت:

– أحمدك يا رب!

– مقتل طواجن كان الخيط الذي قادنا للكشف عن جمعية ثورية تستهدف النظام وتحاول إشاعة الفوضى. أرجو أن

تتفهم أننا نعمل في ظل ظروف قاسية للغاية، وهناك قوى كثيرة تتربص بأمن واستقرار هذا البلد. لقد نالك بعض الضرر لكن هذه ضريبة قد يدفعها بعضنا لكي نحفظ سلام المجتمع ككل.

هكذا وببساطة شديدة برر البكباشي حلمي ما ارتكبوه من تعذيب، وحلل لنفسه كل الإهانات التي لحقت بك. لكن على الرغم من آلامك المبرحة وغضبك الشديد بعد انتهاكك بهذه الطريقة المهينة، شعرت بسعادة لا مبرر لها.

***

فضيلة

يونيه، 1883

بعد الإفراج عني لم أترك القرافة لمدة أسبوعين. امتنعت عن زيارة أمي حتى لا تفزع عندما ترى آثار التعذيب على وجهي. أردت أن أدفن ما حدث فأخفيته عن كل معارفي. أخبرت عابد أن مجموعة من البلطجية تعرضوا لي عند باب "العزب" وافتعلوا مشاجرة معي حتى تتسنى لهم سرقة نقودي. ادعيت أنني حاولت مقاومتهم فقام أحدهم بلكمي في عيني. عابد علق متهكما:

– وسرقوا فلوسك يا فالح؟ لو بطلت لف ودوران لما وقعت في مثل هذه المشاكل.

المعلم صالح لم يصدق كلمة واحدة من روايتي. الرجل أصبح لا يثق فيما أقول، ولا يصدق ما أدعيه من حكايات. نظر إليّ في صمت وطأطأ رأسه ثم تركني كأنه يعلن أن هذه فرصتي الأخيرة. أيام الصيف الطويلة تملأ حياتنا ضياء وتسمح لنا بالنسيان والتسامح. حرارة النهار تتسلل إلينا قبل أن تخمدها برودة ليالي الصيف القصيرة. النصف من شعبان يقترب، والمعلم صالح أعلن حالة التأهب التي تصاحب هذه المناسبة. لم يهتم بإصاباتي وأكثر من طلباته بإعداد الأحواش للزيارات المتوقعة. بعث إلينا المقرئين لتوزيعهم على المناطق المختلفة بالجبانة. اتفقنا مع السقائين من باب الوزير والخليفة والقلعة على جلب كميات مضاعفة من المياه في الأيام القليلة القادمة، لتكفي الزائرين الذين سيقضون هذه المناسبة في القرافة. انشغلت بالتحضير للزيارات وما قد تحمل من زيادة كبيرة في الإيراد حتى أرسلت أمي في طلبي. قلقت من طلبها المفاجئ وخشيت من أن يكون خطب ما قد ألم بأحد أفراد العائلة. سألت حامل الرسالة عن أحوال أسرتي فأخبرني أن كل شيء على ما يرام. لكن ذلك لم يقلل من ريبتي ولم يطمئن قلبي. أخبرت المعلم صالح بضرورة ذهابي، فغضب لأني سأترك العمل في هذا التوقيت بلا سبب مقنع. صرح لي بأنه سيستغنى عن خدماتي إذا لم أهتم بعملي وأكف عن المراوحة بين القرافة والأزبكية. لم أهتم بما قاله ولم أرد عليه.

عند وصولي إلى البيت عرفت أن أمي تريدني أن أصحبها في زيارة لضريح السيدة زينب. ألحت في طلبها قائلة:

– في ليلة النصف من شعبان يطّلع اللـه إلى عباده فيغفر للمستغفرين ويرحم المسترحمين ويمهل الكافرين. أشتاق إلى زيارة السيدة زينب وأريدك أن تصحبني.

أمسكت بكفي وكررت مقولة سمعتها منها مرارا منذ الصغر:

– تقترب تلك الليلة يا كريم في المرتبة من ليلة القدر من حيث الكرامات واستجابة السماء للدعوات.

شرحت لها احتياج المعلم صالح لي في ذلك اليوم. لكنها تمسكت بذهابي معها وأصرت أن أقضي الليلة معها لأعاونها في نسخ الأدعية على وريقات تنوي دسها بين فتحات المقام المشيّد حول ضريح السيدة زينب. لم أستطع رد طلبها ولسبب ما سعدت بوجودي معها وبالبقاء بعيدًا عن الحوش نكاية في المعلم صالح.

جلست بجوارها في غرفتها وبدأت بكتابة ما تمليه عليّ من أدعية لكي يحمي اللـه عبد الرحيم حتى يعود سالمًا من السودان. أعقبتها بأدعية ليمنح اللـه الحاج صبري الصحة والرزق وطول العمر. وأخيرا مجموعة من الأدعية اتصلت بحصولي على زوجة طيبة وذرية صالحة. وانتقلت بعد ذلك إلى أقاربها وجيرانها ومعارفها. تتلو

الأدعية فأدوّنها ثم تطلب مني إعادة قراءتها لكي تتأكد من سلامة ما دونته. عند الانتهاء من إحدى الوريقات تأخذها مني وتطويها طيات متكررة ثم تلفها في قطعة رقيقة من الجلد وتقوم برشها بماء معطر وهي تقرأ الآيات القرآنية. في نهاية الأمر جمعت الوريقات المطوية وصرّتها في منديل من الحرير الأبيض.

أبي حضر من الوكالة بعد صلاة العشاء. جلس معي فترة يسألني عن أحوالي ويكرر محاولاته لإقناعي بضرورة عودتي إلى بيت العائلة. كذلك ألح عليّ بترك عملي بالقرافة، ووعدني بالعثور على عمل لي بالوكالة التي يشتغل بها. بدأت أقتنع بوجاهة رأيه، لكنني أردت أن أبقى بعيدًا عن البيت حتى تنتهي التحقيقات الجارية في مقتل طواجن. كرهت أن يحضر مخبرو الضبطية إلى بيت أبي ليقبضوا عليّ أمام أسرتي وخشيت بهدلتي وإهانتي أمام أمي.

في صباح اليوم التالي أحضرت عربة حنطور لتقلنا إلى مقام السيدة زينب، ورافقتنا في هذه الزيارة كل من أختي نفيسة وأم عواطف. وصلنا إلى الجانب الغربي للمسجد الذي بدأت أخيرًا أعمال تجديده كبادرة يتقرب بها الخديو للشعب. رجلان ضخمان وقفا بالقرب من مدخل الضريح يوزعان أرغفة مملوءة بالفول النابت والأرز. زحام المقبلين عليهما اختلط بتيار القادمين لزيارة ضريح السيدة زينب. صدّرت جسمي للمارة لكي أحمي أمي وأسمح لها بالولوج

إلى داخل المقام المزدحم بالنسوة اللاتي حضرن تقربًا لسيدة مصر المحروسة في هذا اليوم المبارك. رائحة البخور تسربت إلى خارج المقام مختلطة بروائح النسوة المتزاحمات حول الشاهد.

تركتهن عند مدخل الضريح، وذهبت إلى ركن من المسجد مخصص للصلاة على أن نلتقي عند المدخل بعد انتهائهن. أديت تحية المسجد ركعتين ثم انسحبت وجلست في ركن بعيد عن المحراب. خطرت ببالي ذكرى غالية، التي زاد شوقي إليها بعد أن فصلت بيننا الأحداث المتلاحقة. حققت نصري الخاص وتخلصت من طواجن لكنني فقدت غالية. لا يمكنني الآن العودة إلى درب "الدحديرة". حتى إذا بحثت عن الولد "بركة" لا أضمن ألا يثير ذلك الشبهات. فضلت أن أتوارى تماما وأن أمضي معظم وقتي في القرافة بعيدا عن المشاكل. طيف غالية يهف عليّ من حين لآخر. تخيلت ماذا كان يمكن حدوثه لو هزمنا الإنجليز في التل الكبير. لو حدث ذلك لفتكنا بمن بقيَ لهم من قوات في الإسكندرية ولتخلصنا من الخديو. ولو حدث ذلك لأقمنا أول جمهورية بالمنطقة وأصبح عرابي باشا رئيسها. ولو حدث ذلك لأصبح عبد الكريم صبري بطلا من أبطال هذه الأمة، وضابطا من ضباط جيشها الذين يفتخر بهم شعبها. لكن الأيام لم تأت بما نشتهي وحرمتنا مما نصبو إليه.

تذكرت محمد عباس الذي زرته منذ أسابيع قليلة. يومها رحّب

بي ثم جلس أمامي دون أن يتحدث عما تعرض له في حبسه، ظهر كشخص جمع كل مكاسبه وراهن عليها دفعة واحدة ثم خسرها. ها هو يبدأ من جديد دون أن ينبس بكلمة ندم. عندما ننهزم يصبح الخوف هو عدونا الأعظم. يلاحقنا ويحكم قبضته رافضا أن يمنحنا فرصة أخرى. التحدي الأكبر يصبح انتزاع تلك الفرصة الثانية، فرصة الإقدام على محاولة جديدة لتحقيق الحلم. تمتم بصوت خفيض:

- يمكننا أن نحلم ولكن في نفس الوقت يجب ألا نقيم من أحلامنا أصناما.

لم يدم لقاؤنا لفترة طويلة. تركته وأنا أحمد الله على سلامته. نظرته تكشف الكثير عما تعتمل به نفسه. كل منا يحاول إجبار جسده على التفاني لتحقيق آمالنا بعد أن تم استهلاكنا تماما ولم يبق لنا إلا إرادة عنيدة تهتف بكل منا "تماسك!".

بعد مرور وقت كافٍ قمت لأبحث عن أمي. وجدتها أمام مدخل الضريح تتحدث إلى امرأة ترتدي رداء أسود اللون، وعلى وجهها "يشمق" أبيض. رأيت أمي تربت على كتف المرأة وتحتضنها. أبطأت من خطواتي حتى أتيح لهما أن تتواصلا قدر ما تشاءان. عندما اقتربت منهما أدركت هيئة هذه المرأة. دنوت منهما بحذر حتى تأكدت من أنها فضيلة أخت سعد المويلحي. أمي نادتني:

- عبد الكريم. هل تذكر فضيلة؟

أقبلت عليها لتحيتها. لاحظت أن عينيها مغرورقتان بالدموع. سألتها:

- خير يا فضيلة! ماذا حدث؟

أمي غطت فمها بكفها تطالبني بالسكوت وعدم التمادي في تساؤلاتي. سحبت أمي فضيلة بعيدًا عن زحام المتوافدين على ضريح السيدة. تبعتهما مع نفيسة وأم عواطف. فضيلة التفتت نحوي وقالت بصوت مضطرب:

- لقد قبضوا على سعد يا سي كريم.

لم أفهم ماذا تقصد. ولم أتخيل أبدا إمكانية حدوث ذلك. أخبرتني ببساطة أن سعدا قد قبض عليه بتهمة عضويته في جمعية سرية. يقال إن مأمور الضبطية سلم أسماء أعضاء التنظيم إلى خيري باشا مهردار الخديو الذي أبلغ شريف باشا، وعلى الفور تم القبض على عدد كبير من أعضاء الجمعية السرية التي يطلقون عليها اسم "المؤامرة المصرية". الخبر وقع عليّ كالصاعقة ولم أصدق ما أسمع. هل هذا ما قصده البكباشي حلمي عندما أفرج عني؟ أخشى أن التحقيق معي في مقتل طواجن قد أدى إلى كشف أمر جمعية "المؤامرة المصرية". قد يكون اقتراحي بالتخلص من المعلم أيمن

هو الخيط الذي أوصل الحكومة إلى التنظيم وأوقع بأفرداه. شعرت بالذنب لما قد أكون سببته من ضرر لسعد ورفاقه. في نفس الوقت فزعت من احتمال القبض عليّ مرة أخرى. لم يهدئ من روعي سوى أنني ابتعدت عن التنظيم منذ فترة طويلة، وأن الشرطة قد حققت معي وقررت الإفراج عني. سألتها:

- ولماذا تقبض الشرطة على سعد؟ أنا واثق من براءته ومتأكد من أنه لم يفعل شيئا يعاقب عليه القانون.

كررت فضيلة بصوت يملؤه الأسى:

- حبسوه لأنه انضم لجمعية سرية هدفها قلب نظام الحكم وعزل الخديو. أمي لا تكف عن البكاء، ونحن جميعًا لا ندري ماذا يمكننا أن نفعل بدونه.

حاولت أن أخفف عنها:

- لا بد أن في الأمر خطأً ما. أنا أعرف كل شيء عن سعد ولم أسمع منه أبدًا عن جمعية "المؤامرة المصرية" أو غيرها من التنظيمات السرية.

- هل تعرف أيًا من ضباط الشرطة ممن يمكنهم مساعدتنا في هذه المحنة.

هممت بالكلام لكنني فضلت السكوت. تدخلت أمي في الحديث:

– سيفعل عبد الكريم كل ما يستطيع لكي يعين سعدا على هذا البلاء.

أشاحت فضيلة بوجهها وقالت بتهدج:

– لقد حضرتُ إلى هذا المقام الشريف، وفي هذا اليوم المفترج لكي أدعو اللـه أن يعيننا على احتمال هذه الشدة وأن يحلها من عنده.

– اللـه سيسمع دعواتنا وسيفرج كرب سعد. وإن شاء اللـه ستنتهي أزمته بأسرع مما نتصور.

أحاول التمسك بالصدق عندما تلطخ الأكاذيب أفعالي. أحسست برعشة في أصابع يدي اليسرى. ماذا يمكنني عمله إذا صرت مكروهًا بينما لا أسمح لنفسي بالكراهية؟ هل أتجمل أم أتزحلق؟ لقد ضربوني وعذبوني، لكنني تماسكت ولم أخضع لجلادي. ربما تسببت بشكل مباشر في سقوط التنظيم ومعه سعد ورفاقه. الآن عليّ أن أحتمل هذا الذنب دون أن أتخلص منه. ماذا فعلت لكي يؤدي نصري الصغير إلى مثل هذه الخسارة الجسيمة؟ أقف عاجزًا أمام فضيلة وأشاهد أمي تواسيها، وكأني غائب عن كل ما يجري حولي. لم أمض وقتا طويلا مع التنظيم، ولم أحضر أيًا من اجتماعاتهم بعد قبولي الانضمام إليهم. تقابلت مع بعضهم على انفراد، لكنني لم أشترك معهم في أي عملية. عرضت عليهم

فكرة اغتيال المعلم طواجن ولكنهم لم يهتموا بطلبي ولم يصدروا أي قرارات بشأنه. منذ ذلك الوقت لم أتصل بأي منهم بمن فيهم سعد. لقد أطلق رجال الشرطة سراحي، وغالبا لم يكتشفوا حتى الآن صلتي بجمعية "المؤامرة المصرية". لكن هل سيحالفني الحظ طويلا قبل اكتشاف علاقتي بمقتل المعلم أيمن؟

أمي سحبتني من يدي نحو عربة الحنطور:

– هيا بنا! يجب أن أذهب مع فضيلة لزيارة أم سعد.

صعدت بجانب العربجي بينما جلست أمي ورفيقاتها في المقاعد الخلفية. طرقع العربجي سوطه في الهواء وتحركت بنا العربة.

***

الهيضة

يوليو، 1883

أيام رمضان الطويلة وساعات نهاره الحارة أنهكتنا جميعا. أزعجني خبر القبض على سعد وأعضاء تنظيم "المؤامرة المصرية". لو نطق أحد منهم باسمي أو أشار إليّ بأي شكل من الأشكال سيتم اعتقالي مرة أخرى. كلما خطرت هذه الأفكار على بالي انقبض صدري. قد تكون هذه هي نهايتي. أدفع الشعور بالجزع بعيدا عن ذهني، وأنشغل بهموم حياتي اليومية. كل شيء يتوقف على صلابة سعد ورفاقه. ماذا سيحدث لو ربط أعضاء الحركة بيني وبين مقتل طواجن. هل سينتقمون مني لأنني لم ألتزم بتعليماتهم؟ الصيام خفف

من قلقي، وانشغالي بالعمل معظم ساعات النهار ساعدني على تنحية مخاوفي جانبا. لم أتخيل أن هذه المشكلة تتضاءل حتى تصير أهون أسباب عنائي.

بعد انقضاء يوم شاق طالت ساعاته، تناولت إفطاري في غرفتي برفقة عابد. بعد الانتهاء من الطعام صعدنا إلى سطح استراحة المدفن لكي نحتسي الشاي ونتسامر حتى يأتي موعد صلاة التراويح. نسمة صيفية رقيقة داعبت جلستنا باستحياء، وهلال رقيق مال نحو الأفق الغربي مذكرا أن الشهر الصوم ما زال في أوله. فاجأنا صوت ينادي من خارج سور الحوش، أسرعت إلى المدخل فوجدت سلامة صبي محل الدرب الأحمر الذي أبلغني أن الحاج صبري يريد مني الذهاب إليه فورًا لأمر طارئ. تملكني القلق فأبي لم يبعث لي بمرسال طوال المدة التي سكنت فيها القرافة بل فضل دائما الانتظار حتى أذهب لزيارته. أراد عابد أن يصحبني، فرفضت متعللا بأنه أمر شخصي. أسرعت نحو ميدان القلعة وقبل أن أصل إلى مسجد السلطان حسن، انحرفت في اتجاه شارع الصليبية فوصلت إلى البيت وقت أذان العشاء.

كان أبي في انتظاري. فور وصولي أخذني إلى خزانة المضيفة التي يحتفظ فيها بمجموعته الخاصة من الكتب المطبوعة والمخطوطة. تبعته في صمت لا أدري ماذا يريد مني بالضبط بينما القلق ينهش أعماقي. فتح ضلفة الرف الأعلى التي يغلقها بقفل حديدي صغير

تزينه طبقة من المينا الزرقاء منقوش عليها عبارة "الصبر مفتاح الفرج". أخرج أبي مجموعة من المخطوطات ذات أغلفة جلدية عتيقة وناولني إياها. نظرت إليها متسائلا ثم فتحت مخطوطا منها وقرأت عنوانه "تذكرة أولي الألباب والعجب العجاب لمؤلفه داود الأنطاكي". لم أفهم ماذا يجب عليّ فعله، سألت أبي عن الغرض من هذا الطلب. هل يدعوني للحضور في هذا الوقت المتأخر لمجرد رغبته في إعطائي هذه المخطوطات. أبي أطرق قليلا وأمرني أن أبحث في تلك المخطوطات عن "باب الهيضة". زادت شكوكي فسألته عن أمي وعن نفيسة. لم يبالِ بسؤالي بل كرر طلبه بالبحث عن داء الهيضة. نحيت الكتاب جانبًا وقمت من مكاني وأنا أغمغم:

- أين أمي ونفيسة؟ هل ألم بهما مكروه؟ ماذا حدث لهما؟

صوت مرير رد على تساؤلاتي.

- أمك بخير، ولكنها بعافية وتحتاج للراحة. جاءها الحكيم هذا الصباح وأخبرنا أن الهيضة أو الهواء الأصفر قد ظهر في دمياط منذ أسابيع، وهناك مخاوف من أنه بدأ ينتشر أيضا في مصر المحروسة.

لم يطمئنني رده بل زاد من مخاوفي:

- ماذا تعني يا أبي؟

نفس الصوت استرسل في رجائه:

– أرجــو أن تســاعدني في فهم هــذا الأمر. أعــرف القليل مــن المعلومات عــن الهيضة، وتدهور بصــري يمنعني مــن الاطلاع على المزيــد من المعلومــات الموجودة في مخطوطاتي ومراجعي.

تركته وأسرعت إلى غرفة أمي التي صدتني عنها رائحة صدئة تمتزج بها نتانة قيئ مع إسهال. يد أبي قبضت على ذراعي فمنعتني من الدخول إليها. أم عواطف قابلتنا وهي تحمل إناء نحاسيا ومعها ملابس وفوط تفوح منها روائح كريهة. سألها أبي عن حال أمي فأجابت:

– الحمد لله لقد تحسنت حالة أم عبد الرحيم، فالإسهال قل وكاد القيئ أن يتوقف. سأفرغ هذا الإناء وسأتخلص من هذه الملابس الملوثة. نفيسة تعد لها شرابًا مغليًا من اليانسون والكراوية ليريح معدتها ويداوي حالة الغثيان التي تعاني منها.

أبي أحاط كتفي بذراعه وأخبرني أنه يدرك خطورة داء الهيضة الذي غالبا ما يهلك من يصاب به من الناس، ويعرف كذلك أن فرص الشفاء منه ضئيلة. أضاف أن نفيسة لازمت أمها منذ الوهلة الأولى لظهور أعراض المرض، ولا تريد البقاء بعيدا عن أمها،

بل تقوم برعايتها غير آبهةٍ بما قد يحدث لها. علت وجهه ابتسامة مريرة في محاولته اليائسة لإقناعي بعدم جدوى الدخول على أمي لأنها منهكة تماما ولا تدري بما يدور حولها.

– علينا أن ننتظر حتى تتحسن حالتها، وأنا واثق كل الثقة في قدرة نفيسة على خدمتها والاعتناء بها بمساعدة أم عواطف.

جذبني لكي نعود من حيث أتينا وهو يشرح لي خطته:

– يمكننا مساعدتها بالبحث في مخطوطاتي عن علاج ناجع يشفيها. بصري تدهور وذهني مشوش منذ أن مرضت أمك، فأرجو أن تعاونني في البحث عن خصائص هذا الداء والعثور على الدواء.

بحثت عن باب حرف الهاء فوجدته في الجزء الثاني من "التذكرة". قرأت بصوت مسموع شرح أعراض داء الهيضة:

– إن الأصل في الطعام هو تحوله إلى مشاكلة البدن بطريقة طبيعية ما لم يمنع ذلك مانع. الهيضة هي خروج الغذاء إذا وصل إلى المعدة عن المجرى الطبيعي بسبب شعور وقوة تدفعانه بشكل غير ملائم. هناك احتمالان إما أن يكون الدفع إلى أعلى فقط، وذلك لزيادة في دافعة الأعضاء المتسفلة وهذا هو القيئ، أو إلى أسفل لقوة الدافعة العليا والجاذبة السفلى وهذا هو الإسهال.

أوما أبي برأسه موافقا. استكملت شرحي:

– المخطـــوط يذكر أن الهيضة هي اجتماع القيئ مع إســـهال مســـتمر، وســـببها اختلاط أغذية كثيرة في المعدة مختلفة الجواهر والأفعال. فالكثيف سبق اللطيف فثقل وسد فلم يجد اللطيف منفذا فتغير وفســـد، وقد يكون ذلـــك نتيجة لتناول أطعمة دهنيـــة أبطلت أفعال المعدة، وقد يتســـبب في ذلك تناول طعام بات في بلاد مرطوبة حارة.

علق أبي على ما قرأته:

– بلاد مرطوبة حارة مثل مصر في هذه الأيام. ربما تناولت أمك طعامًا فاسدًا.

– داء الهيضة له أعراض واضحة ومن علاماته إسهال رقيق متواتر ومغص وقرقرة وقيئ وغثيان وحمى وصداع.

– هذا الصباح أخبرني الحكيم الذي زار أمك أن اتفاق القيئ والإسهال من العلامات المميزة للهيضة. هل تشير "التذكرة" إلى علاج لداء الهيضة؟

وافقته فقرأت وصفًا مفصلا لعلاج الهيضة كما تورده "التذكرة":

– هذا المخطوط يوضح أن العلاج يكون باستقصاء المواد الفاسدة بالقيئ والإسهال، لأن في حبسها إتلافًا للبدن. صنعة العلاج تكون بخلط سفرجل وآس وعدس مقشور من كل

جزء، وأقاقيا وصندل وبذر هندباء وجلنار ودقيق شعير من كل نصف جزء، وعفص وحناء من كل ربع جزء. تعجن هذه الخلطة بالخل وتطبخ بالزيت ثم يسقى المريض من هذا المطبوخ المحلى بشراب الحصرم أو شراب الآس.

ابتسم أبي مبديا تفاؤلا حذرا:

– هذه وصفة مفصلة، وقد تكون أكثر فاعلية من العلاج الذي حدده الحكيم هذا الصباح.

لم أتوقف بل أكملت قراءة محتويات "التذكرة":

– بالإضافة إلى هذه الوصفة العلاجية يمكن تخفيف آلام المريض بتضميد البطن والأطراف.

سألني أبي بشغف:

– وكيف يمكننا إعداد مثل هذا الضماد؟

– الضماد يصنع من كل جزء صندل وإنجبار، ومن كل نصف جزء زعتر وسماق وكمون، ومن كل ربع جزء نعناع وعناب. بعد تقليب المحتويات جيدا يتم طبخ هذه الخلطة. هذا الكتاب يصف تفاصيل أخرى، فقبل استعمال الضماد تغسل أطراف المريض بماء الورد والخل ثم تدلك بوصفة الضماد محلولة في ماء الآس البري.

قرأت كذلك عن إمكانية الاستفادة من وصفات أخرى:

- إذا شعر المريض صداعًا في الرأس وتهيجًا وجفافًا وعطشًا فأعطه شراب البنفسج وماء العناب. أما إذا أحس ثقلا ومغصًا وقراقر فأعطه الكمون أو جوارش الفلفل أو المصطكى.

أضاف أبي:

- أنا أعرف أيضا أنه عند سقوط القوة يجب إعطاء المريض المنعشات كمعجون المسك والعنبر.

أبي نادى أم عواطف وطلب منها إحضار المكونات المطلوبة لتحضير الضماد. قام معها ليشرف على ميزان المقادير. حالة حزن غريبة نالت مني وتمكنت من جوانحي فلم أصبر على البقاء بعيدًا عن أمي. قمت إلى غرفتها، قابلتني نفيسة التي استبد بها القلق وغلبها التعب. طلبت من نفيسة أن تستريح قليلا مؤكدا أنني قادر على العناية بأمي. اقتربت من فراش أمي، وعندما شاهدتها لم أصدق عيني. في غضون أيام قليلة جف عودها وانكمشت لنصف حجمها الطبيعي. جفاف النبع المتدفق أصابني بالهلع. تفقد الحنان ويتدفق الحنين، توجسي من الأيام المقبلة سيطر عليَّ، كياني يرتعد وأطرافي ترتجف. أجلس على فراش أمي بجوارها. أخشى أن أوقظها فأبذل جهدًا خارقًا لأكف عن الحركة.

بعد دقائق قليلة جاءت أم عواطف حاملة إناء يحتوي على وصفة الضماد. وضعت الإناء بجواري ثم ذهبت وأحضرت زجاجة مملوءة خلًا وأخرى بها ماء الورد، بالإضافة إلى عدد من الفوط النظيفة. تركتني أم عواطف وأقعت خارج باب الغرفة. أحست أمي بنا ففتحت عينيها ونظرت نحوي وهي تهمس لي:

– عبد الرحيم... حمدًا لله على سلامتك... وحشتني يا ضنايا. متى عدت من السودان؟

ابتسمت برفق ومسحت رأسها بكفي:

– أنا عبد الكريم يا أمي.

رفعت جفون عينيها بصعوبة، وشهقت قبل أن تنطق:

– أهلا بك يا عبد الكريم، الحمد لله أنك عدت لي وربنا نجَّاك من مجزرة التل الكبير، خذ حذرك من مخبري الضبطية، إنهم يسعون للقبض عليك.

صوت مرير خرج من حلقي:

– خلاص قضيتي انتهت، لقد حصلت على العفو وأنا الآن حر وغير مطلوب لدى الحكومة.

بللتُ الفوط بالخل وماء الورد وبدأت بدعك يديها ثم قدميها. أحضرت الإناء الذي يحتوي على الضماد. نقعت الفوط فيه ثم

أخرجتها وعصرتها. فردت الفوط على ذراعيها وساقيها حتى ركبتيها. ابتسمت لي مرة أخرى وأمسكت بكفي.

– ربنا يخليك ويحفظك يا عبد الكريم، أنت دائما حنيّن عليّ.

بدلت فوط الضماد وقبّلت شعرها. اقتربت أكثر منها فرأيت الهالات السوداء التي أحاطت بجفونها وظهر الوهن الشديد بوضوح على وجهها. أغمضتْ عينيها وتمتمت:

– أوصيك بنفيسة وعبد الرحيم. سيحتاجان إليك فلا تتأخر عنهما في شيء.

قبّلت رأسها فأضافت بصوت خفيض:

– أنا مرهقة يا ولدي. الوقت متأخر ولازم ترتاح وأنا أيضا يجب أن أنام. اذهب الآن فأم عواطف قادرة على العناية بي. لا تقلق بشأني، إن شاء اللـه سأكون بخير.

لم أقدر على تركها. أبي دخل علينا وطلب مني أن أذهب:

– لقد أرهقناك يا عبد الكريم والوقت تأخر. يمكنك أن تنام الليلة في غرفتك القديمة.

ذهبت إلى غرفتي وبعد أن خلعت ملابسي استلقيتُ في فراشي مدة طويلة قبل أن يغمض لي جفن. لم أستطع إزاحة صورة أمي كما أذكرها أيام طفولتي، أسترجع في ذهني هيئتها وهي مقبلة عليّ بعد

عودتها مع أبي من زياراتهما العائلية. أذكر أيضا يوم اصطحبتني معها في جولة قمنا بها مع خالتي "إعتماد" فزرنا ضريح السيدة زينب ثم اتجهنا إلى مقام الشيخ أبو السعود بالقرب من مصر عتيقة. كم سعدت عندما أخبرتني أنها ستصحبني معها بدلا من أخي عبد الرحيم. كنت مزهوًا بنفسي لأنها أخيرًا ستأخذني معها، مما يبرهن على أنني صرت رجلا أستطيع العناية بأمي والحفاظ عليها. لن أنسى كوب عصير القصب الذي اشترته لي فأنعشني وأزال عطشي في ذلك اليوم شديد الحرارة. يومها قابلنا أبي عند مقام الشيخ أبو السعود حتى يصحبنا في زيارتنا لمقام سيدي عمر بن الفارض في وادي "المستضعفين" عند سفح جبل المقطم. من مسافة بعيدة ظهرت مئذنة مسجد سيدي عمر، وشدني مشهد قبته البراقة. مجموعة من الأشجار الوارفة تحيط بالضريح، خضارها يتناقض مع الصحراء القاحلة التي تمتد حولنا في جميع الاتجاهات. أبى تركنا ليصلى ركعتين في ساحة المسجد بينما ذهبت إلى الضريح مع أمي. وقفت بجانبها أشاهد الكسوة الخضراء التي تزينها آيات قرآنية مشغولة بخيوط الفضة. طلبت مني أن أتلو الفاتحة ثم أدعو الله بما شئت. فعلت ما طلبته، فأكثرت من الدعاء لله أن يحفظها ويبقيها لنا. عندما انتهيت وجدتها مستمرة في أدعيتها كأنها تتحلل من هموم الدنيا. قعدت في ركن هادئ من غرفة الضريح مستمتعا برائحة البخور الذكية. تسلل إليّ إحساس عميق بالسكينة والهدوء

فكدت أن أغفو. لم يعد باستطاعتي إدراك ماهية صورة أمي وهي مقبلة نحوي. هل تشابكت ذكرياتي مع أحلامي؟ فجأة وبلا مقدمات أحسستُ بفرشة سريري تهبط كأن أحدهم جلس بجواري. شعرت بنهر جارف من الحنين يفيض بين جوانحي، وأحسست بأمي تضمني إلى صدرها وتحتضنني. سعادة غامرة تسربت إلى نفسي قبل أن أدرك ماذا يحدث فأنهض مفزوعًا. هل ما أشعر به حقيقة أم خيال؟ في أيامنا هذه الأحلام تبدو أكثر حرصًا على حقيقة الوجود. أسرعتُ إلى غرفة أمي فوجدت أم عواطف تبكيها. عندما سمعت صوت خطواتي التفتت إليّ وتمتمت:

- لا حول ولا قوة إلا بالله... شد حيلك والبركة فيك يا عبد الكريم.

لم أسمع إلا خطوات أبي وهو يهرول نحونا. الداء الملعون سيلقفنا الواحد بعد الآخر. الأسى يحاصرنا والهيضة لن تبقيَ لنا سوى أحزان الموت.

***

رمضان حزين تراكمت بين أيامه الحسرات التي ضربتنا الواحدة تلو الأخرى. أسير في الجنازة بجوار أبي الذي توسط المشيّعين، على يميني المعلم صالح الذي أمسك بذراعي ليواسيني. أبي يخطو

بصعوبة خلف الكفن، أنهكته المصائب التي أبكت قلبه الملتاع. يوم حار والجميع صائمون تلهبهم شمس حارقة. بعد رحلة شاقة من الصليبة إلى مقابر الخليفة وصلنا إلى المدفن العمومي الذي يشرف على الصحراء الممتدة خلف الجبانة. رائحة الجير الحي تنفذ إلينا من كل جانب. استقبلنا عابد مع اثنين من موظفي الصحة. وضعنا نفيسة في حفرة وسط جثامين ضحايا آخرين لذلك الوباء اللعين. الحفرة قريبة من تلك التي أنزلنا فيها أمها منذ أيام قليلة، نفس الطقوس، ونفس خفة الجثمان، ونفس رقة الروح. موظفو الصحة غطوا الجثامين بالجير ثم بدأوا يهيلون عليها التراب. رقدت نفيسة بالقرب من أمي بعدما لحقت بها. اجتاحها شبح الهيضة، لم تقاوم بل استسلمت لحزنها علَى فراق أمها، ولم تتشبث بالحياة على الرغم من نضارتها. كان قد مضى أسبوعان على وفاة أمي، وبدأنا نشعر بالاطمئنان على نفيسة وتبدد جانب كبير من القلق من إمكانية إصابتها أو إصابة أم عواطف بالهيضة. لكن كيف لنا أن نتعلق بتلك الآمال الهشة في هذا الزمن الفج. لقد مات مؤذن مسجد "تغري بردي" فلم نجد من يؤذن للصلاة. وهل سيتبعه حفار القبور فلا نجد من يحملنا إلى مثوانا.

بعد يومين كاملين عانت خلالهما نفيسة من الإسهال والغثيان، قررنا أن نتجنب أخطائنا السابقة، فاخترنا أن ننقل نفيسة إلى إحدى المصحات الحديثة التي تم تخصيصها لمواجهة هذا الوباء بعد أن

استشرى في الأسابيع القليلة الماضية وانتشر في أنحاء مصر كلها وفي جميع أحياء القاهرة. شاعت أخبار وباء الهيضة التي يتناقلها الناس فزاد قلقهم وفزعهم. الجرائد والمجلات نشرت أنباء عن جهود الخديو وعمله الدؤوب لاحتواء هذا الخطر الداهم. فتكت الهيضة بالأرواح فتكًا ذريعًا. الحكومة تتخذ كل التدابير الممكنة للسيطرة على الوباء، والخديو يقضي أيامه في زيارات مستمرة للمصحات والمستشفيات، يتفقد فرق الأطباء والممرضين الذين يبذلون كل جهدهم لمكافحة هذا الخطر. على الرغم من كل محاولات احتواء الوباء، تعاظم أمره وفاقت أعداد الضحايا كل من فقدناهم في الحرب مع الإنجليز. الصحف أشادت بشجاعة الخديو وعدم خوفه من الإصابة بالداء، وخاصة إقدامه على زيارة الأحياء الفقيرة المكتظة بالسكان. سمعنا أخبارًا عن استقدام البعثات الطبية من أوربا للعمل مع اللجان الطبية المصرية لمكافحة المرض واستئصاله.

تعاظم أملنا في نجاة نفيسة عندما شاهدنا مدى نظافة المصحة التي تلمع جدرانها وأرضياتها، وتفوح من أركانها رائحة المواد المطهرة التي يستعملها الممرضون بكثرة. طبيب شاب استقبلنا وحيّانا دون أن يصافحنا أو يقترب منا. نادى الطبيب على إحدى الممرضات وطلب منها أن ترافق نفيسة إلى عنبر المرضى الجدد. تحول نظر أبي بيني وبين الطبيب الشاب محاولا الاستفهام دون أن ينطق بكلمة واحدة. هل سنترك نفيسة تقضي ليلتها بالمصحة

وحدها؟ توجهت إلى الطبيب مستفسرا فأوضح لنا أنهم سيفعلون كل ما يمكنهم لعلاجها، وأننا يجب أن نذهب الآن ثم نعود في الصباح لنطمئن عليها. تردد أبي فأخذت بيده وقدته إلى خارج المصحة.

رفض أبي العودة إلى البيت، بل قرر قضاء ليلته أمام مبنى المستشفى. كل ما فعله هو الجلوس على الرصيف شاخصًا ببصره نحو مدخل المصحة. قبل أذان المغرب ابتعت لنا إفطارًا من أحد الباعة الجائلين توقف بعربته في نهاية الشارع. اشتريت منه حبات الطعمية، وطبق فول مطبوخًا بالثوم والطماطم، بالإضافة إلى حزمة بصل أخضر. ابتسم أبي عندما حملت إليه الإفطار مذكرا إياي بالتحوطات الصحية التي تطالبنا بعدم تناول الطعام الذي يعده الباعة الجائلون أو العاملون بالمطاعم. ضحكت وذكرته أن النصائح الطبية المتداولة تحثنا على تناول الثوم بكثرة لأنه يطهر المعدة ويقي من هذا الداء الشرير، ولهذا السبب اخترت الفول المطبوخ بكميات هائلة من الثوم. بعد الإفطار ذهبنا إلى مسجد قريب لنصلي العشاء. في الطريق قابلنا مجموعة من الأطفال يلهون بفوانيسهم الملونة. يسيرون في دوائر متداخلة دون أن ينطقوا بحرف. تعجبت من أمرهم، هل نسوا كلمات الأغاني التي اعتاد الأطفال ترديدها في ليالي رمضان؟

بعد الصلاة استراح أبي بجوار أحد أعمدة ساحة المسجد حتى بدأت صلاة التراويح. خلال القيام سمعت صوت نهنهة أبي، لقد فقد شريكة حياته، وها هي الهيضة الملعونة تهدد حياة ابنته. سلمت روحي

وكياني لصلاتي وقاومت شرود ذهني وانشغل قلبي بالدعاء.

"اللهم اهدنا فيمن هديت... وعافنا فيمن عافيت... وتولنا فيمن توليت... وبارك لنا فيمن أعطيت... وقنا واصرف عنا شر ما قضيت... سبحانك تقضي ولا يقضى عليك...

داونا اللهم بدوائك واشفنا بشفائك وأغننا بفضلك عمن سواك... يا كاسي العظام لحما بعد الموت... ارحمنا إذا أتانا اليقين وعرق منا الجبين... وبكى علينا الحبيب والغريب... اللهم ارحمنا إذا ووارينا التراب وغلقت علينا القبور الأبواب... فإذا الوحشة والوحدة... وهول الحساب..".

قضينا ليلتنا في ساحة المسجد، جلست في ركن منه وأسندت ظهري إلى عمود من الأعمدة. أغلقت عيني وأخذت أردد في سري كل ما أحفظه من آيات القرآن حتى غلبني النوم. أبي قام الليل بطوله يصلي ويكثر من الدعاء. بين النوم والصحيان كنت أسمع همهمات صوته حتى أيقظني قبل الفجر لكي أتناول سحوري. رغيف من الخبز يحتوي على الفول الذي تبقى من إفطارنا. صلينا الفجر ثم رجعنا إلى المصحة. جلس أبي على الرصيف شاخصًا ببصره نحو مدخل المبنى الأبيض الأنيق حتى فتحت المصحة أبوابها مع طلوع الشمس. انطلق أبي باحثًا عن الطبيب الذي استقبلنا مساء الأمس. لم يسمح "التمرجية" لنا بالدخول إلى عنابر المرضى. هاج أبي وبدأ

يلوّح بذراعيه مهددًا ومطالبًا برؤية ابنته فورًا. حاولت أن أهدئ من غضبه. تجمهر حولنا "التمرجية" وبصعوبة أقنعوه بأن ينتظر في "الاستراحة" حتى يوافيه كبير الأطباء بتقرير مفصل عن الحالة.

طال انتظارنا ولم أفهم سببًا لذلك. أبي كان يعرف ماذا ينتظره، فمَنذ أن دخلنا غرفة الاستراحة لم ينطق. حاولت طمأنته:

– أملي كبير في شفائها. هذه المصحة بها أفضل الأطباء.

لم يرد أبي، لقد قهر القدر روحه ودهسها دهسًا، بينما جسده الضعيف ما زال يقاوم ويفعل ما تمليه عليه الحياة. دخل علينا رجل وقور يرتدي معطف الأطباء الأبيض وتزين شعره خصلات من الشيب الفضي. تقدم نحونا فقمنا لاستقباله ومد أبي يده ليصافحه لكن الرجل تجاهله. أخبرنا أننا أحضرنا نفيسة إلى المصحة في مرحلة متقدمة من المرض، وأكد لنا أنهم بذلوا كل ما يمكنهم من جهد، ولكنها أسلمت الروح لبارئها عند الفجر. جلس أبي مكانه وبصوت خفيض طلب رؤية جثمان ابنته. ردّ الطبيب بحزم:

– بسبب خطورة الوباء لا بد من الالتزام بتفاصيل البروتوكل الخاص بتسليم الجثمان.

أحسست بالألم يعتصر أحشائي. لم يبق لنا شيء سوى أحزان الموت، والمشاعر التي مزقتها الهيضة. لم يبق لنا إلا أن ندفن موتانا ومعهم نواري أجزاء عزيزة من حياتنا. كل ما نصبو إليه

هو أن ندفن ذكراهم ومع تلك الذكريات نواري أحزاننا ثم ننشغل عنهم برتابة حياتنا اليومية. شواهد أعمارنا نشيِّدها بسغبنا الحثيث، نقيمها من دقائق أعمالنا التي نلتقتها حبة حبة لكي ننشئ بها صروح عمرنا. هذه الصروح الهشة ستذهب مع أصحابها ونحن رفاق الرحلة سنشهد ذهابها. سنكون نحن من يدفنهم وندفن معهم كل دقائق أمورهم، وبعد ذلك نلتهي عنهم بمشاغل أيامنا. هذه الأنانية الطاغية تجنبنا الألم الذي يتربص بنا خلف الملهاة التي نصنعها من صغائر أمور حيواتنا. أمي واريناها التراب وتلقفت الهيضة نفيسة فكيف لنا أن ندفن أحزاننا؟



الجندرمة

اغسطس، 1883

الأحزان تمضي متباطئة ثقيلة. الضجيج يزعجنا فتنزوي الروح ألمًا وتتجرع مرارة الصمت. جاء الأقارب والجيران لعزائنا، لكن الأسي استقر في القلوب وأبى أن يتزحزح عن مكانه. حضرت فضيلة مع أمها لتقدما واجب العزاء. حملت فضيلة طعامًا أعدته خصيصًا لنا. أشاح أبي بوجهه بعيدًا عن الصينية وسكت. جلست أم سعد وفضيلة مع أم عواطف بعد أن تبادلتا حديثًا وجيزًا معنا. أخبرتني فضيلة أن أحوال سعد جيدة وأن التحقيق في القضية ما زال مستمرا. أفصحت لي عن إلقاء القبض على عدد آخر من

رفاق سعد، ولكنهم جميعا متماسكون، وأن السلطات لا تملك دليلا حقيقيًا يدينهم. سألتها هل عذبوه أو ضربوه كي يعترف. سكتت ولمعت عيناها بالدموع ثم تركتني وعادت إلى أمها. بعد قليل قامتا وغادرتا البيت. جاء المعلم صالح وعابد ضمن من أتى، ارتبك عابد عندما عرف أن الحاج صبري هو أبي. كاد أن يهم بسؤالي عن يوم ذهابه إلى وكالة الدرب الأحمر، لكنه تراجع وآثر السكوت. نظراته خانته ولم يتمكن من إخفاء حيرته. أرسلت تلغرافا لعبد الرحيم أخبره بما حدث، رد ببرقية غريبة يشرح فيها أسبابه لعدم الحضور إلى مصر. جاورت أبي أيامًا متصلة بعد امتناعه عن الذهاب إلى الوكالة. تركت الحوش وعملي بالقرافة وصرت لا أبالي بما يحيط بنا. لا همّ لي سوى العناية بأبي.

مع رحيل أمي ومن بعدها نفيسة حرص محمد عباس على لقائي كل يوم جمعة وقت الصلاة. اعتدنا أن نلتقي بالقرب من الجامع الأزهر ثم نذهب معًا إلى مسجد من المساجد القريبة. بعد الانتهاء من الصلاة نعبر قنطرة الموسكي ونقضي فترة الظهيرة حول ميدان العتبة وتياترو الأوبرا. مثل هذه اللقاءات كانت تخفف عبء تلك الأيام الحزينة. في ذلك الوقت كنت أقضي معظم أيامي مع أبي في بيتنا بالصليبة ثم أتركه أحيانا وأعود إلى القرافة لأقضي بها أيامًا قليلة. أغضب ذلك المعلم صالح الذي أخذ يؤنبني من حين لآخر وأكثر من اتهامي بإهمال شغلي وعدم الوجود بالحوش عند حاجته

لي. في وقت كهذا لم أستطع ترك أبي وحده، فلقد شاخ بشكل عجيب في ظرف أسابيع قليلة. انحنى ظهره وبطؤت حركته وضاق صدره فصار يغضب لأتفه الأسباب. على الرغم من أحواله المتدهورة قرر فجأة العودة إلى عمله بالوكالة وبدأت أنا مواصلة عملي بالقرافة. مع مرور الأيام قلت أحاديثنا ولاذ كل منا بصمته، فتفرقت بنا السبل وصار أبي يقضي معظم أوقاته في الوكالة ولا يعود إلى البيت إلا في ساعة متأخرة من الليل. سمح لي ذلك بالعودة إلى حياتي في القرافة فلم يعد هناك جدوى من وجودي معه في نفس البيت.

اليوم ذهبت مع محمد عباس إلى مقهى "متاتيا" حيث جلسنا معًا بالقرب من مدخله الفسيح ندخن الشيشة ونحتسي القهوة المرة. على يميننا تظهر البوستة الجديدة وبجوارها مبنى صندوق الدين. ميدان العتبة الخضراء يعج بالمارة، المكان يزدحم بعربات الكارو التي تحمل البضائع في طريقها إلى دكاكين الموسكي ومحلات السوق الجديد. بين حين وآخر تخترق عربة سوارس الميدان. تجلجل أجراسها فتملأ المكان بهجة مصطنعة. حوائط المقهى مغطاة بمرايا عريضة، وتغلفها ألواح داكنة من خشب البلوط. في نفس هذا المكان طالما اجتمع السيد جمال الدين الأفغاني بأصحابه يحثهم على الثورة، ويناقش معهم مستقبل الحركة الوطنية وطموحاتها. وهنا شاهدت بنفسي عبد الله النديم يخطب في الحاضرين ويدعوهم لمناصرة عرابي وأصحابه من الوطنيين ويشجع المستمعين على

مقاومة الاستبداد. سألني عباس عن أحوال عبد الرحيم وأخبرني أن المهدي قد أرسل قائده "عثمان دقنة" إلى شرق السودان، حيث حصل على البيعة من مشايخ قبائل البجا والهدندوه التي تقطن تلك البقاع. ويقال إن طاهر المجذوب وهو من كبار مشايخ تلك البقاع قد انضم إليه. مما يثير القلق حقا أن القبائل هناك رفعت رايات المهدي واستعدت للجهاد. سألته مستفسرا:

- وما دخل عبد الرحيم بذلك؟

نظر إليّ متعجبًا وقال:

- هل نسيت دروس الجغرافيا؟ تلك القبائل تقطن المنطقة المحيطة بطوكر وسواكن. الأوضاع العسكرية هناك قد تتدهور بشكل سريع. ألم تسمع بما حدث خلال عيد الفطر منذ نحو أسبوعين؟

نتيجة لانشغالي في "القرافة" خلال أيام العيد لم تصلني أي أخبار، ولم أطلع على أي من الصحف. أكمل عباس روايته:

- بعد أن جمع القبائل تحت لوائه تقدم عثمان دقنة نحو سنكات مع الآلاف من محاربي البجا. محمد بك توفيق، محافظ سواكن، التي تبعد 40 ميلا من سنكات، عرف بنيّة أنصار المهدي فأسرع إلى سنكات ومعه مائة رجل فوصلها قبل

قوات عثمان دقنة التي ظهرت على مشارف المدينة في يوم العيد.

- وهل سقطت سنكات؟
- الحمد لله لم تسقط.

لطخ عباس سبابة يده اليمنى برماد الشيشة ورسم على سطح الطاولة خريطة تقريبية لشرق السودان. أشار إلى نقطة صغيرة إلى الداخل من خط يمثل شاطئ البحر الأحمر والذي رسم عليه بقعة كبيرة تمثل ميناء سواكن. تابع عباس شرحه للموقف هناك:

- سنكات بلدة صغيرة تحيط بها الجبال من كل جانب، ويقود إليها خور ضيق من ناحية الغرب. ولذلك فالاستيلاء عليها عن طريق هجوم مباشر يصبح غاية في الصعوبة.
- ماذا حدث إذن؟
- في البداية بعث عثمان برسالة من المهدي إلى توفيق بك يطلب منه البيعة وتسليم البلدة. توفيق بك لم تكن لديه عساكر كافية لحماية أسوار سنكات فحاول المماطلة على أساس أن عليه استشارة أولي الأمر. عثمان دقنة لم يقتنع وأمهله للظهر، وبعد صلاة العصر هاجم البلدة من ناحية الخور ودخلها رجاله من قبيلة البجا المسلحون بالرماح

وغيرها من الأسلحة البدائية، ولكنهم فوجئوا أن توفيق بك لم يضع كل عساكره على الأسوار بل وزع معظمهم على أسطح المنازل. عندما دخلوا إلى شوارع البلدة أخذ العساكر يرمونهم بالرصاص من داخل المنازل ومن فوق أسطح المباني حتى أجبروهم على الانسحاب. ويقال إن عثمان دقنة نفسه قد جرح في هذه المعركة وقتل أخوه أحمد، فانسحب بقواته إلى "أركويت". توفيق بك أصيب أيضا في هذه المواجهة فأرسلوه إلى سواكن للعلاج.

– على الرغم من عدم سقوط سنكات، فإن المهديين سيشكلون خطرا مستمرا على الحاميات المصرية في المنطقة إذا لم ترسل الحكومة المدد المناسب إلى هناك.

بدا الأمر بدهيا. عباس أجاب بتجهُّم:

– قطعا ستدعم الحكومة الحاميات المصرية هناك! خاصة أن شعبية المهدي تزداد يوما بعد يوم في جميع مديريات السودان.

– وماذا عن طوكر؟ أليست بعيدة عن سنكات؟

وضع عباس فنجان القهوة فوق البقعة الأكبر وقال:

– لو افترضنا أن هذا الفنجان هو ميناء سواكن، فسنجد سنكات

إلى الغرب منها على مسافة أربعين ميلًا. على نفس المسافة من سواكن تقع طوكر لكن في اتجاه الجنوب.

هبَّب عباس إصبعه برماد الشيشة مرة أخرى ورسم دائرة صغيرة تبين موقع طوكر. أردت فهم طبيعة الموقف الحربي بشكل أفضل فعلقت متسائلا:

- إذن سواكن وطوكر وسنكات تقع كلها في نفس المنطقة. فلماذا هاجم المهديون سنكات ولم يقتربوا من طوكر؟
- سنكات حاميتها أضعف بكثير من حامية طوكر. من المؤكد أن عثمان دقنة أراد أن يحقق نصرا سريعا يرفع به معنويات القبائل التي انضمت إليه أخيرًا.
- بعد كل ما حدث لك، ما زلت مهتمًا بالأمور العسكرية. أهم شيء بالنسبة لي أن تبقى طوكر آمنة، وبالتالي سيكون عبد الرحيم بخير.

نفث عباس سحابة كثيفة من دخان الشيشة ثم ناولني منشورا أخرجه من جيبه يحتوي على إعلان عن إنشاء قوة الجندرمة التي سيتم تأسيسها خلال الشهور القليلة القادمة. أخبرني عباس أن هذا المنشور يدعو المتطوعين للانضمام إلى هذه القوة. السعادة تشع من ملامح وجهه وتداعب نبرات صوته، فهذه فرصة نادرة ليلتحق

بمهنة أقرب ما تكون إلى الحياة العسكرية التي شغف بها طول عمره. شرح لي عباس أن الرديف من ضباط الجيش الذين تم تسريحهم يمكنهم الالتحاق بهذه القوة الجديدة. وأضاف أن الغرض من الجندرمة هو إعادة الأمن والأمان، والعمل على استتباب السلام في أرجاء البلاد، وذلك بعد تزايد أحداث الاعتداء على القرى والنجوع والتي يقوم بها قطاع الطرق والخارجون عن القانون. هذا الإجراء صار ضروريا لأن الشرطة بوضعها الحالي لا تستطيع وحدها القيام بكل هذه المهام، خاصة أنها تضطلع بمحاولة استعادة الأمن في المدن الكبرى وعواصم المديريات، بعد التدهور المستمر الذي أصاب الأحوال الأمنية منذ أحداث يوليو من العام الماضي. ناولني عباس "ليّ" الشيشة وسألني بصوت تملؤه الثقة:

– ما رأيك يا عبد الكريم؟

حيّرني سؤاله ولم أعرف كيف أجيبه، فهذه فرصة لن تتكرر لكي نرجع لمزاولة مهنتنا الأصلية التي أنفقنا سنوات عديدة في تعلمها، وبذلنا جهودا متصلة لإتقانها. غصة لا أفهم أسبابها تعتصر صدري. أرد:

– لقد سمعت أن بيكر باشا سيكون قائد هذه القوة، هل هذا الخبر صحيح؟

أطرق عباس وصمت هنيهة ثم قال:

– نعم بيكر باشا سيكون قائد الجندرمة.

– لا بد أنك تعرف تاريخه، فهو ضابط إنجليزي عمل فترة في خدمة السلطان العثماني قبل أن يرشح لقيادة الجندرمة.

– كان من المفروض أن يصبح سردار الجيش المصري ولكن الخديو غيّر رأيه وعين في ذلك المنصب "إيفليين وود" باشا بدلا منه. يقال إن ملكة بريطانيا تدخلت في آخر لحظة لدى الخديو حتى لا يعيّن بيكر باشا قائدا للجيش المصري.

سحبت نفَسًا من الدخان وأطلقته برفق مبديًا اعتراضي على ترشيح بيكر باشا لهذا المنصب:

– الغريب أن يتم اختيار بيكر باشا بالذات لقيادة الجندرمة، علما بأن استبعاده من الجيش البريطاني جاء عقب فضيحة أخلاقية، وهذه الفضيحة أدت به إلى ترك الخدمة بالجيش البريطاني والعمل لحساب الجيش العثماني.

تذكرت بسالة رجال فصيلتي وشجاعتهم في المعارك. أحسست بالمرارة، فها هو القدر يتلاعب بنا ويغرينا بالانضمام إلى قوة الرديف هذه تحت قيادة ضابط بريطاني مشكوك في أمره. مما لا شك فيه أن الالتحاق بهذه القوة سيحقق لنا بعض المكاسب الشخصية، فعملي كضابط في الجندرمة سيكون أفضل من اشتغالي

كصبي من صبيان صالح بيومي. بالمقابل أشعر بالإهانة من مجرد التفكير في العمل تحت إمرة ضابط بريطاني. لن أفرط في دماء من قُضيَ من رجالي بالعمل تحت قيادة من قتلهم. كيف يمكنني أن أفعل ذلك؟ نداء أحد الباعة الجائلين انتشلني من نهر أفكاري المضطربة. استكملت عرض أسباب رفضي لفكرة التطوع في هذه القوة. عبّرت عن الأمر بحرارة كأنني أحاول إقناع نفسي بهذا الرأي:

– كيف لنا أن ننضم لقوة يقودها ضابط إنجليزي؟ لا يمكنني استيعاب مثل هذا الأمر أو حتى تخيله.

رد عباس:

– بلدنا في أمس الحاجة إلى استتباب الأمن. بدون الأمان والاستقرار لن نستطيع أن نبني هذا الوطن.

لم أفهم كيف تواءم عباس مع النظام الحالي وبهذه السرعة. رفض دائما أن يفصح عما فعلوه به خلال فترة حبسه. تبدلت حاله، وأصبح أكثر تحفظًا فيما يقوله أو يفعله. لكنه اليوم يعرض عليّ اختيارًا مريرًا. كدت أن أخرج عن شعوري فأنّبته:

– أين ذهبت كل أحلامنا؟ القضاء على الاستبداد. إقامة نظام دستوري سليم. حكم المصريين لأنفسهم. استبدلت كل هذا بالأمان والاستقرار! هل هذا كل ما نطمح إليه؟ ودماء شهدائنا أين ذهبت؟ نحن فعلا في مأزق، ليس أمامنا إلا أن نخدم

الخديو والإنجليز أو أن نصمت. خياران لا رجاء منهما وكلاهما مر.

هزهز عباس رأسه وقال:

– معنى كلامك أن علينا ترك مهنة العسكرية إلى الأبد، وأن نقنع بالاشتغال بأعمال أخرى حتى لو كانت دون المستوى.

– لم أقل ذلك.

أكمل حديثه دون أن يعير أي اهتمام لما أقوله:

– يمكننا النظر إلى هذا الأمر بطريقة مختلفة، فنحن سنخدم هذا البلد وفي نفس الوقت سنستفيد. نحن جديرون بذلك بعد كل التضحيات التي قدمناها فما الضرر من الانضمام إلى الجندرمة؟

– وماذا عن الإهانات التي لحقت بنا بعد رفتنا من الخدمة العسكرية، وتجريدنا من رتبنا العسكرية. كيف يمكننا أن نتهاون وننسى ببساطة الطريقة التي عاملونا بها. نقدم حياتنا في سبيل وطننا ثم يعصفون بنا وبمستقبلنا بطريقة مهينة. هذا شيء غير مقبول.

حاول عباس أن يهدئ من حدَّتي:

– أنت لا تعرف ما عانيته في حبسي. أنا لم أشتك قط بعد الإفراج عني، ولكننا الآن نناقش واقعًا جديدًا. على الأقل

تخيل أن قبولنا في صفوف الجندرمة ما هو إلا رد لاعتبارنا وتصحيح لما لحق بنا من ظلم.

تمسّكت بشكوكي:

– لا أدري... ينبئني حدسي بتجنب هذا الأمر. اللعنة ستحل بكل من يتنكر لذكرى هؤلاء الذين سقطوا دفاعا عن هذا البلد. لا أستطيع التفريط في حق من استشهد من رجالي.

رشف عباس قهوته ونظر نحو مبنى البوستة وطال الصمت حتى شقه أحد الباعة الجائلين بصياحه. التفت إليّ مضيفًا:

– يا عبد الكريم، أنت تعرفني جيدًا. لقد نشأنا معًا وجمعت بيننا تجارب قاسية. ولا تنس أننا اشتركنا معًا في معارك كثيرة قاتل فيها كل منا بجانب الآخر، فلا تحاول أن تزايد على ما أراه صحيحًا وما أقتنع به.

أجبته محاولا التلطف معه:

– لا تسئ فهمي. أنا لم أشك قط في إخلاصك وتفانيك.

– على كل حال أنا لن أضغط عليك، لكني أطلب منك أن تشاور نفسك، وأن تعير هذا الأمر بعض الاهتمام. هذه فرصة لن تتكرر لكي تستقيم أمورنا ونعود للمكانة التي نستحقها. وطالما سنخدم بلدنا فما الضرر إذا كان قائدنا تركيًا أو إنجليزيًا.

رفعت كتفيّ وقلت:

– للأسف لا أستطيع الانضمام للجندرمة في هذا الوقت بالذات. بالطبع أنت حر في اختيار مستقبلك المهني بالطريقة التي تناسبك. أنا شخصيًا سأستمر في عملي مع المعلم صالح حتى يفرجها ربنا.

قام عباس ومد يده مصافحا ثم تركني وذهب. كنت واثقًا من أنه قد اتخذ قراره قبل لقائنا. لقد اختار الانضمام إلى قوة الجندرمة الجاري تجميعها على عجل. هذا أمر واضح وضوح الشمس في عز الظهر. لكنني لا أتصور كيف سيخلص اليوزباشي محمد عباس في عمله تحت إمرة قائد بريطاني. ماذا حدث للنخوة التي عهدتها فيه وهو الضابط الذي طالما ضرب به المثل كتجسيد حقيقي لأفضل خصال العسكرية المصرية. قرار عباس جعلني أشك ألف مرة في صحة رأيي وفي رجاحة موقفي. قد أكون مغرقًا في مثاليتي مما أدى إلى انفصالي عن الواقع الذي نعيشه. كأنني لم أستوعب حتى الآن حقيقة أحوال البلد بعدما استتب الأمر للخديو توفيق ومن يسانده من الإنجليز. لكن مهما حدث لنا أتخلى عن شهداء فصيلتي هؤلاء المساكين لن يتذكرهم أحد لو تنكرت لهم!

***



الإمام الشافعي

سبتمبر، 1883

الهيضة بدأت تنحسر، فأحس الناس بالارتياح.

صُعقت عندما أفصح لي الحاج صبري عن رغبته في الزواج من فضيلة. لقد قرر أن يقدم على الزواج بعد مرور شهرين فقط على رحيل أمي وأختي نفيسة. لقد ضاق الرجل بوحدته. أتفهم ذلك! ولا بد أنه يشعر بالحاجة لمن تعتني بشئونه. لكن أين ذهب الحزن الذي أظهره عند رحيل أمي؟ ولماذا اختار فضيلة بالذات؟ أتعجّب من حال الحاج صبري التي تبدلت فبدا منشرحًا على غير العادة، وقد انتصب

عوده وأصبحت حركته رشيقة وخطواته أكثر ثباتا. تلجلجت في الكلام ولم أعرف ماذا أقول فقمت إليه واحتضنته. "مبارك إن شاء اللـه يا حاج، لن تجد أحسن من فضيلة"، هكذا نصحته ثم ذهبت لحال سبيلي. دفعت الباب الخشبي الثقيل وخرجت إلى الشارع العمومي. تنفّست راحة أزاحت الأحاسيس الصاخبة التي تتخبط في ثنايا نفسي. لعنت الأيام التي تمحو الآمال وتبدل الأحلام.

من ناحية مسجد "تغري بردي" أقبل عليّ شيخ قصير له وجه مألوف. قلبت أرجاء ذاكرتي أحاول استدعاء خياله بلا جدوى. لحيته الشقراء تثير أحاسيس غامضة دفنها الزمن. الوجه باش لكن مشاعري يتملكها حنق ممزوج بخوف من المجهول. ابتسم وألقى عليّ التحية بينما تسارعت في مخيلتي، بلا جدوى، صور كل من عرفتهم خلال الشهور القليلة الماضية.

– يبدو عليك أنك لا تتذكر من أنا.

وكأنه ضبطني متلبسًا بفعل فاضح، لم أعرف كيف أداري خجلي. الوجه مألوف، محفور في ذاكرتي لكننى لا أستطيع ربطه بشخص محدد. بعد تردد واضح قلت:

– وجهك مألوف يا مولانا، لكني للأسف لا أذكر أين التقينا.

– كنت واثقًا من أنك لن تتذكرني. فنحن لم نلتق إلا لبرهة وجيزة

تبادلنا خلالها حديثًا عابرًا. لقد تقابلنا منذ عدة أشهر في تكية السليمانية بعد صلاة العشاء. هل نسيت تلك الليلة؟

بالطبع لم أنس تلك الليلة. عاصفة من المشاعر طغت على وجداني. لقد وجدني وجاء ليحل لغز وجودي. لا شك أنه ربط بيني وبين جثة طواجن الملقاة في عطفة الليمون. لكن كيف عثر عليّ؟ ولماذا الآن؟ وفي هذا اليوم بالذات عندما صارحني أبي برغبته في الاقتران بفضيلة. أكمل الشيخ بصوت صافٍ:

– لا يبدو أنك تصالحت مع نفسك بعد. كان لا بد أن تعود إلى سيدنا "إبراهيم القادري". مجرد وجودك بالقرب منه سيريحك. ما زلت مضطربا على الرغم من مرور أشهر على لقائنا الأول في جمادى الآخرة. لا بد لك أن تتسامح مع نفسك وتسلم أمرك للـه. لن يجديك العناد حتى لو عاندت إلى جمادى القادم.

ابتسم بوقار بعد أن أنهى كلامه. ابتسامته لم تقلل من قلقي، فمن الواضح أنه يشك في وجود صلة بيني وبين مقتل طواجن، لذلك يذكر تفاصيل الليلة الأولى للقائنا. برغم اضطرابي رحبت به. أشار إلى مدخل بيتنا وقال:

– هل تسكن هذا البيت؟ لقد بحثت عنك كثيرا وأردت لقاءك بعد الليلة الأولى التي رأيتك فيها.

بالقطع بحث عني طوال الشهور الماضية ليبتزني، في النهاية أوقع بي هذا الدرويش اللئيم. مما لا شك فيه أنه سيسلمني للشرطة، لن أفلت هذه المرة، ربما أستطيع مساومته. قطع سلسلة أفكاري:

– أراك مضطربًا. لقد أحسست بك وبهمك الثقيل منذ الوهلة الأولى. لماذا لا تأتي معي لتزور سيدنا "القادري". ويمكنك أن تفضفض عن همومك في طريقنا إلى هناك.

حاولتُ أن أتركه وأذهب لحالي فقلت:

– لقد كنت أنوي الذهاب إلى الإمام الشافعي.

– حسنًا سأصطحبك إلى هناك. يمكننا أن نتحدث في الطريق وبالمرة سأزور مقام الإمام.

قطعًا يريد أن يوقع بي. سيستغل اللحظة المناسبة ليعلن معرفته بفعلتي ثم يهددني بإبلاغ الشرطة. لكن من الغريب أن يقرر الذهاب معي إلى مقابر الإمام، ألا يخشى أن أستفرد به ثم أتخلص منه كما فعلت بطواجن. تركنا خلفنا السبيل الجديد المغطى بزخارف رخامية شاهقة البياض، وصعدنا الطريق المؤدي إلى مقابر الخليفة. سار الدرويش بجواري وهو يثرثر:

– خطوتك عسكرية، أنت لا تتمهل في مشيتك، لكنك تسرع كأنك تتعجل مواجهة عدوك.

عجبت لفراسة هذا الرجل. لا بد أنه تعقبني منذ رآني يوم مقتل طواجن. وبلا شك استمر في مراقبتي لمدة طويلة حتى سنحت له الفرصة ليواجهني. ضاق الشارع كأن البيوت قد أطبقت علينا. أكمل الشيخ حديثه:

– انهزم عرابي باشا وفشل العسكر لأنهم أضلوا الناس عن الصراط المستقيم. لقد ظنوا أن القوانين الوضعية تغني عن دستورنا الأزلي الذي أوحى به ربنا لرسوله وحبيبه.

– ماذا تقصد؟

– للهزيمة أوجه كما أن للقمر أوجهًا. سلم أمرك للـه ولا تعاند. لا نجاة لمن يتبع أهواءه ويحيد عن الدين القويم.

عن أي هزيمة يتحدث هذا المخبول؟ وما الذي يريده بالضبط؟ جاريْته في الحديث:

– من منا لم يفشل في يوم من الأيام؟ لا بد للحياة أن تمكر بنا عاجلا أم آجلا.

– كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون.

رددت:

– صدق رسول اللـه، أكرم الخلق وتاج كل الأنبياء.

تابع نصائحه:

- إن فقدت غالية فلا تترك نفسك للأحزان تنهشها.

لماذا يدور هذا الشيخ في حلقات ولا يفصح عن حقيقة أمره؟ هذا الرجل لا يكف عن النصائح الواهية. توقفت وسألته بلا مواربة:

- ماذا تريد مني؟

أكمل حديثه بهدوء بعد أن تجاهل سؤالي:

- ليس عيبًا أن تتعثر وتخسر، بل هذا شيء طبيعي ومتوقع حدوثه عاجلا أو آجلا.

- ومن قال إني تعثرت؟

- العيب أن نعاند ونبرر أخطاءنا وندافع عنها. والأدهى من ذلك أن نيأس فلا نعاود المحاولة. وتذكر أن للخسارة أوجهًا كما أن للقمر أوجه.

بعد أن عبرنا شارع ابن طولون اقتربت منا قباب المدافن المتناثرة على مشارف الصحراء. ظهر أمامنا مشهد السيدة رقية وأمامه قبتي السيدة عاتكة ومحمد الجعفري. سكن الدرويش وبدأ يمشي هونا وهو يتمتم في سره. طلب مني التريث ثم وقف أمام العقود الثلاثة لمقام السيدة رقية وبدأ بتلاوة آيات من القرآن. استأذن وأراد أن يدخل المقام. نفد صبري فأمسكت بذراعه وصحت به:

- فلندخل في الموضوع الذي جئت من أجله. أنا أعرف

غرضك. فلماذا لا تفصح عنه؟

– أرجوك أن تخفض من صوتك في هذه الحضرة الشـــريفة. ســـحبني وأســـرع بالابتعاد عن المزار الشريف. ثم توقف وسألني بهدوء:

– ماذا تقصد بالدخول في الموضوع؟ أي موضوع؟

– ماذا تقصد! ماذا تقصد! بالتأكيد أنك بحثت عني بسبب جثمان القتيل الذي عثر عليه في الخرابة المجاورة للتكية.

قطيع من الماعز مر أمامنا على الطريق فأثار سحابة من الغبار. يتبعها صبي يحدو الماعز نحو بقعة من العشب الجاف.

– أي جثمان تقصد؟ وما دخلك بهذا الشأن؟

لقد ذل لساني وسلمني لهذا النذل. الكلام يخرج من فمي عليه رائحة القلب الذي منه خرج. حبات من العرق غطت جبيني. لن أستطيع التراجع عما قلته له. أي شيطان دفعني للحديث عن طواجن!

– قطعًا لا علاقة لي بهذا الأمر.

– أعرف أنك لم تعترف بشيء للبكباشي. ولكن هذا لا يعفيك من المسئولية.

لم أصدق ما سمعته للتو. هذا الرجل يعرف البكباشي. بالتأكيد

يعمل لحساب الشرطة. اعتقدت أن قضية طواجن قد انتهت ولم أعد محلا للشك. لكن ها هم يحومون حولي من جديد. لا بد أن أحترس لكل كلمة أتفوه بها. نظر لي نظرة ذات مغزى وسألني:

– ألم يبقك البكباشي في الحجز لمدة يومين وحقق معك خلالهما بخصوص هذه القضية؟

أنكرت بلا تردد ما يقوله:

– لا أعرف عن أي بكباشي تتحدث، ولا أفهم ماذا تقصد بالضبط.

تلا علي:

– ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ۝ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ۝ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾.

الآن يتهمني بالكذب. تملكني الغضب حتى كدت أن أتركه وأفترق عنه. لا بد أن أحتفظ برشدي حتى لو تمكن الجنون من كل المحيطين بي. لو لم ألتق بالمعلم أيمن لما ارتكبت هذه الجريمة. أفعاله الدنيئة قادتني إلى هذه الورطة التي تأبى أن تتلاشى من حياتي. لقد انصبت عليّ المصائب منذ أن قتلت ذلك النذل. حققت نصري الصغير، وتخلصت من ذلك الوغد. لكنني في نفس الوقت فقدت أمي وبعدها نفيسة. سعد ورفاقه تم القبض عليهم. أبي قرر

الزواج من فضيلة وحرمني منها. وهذا الدرويش اللعين سيبلغ الشرطة عني لا محالة. كأنه بعث من بين الرماد ليحصد أيامي. وحتى غالية لا أجرؤ على العودة إليها أو البحث عنها. أردت أن أتماشى مع هذا الدرويش لكنه ورَّطني في حديث لا رجاء منه، وقد يقودني ذلك إلى التهلكة. ليتني ما ذهبت لمشاهدة عودة الخديو من الإسكندرية، لو لم أفعل لما قادتني قدماي إلى خمارة طواجن، ولما انتهى بي الأمر إلى اغتيال ذلك الخسيس. أعجب من ندمي على ما سمّيته يوما نصرًا عظيمًا.

أمسك جرابه وأخرج منه غلالة من الصوف الخشن. طلب مني أن أغمِّي عيني. لم أفهم ماذا يريد مني بالضبط. حاول طمأنتي:

– لا تخف ستفهم ما أريد منك، فقط سلم أمرك للـه.

أعرضت عنه وابتعدت بضع خطوات. استطرد:

– يا بني أحوالك مريبة وتحتاج لمن يدلك إلى الطريق القويم. اضطرابك كهذه الغلالة يمنع عنك ضياء ربك، ويؤدي بك إلى الضلال إذا لم يأخذ أحدهم بيدك.

– لماذا لا تجرب ألاعيبك هذه مع شخص آخر؟

– لماذا تجفل هكذا؟ لن أفشي أبدًا بسرك "وبالسر إن باحوا تباح دماؤهم".

لم يرق لي أسلوبه في الكلام. أنا واثق من سلامة قراراتي ولو شك الناس جميعا في أفعالي. أكمل حديثه:

- من اللذة والألم تتشكل ذاتك، ومنها تصيغ أفكارك وبها ينطق لسانك الذي يؤدي بك إلى الأفعال التي ستصنع أقدارك.

- ألا تكف عن هذه الترهات!

- مما لا شك فيه أنك نادم على فعلتك التي أدت إلى القبض على صديقك. أرى ذلك في بريق عينيك. الشرطة عرفت بأمره وكشفت خطط التنظيم الذي ينتمي إليه.

- أي صديق تقصد؟

- لا تلم نفسك فلا دخل لك بمعرفة الشرطة بأمره وبحبسه هو ورفاقه. لقد كنت ندًّا لفعلتك، لكنك الآن لا تستسيغ صورتها في ذهنك. جنونك يشعرك بالأسى فلقد اختلطت في عقلك خيالات اللذة والألم، وأوهمتك بأنك صرت قاتلا ومجرمًا.

اضطربت لسماع كلماته، ولم آمن له. أردت سؤاله عن مصدر معلوماته. لكنني تراجعت لشكي في كونه لا يعرف سعد المويلحي ولا يقصده أصلا بهذا الكلام. إن هذا الدرويش يصرح لي بمخاوفي ويكشف أسراري، فكيف ينفذ بهذه السهولة من خلال الحجب ويغوص في أعماق نفسي؟ تفحص شواهد القبور المتناثرة حول

طريقنا فتلا بصوت رصين:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾.

ظهر على يسارنا مشهد السيدة نفيسة. أحسست بحالة من الصفاء والانشراح. رفعت وجهي إلى السماء وشعرت بكفي ترتجف. حاولت أن أتماسك. وقف الرجل وأشار إلى صدره وقال:

- أهم شيء هو حضور القلب لاستقبال الرحمة النازلة من الله العلي العظيم. لا بد أن تجد من تفضفض له حتى يمكنك الوصول إلى حالة كاملة من الصفاء الروحي.
- لماذا تريد أن أكشف لك ما يعتمل في نفسي؟
- تعلم علم اليقين أنك في ورطة عظيمة، ومع ذلك تكابر. قد ترى بوضوح جوانب الأزمة التي تعيشها ولكنك لا تتسامح مع نفسك. مع ذلك تعاند وتعلن ثقتك الكاملة في سلامة اختياراتك.

صمت لحظة ثم نظر إليّ واستطرد:

- الشكوك تنبع من أعماقك. لماذا ترفض اقتراح صديقك؟ قد تقودك تلك الخطوة إلى مستقر لتطلعاتك وآمالك الهائمة.
- هل أرسلك اليوزباشي محمد عباس لتقول لي ذلك؟ لا قبل لي بالعمل تحت إمرة ضابط بريطاني مشكوكا في أمره.

بدا مندهشًا لما أقوله.

- لا علاقة لي بمحمد عباس أو غيره. لقد بحثت عنك أنت بالذات لكي آخذ بيدك وأساعدك.

لذت بالصمت لفترة طويلة لأني لم أعرف ماذا أقول له. غمامة من الحيرة أربكتني. لا أجد حلا لهذا اللغز سوى الإقتناع بكرامات هذا الدرويش. على الجانب الآخر أثق ثقة تامة في استحالة معرفته بكل هذه المعلومات بمجرد النظر إليّ. ربما كان مخبرًا من مخبري الضبطية، لكن ذلك غير مقبول، لأنه لا يفسر وجوده في التكية ليلة مقتل طواجن. لو كان مخبرًا لحاول من خلال حوارنا الوصول إلى حقيقة الجثة الملقاة في الخرابة، لكنه لم يفعل. أكمل الشيخ حديثه:

- لقد فقدت أخيرًا أقرب الناس إليك، فاصبر ولا تقنط.

مرة أخرى يكشف ما أحس به وأحاول كبته، رددت:

- الحمد لله على كل شيء.

صمت الشيخ ولم يرد. أثارت حيرتي قدرته على كشف

ما تضطرب به نفسي. عبرنا من خلال إحدي فتحات مجرى العيون فرأينا عن بعد قبة الإمام الشافعي التي حلقت حولها أسراب من العصافير والحمائم. يحط بعضها فوق القارب الفضي المثبت أعلى القبة، والذي يمتلئ كل صباح بالحبوب لتأكل منه الطير. أضاف الشيخ:

- لا تنسَ الوصية يا أخي! هناك شخص قريب منك يحتاج لمساعدتك، فهل ستغيثه؟

- من تقصد؟ عبد الرحيم!

- من سُم أوهامك ستصنع ترياقك بعد ذلك ستتحرر من سطوة خيالاتك. ستكتشف فضيلتك وستتصدى للإنسان الصالح الذي يريد القديم ويحارب من أجل أن يصونه. ستزيحه جانبًا بعد أن تصعد ألف درجة من الانتصارات الفادحة.

لم أفهم ما يقول. نظرت نحوه وأجبته مستعجبًا مما يتحدث به:

- كالعادة تقذفني بمقولات لا معنى لها.

عندما وصلنا إلى مقام الإمام الشافعي تركت الدرويش وذهبت لأتوضأ. بينما توجه هو نحو الضريح. أنعشني الماء البارد وأحسست كأنني أستعيد رشدي. أربكني هذا الدرويش في البداية ولكنني ارتويت من أحاديثه مع وصولنا هنا إلى مقصدنا. أحسست

أن الشيخ نقّى أفكاري من الشوائب التي أدت بي في الآونة الأخيرة إلى التخبط والضياع. شجعني إحساسي هذا بالعودة إلى الشيخ لكي أناقشه في أموري بعد الانتهاء من الصلاة. عندما رجعت إلى المسجد لم أجده. كما ظهر بلا سابق إنذار تركني فجأة بلا استئذان. لم أره يغادر المكان. أسرعت بالخروج من المقام محاولا العثور عليه. انطلقت في الطريق الذي أتينا منه فلم أجد له أثرًا، عدت أدراجي وعدوت في الاتجاه المعاكس بلا جدوى. لقد اختفى وكأنه "فص ملح وذاب". نظرت إلى الطيور التي تحوم حول قبة الإمام الشافعي، فرأيتها ترفرف بأجنحتها مبتعدة في اتجاه سفح المقطم نحو وادي "المستضعفين".

***

المؤيد شيخ

أكتوبر، 1883

بدل المعلم صالح قفل الحوش ليمنعني من الدخول. كنت قد عدتُ إلى القرافة بعد أن أمضيت يومي في الأزبكية مع محمد عباس الذي خرج في إجازة من قشلاق الجندرمة. أغضبني تصرف المعلم صالح فأسرعت إلى عابد لكنه استقبلني بفتور. أخبرني أن المعلم صالح قد مل غيابي بسبب وبدون سبب، وأنه لم يعد يثق بي أو بحكاياتي. أضاف أنني لم أعد أصلح للعمل بسبب إهمالي المستمر لمسئولياتي. لقد طلب مني أخيرًا أن أستعد لزيارات عيد الأضحى، ولكنني لم أهتم بتنفيذ تعلماته. صرح عابد أيضا عن أسفه لأنني

خدعته برواياتي التي لا تمت للحقيقة بصلة. ذكرني بيوم ذهابه إلى الحاج صبري لشراء الزنجبيل والقرفة. أنبني عابد لأنني أخفيت عنه صلتي بذلك الشيخ، وتعجب من أنني لم أخبره بحقيقة الأمر. تساءل عن أسباب استغفالي له بهذا الشكل، وعن عدم الصدق معه على الرغم من أنه وثق بي واعتقد أنني صديقه الصدوق. تملكت مني الحيرة ولم أعد أدري هل أعترف له بأنني ضابط من ضباط جيش عرابي. ترددت ولم أعترف له بأن أكاذيبي كانت ضرورية لإخفاء حقيقتي عن مخبري الحكومة. فضلت الوحدة على استجداء المغفرة. لا جدوى الآن من محاولة إقناعه بأي شيء. لقد فقد ثقته بي ولم يعد يتقبل مني تفسيرًا لألغازي. أحضر عابد "بُوْجةً" جمع فيها ثيابي التي تركتها في الاستراحة، وودعني طالبًا مني ألا أحاول الرجوع إلى القرافة أو الاتصال به.

اكتملت وحدتي، وها أنا ذا ألوذ بعالمي الخاص. أمي ونفيسة أخذهما شبح داء حقود لا يرحم. أبي أبعدني دون أن يعي مقدار الألم الذي سببه لي. غالية تبددت من حياتي والرب وحده يعلم مصيرها. سعد المويلحي يعاني في محبسه بسبب انتصاري المزعوم. وعبد الرحيم ذهب إلى آخر الدنيا وبالكاد أسمع منه أو أعرف شيئًا من أخباره. والآن ها هو المعلم صالح ينفذ وعيده ويتخلص مني. حتى عابد جمع أشياءي ودفع بي خارج دائرته الحميمة. لم يبق لي من معين إلا محمد عباس. بعد أيام قليلة سيحل بي عيد لا بهجة له

ولا رجاء منه. حملت أشيائي إلى ميدان العتبة الخضراء حيث استأجرت غرفة في لوكاندة "مصر". في ذلك اليوم قلبت صفحة جديدة من صفحات حياتي. لا أحد بات يستحق اهتمامي. وأصبحت أواجه خيالات اللذة والألم وحيدًا.

صباح اليوم التالي غادرت غرفتي باللوكاندة وهبطت الدرج وأنا لا ألوي على شيء. سنة كاملة مرت منذ أن دعتني غالية إلى بيتها في عيد الأضحى الفائت. في ذلك النهار البعيد تشاجرت مع المعلم أيمن، ولم أدر ماذا ستحمله لي الأيام من خطوب ومفاجآت. تركت ميدان العتبة وانحرفت في شارع عبد العزيز متجها نحو ميدان عابدين. قبل أن أصل إلى السراي ظهر قصر علي باشا شريف على يساري. انعطفت نحو شارع باب الخرق. عبرت القنطرة فوجدت نفسي أمام قصر منصور باشا، مبنى أنيق ذو طوابق ثلاثة ارتصت نوافذه لتملأ واجهته بفتحات مستطيلة. بعد أن ترددت لحظات، اخترت الاتجاه نحو بوابة المتولي مخترقا شارع تحت الربع تحت سور القاهرة العتيدة. عندما وصلت أمام الصالح طلائع دخلت مقهى صغيرًا وجلست وحدي أتأمل بوابة القاهرة الشهيرة التي تعلوها مئذنتا مسجد المؤيد شيخ. أمتعتني شمس خريفية بدفء افتقدته وخلت منه حياتي.

صاحب المقهى الجالس على دكة عالية عند المدخل أشار لصبيه حتى يتلقى طلبي، ثم وجّه لي كلامه:

– هل تعرف أن لباب زويلة كرامات؟

نظرت نحوه متعجبًا. استطرد:

– أي والله! انظر إلى تلك المرأة التي تدس ورقة في شق من شقوق جداره. أهل المنطقة يؤمنون أن البوابة يقطنها القطب المتولي الذي ينصت إلى دعواتهم ويلبي طلباتهم. عالم غلابة!

رجل وقور يرتدي جلبابًا من الصوف وعلى رأسه عمامة ملفوفة على طريقة أهل الصعيد. له شارب مهذب وشفتان غليظتان. عيناه تلمعان بذكاء وقّاد. قلت مستفسرًا:

– وهل أنت من أهل المنطقة؟

– لا أنا من "الفشن". لكني حضرت إلى القاهرة منذ سنين طويلة حيث عملت صبيًا بهذا المقهى، وعندما مات صاحبه اشتريته من بناته.

خطر على بالي الجاويش حسن، فسألته:

– وهل تعرف حسن العسقلاني؟

تهلل وجهه وقال:

– ولاد العسقلاني نسايبنا. ولكنك تقصد أي حسن منهم؟

– الجاويش حسن الذي خدم في سلاح البيادة.

– طبعا أعرفه! اللـه يرحمه ويغفر له، من أخلص ولاد العسقلاني. رجل جدع بجد، حارب مع عرابي في التل الكبير.

الأقدار تسوقنا إلى ما لا نتوقعه وتبعدنا عما قد نتوق إليه. ما فرصة أن أقابل أحد معارف الجاويش حسن في يوم كهذا؟ قلت بحماس:

– لقد حاربت معه في التل الكبير وفي القصاصين. حسن كان جاويش فصيلتي. اللـه يرحمه، لقد كان من أشجع عساكر الآلاي. كيف حال عياله؟

– بخير، الحمد للـه، عمّهم تولى أمرهم بعد رحيل أبيهم.

أحضر الصبي كوب القرفة الذي طلبته. قام المعلم من دكته وجلس بجواري:

– أنا قلبي انفتح لك أول ما عيني شافتك. ألم أخبرك بأن لهذه البوابة كرامات؟ في زمن أغبر مثل هذه الأيام احتل الأتراك العثمانيون مصر المحروسة وشنقوا "طومان باي" على هذه البوابة.

– أكيد أنت خبير بتاريخ هذه المنطقة.

– أنا عشت هنا أكثر من عشرين سنة. تعرف أنه بعد ما انهزم

"طومان باي" آخر سلاطين المماليك لم يخضع للعثمانيين ولم ينكسر. لقد كان رجلا شجاعًا ولم يستسلم بسهولة، بل ظل يقاومهم لعدة أشهر. مرة يظهر لهم في بولاق ومرة في وردان ومرة في إمبابة. في النهاية وبعد ما دوّخ العثمانيين السبع دوخات، سلمه أحد العربان لهم فقرر سلطانهم "سليم الأول" أن يشنقه على باب زويلة.

– وشنقوه هنا في هذا المكان؟

– نعم! أتوا به وسط حراسة خمسمائة جندي، وعندما رأى الحبل المتدلي من قبو البوابة، التفتَ للجماهير التي تجمعت لتشاهد هذا الحدث الجلل. تطلع فيهم لفترة طويلة، وأخيرًا طلب منهم أن يقرأوا عليه الفاتحة ثلاث مرات، ثم أمر الجلاد بالقيام بمهمته. في كل مرة يقرأ الجمهور الفاتحة يضع الجلاد الحبل حول رقبة "طومان باي" ويشده فينقطع الحبل، حتى كانت المرة الثالثة فنفذ قضاء ربه وفارق آخر سلاطين المماليك الحياة. أمر السلطان "سليم" بترك جثة "طومان باي" معلقة على هذه البوابة لمدة ثلاثة أيام ليكون عبرة لكل من تسوّل له مقاومة الحكام الجدد.

أضفت بهدوء:

– لا ينهزم المرء إلا إذا تهاون في حق نفسه وكف عن المقاومة.

سليم الأول أراد أن يخضع مصر، وأن يكسر عزيمة شعبها. والآن يحاول الإنجليز تكرار نفس الشيء معنا.

مال المعلم نحوي وقال بصوت خفيض:

– لن نستسلم للإنجليز أبدًا. قد لا نستطيع محاربتهم في بولاق وإمبابة ووردان كما فعل "طومان باي" لكن هناك طرقًا أخرى للمقاومة. هل تم تسريحك من الجيش بعد الهزيمة؟

– نعم.

– وماذا تفعل الآن؟ هذه أيام قاسية لن تجد فيها فرصة للعمل بعد تسريح كل هؤلاء الضباط.

– أنا اشتغلت "تربي" حتى تخلى معلمي عن خدماتي.

– لماذا لا تحاول الانضمام للشرطة؟ لقد سمعت أنهم يطلبون ضباطًا للخدمة في الأقاليم. يمكنك أيضا الالتحاق بأورطة الجندرمة الجاري تجميعها حاليًا لضبط الأمن في البلاد.

رشفت من كوب القرفة وعلقت:

– لقد انقطعت صلتي بالخدمة العسكرية.

– تعرف يا أفندي لماذا يثير "طومان باي" إعجابنا جميعا؟ لأنه لم يتخاذل واستمر في المقاومة حتى النهاية. الرجل لم يخش مجابهة العثمانيين المرة تلو الأخرى، ولم يتوان عن

تحمل مسئولياته كحاكم أمين لهذه البلاد. لم يكن هناك شيء يمنعه من التعاون مع الغزاة مع ذلك أصر على المقاومة.

بعد آخر رشفة من القرفة، قمت وقلت له قبل أن أودّعه:

– عندك حق يا معلم. الرجل لم يتهاون في حق بلده.

رد وابتسامة واسعة تغطي وجهه:

– أنت أيضا لا بد أن تواجه أشباحك. لكن لا بد أولا أن تغسل همومك في يوم كهذا؟ لن تجد أفضل من الحمام المؤيدي.

أومأ برأسه نحو مدخل الحمام وقال:

– على فكرة أطلب منهم الخدمة المخصوصة. لن تندم.

أجبته:

– لن أندم الاغتسال والتطهر بعد الحرب ضروري.

– تذكر أيضا أن الاغتسال والتطهر قبل الحرب ضروري.

يا لقسوة الحياة وهزلها في آنٍ واحد! صليت الظهر في مسجد المؤيد شيخ ثم ذهبت إلى الحمام المجاور له. دخلت بهوًا له قبة مرصعة بالزجاج الملون. الضوء الناعم يقتحم المكان من خلال فتحات القبة مضيفًا جوًا من الراحة والسلام. جلس صاحب الحمام على دكة ووراءه حائط تزينه زخارف إسلامية. نادى المعلم على

"الحمامي" الذي أقبل عليّ وطلب مني سداد الرسوم. اخترت الخدمة المخصوصة ودفعت فيها أعلى ثمن. صاحب الحمام أعطاني ثلاث مناشف وقادني "الحمامي" إلى المشلح، حيث تركني لأخلع ملابسي. بعد أن تأزرت بإحدى المناشف عاد إليّ فجمع ثيابي ووضعها فوق رف حدده لي. وضع في قدمي قبقابًا وقادني من خلال باب ضيق يؤدي إلى دهليز ينتهي في غرفة صغيرة، حيث طلب مني الجلوس ليعتاد جسمي على الحرارة قبل الاستحمام. ابتسم وقال:

- يحتاج بدنك الى الانسجام مع حرارة الحمام، لذلك لا يمكنك الدخول فورًا إلى المغطس. فالاستحمام كتغير الفصول، الشتاء للتبريد والخريف للتدريج والصيف للتحليل والربيع للتعديل.

الهدوء يخيم على الغرفة التي تتم تدفئتها بموقد يتصاعد منه البخار. صوت انسياب المياه وتساقط قطراته يصل إليّ مختلطًا برائحة الأبخرة المعطرة بأريج الأعشاب الطبيعية والزيوت النباتية. عرض عليّ "الحمامي" إحضار مشروب منعش أو أصناف من الفاكهة الطازجة قبل أن أبدأ بالاستحمام. فضلت أن أبدأ فورًا، فنادى "الحمامي" على أحد الصبيان ليتولى خدمتي. فتى في العشرين من عمره حليق الرأس ممشوق القوام، عضلاته مفتولة، ويأتزِر بمنشفة زرقاء.

قادني الصبي إلى مقصورة في القسم "الوسطاني". مقصورة

صغيرة تتكثف فيها الأبخرة الساخنة. طلب مني الصبي أن أضطجع على بساط صوفي فرشه فوق مصطبة من الرخام الأبيض. أحسست بمسام جلدي تتفتح. اقترب مني الصبي وبدأ أولا في طرقعة مفاصل ذراعي وساقي، ثم أخذ يدلك جسمي بزيوت عطرية. تركني الصبي وخرج من المقصورة التي امتلأت بالبخار. العرق الساخن لف جسدي فنهضت إلى حوض رخامي ربعه فوق الأرض. أنبوبان من ماء حار وبارد يصبان في حوض صغير فإذا اختلطت فيه المياه جرت منه الى الحوض الرخامي. غطست جسمي في الحوض لأستريح من شقاء أيامي وأغسل أوجاعي. تذكرت غالية يوم أقعت أمامي في غرفتها تغسل ثنايا جسمها البديع، وتدعك أطرافها وجذعها بحركات متأنية. استعدت صورتها وهي تدلك حلمتي نهديها الورديتين فأحسست بلذة تسري في أوصالي.

عاد الصبي إلى المقصورة فخرجت من الحوض وجسمي يقطر ماء دافئًا. جفف أطرافي بمنشفة واستعمل منشفة أخرى كإزار. استسلمت له تماما وأمتعتني حالة الاسترخاء التي شعرت بها، قادني بعد ذلك إلى غرفة الحرارة التي تعلوها قبة عالية تخترقها أشعة تمرق من خلال فتحات مستديرة يغطيها الزجاج الملون. يتوسط المكان حوض كبير من الرخام به ماء شديد السخونة وتحيط به أماكن معدة للتدليك. وجدت عددًا من الزبائن مضطجعين على الأرائك المرصوصة بالقرب من الجدار المحيط بالغرفة. أحدهم كان جالسًا

في المغطس ثم خرج ليستلقي على إحدى مصاطب التدليك. خلعت الإزار ونزلت في الحوض فبدأ جسمي يتعرق من جديد. أغمضت عيني فرأيت الجاويش حسن يبتسم وهو يتمتم:

– كله تمام يا فندم!

مسام جلدي تتفتح وتخرج منها إفرازات آلامي وأحزاني. أتنفس الأبخرة المعطرة وتدور رأسي في دنيا الرؤى والخيالات. خطر ببالي طيف عواطف فأحسست بلذة عابرة. صخب اثنين من الزبائن انتشلني من أعماق عالمي الخاص. طرقت طاسة الحمام على حافة الحوض فحضر الفتى الذي عاونني على الاستلقاء على المصطبة المجاورة للحوض ثم بدأ بتكييس جسمي، أزال أوساخ جلدي بواسطة كيس الحمام المصنوع من الصوف السميك الناعم الملمس. يدعك جسمي بقوة، وفي نفس الوقت يبرم أوساخ الجلد والخلايا الميتة بخفة على هيئة فتائل سوداء. أخذ يدحرجها ويجمعها من ذراعيّ وكتفيّ وظهري ليضعها على بطني حتى أراها بنفسي فيثبت بذلك مهارته. بعد التكييس قام بتقليبي على بطني ثم على الجنبين وهو يشد ذراعيّ وساقيّ ويلوي رأسي حتى سمعت طقطقة مفاصل أطرافي وفقرات رقبتي. أحسست أن كل جزء من بدني المرهق يعود إلى نصابه الطبيعي. أثنيت عليه.

أخيرا دعك الصبي جسمي بالألياف الطبيعية والصابون ثم عاد

وشطفه بالماء. أعقب ذلك بغسل شعر رأسي بطين "النعمانية" ثم نظف قدميّ بالحجر حتى تورد الكعبان. عندما انتهى نزلت المغطس مرة أخرى وبقيت فيه لعدة دقائق.

– نعيمًا يا فندي... حمام الهناء.

قالها أحد الزبائن عندما خرجت من الحوض. نشفت جسمي ورددت:

– الله ينعم عليك ويهنئك.

غادرت غرفة الحرارة وعدت إلى المقصورة حيث جلست وحدي أسترجع ما حدث لي في الأشهر القليلة الماضية. الصبي أحضر لي مشروب الزنجبيل الدافئ ووجبة من البلح والجوافة ثم تركني في خلوتي بعد أن أعطيته بقشيشًا سخيًا.

ظهر حسن أمامي على المصطبة وهو ينظر إليّ بشفقة. همست:

– ماذا تريد مني؟

– شُفْت قرايبي ناس حلوة إزاي.

– تقصد نسيبك.

– قريبي، نسيبي، واحد.

قام وجلس بجواري على حافة الحوض. سألني:

– ما العمل؟ لماذا تصر على البقاء مهمشًا تعيش على حافة الوجود رافضًا أن تتحمل مسئولياتك؟

– ماذا تريدني أن أفعل؟

– من الضروري أن تنخرط في الحياة من جديد، وأن تحدد هدفًا تسعى إلى تحقيقه. أول شيء لا بد أن تجد عملا تأكل منه عيشًا.

– أحتاج لفترة من الراحة.

– ما معك من فلوس لا يكفي مصاريفك. على الرغم من ذلك تأتي إلى هذا الحمام لتغسل همومك، وتختار أغلى خدمة مع أنك لا تملك إلا القليل من المال.

– قريبك أغراني بذلك.

– ماذا ستفعل بحياتك؟

– قل لي يا حسن، أي هدف يمكن أن أصبو إليه؟ لم يبق شيء بيدي في هذه الدنيا.

– هذا ما تظنه يا فندم! ماذا حدث لحربنا ضد الاستبداد ودماء الشهداء؟ هل نسيت كلامك عن الحرية وإقامة دولة العدل؟

– لقد انتهينا من هذه المقاصد التي لا قبل لنا بها ولا نقدر عليها. لم يعد أحد يهتم بمثل هذه الأهداف الوهمية.

قام حسن من مكانه واقترب مني وهو يشوّح بذراعه:

– يمكنك الاهتمام بأمور أخرى. عبد الرحيم مثلًا.

– أنا فين وعبد الرحيم فين؟ كيف سأذهب إليه في آخر الدنيا؟

دخل صبي "الحمامي" إلى المقصورة متسائلا:

– هل ناديتني؟ أتحتاجني في شيء؟

– لا أبدًا. أنا جاهز للذهاب.

قضمت حبَّة جوافة ثم قمت معه بعد أن التقطت بلحتين من الصحن. قادني الصبي إلى المشلح حيث ارتديت ملابسي وتركت المناشف فوق رف من الرفوف وغادرت الحمام.

***

أورطة القاهرة

نوفمبر، 1883

وصلتنا الأوامر بالاستعداد للتحرك إلى السودان. سعدت بما أخبرنا به قائد الأورطة أحمد بك كمال. اجتمع بنا وأطلعنا على خطورة الموقف في السودان وشرح لنا ضرورة ذهاب أورطة القاهرة إلى شرق السودان ضمن حملة حربية سيتم إعدادها لكسر حصار طوكر وسنكات. ساد الوجوم وعلت علامات القلق وجوه زملائي من الضباط. أحدهم أخذ يردد أن الجندرمة مسئولة فقط عن أمن المديريات في مصر. أضاف آخر أن الحرب في السودان مسئولية الجيش في المقام الأول، بينما تساءل ملازم صغير السن

إن كانت وحدات من الجيش المصري ستنضم إلى الحملة. لم أهتم بهذا اللغط، فلقد أدركت أن القدر يقودني إلى مصيري المحتوم. لقد أوصتني أمي بأخي عبد الرحيم، وها هي الأوامر تصدر لي بالذهاب إلى طوكر لفك حصارها. كنت قد قاومت فكرة الانضمام إلى الجندرمة لفترة طويلة. حاول معي محمد عباس عدة مرات وفي كل مرة كنت أرفض. ولكن في الأسابيع الأخيرة لم يبق معي ما يكفي من نقود. بحثت عن عمل بلا جدوى حتى إنني طلبت من المعلم صالح الرجوع لعملي بالقرافة فلم يقبل. كل محاولاتي باءت بالفشل. اشتغلت شيالًا في سوق العتبة لكن اليومية كانت ضئيلة وبالكاد تكفي قوت يومي، ناهيك عن التنافس المستمر والمشاجرات بيني وبين الشيالين الآخرين لتحميل وتفريغ عربات البضائع التي تصل السوق. حاولت أن أجد عملا ككاتب بإحدى الوكالات ولكن لم يحالفني التوفيق. كأن القدر دأب على محاصرتي والحياة دفعتني في طريق محدد. مما زاد من ضيق حالي، أنني ابتعدت عن أبي وقللت من زياراتي له بعد أن تزوج من فضيلة وانتقلت هي لتعيش معه في بيت الصليبية.

اليوم الفارق كان يوم علمي بإطلاق سراح سعد المويلحي. ذهبت إلى بيته فأدخلوني إلى المنضرة حيث استقبلني بحفاوة:

– أهلا يا أبو نسب!

احتضنته، ولاحظت أنه قد هزل وفقد الكثير من وزنه.

– حمدًا للـه على سلامتك. الحبس للجدعان.

سعد أخبرني أن التحقيقات استمرت لعدة أشهر، وأخيرًا حكمت المحكمة بنفي مصطفى بك صدقي خارج القطر المصري، وأفرجت عن غيره من المتهمين لعدم ثبوت التهمة عليهم. لحسن الحظ تمسك جميع المتهمين ببراءتهم ولم ينبس أي منهم بكلمة عن التنظيم. أعقب سعد بالتعبير عن أسفه لوفاة أمي وأختي نفيسة، وأنه كان يود الوقوف بجواري في أثناء تلك المحنة. أجبته:

– هذه سُنة الحياة يا سعد، أنت ابن أصول.

فجأة تجهّم سعد ثم قال:

– أخبرني إسكندر أنك اقترحت عملية التخلص من صاحب خمارة طواجن. هل لك صلة بهذا الموضوع؟

أجبته بلا تردد:

– كانت مجرد فكرة ولكننا لم نتفق على شيء بالنسبة لهذا الأمر، ولم نناقشه بعد ذلك اليوم. ولقد عرفت بعدها بأسابيع أن المعلم طواجن قد قتل. روايات كثيرة انتشرت حول هذه الحادثة من الأزبكية إلى الصليبية.

– يبدو أن مقتله كان الخيط الذي أدى إلى كشف تنظيم المؤامرة

المصرية. وخلال التحقيق معنا عرفنا أنهم قبضوا على عدد من المشتبه فيهم، ثم أفرجوا عنهم قبل أن يتوصلوا إلى التنظيم. مصطفى طاهر يشك في أن أحد أعضاء التنظيم وقد أوشى بنا.

– المستور مصيره ينكشف.

– محمد بك طاهر لديه صلات وثيقة ببعض موظفي الدولة، وسيحاول معرفة أسماء من تم ضبطهم والتحقيق معهم في تلك القضية. لو نجح في الحصول على تلك المعلومة سنعرف من فعلها وسننتقم من ذلك النذل الذي فضح أمرنا.

حاولت أن أغيّر موضوع الحديث فسألته:

– المهم أنت ناوي على إيه؟

– أبدًا سأعود لمحلي الصغير بباب سعادة. الحاج صبري الله يعمر بيته كان خير عون لأمي وأختي. أبوك وقف معنا وأدار المحل على أفضل وجه خلال فترة الحبس. الآن أصبحنا نسايب. الله يبارك فيه ويعطيه العافية.

حاولت بقدر الإمكان التماسك حتى لا يبدر مني ما يفضح مشاعري. لقد توصل البكباشي حلمي إلى المؤامرة المصرية بدون أن أنبس بحرف عن التنظيم. لكن من سيقنع أعضاء التنظيم بذلك؟

وماذا سيفعلون لو عرفوا أنني الشخص المشتبه به، وأحد الذين تم القبض عليهم في قضية مقتل طواجن؟

– أما زلت تعمل في القرافة؟

– لا، لقد تركت هذه الشغلانة المقرفة. وسأحاول الانضمام إلى الجندرمة مع محمد عباس.

***

القدر لن يقودني إلى السودان بلا سبب. من الواضح أن أمري قد حسم ولن تتاح لي اختيارات أخرى. سينتهي بي الأمر إلى هناك لا محالة. لقد حكمت أمي عليّ بأن أعتني بعبد الرحيم. هل سألحق به في طوكر؟ يبدو أن كل الشواهد تشير إلى خطورة الموقف هناك، وأن التطورات المتسارعة تدفعني دفعا لكي أذهب إلى السودان.

في الأسابيع القليلة قبل الإفراج عن سعد، تدهورت الأوضاع في شرق السودان بطريقة غير متوقعة. بدأت الأخبار تتواتر عن تحركات أنصار المهدي في المنطقة المحيطة بسواكن، بالإضافة إلى ذلك وصلتنا الأنباء عن حصار سنكات. ولأن سواكن تقع على خط التلغراف المباشر بين مصر والسودان، فإن تفاصيل تطورات الموقف في شرق السودان كانت تصلنا كاملة وبلا تأخير. بعد عيد الأضحى أرسل عثمان دقنة، أمير المهدي على شرق

السودان، قائده علي طلاب بن محمد لحصار سنكات. في نفس اليوم أرسل محمد بك توفيق، محافظ سواكن، سرية من العساكر بقيادة البكباشي محمود أفندي خليل لدعم حامية سنكات. التقى الجمعان عند خور "إبنت"، حيث كمن محاربو قبائل البجا والهدندوه بين أحراش الأراضي المرتفعة على جانبي الخور، وفي اللحظة المناسبة انقضوا على طابور عساكر الحامية وذبحوهم عن بكرة أبيهم مع قائدهم خليل أفندي، وغنموا أعدادا كبيرة من البنادق والذخائر. هذا النصر شجع المزيد من رجال القبائل بالانضمام إلى عثمان دقنة فحاصر سنكات حصارا محكمًا. في المقابل قام توفيق بك الذي عاد إلى سنكات بتحصينها فرمم طابيتها وحفر خندقًا عميقًا حول البلدة، وعزز حاميتها بمزيد من العساكر المصريين و"الباشبوزق" الأتراك. أصلح كذلك ما تهدم من أسوارها ووزع أربعة مدافع حديثة على الأبراج التي بناها عند أركان السور الذي أحاطه بزريبة عريضة من الشوك.

بعد لقائي مع سعد لم يكن ثمة بد من الالتحاق بالجندرمة. نفدت نقودي ولم أجد عملا أكسب منه ما يكفي احتياجاتي الأساسية. ذهبت إلى قشلاق قصر النيل، وسألت عن اليوزباشي محمد عباس، وعندما حضر لمقابلتي أخبرته بقراري. أخذني فورًا إلى مكتب شئون الأفراد، ولحسن الحظ كان باب القبول ما زال مفتوحًا. بسبب توصية عباس لم تأخذ إجراءات التحاقي بأورطة القاهرة

وقتًا طويلا، بعدها أقرضني مبلغًا لسداد أجرة اللوكاندة. في اليوم التالي أحضرت أشيائي إلى القشلاق واستلمت عملي الجديد. بدأت بتلقّي تدريب أساسي كان مقررًا له أن يستمر لمدة شهر واحد قبل خروجي في أولى المهام الموكلة لي. لم أكمل فترة التدريب عندما بدأت تصلنا شائعات عن مصير حملة "هكس" باشا في كردفان غرب السودان. في البداية انقطعت كل أخبار الحملة ولم نسمع أي أنباء عن "هكس" باشا وجيشه. في أحد الأيام وصلتنا الأخبار السعيدة بأن الجيش المصري قد دخل الأبيّض، وأن المهديين قد هزموا شر هزيمة. انتشر الخبر بين أرجاء المعسكر وساد الفرح بالنصر بين الضباط والعساكر. اعتقدنا جميعا أن "هكس" باشا قد تخلص من المهدي وأن الاستقرار سيعود حتما إلى مديريات السودان. بعد يومين جاءنا نبأ يشكك في النصر المزعوم وبعده مباشرة وصلتنا أخبار هزيمتنا في "شيكان". المفاجأة أصابتنا بالغم الشديد على الرغم من جهلنا بتفاصيل الكارثة وفداحة ما حدث لهكس وجيشه.

زاد من توترنا نبأ هزيمة أخرى وقعت تقريبًا في نفس الوقت. عثمان دقنة كان قد أرسل شيخ الحسنات الخضر بن علي ومعه رسالة من الشيخ طاهر المجذوب يدعو قبائل طوكر للانضمام للمهديين، وإعلان التمرد ضد الحكام الأتراك ومهاجمة الحاميات المصرية. في ذلك الوقت كانت طوكر بها حامية تتكون من أربعة بلوكات

من العساكر وكانت البلدة يحيط به خندق حصين. عندما وصل الخضر حول طوكر خاطب قائد الحامية يدعوه إلى التسليم ومبايعة المهدي، فرفض وأرسل في طلب المدد من سواكن. قومندان شرق السودان محمود باشا طاهر جهز قوة من 550 عسكريًا، وأبحر بها إلى خليج ترنكتات. وبلغت استهانة طاهر باشا بأنصار المهدي من قبائل البجا حدًا بعيدًا، فدعى القومندار "مونكريف" القنصل البريطاني في جدّة لكي يرافقه في الحملة، كأنهما ذاهبان في رحلة صيد. بعد إنزال القوات عند شاطئ ترنكتات تقدم طاهر باشا نحو طوكر. في الطريق هاجمهم أنصار المهدي عند آبار التب حيث توجد قرية صغيرة تتناثر مبانيها الطينية حول المصدر الرئيسي للمياه بالمنطقة. أظهر محاربو البجا تحت قيادة عبد الله بن حامد شجاعة فائقة وبأسًا شديدًا وأحسنوا استغلال عنصر المفاجأة. حيث اختبأوا داخل المباني المحيطة بالآبار منتظرين وصول المصريين، وفي اللحظة المناسبة خرجوا إليهم واختلطوا بهم وأعملوا فيهم الذبح بالسيوف والحراب. أسرع محمود باشا طاهر بالانسحاب بعد أن خسر الكثير من جنوده. كذلك ذبح عدد كبير من ضباط الحملة ومعهم القومندار "مونكريف". بعد عودة طاهر باشا إلى سواكن تمت محاكمته وصدر الحكم بعزله من منصبه.

اليوزباشي عبد الله الدكروري أتى إلينا في "ميس" الضباط وأخبرنا بتفاصيل تلك الواقعة. محمد عباس تجهّم وقال:

- يا لها من مصيبة! الآن سيحاصرون طوكر وباقي الحاميات المصرية الموجودة في شرق السودان. لن تستطيع حامياتنا الحفاظ على المدن التي توجد في تلك المنطقة من دون دعم قوي. ترى ما سيكون مصير عبد الرحيم؟

صمتُّ ولم أرد. عبد الله قال بحدة:

- لا بد من إرسال المدد لهم وفي أقرب فرصة.

أضفت:

- بعد خسارة جيش "هكس" باشا لا توجد قوات كافية في السودان لنجدتهم.

محمد عباس أطرق هنيه ثم عقب:

- وللأسف الجيش المصري هنا قد تم تخفيضه، فأصبح عدد جنوده لا يتعدى الستة آلاف، و"إيفلين بارنج" المندوب البريطاني في القاهرة يضغط بقوة من أجل انسحاب الحاميات المصرية من السودان.

الأحداث بدت متسارعة، ولكنني أيقنت أن هناك غاية لكل ما يحدث. علقت:

- شريف باشا رئيس الحكومة لن يتخلى عن السودان.

قاطعنا محمد عباس:

– لكن السـردار "وود" باشـا لا يهمه ما يحـدث للحاميات المصرية في السـودان. ومن المؤكد أن الإنجليز يفضلون خروجنا من هناك ليحلوا محلنا.

ملازم شاب جالس بالقرب منا علق بثقة زائدة:

– هذه سياستهم في كل أرجاء العالم. هكذا كوّنوا إمبراطوريتهم التي لا تغيب عنها الشمس.

أكدت رأيي:

– لن نتخلى عن السودان بهذه السهولة. فمصر والسودان بلد واحد.

الملازم الشاب أضاف:

– ولكن هل لدى السودانيين نفس الشعور؟

رفع عبد اللـه كفه لكي يجذب انتباهنا ثم أعلن عن وجود اقتراح مقدم من الحكومة بإرسال قوة من الجندرمة لدعم الحاميات الموجودة في شرق السودان. لوهلة لم أصدق ما سمعته. هل يمكن أن تلهو بنا الأقدار بهذه الطريقة الفجة؟ لم أكمل شهري الأول مع الجندرمة وها نحن ذاهبون لفك حصار عبد الرحيم. عدد من الضباط انخرطوا في حوار غير مفهوم. معظمهم يشكك في هذا النبأ لأن استخدام الجندرمة في الأعمال

الحربية لم يكن واردًا أصلا. محمد عباس سحبني بعيدا عن صخب النقاش الدائر. خرجنا من "الميس" وفي الممر خارجه سألني:

– أثناء إجازتي الأخيرة زارني سعد المويلحي في البيت، وسألني عنك.

– أنا سعدتُ بتبرئته والإفراج عنه. لقد التقيت به بعد خروجه، وكان له فضل كبير في إقناعي بالانضمام للجندرمة.

– طبعا هو نسيبك الآن وله خاطر كبير عندك. الغريب أنه كان مهتمًا بنظام الجندرمة. سألني أكثر من مرة عن أيام إجازاتك وقال إنه يريد أن يرسل لك هدية.

أحسست برعشة في أصابع يدي. ضحكت بصوت مرتفع محاولا مواراة ارتباكي، ثم أجبته:

– أكيد وحشته ويجوز أنه يريد الانضمام للجندرمة هو الآخر.

– وهكذا يذهب معنا إلى السودان ليلتقي بصديق عمره.

ضحكت بعصبية:

– سيفلق الاثنان أدمغتنا بمناقشاتهما البيزنطية التي لا تنتهي.

***

أخذت تصريحًا بساعتين بعد صلاة الجمعة لتوديع أهلي. تركت قشلاق قصر النيل واتجهت إلى عابدين مارا بميدان "الهيبودورم"، عبرت قنطرة باب الخرق الخشبية إلى ميدان منصور. صعدت في اتجاه القلعة تحت بواكي شارع محمد علي. دفعت باب بيتنا فوجدت أم عواطف أمامي، عندما رأتني أطلقت زغرودة مجلجلة وأسرعت لتنادي أبي. الرجل هرول نحوي مرتديًا جلبابًا حريريًا عليه عباءة من الصوف السميك. احتضنني ثم تراجع خطوتين ليتأمل البزة الميري زرقاء اللون. قادني إلى المنضرة وهو يلومني لأنني لم أزره منذ أن تطوعت في الجندرمة. في نفس الوقت أخذ يثني على قراري مؤكدا أن هذه الخطوة ستفيد مستقبلي المهني. صعدنا إلى المنضرة وجلسنا على أريكة جديدة حلت مكان الكنبة الإسطنبولي التي طالما قعدت فوقها بجوار أمي. معظم أثاث الغرفة حديث اشتراه أبي من أجل عيون فضيلة. أخبرته بقرار إرسال أورطة القاهرة إلى شرق السودان ضمن حملة هدفها فك الحصار عن طوكر وسنكات، وقلت له إنني أتيت اليوم في زيارة سريعة لتوديعه. أم عواطف وقفت عند الباب تستمع إلينا وقد اغرورقت عيناها بالدموع. قالت بصوت مبحوح:

– إذن ستلتقي بسيدي عبد الرحيم!

أبي لم يتمالك نفسه فأمسك بذراعي وسألني:

– هل الوضع في شرق السودان بهذا السوء؟ سمعنا أن الأحوال لا تسر في كردفان وغرب السودان، لكن لم تصلنا أخيرًا أي أنباء من طوكر.

– يبدو أن الأوضاع هناك قد تدهورت بشكل كبير في الأسابيع القليلة الماضية.

تجهم أبي ولم يرد. دخلت علينا فضيلة حاملة صينية من الفضة فوقها فناجين القهوة. قمت لتحيتها فابتسمت وقالت:

– وحشتنا يا سي كريم.

ناولتني فنجان القهوة وجلست على مقعد بجوار أبي الذي أخبرها بما كنا نتحدث فيه، ثم أضاف:

– عبد الكريم ذاهب إلى السودان ضمن حملة سترسلها الحكومة إلى طوكر لفك الحصار عن حاميتها.

سألتني فضيلة:

– هل الموقف في طوكر خطير إلى هذا الحد؟ هل عبد الرحيم بخير؟

قلت لها:

– سنذهب إلى هناك لنجدتهم. لقد حضرت اليوم لتوديعكم.

استطرد أبي:

– أرجو أن تتمكنوا من تحقيق أهدافكم. ربنا أرسلك إلى هناك لتنقذ أخاك. سأنتظركما حتى تعودا قريبًا سالمين.

سألت فضيلة عن أخيها سعد، فأخبرتني أنه استعلم عني عدة مرات لأنه أراد مقابلتي لأمر مهم للغاية. استفسرت عن أسباب إهتمامه بلقائي. أنكرت علمها بدوافع أخيها. شربت قهوتي ثم قمت واحتضنت أبي، وودعت فضيلة التي طلبت مني المداومة على إرسال الخطابات حتى لا تنقطع أخباري ولكي يطمئنوا عليّ. وعدتهما بأن أفعل ذلك ثم تركتهما وذهبت. أم عواطف صاحبتني إلى باب البيت، هناك مسحت دموعها بطرف طرحتها وأكثرت من الدعاء، ثم رجتني أن أحافظ على نفسي، وأن أعود سالمًا مع أخي عبد الرحيم.

***

النفيشة

ديسمبر، 1883

أخيرا بعد عدة تأجيلات صدرت لنا الأومر بالتحرك إلى سواكن. وصلت التعليمات لأورطة القاهرة بالتجمع عند محطة السكة الحديد ليستقل جنودها القطار المتجه نحو النفيشة. محمد عباس جمع سريتنا المتمركزة في قشلاق قصر النيل. عساكر الجندرمة ببزّاتهم الزرقاء وطرابيشهم الحمراء اصطفوا بشكل مثالي. ظهروا كقوة عسكرية قادرة على خوض غمار المعارك التي تنتظر هؤلاء الجنود وترصد أيامهم. كرر عساكرنا نفس التشكيلات التي قاموا باستعراضها في ميدان عابدين أمام الخديو منذ أيام قليلة. في ذلك اليوم احتل الخديو

توفيق شرفة القصر وبجانبه "وود" باشا سردار الجيش المصري، وبيكر باشا قائد الجندرمة، وشريف باشا رئيس الحكومة. الغريب أن الضباط الجراكسة الذين انضموا إلى الجندرمة كانوا قد تمردوا قبل استعراض القوات في عابدين، ورفضوا الأوامر الصادرة بالذهاب إلى السودان. بعد مناقشات طويلة انصاع عدد منهم للأوامر وذهبوا معنا إلى عابدين. عرض تشكيلات قوة الجندرمة حاز على إعجاب الخديو الذي أبلغنا برضاه التام عن حسن تدريب القوة وانضباطها.

قشلاق قصر النيل بنوافذه المستطيلة وعقود ممراته الأرضية شكل خلفية مثالية للصورة التي نحاول - كضباط وعساكر - أن نكونها ونطمئن إليها. صفوف العساكر قامت بتحية العلم المصري المرفوع على الصاري الذي يتوسط ساحة القشلاق. بعد ذلك بدأت طوابير الفصائل والسرايا بالخروج إلى ميدان قصر النيل في طريقها إلى محطة السكة الحديد. عربات المدفعية سارت أمامنا تجرها الخيول. يوم خريفي لطيف ترافقه شمس ناعمة تشيّع موكبنا. احتشد الأهالي على جانبي الطريق لتوديعنا وهم يلوّحون بالرايات الحمراء التي تتوسطها الأهلّة البيضاء. عبرنا الميدان ومضينا في شارع قصر النيل حتى وصلنا إلى "القراقول" الواقع عند التقاطع مع شارع جامع جركس. هناك انحرفنا في الطريق المتجه إلى سكة بولاق. بعد قليل ظهرت أمامنا الحقول الممتدة حتى ترعة الإسماعيلية. عندما وصلنا إلى شارع بولاق انحرفنا يمينًا،

وأكملنا مسيرتنا حتى انتهينا عند جنينة الأزبكية وميدان قنطرة الدكة. الحقول الخضراء تراجعت أمام المباني الحديثة الفاخرة. وقف الأهالي أمام المقاهي المنتشرة على طول الشارع لتحيتنا. بعد مسيرة متأنية عبرنا أمام فندق شبرد ولوكاندة لونا بارك، حيث جذبت طوابيرنا انتباه الزوار الأجانب الذين أطلوا علينا من الشرفات. مررنا بالقرب من سراي نوبار باشا قبل أن نصل أخيرا إلى ميدان باب الحديد حيث عبرنا ترعة الإسماعيلية عند قنطرة الليمون. أشعر بحالة من الترقب والقلق تعتري عساكر فصيلتي. يتساءلون لماذا تقرر إرسالهم إلى السودان إذا كان الغرض من الجندرمة هو الحفاظ على أمن المديريات المصرية، بالإضافة إلى حماية القرى والنجوع من هجمات العربان. أصروا أن الهدف الأصلي لتكوين هذه القوة هو إعادة الأمن والاستقرار إلى ربوع مصر وبلداتها. لقد انضم معظم العساكر والضباط للجندرمة لكي يضمنوا البقاء بالقرب من أهلهم وذويهم. لكن الآن يرسلونهم إلى السودان لفك الحصار عن حاميات طوكر وسنكات. ألاحظ حيرتهم التي أثرت على وقع خطاهم، وأسمع همهمات خافتة تتردد بين طوابير الجنود.

منذ يومين دعانا علي باشا مبارك ناظر الحربية لغداء حضره ضباط الجندرمة ليتسنى له توديعنا قبل رحيلنا إلى السودان. ألقى بعض ضباط الجندرمة خُطبا تشيد بالنصر الذي ينتظرنا. الحاضرون

من ضباط الجيش أظهروا تململهم لعدم إرسال حملة من الجيش بدلا من الجندرمة. احتدم النقاش وانتشرت همهمات تردد فيها اسم "هكس" باشا، والكارثة التي حدقت بحملته في "شيكان". ضباط الجندرمة كانوا قد تذمروا بسبب اختفاء بضعة جنود من القشلاق منذ أن علمنا بقرار إرسال أورطتي القاهرة والإسكندرية ضمن القوة المسئولة عن فك حصار طوكر وسنكات. بعض الفارين غادروا المعسكر ليؤدوا مهام معينة ولم يرجعوا، وبعضهم تسلل من القشلاق سرا ولم يظهر لهم أثر بعد ذلك. في البداية حاولنا أن نخفي هذه الحالات الفردية عن باقي الجنود، ولكن مع انتشار أخبار الفارين بدأ قادة الجندرمة باستخدام الشدة مع من يشكون في نيَّاتهم. في الأيام القليلة الماضية حبس رئيس الأركان "سارتوريوس" باشا خمسة أنفار بعد علمه بخطتهم للهروب من القشلاق. الصرامة في مواجهة هذه الظاهرة منعت هروب المزيد من أفراد الجندرمة. لكنها لم تصد عنهم المجهول الذي يتشكل أمامهم، ولا يدركون كيف سيواجهونه، ولا يعرفون إن كانوا سيستطيعون التعامل معه.

عبرنا قنطرة الليمون ودخلنا مبنى المحطة متوجهين نحو الرصيف الرئيسي للمحطة. دخل القطار كوحش خرافي ينفث نارًا ودخانًا، بعد أن هدأ أخذ يلتهم طوابير الرجال الذين اصطفوا في انتظار وصوله. أهالي الضباط والعساكر احتشدوا في ساحة المحطة خلف طوق من عساكر الجيش يمنعهم من الاقتراب من رصيف القطار.

أصوات المودعين تنادي الأبناء والإخوان ويتردد صداها بين جنبات مبنى المحطة. اختلطت نداءات المودعين والمسافرين وفصلت بينهم المسافات. ترى عساكر الجندرمة يتلفتون يمينا ويسارا محاولين التعرف إلى من يناديهم. القلق بدأ يعلو وجوه الضباط مغبة اضطراب الصفوف وانفراط عقد النظام. بهدوء مريب وعيون حائرة بدأ الجنود يصعدون إلى داخل عربات القطار. بعد قليل خلا رصيف المحطة واتخذنا أماكننا في انتظار الرحيل. لمحت سعد المويلحي وسط المودعين كأنه جاء لكي يتأكد من ذهابي. نظرته ثبّتتني فلم أتحرك من مكاني ولم أستطع حتى أن ألوّح له. هل اكتشف محمد بك طاهر أمري؟ وهل سيرسلون أحدهم للانتقام مني؟ نحيب المودِّعات يخترق رهبة الموقف وتعلو أصواتهن لتناشد رجالهن البقاء معهن. تحولت نداءات المودعات إلى عويل وولولة وتعاظم تأثيره على الرجال الذين دمعت عيونهم واشرأبَّت أعناقهم لإلقاء نظرة أخيرة على أحبائهم. حاول الضباط إعادة العساكر لأماكنهم كي يحكموا انضباط فصائلهم. لم ينجحوا في تنفيذ غرضهم وزاد الهرج والمرج فصدرت الأوامر بتحرك القطار قبل موعده بساعة كاملة.

ما إن تحركنا حتى ساد صمت مريب لم يجرحه إلا اصطكاك عجلات القطار بالقضبان الحديدية. سكتنا جميعا لعلنا نخترق الحجب ونكشف عن المصير الذي يتربص بنا في بلد ناءٍ لا نعرف عنه شيئا. اليوزباشي عبد اللـه الدكروري كان أول من كسر حاجز الصمت

عندما كبر ثلاثا ثم صدح بالدعاء:

– سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون. اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى. اللهم هوِّن علينا سفرنا هذا، واطوِ عنا بُعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل. اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل والولد.

سكت لوهلة ثم أضاف:

– نرجع لأهلنا سالمين إن شاء اللـه.

بدأ القطار يزيد من سرعته مخلفا وراءه عمارات مصر المحروسة ومستبدلا بها مساحات رحبة من الأراضي الطينية الداكنة، والتي تزينها من حين لآخر مخلفات حصاد صيف ساخن ولّى ومضى. أحيانا تظهر على وجهها ترعة جافة أو شجرة جميز وحيدة تتحدى ريحًا خريفية عاصفة.

تساءل أحد الضباط:

– هل نيل السودان مماثل للنيل في مصر؟

تضاحك زملاؤه وعلق اليوزباشي عبد اللـه الدكروري قائلا:

– هل أنت جاد؟ أم أنك تقصد مداعبتنا؟ النيل هو النيل! في

مصر أو في السودان هو نفس النهر.

تدخلت في النقاش مضيفا:

- على فكرة نحن لن نرى النيل في السودان، لأن طوكر تقع بالقرب من البحر الأحمر بعيدا عن الوادي.

قاطعني محمد عباس الذي لزم الصمت منذ أن ركبنا القطار:

- عندما نهزم المهدي ونفك حصار طوكر سنستطيع زيارة بربر أو عطبرة لنرى النيل بالقرب من هضبة الحبشة. وربما سمحوا لنا بالذهاب إلى أعالي النيل لنرى بحيرة إبراهيم باشا عند منابعه.

رد اليوزباشي عبد الله:

- أنا لا أفهم لماذا علينا أن نهزم المهدي، وأن نحكم قبضة الإدارة المصرية على السودان.

سأله أحد الضباط:

- أليس الجيش المصري في السودان هو جيش احتلال مثله مثل الجيش الإنجليزي الذي لا يريد أن يغادر الأراضي المصرية بعد أن طاب له المقام في بلادنا؟

رد محمد عباس:

- لقد فتحنا السودان لتحقيق التقدم والرقي للشعوب والقبائل التي

تستوطن بلاد النيل. هذه مسئوليتنا لأن مصر والسودان بلد واحد، ويربطهما شريان النهر العتيق منذ آلاف السنين.

لم أقتنع بكلام عباس فقلت معترضًا:

– لقد ثار المهدي والدراويش بسبب فساد الإدارة المصرية والضرائب الباهظة التي أثقلت كاهل السودانيين. أي رقي سنحققه إذا كنا قد نستنزف موارد السودان دون أن نفيد أهله بشكل حقيقي؟

عبد اللـه الدكروري حاول أن يظهر نفسه كالعالم بأسباب تدهور الأحوال في السودان:

– نحن لا نكتفي بذلك بل نضيق أيضا على أهل السودان باحتكار تجارة العاج وتحريم تجارة الرقيق. وكلاهما - كما تعرفون - موارد رئيسية للسودانيين.

تساءلت:

– هل تنتقد سياسة تحريم الاتجار في الرقيق؟ لقد حثنا ديننا على عتق العبيد، فكيف لك أن تدافع عن تجارة الرقيق؟

– أنا أقر أمرًا واقعًا وأوضح حالة قائمة لتفسير أسباب تمرد المهدي. السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل للمهدي ودراويشه الحق في الدفاع عن السودان ضد المصريين؟

تدخل محمد عباس في النقاش:

– الحقيقة هي أن للإنجليز أطماعًا في السودان مثلما لهم أغراض لا يفصحون عنها في السيطرة على مصر. هم يستغلون تصريحات جمعية "مكافحة الرق" في لندن للضغط على حكومة الخديو وإرباكها.

عارضت تفسير عباس:

– أنت تقدم لنا تفسيرًا مبنيًا على أساس نظرية المؤامرة، وكأن لا حول لنا أو قوة. لماذا لا نتدبر حالنا ونستعد لمجابهة ما يحاك لنا.

– من المؤكد أن هناك مؤامرة تحاك ضدنا في السودان! ألم يجبروا الحكومة على سحب عبد القادر حلمي حكمدار السودان بعد أن أثبت كفاءة كبيرة في إدارة البلاد؟ وها هم يرفضون إرسال الزبير باشا على رأس القوة السودانية المرافقة لحملتنا بحجة أنه كان من كبار تجار الرقيق. رجل قوي مثل الزبير رحمة يتمتع بشعبية جارفة بين أهل السودان. مما لا شك فيه أنه سيكون من عوامل نجاحنا في التصدي للمهدي والقضاء على تمرده لو قاد حملتنا.

أضاف أحد الضباط:

– ولكي لا يرأس الزبير باشا حملتنا، ضغط الإنجليز على

الخديو لتعيين بيكر باشا قائدًا لها بدلا منه.

تساءل عبد اللـه الدكروري:

– وهل يصح أن يقود ضابط إنجليزي الجيش المصري في حربه مع المهدي؟ شرعًا لا يجوز أن يقود إنجليزي جيشًا من المسلمين يقاتل ضد جماعة أخرى مسلمة.

رد ضابط آخر بحدة:

– أحيانًا يبدو لي أن الجيش المصري ودراويش المهدي يجب أن يتحدوا ليحاربوا الإنجليز ويطردوهم خارج البلاد.

غفوت للحظة وجيزة فوجدت نفسي في صحراء ممتدة لا أول لها ولا نهاية. نسير تحت شمس حارقة وسط جيش جرار. وقفت على رأس كتيبة ضخمة مجهزة بأسلحة رهيبة. عباس ظهر فجأة وسط الصحراء وملامح الغضب بادية على وجهه. أخبرني أن القيادة لم تعطه الخرائط التي تحدد مواقع قواتنا. لا يعرف كيف سينظم دفاعاتنا بلا خرائط توضيحية أو خطط تفصيلية. طيور خرافية تحمل قنابل لم أر لها مثيلًا، تقذفها فوق مواقعنا من السماء فتفتك بنا وتحيل الأرض جحيمًا. عباس ما زال يشكو من عدم وجود خرائط غير مبالٍ بالقذف الشرس والدمار الذي يحيط بنا. أصرخ فيه بلا جدوى كأنه لا يسمع صياحي ولا يحس بوجودي. يستمر هذا الموقف المحير حتى سمعت صوت النفير يعلن الانسحاب. ألقى الجميع أسلحتهم

وتقهقروا غربًا تحت النيران التي تصبها فوق رؤوسهم تلك الطيور الخرافية. لا أحد يرى العدو الذي نحاربه، ولا أحد يفهم ماذا نفعل في هذه البيداء التي لا خلاص منها. كل شيء يحدث بهدوء تام وبلا صخب. قنابل حارقة تتساقط علينا من السماء وتنفجر بلا فرقعات. جنودنا يتساقطون دون أن أسمع صرخاتهم. أمسك بالعود. أناملي تمسح أوتاره، ماذا أعزف هذه المرة؟ دارت الأحاسيس في صدري وترددت أنغام اللحن العتيق في وجداني. أحس بالنشوة تسري في أوصالي، أبتسم ساخرًا وأستعيد أنغامًا قديمة "يا أهلا بالمعارك". أصابعي تداعب أوتار العود، الأنغام تتصاعد بين أناملي. حرب الأمان والكرامة في السودان. من قال إننا سنخوض حربا من أجل سلامة السودان أم ترى سنخوضها من أجل إنقاذ حامياتنا في تلك الأطراف النائية التي لا نعرف عنها شيئًا. اختلط الأمر علينا، هل سنخوض الحرب من أجل السودان؟ أم سنخوض حربًا في السودان من أجل الأمان؟ أم سنخوض في الأمان من أجل الحرب؟ ما الفرق فكلها أنغام لن تؤخر أو تقدم، لكننا سنكررها المرة تلو الأخرى حتى يقتنع بها الجميع. ألم تعجبهم تلك الألحان في الماضي فلم لا يقتنعون بها هذه المرة؟ نظرت في وجوه الجالسين أمامي. هل أصابتهم البلادة؟ لماذا لا يعترض أي منهم؟ لماذا لا يحاولون وضع النقاط فوق الحروف؟ نفس الشيء يتكرر، سيعجبون بأنغامي، وسيبدون استحسانهم، حتى أنا سأعجب بها في نهاية المطاف، وأخيرًا ستصير

أمرًا واقعًا لا راد له. لقد تبدلت حالي فلماذا لا أنسى أوهامي وأهتم أكثر بلحني، فأضيف بضع أغانٍ حماسية مع كلمات مديح لحامل الصولجان. أصوات لطلقات الرصاص يمكن أن تضبط الإيقاع ليكتسب لحني الفارغ أبعادا جديدة، وبدلا من صوت العود المنفرد سيصير لدينا تخت كامل يتغنَّى بالأمجاد. فجأة ظهر أمامي الشيخ سلمان حاملا بندقيتي التي استولى عليها معلنا أنه أسقط أربعين من تلك الطيور اللعينة. كيف نحارب عدوًا خفيًا لا نراه ولا نفهم سببًا حقيقيًا للحرب التي نخوضها؟ سمعت صوت نفير يدوِّي "بنوبة صحيان" فاستيقظت.

صخب في أروقة القطار. أحد الضباط ظهر فجأة وأخبرنا أن عسكريًا من أورطة الأسكندرية قفز من عربته ليتفادى الذهاب إلى السودان. في نفس الوقت طلب منا اتخاذ أماكننا عند نقاط محددة في العربات لنمنع تكرار تلك الفعلة، وفي نفس الوقت كي نتعامل مع أي هرج أو صخب. ذهبت مع عبد الله الدكروري إلى باب العربة الخلفي، ووقفنا هناك نراقب حركة العساكر الجالسين أمامنا. لم يتوقف القطار عند مدينة الزقازيق بل أكمل رحلته مباشرة نحو النفيشة. اقتربنا من التل الكبير فشعرت بألم يعتصر صدري. في الأفق البعيد رأيت الطابيتين الواقعتين عند الجسر المقابل لمحطة التل الكبير. بالقرب من المحطة ظهر أمامي صليب ضخم نصبه الإنجليز ورصوا أمامه شواهد بيضاء تحمل أسماء موتاهم الذين

دفنوا في هذه الجبانة. شباب غض جاء من آخر الدنيا ليموت فوق هذه الرمال النائية. المكان منسق بعناية وقد زرعت حوله أشجار وزهور، نموها السريع يشهد على خصب التربة التي زرعت فيها. اليوزباشي عبد اللـه سألني عن مدافن موتانا، وإن كانوا قد حظوا بما يليق بهم من تكريم. صمت عبد اللـه ثم بدأ يتمتم في سره بآيات من القرآن الكريم. فجأة وعلى الجانب الآخر للترعة الحلوة، ظهرت أمامنا أرض معركة التل الكبير. رأيت خنادقنا المهجورة، وخطوط دفاعاتنا وأطلال الطوابي المهدمة. من عربة القطار كان يمكننا أن نرى بوضوح آثار تقدم جيش الإنجليز من معلبات فارغة وأوان طهو محطمة وأسلاك تلغراف مقطعة وأوراق متناثرة فوق رمال الصحراء. مضى على مرور الغزاة سنة كاملة ولكن آثارهم تنطق بهول اللقاء. "سينهزم خير أجناد الأرض لمائة وألف قمر".

خطر ببالي الجاويش حسن والعساكر السودانية وصمودنا داخل الخنادق في التل الكبير. عساكر الجندرمة يعتقدون أن الحكومة قررت إرسالهم إلى السودان لكي تتخلص منهم. يبدو لهم أن الحكومة ما زالت تشك في ولائهم، لأنهم حاربوا في جيش عرابي. قد يكونون على حقٍ فيما يعتقدون. ولو كانوا على حق فلا داعي لوجودي أصلا هنا. لا أعي ماذا أحاول عمله بالضبط؟ لماذا أحاول منع هؤلاء المساكين من القفز من القطار؟ في حقيقة الأمر لا يمنعني من القفز أنا أيضا من القطار سوى ولائي لمحمد عباس،

ورجاء أمي بعودة عبد الرحيم سالمًا من السودان، وإحساسي بأن القدر قد خط لي هذا الطريق لأخلص أخي المحاصر في طوكر من عدو مجهول لا أفهم غرضه من شن هذه الحرب المقدسة. مشاهد "التل الكبير" حاضرة في ذهني عاصية على الإمحاء. تذكرت صرخات الموتى وصخب المعارك، وشعرت بخيبة أمل شديدة مما زاد من تعاطفي مع عساكر الجندرمة. طالما لا يعرف رفاق السلاح الأسباب الحقيقية لحشدهم في ميادين القتال، وطالما يتم تجنيدهم في أنحاء قصية من الأرض لتحقيق أمجاد وهمية لحاكم مهووس، لن يمكننا إقناعهم بالصمود في خضم المعارك. طالما نقيم استحكامات لا تحمي جنودنا، وطالما يهجر القادة الميدان قبل أن يبدأ القتال، وطالما تبعثر جثث قتلانا فوق رمال الصحاري، وطالما لا نجد من يدفن جثامينهم، لن يقدر أحد على منع هؤلاء البائسين من القفز من القطار.

***

شيكان

ديسمبر، 1883

أكتب إليكم عن بداية رحلتي إلى سواكن.

عندما وصلنا إلى النفيشة نزلنا من القطار واصطفت فصائل الأورطة في الساحة الواقعة أمام محطة السكة الحديد. حيث أمضينا ليلتنا. صباح اليوم التالي ركبنا قطار السويس. الساعة الثانية بعد الظهر وصلنا إلى رصيف الميناء. بالقرب من المرساة الرئيسية رأيت مساحة واسعة مستخدمة كحظيرة لمئات الجمال والبغال والحمير التي سيتم إرسالها إلى سواكن. على رصيف الميناء جلسنا ننتظر وصول المراكب التي ستقلنا إلى السودان.

الباخرة "الزقازيق" رست في الميناء وصعدنا إلى سطحها. احتل عساكر الجندرمة الطوابق الوسطى من السفينة، بينما تم حجز الكبائن الموجودة أعلى السفينة "لسارتوريوس" باشا وأفراد عائلته وبعض الضباط الأوربيين. تم كذلك شحن البغال والأحصنة في الطوابق السفلى. غادرت الباخرة الميناء قبل غروب الشمس. خلال إبحارنا في خليج السويس ظهرت أمامنا سلسلة من الجبال الوردية ذات القمم المدببة. مع الغروب ازدادت حمرة قمم الجبال التي توارى خلفها قرص الشمس مرسلا أشعته إلى عنان السماء ومغدقا ثورة من الألوان الحارة فوق الأفق قبل أن تتسلل غلالة رمادية تطفئ ضياء اليوم، وتسمح لظلمة حالكة من السيطرة على الوجود حولنا. فجأة وبلا مقدمات سطعت آلاف النجوم التي زينت أبراج السماء وسطَّرت أقدارًا لن نستطيع الفكاك منها.

استيقظت مبكرًا فجر اليوم التالي وصعدت إلى السطح العلوي للسفينة. هواء بارد وصفحة ماء ساكنة لا يثيرها إلا بحث سفينتنا عن مستقر لها. ضوء الشفق الأبيض يغالب العتمة التي لفّتنا طوال ليلة ماضية. آخر النجوم ستتألق للحظات معدودة قبل أن يمحوها ضياء شمس تولد بين طيات السماء وسكون الأمواج. شمس شتوية ناعمة تخرج على استحياء بين ثنايا موجة قصية. نور يولد كخط ملتهب يفصل أطراف بحر شاسع عن سماء أرجوانية خلابة. هناك في الأفق البعيد يتشكل قرص الشمس ثم يتردد لوهلة، كأنه يرفض

الانفصال عن ذلك الخط السرمدي. وفجأة بدأ القرص النوراني رحلته اليومية بعد أن تحرر من قبضة الأفق الشرقي. بِذرة كونية متألقة تبعث الحياة في هذا الكون المظلم. نهار يبزغ فيمحو سواد ليل طويل. أمواج رمادية تتحول إلى زرقة صافية. زرقة تزداد شفافيتها باطراد حتى يفرد النهار أمامنا صفحة بلورية رائقة، عندها نستبدل خوفنا من ظلمة الليل بأنس الضياء. تمسح الأمواج جسم السفينة بزبَدٍ أبيض متناثر، وفي الأفق البعيد تذوب السماء في زرقة بحر فسيح. أحسست به يجلس خلفي يراقب معي شروق الشمس. بادرني بالحديث مستخدمًا عربية محكمة على الرغم من هيئته الأوربية. أعرب عن إعجابه بمنظر الشروق الذي شاهدناه للتو، وأكد أنه نادرًا ما تسنح له فرصة الاستمتاع بلحظة بديعة كهذه. تعجبت من لغته العربية الرصينة، وأخبرته بأنني لم أشاهد بحرا بهذا الاتساع من قبل. سألني عن كوني أحد الضباط المصريين من قوة الجندرمة. أومأت برأسي فعلق بسماجة عن عدم جدوى ذهابنا إلى طوكر وسنكات. ثم تساءل إذا كنا نعرف تفاصيل ما حدث "لهكس" باشا في كردفان. أخبرته بعلمنا بكارثة "شيكان" واستفسرت عن علاقته بحملتنا المتجهة إلى شرق السودان.

قدم "جون ماكدونالد" نفسه كمراسل جريدة "الديلي نيوز"، وسرعان ما تطوع برواية تفاصيل مجزرة "شيكان" كما سمعها من مصادره الخاصة. أخبرني أن ضابطًا وحيدًا أمكنه الرجوع إلى الخرطوم

بعد نجاته من المذبحة، وأن ذلك المسكين قد روى تفاصيل الواقعة للمراسلين الأوربيين هناك. أوضح كذلك أن بعض الروايات قد وصلتهم من الفارين من أهل الأبيّض الذين كانت لديهم آمال كبيرة في تحرير "هكس" باشا لهم. أشعل جون غليونه وبدأ روايته.

في البداية سمع الناس في السودان بجردة "هكس" باشا، وأنها ستزحف على كردفان لتقضي على المهدية. ضمت الحملة ثمانية آلاف جندي من أكفأ العساكر الحربية يرافقهم ألفان من فرسان السواري وسناجق "الباشبوزق". سلحت الحملة بالمدافع الحديثة والبنادق المتطورة. أضف إلى هذه القوة آلاف الحمالين مع جمالهم وبغالهم. حكمدار عام السودان علاء الدين باشا صديق رافق "هكس" باشا، ليعاونه في التعامل مع القبائل المحلية. انتشرت سيرة "هكس" باشا وعلا صيته، ذلك الفارس العملاق ذو اللحية المدببة، المقاتل الشجاع الذي خاض غمار العديد من المعارك في الهند والحبشة. رجل فاره الطول عريض الكتفين كأنه أحد آلهة الإغريق القدماء. حين يتحرك وسط ضباطه يصير محور الاهتمام، ينجذب الناظر إليه ويأتمر الجميع بأوامره ويهرعون لتنفيذها بإيماءة بسيطة من رأسه. اعتقد الناس جميعا أنه قادر على أن يقتل المهدي ويعيد الهدوء والنظام إلى مديرية كردفان. صدق "هكس" الخرافة التي حيكت حوله، ولم يستمع إلى الناصحين الذين

حذروه من الخروج إلى كردفان والذين طلبوا منه انتظار المهدي حتى يأتي إليه ويقاتله على الأرض التي يختارها بالقرب من وادي النيل. أراد "هكس" أن يقضي على المهدي فيصبح رجل السودان الأقوى. خرج الجيش من الخرطوم تسبقه سمعته الرهيبة، فأفسحت له العربان الطرق وتفرقت. ومن قاومه من القبائل حاربها "هكس" وشتتها. وصل الجيش إلى "الرهد" حيث عسكر لفترة طويلة فأقام زريبة من الشوك ومكث الجنود بها ليستريحوا قبل أن يتقدموا نحو الأبيض عاصمة كردفان التي استولى عليها المهدي منذ شهور قليلة. عندما قام الجيش من "الرهد" أوسعت له القبائل الطريق، ونصح الناصحون "هكس" باشا بأن يلتزم طريق "الجميزة" ليهاجم الأبيض من الشمال. للأسف استمع "هكس" لنصيحة علاء الدين باشا، وقرر أن يسلك طريق أبو الروس إلى "علوبة" ومنهل "البركة".

فور دخول الجيش المصري كردفان بدأت مجموعات من أنصار المهدي في مراقبة تحركاته عن كثب، وأسرعوا بردم آبار المياه الموجودة في طريقه. مجموعات أخرى أخذت تطارد جيش "هكس" باشا وتهاجم مؤخرته. في غرة محرم تحرك جيش المهدي نحو منهل "البركة" واحتله ظهر اليوم التالي، فمنع بذلك "هكس" باشا من الوصول إلى مصدر الماء الرئيسي في المنطقة. لم يصبح أمامه من حل سوى الاتجاه من "علوبة" نحو منهل "أم المصارين".

قرر "هكس" باشا وضباطه أن يسلك الجيش أقصر الطرق، وهو الطريق الذي يمر بغابة "شيكان".

عرفنا بعد ذلك أن المهدي اجتمع بأنصاره عند "البركة" حيث أخبروه أن "هكس" باشا قد غيّر اتجاهه مبتعدا عن منهل "البركة". عبر بعضهم عن خوفهم من احتمال وصول جيش "هكس" باشا إلى الأبيض وإخضاعها بينما جيش المهدي قابع في مكانه، وأشاروا عليه بسرعة الارتداد إلى الأبيض للدفاع عنها. وهنا تكشف الروايات جانبًا فاتنًا من شخصية المهدي الخلابة، حيث يقال إنه وقف وبصق في كفه اليسرى وسأل أصحابه عن بصاقه، فقالوا أنه بصاق. قذفه المهدي فشربته الرمال في الحال. سألهم إن كانوا يرون له أثرًا، فنفوا وجود أي أثر. أطال فيهم النظر ثم قال إن أتباعه هم الأرض والترك هم البصاق. وطلب منهم أن يثبتوا ويطمئنوا ويستريحوا لأن الترك لا قدرة لهم مع قدرة اللـه. ثم أخبرهم أن في اليوم التالي، يوم الأحد، سيتحرك بجيشه، وفي صبيحة الاثنين سيأمرهم بمحاربة الترك، فإذا تأخر أحد من أنصاره لإصلاح نعله لن يدرك عساكر الترك أحياء.

بعد ذلك أرسل التعزيزات لقواته التي تطارد الجيش المصري. وفي نفس اليوم تحرك المهدي بجيشه نحو منهل "شيكان" المعروف "بأم المصارين". المرشد الذي استعمله المصريون قادهم إلى غابة "شيكان" وأدخلهم وسط الأحراش حيث ساروا بدون أن يتمكنوا من

استكشاف الطريق أمامهم. حل الإرهاق الشديد والعطش بالجنود المصريين، وتاهوا وسط الغابة بعد أن هرب مرشدهم إلى المهدي ليخبره بالورطة التي أوقع فيها "هكس" وجيشه. أزعجتهم هجمات الدراويش فاضطر المصريون إلى إقامة زريبة من الشوك عند غابة "شيكان" ليحتموا بها. لم ترحمهم السماء فعلى غير العادة ارتفعت حرارة الجو في تلك الأيام الخريفية البائسة، مما زاد من معاناة العساكر الذين حرموا من المياه لعدة أيام.

أمر المهدي أنصاره بعدم التسرع وانتظار اللحظة المواتية، فكل يوم يمر سيفتٌ في عضد المصريين الذين أعياهم العطش. طوال الوقت أمطر الدراويش الجيش المصري بوابل من الرصاص من مخابئهم التي تحيط بالزريبة. يقال إن كثافة الطلقات أزالت لحاء الأشجار عن سيقانها. رد المصريون بإطلاق النيران على عدوهم الخفي لكن معظم ضرباتهم ذهبت سدى. وعلى النقيض لم تخطئ طلقات أنصار المهدي بسبب تزاحم جنود الترك والمصريين ودوابهم داخل الزريبة فتساقط المصابون من الرجال بجانب الدواب من جمال وبغال. أمضى المصريون لياليهم دون نوم مختبئين خلف الأكمة الترابية وجذوع الأشجار ذات الأشواك. مع مرور الوقت تهاوت معنويات المصريين. ومما زاد من محنتهم أن كثيرين منهم كانوا من عساكر جيش عرابي الذين هزموا في التل الكبير. أدرك أولئك أنهم يواجهون هزيمة ثانية أفدح من الأولى.

بعد احتلال المهدي لمنهل "شيكان" قبل أن يصل إليه المصريون يقال إنه اجتمع بأنصاره وبخليفته عبد اللـه التعايشي، وخطب فيهم خطبة بشرهم فيها بالنصر والغنيمة، وأن مددًا من الملائكة سيحارب مع أنصاره من الدراويش. وعلى ذلك فلا هم يخشون من كثرة مدافع وسلاح الأعداء لأن أرواحهم مقبوضة.

في محاولة يائسة قرر "هكس" باشا أن يشق طريقه نحو منهل "شيكان" فكون ثلاثة مربعات على هيئة رؤوس مثلث. تقدم "هكس" باشا وضباط أركانه المربع الأمامي وخلفه أربعة مدافع وبعض الطوبجية. وكان فرسان السواري وسناجق "الباشبوزق" يحمون المؤخرة وجوانب المربعات. بعد مسيرة ساعة دخل الجيش المصري واديًا مفتوحًا تحيط به أحراش وأشجار كثيفة حيث كمن على جانبيه جزء كبير من قوات المهدي بينما احتلت بقية جيشه الوادي في مواجهة المصريين المقبلين على كارثة محققة. استفاد الدراويش من المكان بتضاريسه المتميزة التي أعطتهم فرصة ذهبية لشن هجومهم الأخير وسحق الجيش المصري. يقال إن المهدي عندما ظهرت مقدمة الجيش المصري في الأفق، جمع أمراءه وصلى بهم ثم رفع سيفه وكبر ثلاثا وخطب فيهم يحفزهم على قتال جيش "هكس"، ويبشرهم بالنصر.

انقض عشرات الآلاف من دراويش المهدي على المربع الأمامي يلوحون بسيوفهم ورماحهم في الهواء ويطلقون نيران بنادقهم. انفرط

عقد المربع الأمامي وساد الهرج والمرج فبدأ عساكر المصريين بإطلاق النيران بلا هدف. في نفس اللحظة ومن بين الأشجار هاجمت جموع من الدراويش المربعين الآخرين من الأجناب. عساكر المصريين الذين أعياهم العطش أخذوا يطلقون النيران في جميع الاتجاهات فأصابوا إخوانهم قبل أعدائهم. تفككت الثلاثة مربعات وفقدت نظامها فتحللت إلى مجموعات صغيرة يقاتل أفرادها من أجل حياتهم. دراويش المهدي حاصروا المصريين من كل اتجاه وأخذوا في تضييق الخناق على شراذم منفصلة من الرجال الذين حاربوا باستبسال. قاتل رجال الجيش من مصريين وأتراك ما استطاعوا من قتال، وحارب معهم "هكس" باشا وضباط أركانه. بعد ساعة واحدة سحق الجيش برمته ولم ينج أحد من المذبحة فتراكمت جثث القتلى كالتلال. "هكس" باشا وضباط أركانه من الأوربيين وعلاء الدين باشا والباشبوزوق الأتراك والعساكر المصريين قتلوا جميعا في تلك الواقعة. حمل الدراويش رأس "هكس" باشا إلى المهدي الذي أمر برفعها على إحدى بوابات الأبيّض ليكون عبرة لمن يعتبر. لقد سعى "هكس" باشا إلى مجده الشخصي حتى يخضع له كل السودان وليصبح رجلها الأقوى، ولكن الأقدار شاءت غير ذلك. وفي سبيل ذلك المجد الزائف فقد آلاف المصريين أرواحهم وهم في حقيقة الأمر لا ناقة لهم ولا جمل.

لقد حقق محمد أحمد "المهدي" المعجزة وهزم "هكس" باشا

وجيشه الجرار. يقال إن في ذلك اليوم شاهد أنصاره الملائكة والجن تهبط من السماء على خيول تِبرٍ كبار لتحارب بجانبهم. لقد كون المهدي جيشًا من البسطاء مسلحين بالسيوف والرماح وبالقليل من البنادق وهزم بهم أقوى حملة حكومية دخلت تلك البقاع النائية. مسح من الوجود "هكس" باشا وجيشه المسلح بأحدث البنادق وبالمدافع المتطورة. منذ تلك اللحظة أصبحت "شيكان" رمز المعجزة التي تحققت علي يد المهدي. من آمن به وجد في ذلك النصر برهانًا على صدق إيمانه، ومن لم يعتقد في صدق دعوته لم يجد بدًا من الإيمان بها بعد "شيكان". على الرغم من انتشار الحاميات في معظم أرجاء السودان، فإن "شيكان" تمثل في الحقيقة بداية النهاية لحكم المصريين هناك. بداية صعود نجم المهدي ونهاية الجيش المصري في السودان.

روايته أصابتني بالغثيان. يا له من متعجرف! لماذا حكى لي هذه التفاصيل البشعة؟ ولماذا انضم إلى حملتنا هذه؟ هل هو حب المغامرة والشهرة؟ بالتأكيد لن يفهم أبدًا أسباب ذهابي إلى طوكر وسنكات. أشعل غليونه ونفث سحابة من الدخان ثم أخذ يشرح لي رأيه في الموقف السياسي الحالي. قال إن الوضع في السودان ميئوس منه. وتعجب من جهلنا بضعف إمكاناتنا، وإننا في أحسن أحوالنا غير قادرين على تحقيق النصر. ثم أخذ يكرر أننا حتى لو هزمنا جيش هذا المهدي، سيظهر من بعده ألف مهدي ومهدي، وسيتكرر ذلك

المرة بعد الأخرى ولن نتخلص منه أبدا. نفث دخان غليونه ثم شكك في قدرتنا على كسر حصار الحاميات المصرية في طوكر وسنكات، لأنه واثق تمامًا من أننا خسرنا المعركة قبل أن نطلق رصاصة واحدة. يا له من مخبول. غضبت من آرائه السخيفة وكررت أننا لن نتخلى عن عساكرنا، وأنه لا مناص من فك الحصار عن الحاميات المصرية المتمركزة هناك. فمن دون ذلك لن نستطيع إعادة هيبة الحكومة المصرية في السودان. علق بصوت جاد على محاولاتنا المستمرة لإخضاع أهل السودان لاستبداد حكامنا، بينما هؤلاء هم نفس الحكام الذين قاومناهم عندما ساندنا عرابي منذ أشهر قليلة. ثم شرح لي بصوت متعالٍ أن الفرق بين الأوربيين والمصريين هو أننا لا نؤمن حقا بما نفعله، وكثيرا ما نصبو إلى تحقيق أهداف متناقضة، بينما هم يثقون ثقة كاملة في مسئولية الإمبراطورية البريطانية عن نشر أفكار الحضارة الحديثة بين شعوب العالم، وأن ذلك هو واجب الدول المتقدمة التي تلتزم به أمام الرب.

تدركون بالطبع عدم استمتاعي بهذا النوع من الحديث. لكن طريقة كلامه استفزتني لدرجة أنني قررت الاستمرار في هذا النقاش السخيف. حاولتُ إغاظته بادّعاء أن المصريين يفعلون نفس الشيء من أجل السودان، فمصر هي الجسر الذي ستنتقل عليه الحضارة من أوربا إلى قلب القارة الأفريقية. نظر إلى صفحة المياه الممتدة أمامنا ثم شرح لي كيف يحب المصريون الحديث عن الحضارة

الحديثة دون استيعابهم لجوهرها، كل ما يستطيعون عمله هو تقليد بعض مظاهرها، ندعي التحضر من خلال تلك المظاهر، في نهاية الأمر لا نقدم أبدا على تغيرات حقيقية تشمل المجتمع ككل. المنفعة الخاصة تدفعنا إلى العمل بينما يحرك نداء الواجب أبناء الأمم المتقدمة. عارضته لكنه صمم على الاستمرار في حديثه. أشار إلى أسباب قوة الشعوب المتحضرة. قال إنها تنحصر في استعدادهم للمغامرة من أجل تحقيق ما لم يستطع تحقيقه أحد قبلهم، يملكون الثقة في قدراتهم على الوصول إلى ما يصبون إليه، ولا يخشون شيئا في سبيل الوصول إلى أهدافهم. ذكرته بعرابي باشا وبمحاولته الشجاعة لتحرير شعبه من الاستبداد مستهينا بما قد يحدث له. استمر في استفزازه بالحط من قدرة قادتنا وادعائه أنهم لا يقدرون إلا على تنفيذ خطط معروفة مسبقًا ومكرَّرة، يقومون بتطبيقها دون إبداع أو خيال، فتحركاتهم كلها مكشوفة ويسهل توقعها. أكد لي عدم إمكانية تحقيق النصر دون الأخذ بزمام المبادرة مع العمل على تقليص المخاطر التي نجابهها. ثم نظر لي طويلا محاولا تأكيد وجهة نظره بأن كثيرًا ما يندفع الشرقيون بحماس زائد بدون فهم جيد لطبيعة التحديات التي تواجههم. أردت أن أتحدى نظريته وأن أفسد عليه اغتباطه بوجهة نظره وثقته الزائدة بنفسه، فأخبرته بأن عبد القادر باشا حلمي، حكمدار السودان الأسبق، كان أقدر على حرب المهدي من "هكس" باشا، وعلى الرغم من ذلك كانت أول الأوامر التي

صدرت بعد دخول الإنجليز مصر هو عزله. نفى علاقة الإنجليز بذلك القرار مدعيا أن استدعاء عبد القادر حلمي من السودان صدر من الحكومة المصرية. تساءلت إذا كان قد تناسى ما رواه للتو عما فعله المهدي "بهكس" باشا، وكيف تمهل المهدي ونصب فخه في "شيكان"، وترك "هكس" يدخل المصيدة يقوده إلى ذلك طموحه الزائد وجهله بطبيعة الأرض التي يتقدم نحوها. أوضحت "لجون" أن نظرياته لا أساس لها من الصحة، وأن كل جانب من الجانبين قد يصيب وقد يخطئ. نفض غليونه من التبغ وادعى بهدوئه المقيت مسئولية الضباط المصريين عن كارثة "شيكان" لأنهم لم يقدموا "لهكس" باشا النصيحة السليمة، ثم تفاخر بتحقيق جيوش بريطانيا انتصارات كبيرة في مغارب الأرض ومشارقها. وأخيرا أكد لي أن شعوب الدنيا جميعا تشهد بعظمة الإمبراطورية البريطانية، مما يؤكد تميز الإنجليز عن باقي شعوب العالم.

أعرف أن روايتي عن هذا النقاش قد تكون مملة، إلا أن وقاحته قد أثارت حنقي فلم أتمالك نفسي وحاولت التقليل من قدرات الإنجليز التي لا يكف عن تضخيمها. أشرت إلى أن ثقة الإنجليز العظيمة في القدرة على تحقيق الانتصارت ناتجة عما يملكونه من خبرة كبيرة بأساليب الحرب الحديثة، وتطويرهم للأسلحة التي تتفوق على تلك التي يحارب بها أعداؤهم. أجاب موضحًا أن الخبرة والسلاح ليست الأسباب الوحيدة لتحقيق النصر، وشرح لي أهمية توخّيهم الحذر

الشديد في كل ما يفعلونه، وأكد أضرار الحماس الزائد والاندفاع غير المحسوب التي تبدو كأنها سمة من سمات الشعوب غير المتحضرة. حاولت استفزازه مرة أخرى مفسرًا نصر المهدي كنتيجة مباشرة لإيمان أنصاره به كخليفة لرسول اللـه، في الوقت الذي لم ينفع "هكس" باشا الحذر والخبرة والسلاح الحديث.

أشعل غليونه مرة أخرى وحدق في عيني لحظة ثم تعجب من مديحي للمهدي بهذا الشكل، بينما نحن ذاهبون لنحارب أنصاره في المناطق المحيطة بسواكن. هذا المهدي هو من ارتكب أفظع المجازر في كردفان وقتل كل معارضيه وذبح من لم يسلم من غير المسلمين. ثم أعرب عن دهشته لأننا نفعل ذلك تحت قيادة ضابط بريطاني ولا نجد في ذلك غضاضة. لم أستسلم لمنطقه الملتوي فشرحت له ضرورة قتالنا للمهدي، لأنه لن يستطيع إدارة أقاليم السودان بكفاءة، وأن كل ما يقدر عليه هو إثارة القلاقل مما سيؤدي إلى تدهور أحوال أهل البلاد. وكذلك فسرت له خطورة أن ينتحل المهدي الصفات المقدسة التي يدعيها، فمثل هذا الادعاء قد يفيده لفترة وجيزة، ولكن أمره سينكشف عاجلا أو آجلا، وفي النهاية وبعد معاناة أهل تلك البلاد ستنهار دولته ومعها مديريات السودان كلها. تهكم "جون ماكدونالد" مما قلته ومن أننا ننوي قتال الإنسان الذي يريد اتباع السلف الصالح، والذي يحارب من أجل أن يصون المعتقدات القديمة. استهزأ بادعائي أن هدفنا هو حماية تلك الأقاليم

من الاضطرابات والقلاقل، خاصة أننا في نفس الوقت نسعى من أجل الإبقاء على استبداد حكام المديريات السودانية من الأتراك على الرغم من أن معظمهم عديمو الكفاءة، وقد تسببوا فعلا في إلحاق أضرارا بالغة بأهل تلك المناطق. وأضاف، إننا إذا انتصرنا سنحافظ بذلك على الحكام الفاسدين والمرتشين الذين لا هم لهم إلا تحقيق أكبر قدر من المكاسب الشخصية. لم أوافقه ولكنه عاد وأكد أن هؤلاء الحكام يدينون بالولاء للخديو الذي قاومناه، لأنه استبد ببلادنا فلماذا ندافع عنهم أصلا. تساءل إذا كان الإبقاء على هؤلاء الفاسدين يستحق كل هذه التضحيات، وأكد على عدم جدوى القتال من أجل هدف كهذا. عارضته لكنه تعجب من الأسباب التي تدعونا إلى ترك أهالينا وعائلاتنا في مصر لنذهب إلى السودان كي نقاتل في سبيل أوهام حكامنا المستبدين. أخبرته بأنني قررت الذهاب إلى هناك لتخليص أخي عبد الرحيم الذي يخدم حاليا كضابط من ضباط حامية طوكر المحاصرة. أشار إلى أن هدفا كهذا هو قطعًا هدف نبيل. اعترفت له بأنني لم أحتسب الذهاب إلى السودان في هذه الحملة عندما انضممت إلى الجندرمة، لكن قدري قادني إلى هذه السبيل.

في هذه اللحظة ظهرت مدام "سارتوريوس" على سطح السفينة ترتدي رداء ناصع البياض، وتمسك بمظلة مشغولة بالدانتيلا. اضطربتُ عندما رأيتها لأننا ممنوعون من الصعود إلى السطح

العلوي للباخرة. استأذنت "جون ماكدونالد" وهبطت إلى الدرك السفلي من السفينة الذي يقطنه الضباط والعساكر المصريون. حضور مدام "سارتوريوس" وابنتها ضمن هذه الحملة طمأنني قليلا، فرئيس الأركان لم يكن ليحضرهما معه لو كان الوضع صعبا. رجل صارم "كسارتوريوس" باشا لا يستهين بالخطر، ولذلك أيقنت بعدم وجود تهديد حقيقي لحملتنا، وأن نصرنا سيكون سهلا وكاملا.

***

سواكن

ديسمبر، 1883

أبعث بتحياتي من سواكن الخير لأهل الأرض أجمعين.

بعد ثلاثة أيام من إبحارنا، أخبرونا أننا أوشكنا على الوصول إلى سواكن التي تعتبر أهم موانئ السودان الشرقي. لها موقع إستراتيجي متميز حيث يربطها بعطبرة أقصر الطرق بين وادي النيل والبحر الأحمر، كما أنها إحدى المحطات المهمة على طريق الملاحة الحيوي الممتد من السويس إلى الهند. في الساعات الأولى من النهار اقتربت الباخرة "الزقازيق" من مدخل ميناء سواكن. الشُّعب المرجانية القريبة من سطح الماء مثلت خطرًا على سلامة الباخرة، فبدا على البحارة

قلق بالغ وعلت نداءاتهم وتواترت تحذيراتهم. قرر قبطان سفينتنا التوقف، وأن يبقى في مكانه انتظارًا لتعليمات إدارة الميناء. الشعب المرجانية المنتشرة في كل مكان تقبع على مسافة لا تزيد على ذراعين تحت سطح الماء وتهدد جسم السفينة عند كل مناورة غير محسوبة. قبل الظهر وصل الملاحون من إدارة الميناء ووضحوا لنا مواقع الشمندورات التي ترشد إلى أماكن الشعب المرجانية الخطرة وتحدد الممر المائي الآمن. بعد المحاولات المستمرة صاح أحد البحارة أننا وصلنا إلى مدخل القناة الضيقة المؤدية إلى الميناء. إحساس عام بالراحة شاع بين الجميع. هذه القناة تصل البحر الواسع بخليج صغير تتوسطه جزيرة واطئة لم تظهر مساكنها حتى اقتربنا منها. لم نر مباني البلدة القديمة إلا عندما وصلنا إلى نهاية القناة. هذه الجزيرة المرجانية قائم عليها مباني الجمرك والتلغراف والبريد. بجانبها يظهر مبنى المحافظة الذي يرفرف فوقه العلم المصري، وتحيط به شركات الملاحة ومنازل التجار المقيمين في البلدة. مئذنتان لمسجدين ظهرتا عندما اقتربنا من نهاية القناة. عرفت فيما بعد أنهما تعلوان مسجدًا شافعيًا وآخر حنفيا. بيوت سواكن التي تمتاز بجمال تصميمها، مبنية من الصخور المرجانية التي تعكس أشعة الشمس فتزداد بياضًا أثناء النهار، ورويدًا تعكس حمرة السماء مع غروب الشمس حتى تتحول مبانيها إلى اللون الوردي قبل أن يحولها الليل إلى ظلال قاتمة. تزين نوافذ مبانيها المشربيات الخشبية والشرفات

الأنيقة. أبواب مساكنها العريضة مطعمة بالألواح النحاسية المنقوشة. رست سفينتنا بالقرب من مبنى المحافظة، حيث كان في استقبالنا مستر "بروستر" مدير مصلحة الجمارك.

الجزيرة يربطها بالساحل جسر عليه بوابة عريضة تحرسها وحدة من العساكر المصريين. في حين أن التجار ووجهاء القوم والأجانب يسكنون الجزيرة، نجد أن السكان المحليين من أبناء القبائل المحلية والبجاوية يقطنون الساحل، حيث توجد منطقة "القيف". عندما عبرنا الجسر الواصل بين الجزيرة والساحل أدى حراس بوابة "جوردون" التحية العسكرية لنا. بعد أن وصلنا إلى الساحل رأينا على يميننا وكالة الشناوي بحوانيتها المزدحمة ووكالاتها المضيئة. مبنى مستطيل ناصع البياض توجد به كل ما تتخيل من المحلات والبضائع. أمامه ساحة واسعة يتجمع فيها أعداد غفيرة من الباعة الجائلين. بسبب موقعها الفريد على البحر الأحمر أصبحت سواكن مركزًا تجاريًا مهمًا لكل من نزلها، فازدهر المكان وكثرت أعمال التجارة حتى شاع أن النقود الذهبية في سواكن تكال بالمكاييل، كما يكال القمح والحبوب. بالقرب من الوكالة يوجد مسجد الشناوي على بُعد مسافة قصيرة من مبنى الضبطية "بالقيف".

المدينة يحميها سور من الطوب اللبن، ارتفاعه تسع أقدام مثبت أعلاه قوائم خشبية تضيف إليه ست أقدام أخرى. أمام السور حفر خندق عميق مملوء بفروع أشجار الميموزا المغطاة بالأشواك. على

إمتداد السور رأيت مجموعة من الطوابي والحصون. أهمها حصنا "كاريزفورت" و"أوريليوس" ويقعان في القلب من السور عند أبعد نقطة في اتجاه الغرب. طابية اليمين تحمي بداية السور من الشمال بينما تحرس طابية المحجر الطرف الجنوبي منه. شرحوا لنا أن الدخول والخروج من البلدة يتم خلال البوابة القريبة من طابية اليمين أو البوابة الموجودة عند حصن "كاريزفورت". اختار "سارتوريوس" باشا مركز قيادته في ذلك الحصن، وتم تسكين ضباط الجندرمة في مبنى الضبطية القريب منه، بينما أقام عساكر الجندرمة معسكرهم في المساحة الممتدة من الحصن إلى "القيف". من فوق أسوار حصن "كاريزفورت" ألقيت نظرة على الميناء فأحسست بالفارق العظيم بين بيوت "القيف" الطينية ذات الأسقف المخروطية المصنوعة من القش، ومباني الجزيرة الفاخرة المقامة من أحجار المرجان. من أعلى الحصن كان يمكنني أيضا رؤية عدد من الطوابي التي تقع خارج السور، وتشكل خط الدفاع الأمامي للمدينة. أهم تلك الطوابي "الجميزة" و"الشاطة" أقيمتا لحراسة الآبار التي تشكل مصدر المياه الرئيسي لأهل المدينة.

***

الناس في سواكن الخير مشغولون بلقمة العيش. الأهالي يستشعرون الخطر الداهم لكنهم لا يبالون بما يحدث حولهم. الكل

مأخوذ بحب الدنيا وبما بان من حالهم. منهم من يشكو من ظلم الحكام، ومنهم من يشكك في حقيقة المهدي. يلعنون جباة الضرائب وكل من يقوم على مصلحة من مصالح الحكومة، ومنهم من يقول إن هذا ليس أوان المهدي المنتظر، ومنهم من يتوقع نهاية الترك علي يديه.

نهار لطيف تحمله إلينا نسمة رقيقة تهف من ناحية البحر. صباح يوم راحتي توجهت مع عبد اللـه الدكروري إلى سوق المدينة بالقرب من وكالة الشناوي. عند ساحة السوق وجدنا أولاد البلدة وقد تجمعوا حاملين رايات ملونة. لم أفهم ما يحدث وسحبت عبد اللـه من يده لكي نبتعد عن المكان الذي تجمعوا حوله. عندما صرنا على بعد مسافة كافية من الصبية المتجمهرين توقفنا لنشاهد ما يجري. بائع قريب منا لاحظ دهشتنا، فأشار إليهم بسبابته وأوضح لنا أن حاملي رايات الترك الحمراء هم أولاد رفقي أفندي، ويقابلهم في الجانب الآخر من الساحة أولاد سليم أغا الذين يرفعون رايات المهدي بألوانها المختلفة، سوداء وبيضاء وخضراء. تلك الرايات كتب عليها "يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام... لا اله إلا اللـه محمد رسول اللـه... ومحمد المهدي خليفة رسول اللـه". لاحظت أنهم يحملون أيضًا سيوفًا خشبية. تابع الرجل روايته، فأبلغنا أن الفريقين التقيا بالأمس خارج البندر بالقرب من الجبانة. بعض الصبية يقولون إن رايتهم رايات المهدي والآخرين يعلنون

أن رايتهم رايات الترك. تعارك الفريقان وضرب بعضهم بعضا بالعصي. وبين الكر والفر انهزم أولاد رفقي أفندي وهربوا من ميدان المعركة ففرح أولاد سليم أغا ورفعوا رايتهم مهللين "غلبت رايات المهدي رايات الترك". سألته عما ينوون عمله اليوم، فقال إنهم سيمثلون المعركة المرتقبة بين المهدية والتركية. بالأمس غضب أولاد رفقي أفندي ولم يستسيغوا هزيمتهم علي يد أولاد سليم أغا على الرغم من حملهم العصي الكبار. في نفس الوقت فرح أولاد سليم أغا واحتفلوا بفوزهم. في المساء تقابل قادة الفريقين من الأولاد واتفقوا على أن يلتقوا مرة أخرى صباح اليوم في ساحة السوق.

قبل أن ينهي روايته قرع أولاد الفريقين النحاس، ودقوا الطبول و"الأمبايا" ونفخوا المزمار. ثم تواجه الفريقان وانقضوا بسيوفهم الخشبية وأعملوا الضرب في بعضهم بعضًا والأهالي يشاهدون عراكهم بلا اكتراث. لم يصدق عبد الله الدكروري ما يدور من قتال أمامنا واعتبر أن ما يقوم به هؤلاء الصبية نوع من الخبل. اشتد الضرب وعلت صيحات المتقاتلين. لفتهم غمامة من الغبار غطت على راياتهم الملونة. لم يكن الأمر تمثيلية كما تخيلت في البداية، بل تحولت المواجهة إلى قتال عنيف. كل طرف يحاول أن يثبت في وجه خصمه حتى يحقق نصرًا نهائيًا. وسط الجلبة شاهدت أول صبي يسقط وقد شجت رأسه وسال دمه. على الرغم من ذلك

لم يحاول أحد إنهاء هذه المواجهة الشرسة. سرعان ما سقط صبي ثاني وثالث حتى انسحب أولاد رفقي أفندي، وتجمعوا في ركن بعيد من الساحة. فجأة ظهر الشناوي بك ومعه أفراد من الشرطة المحلية وجمع من العبيد الأقوياء. اتخذ مكانه بين الفريقين وطلب من قادتهم الاقتراب ثم سألهم عما يدور بينهم. رد أولاد سليم أغا بأنهم يلعبون مع بعضهم بعضًا. أشار الشناوي بك إلى الرايات التي يحملونها، فشرحوا له أنهم عملوا رايات للفرق المختلفة. حمل إليه أحدهم بعض الرايات وقال إنها رايات المهدي، وأوضح أن الفريق الآخر عمل رايات للترك. ابتسم الشناوي بك وسألهم عن من غلب من الفريقين. فأجابوه بأن ممثلي المهدية من أولاد سليم أغا هزموا الترك. فضحك وقال لهم "على رأي المثل خذوا فالكم من عيالكم". التفت الشناوي بك إلى العبيد وطلب منهم أن يجمعوا الرايات والسيوف الخشبية، ثم أمرهم بتكسيرها أمام الأولاد. بعد ذلك تجهم وجهه وهو يقول:

– والله لقد أتيتم بالمهدي قبل أوانه! من قال لكم إن للمهدي رايات ومن منكم رآها من قبل؟ اذهبوا يا أولاد ولا تعودوا إلى هذه الأفعال. لا يجب أن يصدر منكم هذا الأمر ثانية وإلا عاقبتكم أشد العقاب.

عبد الله الدكروري تساءل عن من أفهم هؤلاء الأولاد أن المهدي

سينزل علينا في هذا الزمان، وأنه سيحارب جيوش الترك والمصريين. نحن نعرف أن الدرويش محمد أحمد الذي يدعي أنه المهدي المنتظر قد هزم "هكس" باشا، وأخضع إقليم كردفان لحكمه، وأن أنصاره يحاصرون الآن طوكر وسنكات. لكن كيف عرف العيال الصغار بالمواجهات بين المهدية والتركية.

أحد الباعة عقب بأن الكبار من أهل سواكن سمعوا ممن سبقوهم أن المهدي خليفة رسول الله سينزل في آخر الزمان راكبًا حصانه. وبالليل سيترك أمام بيت كل مسلم حصانًا في سرجه سيف لكي يجاهد به الكفار. أكد عبد الله أننا مقبلون على آخر الزمان، وأن الدلائل كلها تشير إلى قرب نهاية العالم، فلمَ لا يظهر فينا المهدي؟ قنط صاحبي من انتصار رايات المهدي مرتين متتاليتين، واعتبر ذلك نذيرًا للشؤم وتحذيرًا أرسلته لنا السماء.

بعد ذلك سمعنا صيحات آتية من ناحية حصن "كاريزفورت". أثار الصخب فضولنا فتوجهنا إلى هناك. عند ساحة التدريب وجدت أحد الضباط الإنجليز، وهو يصرخ في مجموعة من "الباشبوزق" بعد أن رفضوا الانصياع لأوامره العسكرية. لم يفهم الضابط أن "الباشبوزق" لهم طريقتهم الخاصة في التعامل، وأنهم أقرب إلى المليشيات غير النظامية. تصرفاتهم كانت مصدرا للإزعاج سواء في أوقات السلم أو أوقات الحرب، ناهيك عن تذمر الأهالي من غطرستهم وتعديهم المستمر على السكان وممتلكاتهم. بيكر باشا

قرر أن يشترك "الباشبوزق" في التدريبات العسكرية حتى يكونوا على مستوى لائق من الكفاءة. طلب الضابط الإنجليزي أن ينضم "الباشبوزق" إلى باقي الفصائل ليقوموا بالتمرينات الصباحية، ففعلوا ذلك متضررين. وعندما عاد وطلب منهم تكرار نفس التمرينات في فترة ما بعد الظهر، رفضوا رفضًا باتًا وهددوا باستخدام العنف.

بعد قليل حضر قائدهم يوسف بك بصحبة "سارتوريوس" باشا على رأس أربعة فصائل من أورطة الإسكندرية، وحاصروا العصاة من "الباشبوزق" ثم طلبوا منهم تسليم سلاحهم. تحت تهديد السلاح أذعنوا جميعًا للأوامر فيما عدا ثمانية منهم تم تقديمهم لمحاكمة عسكرية سريعة. في الحال صدر الحكم بتأييد تهمة عصيان الأوامر العسكرية، وعقابهم بالجلد. تم تنفيذ الأمر فورا على قائد العصيان بعد أن قيدوه وخلعوا عنه قميصه. أحد العساكر السودانيين تقدم وفي يده كرباج أسود غليظ. عسكري آخر دفع قائد العصيان حتى ركع على ركبتيه، ثم بدأنا نسمع طرقعة الكرباج الذي أكمل ثمانين ضربة قبل أن يذعن المتهم ويعترف بذنبه. عقب ذلك سلم باقي المتهمين بخطئهم، وأقسموا أنهم سينفذون كل الأوامر. هكذا انتهت هذه المشكلة التي تظهر مدى صرامة "سارتوريوس" باشا وإيمانه بالانضباط العسكري.

***

من المزارات المعروفة في سواكن بيت عثمان دقنة، أمير المهديين في شرق السودان. ذهبت مع محمد عباس لزيارة المكان فلم أجده يختلف كثيرًا عن البيوت المحيطة به. يقع على حافة مياه الخليج من الناحية الجنوبية للجزيرة فترى أمامك المياه البلورية وتنتشي بتلاطم الأمواج الخجول. أشار عباس إلى بعض الزائرين وهم يقتطعون أعوادا من الأشجار الموجودة في حوش البيت. سألني عن سبب ذلك فلم أعرف. فجأة سمعنا مستر "بروستر" مدير الجمارك يرد على سؤاله بعربية فصيحة موضحًا أنهم يتباركون بها، لأن دقنة صار بطلا أسطوريا في هذه البقاع. ألقيت عليه تحية مقتضبة وسألته عما ينوي عمله هذه الأيام، وإن كان يعتزم الخروج مع حملة بيكر باشا. أخبرني أن محاربي دقنة من الهدندوه قد أحكموا حصار سنكات وطوكر، وأن الطرق كلها معرضة لمخاطر عظيمة. وبدلا من الخروج من سواكن فمن الأولى بقاءه في البلدة والمحافظة على استقرار الأوضاع فيها. سألنا إن كنا نعرف شيئًا عن ماضي عثمان دقنة. أجابه محمد عباس بأنه سمع من الأهالي أنه من أبناء سواكن الذين تم إبعادهم عن البلدة نتيجة للمتاعب التي أثارها، وتحريضه للأهالي ضد الحكام الأتراك. وأضاف أن دقنة من عائلة ذات أصول كردية استقرت في هذه البقاع منذ زمن بعيد. أضفت ما أعرفه من أنه ذهب للقاء المهدي في كردفان، وفي تلك المقابلة بايعه عثمان دقنة على أنه خليفة رسول الله. يقال إن

عثمان دقنة شرح للمهدي كيف أن الفساد قد استشرى في شرق السودان، مما أضر بأحوال أهل سواكن، وأن السخط يتزايد بسبب الأوضاع السيئة في هذه المنطقة. ويقال إنه عرض على المهدي نقل الدعوة إلى شرق السودان مستخدما صلاته القوية برجال قبائلها، وأنه قادر على القيام بتلك المهمة بسبب فهمه الجيد لأحوال تلك البقاع. المهدي أعجب به وأرسل معه عددا من الرسائل لمشايخ شرق السودان الذين أعلنوا انضمامهم لدعوة المهدي، ومنذئذ بدأوا تمردهم ولم تنقطع هجماتهم على الحاميات المصرية.

ابتسم مستر "بروستر" بثقة، وأكد أن القصة التي سردناها ما هي إلا الرواية الشائعة، لكنها لا تعكس الحقيقة كاملة. تبادلت النظرات مع عباس قبل أن أسأل مستر "بروستر" عن تاريخ عثمان دقنة الحقيقي! طلب منا "بروستر" التحرك لنقف تحت شرفة من شرف المنزل ليتقي أشعة الشمس الساخنة. خلع قبعته البيضاء وقص علينا ما يعرفه عن أصول عثمان دقنة، مدعيا أنه ولد في "روان" لأبوين فرنسيين وأن اسمه الحقيقي "جورج فيني". بعد أن التحق بمدرسة "روان" الابتدائية انتقلت أسرته لتعيش في الإسكندرية، حيث بدأ والده تجارته الخاصة. لكن سرعان ما توفِّيَ أبوه فتزوجت أمه من تاجر سوداني من سواكن يدعى عثمان دقنة. لم أصدق ما يقوله هذا الرجل المنحاز لبني جنسه. لا يستطيع أن ينسب أي نجاح إلا لأوربي مثله. عارضته بحدة واصفًا معلوماته بالترهات. لم يهتم

وفسر بهدوء كيف أطلق عليه زوج أمه نفس اسمه "عثمان دقنة" واعتنى بتربيته تربية إسلامية. في صباه درس عثمان في إحدى مدارس مصر العسكرية، حيث تعلم التكتيكات الحربية على يد الضباط الفرنسيين. وأخيرًا قرر زوج أمه السفر إلى سواكن حيث عمل في تجارة العبيد وكون ثروة هائلة. عندما توفيَ زوج أمه ورث عثمان تجارته الرائجة وأدارها بنجاح لعدة سنوات.

تساءلت متهكمًا عن أسباب ترك دقنة لتجارته الرائجة والثروة الكبيرة، ولماذ قرر فجأة الانضمام للمهدي. أجاب "بروستر" أن دقنة كان بطبعه ثائرًا على الأوضاع السائدة من تسخير أهل البلاد وثروتها لخدمة الحكام الأتراك. الظلم المجتمعي في السودان دفعه كغيره من الشباب لممارسة "الهمبتة" كنوع من المقاومة وعدم الاستكانة. تدخل محمد عباس في الحديث شارحًا تفهمه للأثر الذي تركته سياسة منع تجارة الرقيق في عهد "جوردون" باشا، وكيف أنها قللت من مكاسب عثمان دقنة مما زاد من غضبه وسخطه على الحكومة. فمن الواضح أن منع تجارة الرقيق خلق مشاكل هائلة للحكم المصري في السودان، لأنه أفسد مورد رزق عظيمًا للتجار السودانيين ولشيوخ القبائل القوية. أكمل "بروستر" روايته موضحا أن في تلك الأثناء خرج عثمان من سواكن كغيره من الشباب الغاضب الذين جابوا الصحاري بعيدًا عن أيدي الحكام الأتراك. إلا أن أمه وأهل زوجها أرسلوا إليه يطالبونه بالعودة فرجع إلى سواكن. عند قيام

الثورة العرابية عرف عثمان بأخبارها لسهولة الاتصال بين مصر وسواكن، فتأثر بأحداثها وظنها اللحظة المناسبة لمناهضة الحكام الأتراك، فألب الناس عليهم وأعلن التمرد ضدهم. ولكن لم تتبعه إلا قلة من أهل سواكن فقبض عليه رجال الحكومة وصودرت أملاكه وتجارته ونفيَ من سواكن. تفاعل محمد عباس مع ما قاله "بروستر" وظهر عليه الاقتناع بهذه الرواية الملفقة معربًا عن تفهمه لأسباب انضمام دقنة للمهدي عندما انتحل الأخير صفة خليفة رسول الله. وبالطبع شجعه على ذلك صعود نجم محمد أحمد المهدي وذيوع صيته خاصة بعد انتصاراته المدوية على الترك والمصريين في كردفان.

ابتسم مستر "بروستر" شارحا أنه منذ عام تقريبا ذهب عثمان دقنة إلى كردفان حيث التقى بالمهدي، ثم عاد حاملا رسالة منه إلى شرق السودان، وذهب على الفور إلى "هندوب" ليقابل الشيخ طاهر المجذوب. كانت حكومة سواكن قد وفرت للشيخ ثلاثين مسجونًا ليحفروا له بئرًا بالقرب من المسجد الذي بدأ بتشييده هناك. أطلع عثمان شيخه على مكتوب المهدي، فوقف طاهر المجذوب بين قومه وأعلن العصيان على الحكومة المصرية وأيد ثورة المهدي، ثم نادى بعثمان دقنة أميرًا للمهدية على شرق السودان. خلع دقنة ثيابه ولبس قميص الدراويش المرقع ثم بايع الجموع بيعة المهدي، وقبض على الثلاثين مسجونًا وذبحهم. وكان ذلك صباح يوم الأضحى، فصار

الناس يرددون: "ضحّينا بهؤلاء الكفار". لم أصدق ما قاله واستنكرت هذا العمل البربري. نفث مستر "بروستر" دخان سيجاره، مؤكدا خطورة هؤلاء المتمردين بسبب تعصبهم الديني وعدم تهاونهم مع من يختلف معهم. أضاف إنه بعد ذلك اليوم أيدت جميع القبائل عثمان دقنة ما عدا بني عامر والهباب. ولكي يتجنب هجوم عساكر الحكومة عليه في هذه الفترة الحرجة من الإعداد للثورة، خرج من "هندوب" وذهب إلى منطقة الجبال حول سنكات، لوعورتها وصعوبة الوصول إليها.

***

الشيخ الميرغني

يناير، 1884

سأحكي لكم عن مناسبة جليلة لما تحمله من بشرى لأهالي المنطقة.

بالأمس شهدت سواكن وصول الشيخ الميرغني. الأهالي هنا يعدُّونه من أكثر رجال الدين الإسلامي قدسية. قبل الظهر عرفنا أن الباخرة التي تقله قد وصلت من جدة، عندئذ تركت المعسكر وعبرت الجسر المؤدي إلى الجزيرة. عندما تجاوزت بوابة "جوردون"، أدى الحارسان التحية العسكرية الواجبة، وسألني أحدهما عما يحدث فالجميع يهرعون نحو الرصيف الواقع خلف مبنى الجمارك. أخبرتهما

بوصول الباخرة التي تقل الشيخ الميرغني، فظهر عليهما الأسف الشديد لأنهما لن يكونا ضمن زمرة مستقبليه عندما ترسو سفينته. اخترقتُ شوارع الجزيزة الضيقة مارًا بلوكاندة الشناوي والمسجد الحنفي. عند ساحة المسجد استدرت متجهًا نحو مبنى المحافظة، ومن بداية الشارع المؤدي إلى مرساة الميناء، رأيت زحامًا شديدًا من عرب وسودانيين وأحباش، واختلط جمع عظيم من عساكر ورعاة وبحارة. السفينة التي تقل الشيخ الميرغني ظهرت في مدخل القناة الموصلة بين البحر الكبير وخليج سواكن. عندما ظهر الشيخ للجماهير المتجمعة عند رصيف الميناء تمتم الأهالي بالدعاء له وللمسلمين أجمعين. رجل أسمر ذو لحية بيضاء يرتدي عباءة من وبر الإبل وعمامة ملفوفة بعناية شديدة. تحيط بالشيخ هالة من الوقار على الرغم من نحافته وقصر قامته. ظهر عليه بوضوح الإرهاق الناتج من الرحلة الشاقة التي قطعها من جدة، والتي ضاعفت من صعوباتها العواصف التي دامت طوال اليومين السابقين. هبط الشيخ فوق المرساة بخطوات متأنية. اندفع الناس نحوه يتبركون به، ويتلمسون عباءته، ويقبّلون يديه وقدميه. لم أر في حياتي كل هذا التبجيل لإنسان حي. لو أرسلنا هذا الشيخ الوقور مع حملة "هكس" باشا لانفض السودانيون عن المهدي، ولتمكنا من تطهير البلاد منه.

بعد وصوله إلى سواكن ذهب الجميع إلى المسجد الشافعي للقاء الشيخ. عندما وصلت إلى هناك وجدت "سارتوريوس"

باشا ومعه كل القادة. رأيت الشيخ جالسًا على مقعد أمام مدخل المسجد وقد أقعى على الأرض بجانبه أحمد بك كمال، وبجواره يوسف بك قائد "الباشبوزق"، بينما وقف عبد الرزاق بك بجوار "سارتوريوس" باشا الذي قام بتقديم التحية الواجبة للشيخ، وأظهر التبجيل والاحترام له. مبادرة ذكية تنال من ادعاءات المهديين بأن الحكومة ورجالها يستعينون بغير المسلمين. هؤلاء يستغلون ذلك الادعاء، فيشيعون أن رجال الإدارة المصرية مارقون عن صحيح الدين وكافرون بالله ورسوله. بالطبع زيارة شخصية دينية بمنزلة الشيخ الميرغني لسواكن، تدحض مثل تلك المزاعم. قام الشيخ ودعانا إلى الدخول إلى المضيفة الملحقة بالمسجد. صالة واسعة تحيط بجدرانها مصاطب مغطاة بالسجاد، وفي صدرها أريكة منجّدة وثيرة جلس عليها الشيخ وبجواره "سارتوريوس" باشا على يمينه وعبد الرزاق بك على يساره. قعدت على مصطبة من المصاطب ضمن مجموعة من الضباط. في باقي الأماكن تجد عساكر مصريين وسودانيين وأحباشًا، كما تشاهد عددًا من الدراويش بقمصانهم المرقعة ومجاذيب البلدة بأثمالهم البالية. أحد السودانيين تعجب من وجود هذا العدد من الضباط الإنجليز داخل المسجد لكنه لم يزد في كلامه.

دعا الشيخ للجميع بالهداية واتباع الطريق القويم، وحثهم على جمع الشمل ونبذ الفرقة مما يمكننا من رد الفتنة عنا وإصلاح

ديننا وتزكية أعمالنا. صمت الجميع ولم يقاطعه أحد حتى انتهى من الدعاء. صمت لحظة ثم أعلن أن جميع القبائل لا بد أن تنبذ الحرب حتى يعم السلام أرجاء السودان، ويتاح لأبنائه أن ينالوا ما يستحقونه من رخاء وسعة في الرزق. أيد الجميع ما قاله الشيخ، ودارت أقداح القهوة المرة وأكواب المشروبات المحلاة بالسكر. دخل علينا رجل مريض يتحرك بالكاد مستندا على ساعدي اثنين من أبنائه. تقدم الرجل من الشيخ وشكا له محنة مرضه. الشيخ لمس رأسه بكفه وتمتم بآيات من القرآن. في لحظات فرد الرجل طوله وأعلن أمام الجميع شفاءه من آلام مرضه. كبّر وحوْلق الجالسون غير مصدقين المعجزة التي شاهدوها لتوِّهم. دفع الرجل ولديه بعيدًا عنه وقطع الصالة بخطوات ثابتة دون معاونة أحد. عندما خرج من المضيفة انطلقت زغاريد النساء المتجمهرات بالخارج. "سارتوريوس" باشا قام بتحية الشيخ ودعاه لزيارته في مركز قيادته عصر اليوم.

من فوق أسوار حصن "كاريزفورت" شاهدت الموكب المهيب آتيًا من الجزيرة في اتجاه معسكرنا. رفرفت الأعلام فوق "الجعفرية"، أقرب السفن إلى الجسر الذي يصل "القيف" بالجزيرة. ورأيت فرسان السواري وعساكر المشاة تتقدم الركب وأمامهم الموسيقات العسكرية. عندما اقترب الموكب من بوابة "جوردون"، أطلقت "الجعفرية" مدافعها لتحية موكب الشيخ الجليل. بعد عبوره إلى "القيف" تباطأت

حركة الموكب بسبب تجمهر أعداد هائلة من الأهالي. من موقعي أمكنني رؤية الشيخ بعباءته الخضراء محاطًا بمريديه الذين ارتدوا الجلاليب البيضاء ورفعوا الرايات الملونة. خلفهم سار ركب من الأهالى والعساكر تواكبهم زغاريد النساء. عندما اقترب الموكب من الحصن أطلقت المدافع تحية للضيف الكريم. اتجهت مع الضباط إلى الخيمة التي استقبل فيها "سارتوريوس" باشا الشيخ الميرغني. فرقة الموسيقى العسكرية لعبت السلام الخديو. بعد ذلك بدأ الحديث بالتحية المعتادة، وقام رجل دين بالدعاء للشيخ ولنجاح الحملة المصرية. بعد قليل حضر عدد كبير من رجال القبائل الصديقة لتقديم التحية للشيخ، وأعلنوا جميعًا رفضهم لتمرد البجا، ووقوفهم ضد مريدي طاهر المجذوب وأتباع عثمان دقنة. أكد بعض شيوخ القبائل الصديقة استعدادهم لمد يد العون لحامية سنكات، وأعربوا عن تصميمهم على كسر حصارها. وأعلنوا أيضا أنهم مستعدون للتحرك إلى هناك فورًا. الشيخ الميرغني صرح أنه سيفاوض أنصار المهدي لكي يصل إلى حل سلمي للوضع المتردي في شرق السودان.

قبل غروب الشمس استأذن العساكر المصريون من قادتهم، وفضوا التشريفة الرسمية التي التزموا بها حتى تلك اللحظة. بعد موافقة ضباطهم كون العساكر حلقة ذكر وبدأوا بالتمايل في حركة متناسقة وهم يرددون الصلوات على النبي. ثم علت أصواتهم بفاصل من الاستغاثات الربانية. شعرت بانسجام مع ما يدور حولي. أخذ

زملائي من الضباط يتمايلون وهم يكررون الصلاة والسلام على النبي. حمى وطيس المديح، وتعالت أصواتهم بالإنشاد. ظهرت علامات التعجب على وجوه رجال القبائل من السودانيين الذين بهرتهم صورة العساكر، بزيّهم الأبيض وفوق رؤوسهم الطرابيش الحمراء، وهم يتمايلون بخفة قابضين على بنادقهم، وقد استغرقوا تمامًا في حلقة الذكر التي وحّدتهم جميعًا. كل دورة يذكر فيها اللـه العليّ العظيم، هي دورة تضبط إيقاع الكون وتقرّبنا من التوحد مع الخالق.

***

سحرتني سواكن، أرض الجن والعفاريت.

يقال إن سواكن يرجع تاريخها إلى عهد سيدنا سليمان عليه السلام، حيث حبس فيها مَردة الجن الذين رفضوا تنفيذ أوامره. كان الملك سليمان يسخر الجن لكي يبنوا له قصوره ومعابده الفاخرة، ومن يعصه منهم كان يحبسهم في البحر فيربطهم في قاع خليج سواكن ويردم عليهم من جلاميد الصخور المرجانية التي ينتزعها من الساحل. من هذه الصخور تكونت أرض الجزيرة الموجودة في وسط الخليج. لهذا السبب عرفت بسواجن الجن والعفاريت. في يوم من الأيام نزل الجزيرة أمير حبشي وترك بها سبع عذارى من

حريمه، وعبر إلى الحجاز واليمن في تجارة له. عندما رجع إلى الجزيرة وجد السبع عذارى قد أنجبن سبعة أطفال. لم يحتمل الصدمة فجن جنونه وغضب غضبًا شديدًا. ولكي ينتقم لشرفه قرر ذبحهن مع أبنائهن، لكن عرافًا حذره من أن هؤلاء الأطفال هم أبناء مردة الجن الذين حبسهم سليمان في الجزيرة. خشيَ الأمير انتقام الجن فرحل وترك حريمه مع أطفالهن، فأصبحوا بذلك أول من سكن هذه البقعة الساحرة.

بعد سنوات عديدة أصبحت هذه البقعة الساحرة مركزًا لتجارة الرقيق. ما أبشع أن يجد الإنسان نفسه وقد اقتلع من عالمه الخاص وأجبر على الحياة في خدمة أسياد لا صلة له بهم، وفي أرض لا يعرفها. يخرج في الصباح للصيد فيتم اصطياده، يضربونه ويقيدونه بالأغلال ثم يأتون به إلى الأسواق ليبيعوه. يحشرونه بعد ذلك في قاع سفينة وسط المئات من المساكين أمثاله ويرسلونهم جميعا إلى نهاية العالم. ينزعونه من بين امرأته وأولاده وأهله لينتهي به الأمر في جحيم العبودية تحت نير السوط ولا حياة له سوى الاستسلام لاستبداد سيده. كل ذلك من أجل إثراء حفنة من تجار الرقيق. إنها بلا شك تجارة رابحة حققت مكاسب هائلة لبعض الأفراد والقبائل في السودان. ضغوط الحكومة البريطانية للقضاء على تجارة الرقيق أجبرت الحكومة المصرية على إلغاء تلك التجارة في السودان مما أثار استياء المنتفعين منها. ولتعويض الخسائر المادية الناتجة عن تطبيق

هذا القرار، رفعت الحكومة الضرائب على الأهالي مما زاد من تذمر السودانيين. محمد أحمد المهدي أدرك على الفور جوانب الأزمة التي خلقتها الحكومة المصرية لنفسها، واستغلها أفضل استغلال لتثبيت أقدامه ونشر دعوته. أدرك أن الجيش المصري أضعفته هزيمة التل الكبير، وأن الإدارة المصرية لن تستطيع حماية مديريات السودان المترامية الأطراف. مجرد الدعوة إلى إباحة تجارة الرقيق مرة أخرى ستجمع حوله الكثير من الأنصار. يكفيه إقناع الناس أنه مع ظهور المهدي ستستقيم الأمور مرة أخرى، وسترجع لنصابها السليم. مما سيعيد لهم المكاسب الطائلة بعد إحياء تلك التجارة البائسة، وبالطبع سيصاحب ذلك إلغاء ضرائب الحكومة المصرية الباهظة. كل بذور التمرد قد نثرت وآن الأوان للمهدي أن يجمع حصاده. عندما يضاف إلى ذلك انتحاله صفة خليفة رسول اللـه، يكون قد أصبغ على نفسه هالة من القدسية عززتها انتصاراته المدوية في كردفان، وسحقه لجيش "هكس" باشا. والآن لا يستطيع أحد أن يعارضه، فمن لم يبايعه طوعًا بايعه مكرهًا أو طمعًا. موقف الحكومة المصرية سيئ للغاية، والمصيبة أن القائمين عليها لا يدركون ذلك ويتعاملون مع مشاكل السودان برخاوة زائدة، على الرغم من أنهم يواجهون عدوًا شرسًا يرفع راية الجهاد الديني ولا يمتلك القدرة على التسامح.

اليوم ذهبنا لاستقبال بيكر باشا عند عودته من مصوَع. كان قد ذهب إلى هناك ليستطلع الأوضاع على حدود الحبشة، ولكي

يقف على آخر تطورات النزاع على الحدود. الانطباع العام عن رحلته كان جيدًا، خاصة أن عددًا من القبائل التي قام بزيارتها في الطريق أعلنوا ولاءهم للحكومة المصرية. سعدنا سعادة بالغة عندما عرفنا أن بيكر باشا نجح في تجنيد المزيد من أحباش مصوع ومن السنهيت. هؤلاء مشهود لهم بالشراسة والصلابة في القتال، ومعروف عنهم قدراتهم الفائقة على احتمال الشدائد.

***

منذ أيام قليلة وصلت أولى فصائل عساكر الزبير من السودانين، ومعها جاءنا خبر صدور مرسوم الحكومة المصرية بإخلاء السودان، وما تبع ذلك من استقالة وزارة شريف باشا. مما لا شك فيه أن الإنجليز قد ضغطوا على الخديو والحكومة لكي يتم سحب كل الحاميات المصرية الموجودة في السودان. وزارة شريف باشا استقالت احتجاجا على ذلك المرسوم، وعلق شريف باشا على هذا القرار قائلا: "إذا تركنا السودان فالسودان لا يتركنا". للأسف الحكومة الجديدة خضعت للضغوط وأصدرت ذلك المرسوم المشئوم. الجميع في سواكن أصابتهم خيبة أمل عظيمة واضطربت أحوالهم. لا أحد يفهم أسباب هذا القرار المحير، وخاصة أننا نعمل بجدٍّ لإعداد الحملة التي ستتجه إلى طوكر لنجدة حاميتها وفك حصارها. عند سماعنا

الخبر غلب اليأس على ضباط الجندرمة، ولم يفهموا جدوى خروجهم إلى طوكر إذا كنا سننسحب من السودان كله في نهاية الأمر. إذا كانت الحكوم المصرية لا تريد إبقاء أي قوات في السودان، فلماذا لا يستسلم رجال حامية طوكر ويسلمون المدينة لعثمان دقنة. لو فعلوا ذلك سيعفو الرجل عنهم ويتركهم ينسحبون بسلام.

منذ وصول مرسوم إخلاء السودان، فر عدد كبير من أهالي سواكن وانضموا إلى معسكر عثمان دقنة. من ضمنهم قاضي القضاة الذي ترك رسالة يقول فيها، إذا كانت الحكومة المصرية قد قررت الانسحاب من السودان، وبما أنه وأهله لا يمكنهم مغادرة البلاد، فمن المؤكد أن المهديين سينتقمون منه ومن عائلته قبل أي شخص آخر. لهذه الأسباب وجب عليه أن يهادن المهديين، وأن ينضم إلى معسكرهم. ومما يثير العجب إشارته التي أوردها في نهاية الخطاب إلى أنه سيعود فورًا إلى خدمة الحكومة المصرية إذا قررت عدم الانسحاب من السودان لأي سبب من الأسباب وفضلت الإبقاء على حامياتها هناك.

الطامة الكبرى هي تأثير نبأ صدور ذلك المرسوم على القبائل المتحالفة معنا. ما يقلقنا جميعًا هو ما سيؤدي إليه هذا الخبر من تراجع القبائل التي تم الاتفاق معها على كسر حصار سنكات. لكي يرفع الروح المعنوية لجنودنا وللقبائل المتحالفة معنا، يخرج بيكر باشا كل يومين على رأس سرية من فرسان السواري لاستطلاع

معسكر عثمان دقنة. كما أنه يدقق على قيامنا بالتدريبات اليومية.

بين الحين والآخر تصلنا أنباء عن تقدم قوات العدو إلى مشارف سواكن. في العادة نسرع بإرسال قوة من الفرسان لاستطلاع الموقف واستكشاف تحركات العدو في المناطق المحيطة. الليلة أيقظتني أصوات طلقات نارية متتالية، قفزت من فراشي باحثًا عن حذائي. ارتديت ملابسي وتوجهت نحو سور الحصن لكي أستطلع الأمر. ريح باردة لفحت وجهي عندما خطوت خارج خيمتي. رذاذ مطر خفيف بلل جبهتي لكنني لم أبال. أفراد الحراسة المسئولون عن حماية الأسوار كانوا يطلقون نيرانهم بطريقة عشوائية وبلا هدف. فاحت رائحة البارود التي امتزجت مع رذاذ المطر. وسط كل هذا الهرج والمرج لم يتضح لي إذا كان مقاتلو البجا قد أطلقوا النيران حقًا على أسوارنا. لم أصدق حالة الاضطراب التي وجدت عليها أفراد الحراسة، ولم يفلح ندائي المتكرر في حملهم على وقف إطلاق النيران.

من المثير للعجب أن تصبح قوة مدربة على فنون القتال الحديثة مهددة هكذا ليلة بعد الأخرى من قبل بضعة محاربين بدائيين لم يحملوا البنادق إلا منذ شهور قليلة. لا شيء يثبِّط الهمم ويضعف معنويات العساكر أكثر من عدو خفي قادر على مهاجمتهم ليلة بعد ليلة من حيث لا يحتسبون. يسمعون صرخات محاربي البجا من اتجاه ما ثم ينهال عليهم الرصاص من اتجاه آخر.

الإرهاق الشديد يضعف عزيمة رجالي وينال من إرادتهم. مع مرور الوقت أخشى من ازدياد اقتناعهم بعدم عودتهم إلى بلادهم، وبأن حكومتهم قد أرسلتهم إلى سواجن الجن لكي تتخلص منهم.

***

الزبير رحمة

يناير، 1884

يوم بارد، لهوائه لسعة تنخر في العظم. كعادتي ذهبت إلى المقهى في الصباح الباكر. وجدت جلبة وزحامًا بالقرب من الرصيف الرئيسي للميناء، جمع كبير من عساكر الجهادية السودانيين منتشرون في الشوارع المحيطة بالمقهى. أنفار منهم أقعوا بجوار سور الميناء وآخرون وقفوا بجانب مخاليهم يتبادلون أحاديث محتدمة. تذكرت أفراد الأورطة السودانية الذين صمدوا بجانبنا يوم التل الكبير. أجسام العساكر الفتيّة وخفة حركاتهم استدعت اللحظات العصيبة التي مررت بها وأنا أحارب إلى جوار إخوانهم

بين خنادق التل الكبير. عندما وصلت إلى المقهى وجدت مجموعة من الجهادية جالسين مع جاويشهم، وبالقرب منهم طاولة أخرى تجمع حولها عدد من بحارة السفن التي ترتفع سواريها في الميناء. أحضرت للجهادية ما طلبوه من أكواب الشاي والقرفة. ووقفت بالقرب منهم أستمع إلى أحاديثهم. لقد تملكني الفضول. مَن هؤلاء ومن أين أتوا؟ أحد أنفار الجهادية خبط ركبته بيده وقال:

- "الزبير رحمة" لم يحضر. لقد أكدوا لنا أنه سيقود أورطتنا لكنه لم يأت معنا.

نفر آخر رد عليه:

- لقد غرر بنا المصريون! يا لها من ورطة. لن نجد قائدًا أفضل منه.

الجاويش الذي أمسك طربوشه في يده أضاف:

- "الزبير رحمة" هو بلا شك رجل السودان القوي. هو الوحيد الذي يحظى باحترام أهل السودان بشكل يفوق ما للمهدي من تبجيل. ربما كان الرجل الوحيد القادر على التصدي للمهدي وهزيمته. والعجيب حقا أنه مع ذلك لم ترسله الحكومة المصرية مع حملتنا إلى طوكر.

الشائعات المتداولة لمّحت إلى أن الخديو توفيق كان مقتنعًا في البداية بقدرات الزبير باشا وجدارته بقيادة الحملة على شرق

السودان. لكن يبدو أن الإنجليز قد ضغطوا على الخديو ليمنح قيادة الحملة لبيكر باشا بدلا منه، على أن يقود الزبير أورطة من الجهادية السودانيين يقوم بتجنيدهم بنفسه. أصبح من المتوقع أن يذهب الزبير إلى سواكن عندما ينتهي من تجنيد الأعداد المتفق عليها من العساكر السودانية وبعد إعدادهم وتدريبهم بشكل مناسب. سألتهم:

– هل أنتم من أفراد أورطة الزبير الذاهبين إلى سواكن؟

أجاب الجاويش وهو يتفحّصني بنظرة جادة:

– نعم! لكن هل تعرف من هو الزبير باشا؟

– طبعا أعرف من هو! الزبير باشا فاتح دارفور ومديريات خط الاستواء.

الجاويش ارتدى طربوشه مرة أخرى واعتدل في جلسته ثم بدأ يحكي ما يعرفه عن الزبير باشا:

– لقد كان من كبار التجار السودانيين. وكان له نفوذ عظيم في مديريات جنوب وشرق السودان، فاحتكر جزءًا كبيرًا من تجارة الرقيق وسن الفيل والعاج والصمغ. أثناء سنوات حكم الخديو إسماعيل توسع الزبير باشا في تجارته وامتدت سطوته على أرجاء مديريات خط الاستواء، فشاع صيته وتحالف

معه الكثير من أبناء القبائل في تلك المناطق. اختلف الزبير مع سلطان دارفور على تأمين طرق التجارة، فحاول أن يحصل على تأييد الحكومة المصرية لمساعدته ودعم موقفه. لكن الحكومة ماطلت ولم تلبِ طلباته. عندئذ قرر أن يأخذ زمام الأمور في يده، فبعث برسالة إلى سلطان دارفور يأمره بأن يسلم البلاد له أو أن يواجه عاقبة خطيئته. رد السلطان بخطاب شديد اللهجة يطالب الزبير بتسليم نفسه في الحال، ومهددا إياه بأنه سيفقد رأسه في اللحظة التي ستطأ قدماه أرض مملكته. أسرع الزبير بإعلان الحرب، واستولى على دارفور وقتل سلطانها، ثم قدم تلك البلاد هدية للخديو إسماعيل حتى يضمن مساندة الحكومة المصرية لأنشطته في السودان. بعد ذلك طلب تعيينه حاكمًا على دارفور وكردفان. في البداية لم يصله رد من الحكومة ثم تم بعد ذلك تعيين حاكم آخر. على الفور ذهب الزبير إلى القاهرة للمطالبة بحقوقه.

قاطعه أحد العساكر محاولا أن يستعرض معرفته ببواطن الأمور:

– ويبدو أن الخديو إسماعيل كان يخشى من تزايد نفوذ الزبير في السودان فأبقاه في القاهرة، ولم يسمح له بالعودة إلى السودان. ومع ذلك منحه لقب الباشوية تقديرًا لجهوده.

نفر آخر من العساكر أضاف:

– أحيانًا تكون تصرفات المصريين غريبة وغير مفهومة.

الجاويش نظر إليهما متعجبًا لأنهما قاطعاه وأكمل روايته:

– في ذلك الوقت كانت الحكومة المصرية تعاني من ضغوط عنيفة من قبل جمعية "مناهضة تجارة الرقيق" البريطانية، فقدرت أن التحفظ على الزبير رحمة في القاهرة سينعكس إيجابيًا على سمعة مصر عالميًا.

سحبت كرسيًا وجلست معهم مضيفا ما أعرفه عن منع تجارة الرقيق:

– في نفس الوقت أرسلت الحكومة المصرية "جوردون" باشا كحاكم عام على السودان، كي يؤسس لنظام يعمل على القضاء على تجارة الرقيق والحد من سلطة الأتراك واستبدادهم في مديريات السودان.

أحد العساكر رد:

– الله يخرب بيوتهم. لقد كان حكم "جوردون" باشا للسودان كارثيًا. لم يفهم الرجل أبدًا كيف تجري الأمور هناك وتصرف بحماقة ليس لها مثيل.

وافقه الجاويش الذي أمسك بكوب الشاي وعلق:

- بالإضافة إلى سياساته الهادفة إلى منع تجارة الرقيق قام "جوردون" باشا بطرد أعداد كبيرة من "الباشبوزق" الأتراك، واحتكر تجارة العاج وسن الفيل. أسلوب إدارة "جوردون" باشا للسودان ضيق على أرزاق أهل البلاد وأثار حنق تجار الرقيق.

أضاف عسكري آخر:

- تصرفاته الخائبة أضعفت كذلك من سلطة الحكومة المصرية.

الجاويش رفع كفه معلنًا وجهة نظره:

- لاحظ أن طرد الكثيرين من "الباشبوزق" قد أدى إلى اختلال ميزان القوى الموجودة على الأرض، وأتاح لتجار الرقيق المحليين التصرف بحرية أكبر.

- خاصة أن الزبير الباشا الموالي للحكومة المصرية قد تم إبعاده عن السودان.

سألتهم:

- هل يعني ذلك أن "جوردون" باشا قد تسبب في انتشار تجارة الرقيق بدلا من القضاء عليها؟

رد الجاويش:

- بالطبع! كأن الرجل لم يعمل على القضاء على تجارة الرقيق

بل كان يقصد زعزعة حكم المصريين للسودان. مما زاد الطينة بلة، أن "جوردون" باشا تورط فيما بعد في حادث مقتل ابن الزبير.

لم أفهم عما يتحدث فأدرك حيرتي فعاد وأوضح لي ما حدث:

– عندما ذهب الزبير باشا إلى القاهرة ترك ابنه سليمان لكي يدير شئون تجارته في السودان. يبدو أن "جوردون" باشا قد تورط في مقتل سليمان على يد أحد ضباطه يدعى "جيسي". هذه الحادثة فتحت المجال لعدد كبير من التجار الصغار في التوسع في تجارة الرقيق. وبدون "الباشبوزق" الأتراك أصبح من المستحيل احتواء الموقف.

علقت:

– لقد خربها "جوردون" باشا وقعد على تلها قبل أن يترك السودان.

– من المؤكد أنه خربها! بعد كل ما فعله أصبح تجار الرقيق في السودان مناوئين بشدة للإدارة المصرية. لكي تعوض الخسائر المادية الناتجة عن منع تجارة الرقيق اضطرت الحكومة المصرية إلى رفع الضرائب، وإلى التشديد في جباياتها مما زاد من غضب الأهالي.

أحد العساكر احتسى آخر رشفة من كوب القرفة وقال:

– هنا في مصر أنتم لا تدركون حقيقة ما يحدث في السودان. منع تجارة الرقيق وزيادة الضرائب أغضبتا الأهالي وشجعتا الكثيرين من رجال قبائل كردفان ودارفور على الانضمام إلى المهدي عند ظهور دعوته.

أحد البحارة الجالسين على الطاولة المجاورة استدار نحونا وقال:

– في الشهر الماضي وصل إلى سواكن ابن شقيق الزبير باشا على ظهر السفينة "طنطا" بصحبة عدد قليل من العساكر السودانية.

رد الجاويش:

– عرفنا بذهاب ابن شقيق الزبير إلى سواكن. ولقد شجع ذلك العديد من العساكر السودانية على الانضمام إلى هذه الأورطة.

تابع البحار حديثه:

– عندما كنا هناك سمعنا أنه قد أوكلت إليه مهمة الاتصال ببعض أترابه وأصدقائه القدامى الذين انضموا إلى المهدي. وذلك لاستمالتهم ولتشجيع الانقسام بين أنصار عثمان دقنة، وكذلك لإغراء بعض القبائل المساندة للمهدي على الانسحاب من التحالف معه.

بحار آخر أضاف:

- أنتم طبعا لا تعرفون أن عثمان دقنة أهدر دم ابن شقيق الزبير فور علمه بوصوله، وأمر أنصاره بقتله إذا أتيحت لهم الفرصة. بعض معارف الزبير المخلصين طلبوا من ابن شقيقه البقاء في سواكن فلم يخرج منها.

ظهرت بعض علامات الحيرة على وجوه العساكر السودانيين. أكمل البحار روايته:

- عرفنا أخيرًا أن عثمان دقنة تلقى رسالة من المهدي أعلن فيها عن نيته التحرك شمالا إلى الخرطوم بعد الاستيلاء على المناطق الواقعة بالقرب من خط الاستواء، ثم سيقوم عقب ذلك بفتح مصر نفسها. من ثمة سيعبر إلى الحجاز ومكة وسيستولى على كل أراضي الإمبراطورية العثمانية حتى يصل إلى إسطنبول، ويقيم بذلك الخلافة ويعيد مجد الدولة الإسلامية.

تجهم وجه الجاويش الذي قال بحدة:

- لو كان الزبير باشا في السودان لما تجرّأ محمد أحمد المهدي وأتباعه على ارتكاب الفظائع التي يرتكبونها حاليا.

الجميع هنا كانوا يؤمنون بأن "الزبير رحمة" هو رجل السودان

القوي وأنه الوحيد القادر على التصدي للمهدي ودحر عثمان دقنة. للرجل هالة من التبجيل لما له من صيتٍ بين أهل السودان، وغياب رجل كالزبير باشا في وقت صعب كهذا لا يبشر بخير على الإطلاق.

ناداني صاحب المقهى وأنبني على كثرة الرغي مع الزبائن. خطرت في بالي "الدهبية" التي شاهدتها راسية على ضفة الترعة الحلوة في النفيشة. تمنيت أن أقضي بقية أيامي في "دهبية" كتلك بين أحضان غالية.

***

ترنكتات

فبراير، 1884

ما زلت في سواكن.

ترقبنا قدوم الزبير باشا لكنه لم يحضر إلى سواكن. استمر وصول العساكر السودانية بدون قائدها المنتظر. اشتهر السودانيون بشراستهم في القتال، وقد شاهدت ذلك بنفسي في التل الكبير. لكن في نفس الوقت يعرف عنهم عدم الانضباط في القتال إلا تحت إمرة قائد خبير بأساليبهم الخاصة في الحرب. بدون الزبير أشك أننا سنستفيد من العساكر السودانية بشكل مؤثر. يبدو أن توجس القاهرة من نيّات الزبير باشا قد غلب على حكمة قرارات حكامها.

منذ أيام قليلة غادر بيكر باشا سواكن لاستكشاف خليج ترنكتات، ولكي يقوم بالإعداد لرأس الجسر اللازم لإنزال قواتنا هناك. رافقته سفينتنا "الطور" و"الجعفرية" تحمل فرقة من العساكر والمعدات الضرورية. بعد رحيل بيكر باشا صارت سواكن كتلة من النشاط لا ينقطع. فصيل بعد الآخر يجري تجميعه مع معداته وأسلحته ثم يتم إرسال أفراده إلى نقطة واقعة خلف بيت الحكمدار. هناك يستقل العساكر قوارب خشبية عميقة تحملهم إلى البواخر والسفن الراسية على بعد ياردات قليلة. ترى في كل قارب بحارين يجدِّفان بهمة ونشاط لساعات طويلة. الميرالاي عبد الرزاق بك، أشرف بنفسه على عملية تحميل البواخر بالجنود والعتاد. كل باخرة حملت معها أقصى ما تستوعبه من أفراد ودواب ومعدات، فلا يمكنك أن تجد بها موطئًا لقدم. استمر العمل مع أول ضوء للنهار حتى المساء، ثم تم استكماله في صباح اليوم التالي. زوجات العساكر المحليين سرن خلف طوابير الفصائل حتى بيت الحكمدار. كن يتحركن ببطء. رؤوسهن غطتها الطرح البيضاء. لا تكاد تسمع سوى همساتهن كأنهن يخاطبن شبحًا ثقيلا.

بعض أفراد أورطتي القاهرة والإسكندرية أوكل إليهم حماية أسوار سواكن تحسبًا لهجوم مفاجئ يمكن وقوعه أثناء نقل القوات لترنكتات. ذهبت وسط مجموعة من الضباط الذين اصطحبهم أحمد بك كمال لكي نتفقد الاستحكامات المقامة حول البلدة. حكى لنا عن

الشجار الذي وقع بين الكولونيل "سارتوريوس" والعساكر الأحباش الذين أتى بهم بيكر باشا من مصوع. قام الضباط المصريون بتوزيع زي جديد عليهم ليستبدلوا به الثياب القديمة التي أتوا بها من بلادهم. رفضوا تمامًا أن يرتدوا سراويل الجندرمة البيضاء بسبب ضيق أرجلها. وبما أن تبادل الحديث معهم كان شديد الصعوبة بسبب جهلنا بلغتهم، أصبح التفاهم بينهم وبين الضباط مستحيلا. لكن نظراتهم وأصوات احتجاجاتهم أوضحت لنا أنهم مشمئزون تمامًا من ارتداء زي الجندرمة الأبيض. استمر الشد والجذب لفترة طويلة حتى أتى الضباط بالأحذية التي كان يجب عليهم ارتداؤها. عند هذه اللحظة انفجر الأحباش في سلسلة من الاعتراضات الحادة، وتعالت صيحاتهم وأكثروا من التلويح بأذرعتهم في الهواء. بصعوبة فهم أحمد بك كمال أنهم أتوا إلى سواكن مع بيكر باشا ليحاربوا وليس ليرتدوا السراويل البيضاء الضيقة والبيادات السوداء. بعد مناقشات طويلة لم يصل الضباط إلى حل سوى قبول الأحباش بارتداء القمصان البيضاء مع الطرابيش الحمراء على أن يبقوا على سراويلهم القديمة وأقدامهم الحافية.

فصيلتي بقيت في سواكن حتى آخر يوم عندما ركبنا السفينة "الزقازيق" التي أبحرت إلى ترنكتات. اضطررنا لقضاء يوم كامل في عمل متواصل لشحن ما تبقى من الخيول والجمال. لم تكن هناك مرساة سليمة لتحميل الدواب. البغال والخيل لم تمتثل بسهولة لركوب

قوارب النقل إلى المراكب، وذلك لارتفاع جوانبها وعمق قيعانها. لم يكن أمام تلك الحيوانات إلا القفز بداخل القوارب عند الوصول إلى حافة المرساة. قام كل ثلاثة أو أربعة رجال بتقييد أرجل البغال والأحصنة الخلفية بحبل يمسكون به ثم يجذبونه بينما يدفع أحدهم البغل أو الحصان من الخلف عندما يصلون به إلى حافة المرساة. نجح هذا الأسلوب مع البغال والأحصنة، لكن الجمال كانت صعبة المراس للغاية. احتجنا إلى عشرين رجلًا على أقل لتحميل كل جمل. نربطه بالحبال ونجذبه من جميع الاتجاهات وعندما نصل به إلى القارب يمسك أحدهم بمنخاره ويجذبه إلى القارب. في معظم الأحيان يثور الجمل ويرفع رأسه محاولا الإطاحة بالرجل المتشبث بمنخاره. فيتعلق الرجل بأنف الجمل بينما نقوم جميعًا بجذبه حتى يعبر حافة القارب ويقفز داخله. استمرت عملية تحميل الدواب حتى نال منا التعب والإرهاق الشديدان عند غروب الشمس. جندي من فصيلتي تلقى رفسة من أحد البغال لم يستطع بعدها أن يمشي فاضطررت أن أتركه في سواكن. في صباح اليوم التالي نقلنا باقي العتاد والمؤن وصعدت إلى السفينة مع أنفار فصيلتي الذين استقروا في الأماكن المخصصة لهم، بينما انضممت إلى أحمد بك كمال الذي كان بصحبة "سارتوريوس" باشا على سطح الباخرة.

***

أرسلُ تحياتي من خليج ترنكتات الذي يشبه إلى حد كبير خليج سواكن، لكن الجبال الساحلية تبدو كأنها انسحبت إلى الداخل بعيدا عن الشاطئ. السهل الذي يفصل الخليج عن الجبال يبدو هنا أكثر اتساعا ورحابة. رست السفينة عند نقطة تفصلها عن الشاطئ منطقة من الشعاب المرجانية التي تغطيها مياه ضحلة لا تسمح للقوارب بأن تطفو فوقها. كان علينا أن نخوض في المياه لكي نقوم بتفريغ المركب. قضيت معظم النهار في الإشراف على تلك العملية مع مجموعة من الضباط المصريين. بعد أن انتهينا وجب علينا أن نعبر ميلين من الأرض الطينية السبخة للوصول إلى الاستحكمات التي قضى بيكر عدة أيام لتشييد سور يحميها. المسافة التي عبرناها فوق هذه المنطقة أنهكتنا. غاصت أقدامنا في الطين مما أبطأ من مسيرتنا. غرزت عجلات المدافع في الأرض الرخوة واضطررنا أكثر من مرة إلى التوقف لمعاونة الطوبجية على سحب المدافع. بعد جهد كبير وصلنا إلى "حصن بيكر" حيث أعدنا ترتيب صفوف أنفار فصائلنا، وتركت جنودي ليقيموا معسكرهم بالقرب ممن سبقوهم من الفصائل. بحثت عن محمد عباس وعبد الله الدكروري اللذين سبقاني إلى ترنكتات. وجدت عبد الله يتمِّم على الأفراد القائمين على حراسة الجدار الذي شيده بيكر باشا ليحمي المعسكر. سألته عن محمد عباس فضحك بصوت مرتفع وشرح لي أن اليوم هو دور فصيلة محمد عباس لنقل المياه. لم أفهم ماذا يعني، وأوضح

لي عدم وجود مصدر للمياه الحلوة في ترنكتات، فلذلك يلزم تكثيفها على سطح "الطور" و"دب البر". حيث تستعمل غلايات السفينتين لتكثيف المياه التي يتم حفظها في كم هائل من البراميل والخزانات. تملؤ بالماء طوال اليوم ثم تقوم فصيلة من الفصائل بنقلها أولا إلى الشاطئ، وبعد ذلك إلى المعسكر بالقرب من الاستحكامات التي شيدها بيكر. في يوم وصولي كانت فصيلة عباس هي المسئولة عن هذه العملية.

سرت بجانب عبد اللـه الذي وصف لي ما فعلوه في الأيام السابقة منذ وصولهم إلى ترنكتات. استرسل في رواياته عن همة بيكر باشا الذي لم ينقطع نشاطه منذ أن نزل الشاطئ. في البداية، عندما كانوا يشيدون الجدار المحيط بالمعسكر، كان بيكر باشا يقضي لياليه على ظهر "السفنكس" مع الأميرال "هيويت". في الأيام الأخيرة لم يفارق جنوده ودأب على الإشراف على أعمالهم طوال النهار حتى ساعة متأخرة من المساء. وانشغل بيكر كذلك بتفاصيل الإعداد للحملة كي يتأكد من كل دقائق خطة التحرك نحو طوكر. ارتحت لما سمعته وزاد شغفي بمعرفة تطورات الأوضاع خلال الأيام القليلة الماضية. سألته عن أنصار المهدي، وهل طلائع مقاتلي البجا موجودون بالقرب من ترنكتات، أم أنهم متمركزون حول طوكر. أخبرني عبد اللـه أنهم شاهدوا بعض البجاوية على مسافة بعيدة من أسوار "حصن بيكر"، كما أصبح يطلق على الجدار الذي تم تشييده. كلما شاهدوا

طلائع البجا يقوم الأميرال "هيويت" بإطلاق قذائف مدافع البارجة "سفنكس" عليهم فيفروا هاربين. عبرت عن ثقتي الكاملة في قدرتنا على هزيمة أنصار المهدي بعد كل هذه الاستعدادات. ثم أنبأته بما صرح به آخر جاسوس رجع إلى سواكن من طوكر، والذي أكد لنا أن مقاتلي قبائل البجا والهدندوه في تلك المنطقة لن يتعدوا الألف بأي حال من الأحوال. داعبته مؤكدا أن حملتنا ستكون أقرب إلى الخروج في نزهة ممتعة أكثر منها خوض حرب حقيقية، وكيف سيفر من أمامنا أنصار المهدي عندما يرون بأسنا وقوة نيراننا. ابتسم عبد اللـه وأجزم بأنهم لن يصمدوا أمامنا لأكثر من دقائق، وأنهم سيهربون بعدها متفرقين بعيدًا عن طوكر، وعن باقي بلدات المنطقة. وسألني مداعبا عن شوقي للقاء عبد الرحيم بعد مرور كل هذه الشهور. تذكرت أنه قد مضت سنتان منذ رحيل أخي، وتضاحكنا عندما تخيلنا رد فعل عبد الرحيم ومدى دهشته عندما يجدنا أمامه في طوكر.

***

سأروي لكم تفاصيل المأساة.

يوم كئيب بدأ بزخّات من المطر المتواصل سكبتها سحب ثقيلة تدلت من السماء، فكادت أن تعانق أشجار السنط المنتشرة حولنا.

كانت القطرات الأولى نذيرًا للأمطار الغزيرة التي ستصحبنا طوال اليوم. نوبة صحيان أطلقها النفير عند الفجر، ومعها استيقظ العساكر واصطفوا قبل شروق الشمس استعدادًا للتقدم نحو طوكر. في السادسة والنصف خرج بيكر باشا من خيمته وامتطى صهوة جواده. لوَّح بيده مشيرًا لصفوف العساكر بالتحرك. تقدم بيكر باشا على رأس القوات وعلى يمينه "سارتوريوس" باشا وعلى يساره عبد الرازق بك. خلفه تحركت قواتنا على هيئة طابورين من المشاه. الطابور الأيمن تكون من أورطتي القاهرة والإسكندرية بالإضافة إلى أورطة من الأحباش الذين أحضرهم بيكر باشا من مصوع. أما الطابور الأيسر فضم العساكر السود من سنهيت وأورطة من "الباشبوزق" الأتراك ومعهم الجهادية السودانيون. الطوبجية ساروا بجوار مدافعهم في المقدمة يحميهم طابوران من المشاه. سرايا سلاح الفرسان وسناجق "الباشبوزق" رافقونا على بعد ميل من جانبي بلوكات الجيش لكي يكشفوا أي هجوم من الأجناب. الجمال والبغال التي حملت المؤن والمياه سارت في الخلف، يحميها مائتان من الجهادية السودانيين. حمل العساكر مؤنًا تكفيهم لثلاثة أيام، لأننا كنا نتوقع الوصول إلى طوكر في نفس اليوم، وعلى هذا الأساس قدرنا أننا سنحتاج ليوم إضافي لنتمكن من الرجوع إلى ترنكتات.

الأرض التي عبرناها كانت مغطاة بأشـــجار السنط والميموزا ذات الأشـــواك الحادة، والتي تحيط بها الحشائش الطويلة. الرؤية

كانت شبه منعدمة بسبب الأمطار الغزيرة والضباب الكثيف. كان علينا أن نتوقف من حين لآخر حتى نعيد ترتيب صفوفنا. بعد مسيرة بضعة أميال أشار أحدهم إلى أننا مقبلون على المكان الذي هزمت فيه تجريدة خليل أفندي وقتل عنده القومندان "مونكريف". في هذه المنطقة بالقرب من آبار التب سمعنا أول طلقة. أرسلنا فرسان إحدى وحدات الاستطلاع لاستكشاف أعلى تبة عريضة غرست فوقها مجموعة من رايات المهديين. عندما وصلوا إلى هناك سمعنا صوت إطلاق للنيران. أحد الفرسان رجع إلينا ليخبر بيكر باشا بما رأته وحدته من فوق التبة. بعد تبادل وجيز للنيران رأينا باقي فرساننا يتراجعون بسرعة. الطوبجية أمامنا قاموا بتحضير مدافعهم على عجل ثم بدأوا بإطلاق القذائف في اتجاه الرايات.

عند هذه اللحظة رأينا مجموعة من البجاوية ممتطين جمالهم وهم يحاولون الالتفاف حول ميمنة قواتنا. بدوا أكبر من أحجامهم الطبيعية لأن رجال القبائل في السودان الشرقي يتركون شعورهم حتى تبلغ من الطول أقصى حد ثم يدهنونها بشحم الجمال والبقر. يتركونها واقفة غير مسبولة فيظنها الرائي قبعة طويلة سوداء اللون. معظمهم كانت صدورهم عارية لا يرتدون إلا إزارًا من الدمُّور يلفونه حول وسطهم. فور مشاهدتهم خرج إليهم فرسان "الباشبوزق" بملابسهم الملونة وانقضوا عليهم شاهرين سيوفهم. انسحب محاربو البجا وتبعهم "الباشبوزق" وهم يتصايحون. بعد مطاردة طويلة

اختفوا خلف تل صغير على مسافة بعيدة منا وبعد قليل رأينا فرساننا يفرون نحونا كأنهم أصيبوا بمس من الجنون. ما هي إلا دقائق معدودة حتى ظهرت خلفهم أعداد هائلة من مقاتلي البجا بأجسامهم الممشوقة، وعضلاتهم المفتولة وشعورهم الهائشة. أخذوا يقتربون منا بسرعة هائلة شاهرين سيوفهم ورماحهم وممسكين بدروعهم المستديرة. أجسام فارهة نحاسية اللون، تتقدم برشاقة مرعبة وهي تلوِّح بأعلام المهدي. من خلفهم فتح رماة العدو النيران على مقدمة وأجناب صفوفنا في وقت واحد.

تعجبت من وجودهم على بعد هذه المسافة القريبة. يبدو أن سرايا فرساننا لم تحافظ على المسافة المحددة لها على أجناب طوابيرنا. سمح ذلك للمهديين بالاقتراب من أجنابنا دون أن نكتشفهم. اتضحت الآن نية مقاتلي البجا بالهجوم علينا من جميع النواحي في نفس الوقت. الكولونيل "سارتوريوس" الذي كان مصاحبًا لبيكر باشا في مقدمة الجيش تركه هناك ورجع إلينا بأقصى سرعة ورأيناه يتحدث إلى أحمد بك كمال. سرعان ما أصدر الأخير أوامره بتشكيل مربع دفاعي كبير لصد الهجوم. في البداية كانت تحركاتنا مضبوطة بينما كان أنصار المهدي لا يزالون على مسافة كافية تتيح لنا القيام بكل المناورات المطلوبة.

تحرك عساكرنا من أورطة القاهرة وأورطة الإسكندرية ليشكلوا واجهة المربع وجانبه الأيمن. ثم بدأوا بإطلاق النيران بوتيرة متسارعة

بدون أن تصدر لهم الأوامر بذلك. دخان نيران البنادق غطى على كل شيء والأمطار المنهمرة جعلت من الصعب رؤية صفوف عساكرنا بوضوح، ناهيك عن مراقبة مقاتلي البجا الذين كادوا أن يطبقوا علينا. بعض طلقات أنفار الجندرمة أصابت الطوبجية المتمركزين أمامنا، فهجر هؤلاء مدافعهم وانضموا إلى المربع.

الأتراك وأحباش مصوع كونوا مربعين دفاعيين صغيرين لحماية جانبي المربع الكبير. من مكاننا في المقدمة لم نعرف ماذا يحدث وراءنا على الجانب الأيسر من المربع، أو عند ضلعه الخلفي. فجأة وبشكل غير متوقع قام عساكر السنهيت بالاصطفاف بجانبنا على امتداد الضلع الأمامي. كأنهم نسوا أوامرهم فتحركوا للأمام بدلا من أن يستديروا لكي يكونوا الضلع الأيسر. زاد ارتباكنا وحاول بعضنا بشكل غريزي سد الفتحة الموجودة في صفوفنا. سمعت صخبًا خلفي فاستدرت ورأيت مربع الأتراك يتحرك بطريقة تلقائية لسد الفتحة التي تركها السنهيت شاغرة في الضلع الأيسر للمربع. تقهقر كذلك بعض رجال أورطة القاهرة لسد الفراغ الموجود خلفهم. تبع ذلك تراجع باقي رجال أورطتي القاهرة والإسكندرية الذين أربكوا الأحباش والسودانيين عندما اختلطوا بهم واصطدموا جميعا بالجمال والبغال التي حاولت الدخول إلى قلب المربع، فاضطربت صفوف الجهادية من السودانيين الذين لم يستطيعوا الاصطفاف بشكل سليم لتكوين الضلع الخلفي للمربع.

صرخت في جنودي لكي يثبتوا في أماكنهم، وأن يركزوا ضرباتهم على مقاتلي العدو الذين يندفعون نحونا بدلا من إطلاق النيران بعشوائية على أي شيء يتحرك أمامهم. الصخب الذي أثاره تراطم الجنود بعضهم ببعض اختلط مع فرقعات طلقات البنادق وصراخ الضباط فلم يعد أحد منا يسمع أي أوامر أو توجيهات. تكرر إطلاق الرصاص من ناحية فرساننا المنسحبين أمام محاربي البجا قبل أن تستقبلهم الطلقات الطائشة من صفوف المربع الأمامية فسقط الكثيرون منهم بنيران رفاقهم. أصاب الهلع بقيتهم فاندفعوا نحونا واصطدموا بالضلع الأمامي. اضطربت صفوف الجندرمة وبدأوا بالتراجع نحو قلب المربع. كنت قريبًا من أحمد بك كمال فسمعته ينادي أوامره لقائد أورطة السنهيت لكي يتحرك جنوده لسد الفراغ الموجود بالضلع الأيسر. عند هذه اللحظة حملتنا لمسافة مائتي ياردة موجة بشرية من العساكر المتراجعين. انفصلت عن جنود فصيلتي ووجدت نفسي محاطا بخليط من عساكر السنهيت و"الباشبوزق" الأتراك المحشورين وسط الجمال والبغال الآتية من الخلف. فقد المربع ملامحه وانقسم إلى مجموعات من الجنود الذين يطلقون النيران على أي شيء يقترب منهم بمن فيهم رفاقهم في السلاح.

بعد دقائق قليلة أطبق علينا محاربو البجا وأعملوا في صفوفنا الأمامية القتل بسيوفهم ورماحهم. بلغ الفزع بجنودنا حدًا عظيمًا. أول ما خطر في بالي كان هلاك "هكس" باشا ورجاله على أيدي

دراويش المهدي. سمعت ملازمًا شابًا يصرخ:

- سيذبحوننا كما ذبحوا "هكس" باشا وجيشه!

علا نهيق البغال واشتد رغاء الإبل وتزايدت صيحات مقاتلي البجا الذين دخلوا إلى قلب المربع بعد أن تحطم وذابت معالمه. من ورائنا اضطربت الجمال والبغال فاندفعت نحو الضلع الخلفي واصطدمت بالجهادية السودانية وشتتت صفوفهم. مع وصول البجاوية إلى قلب المربع، رمى الكثير من الجنود أسلحتهم وفروا هاربين. نظرت حولي فرأيت أرض المعركة وقد تكدست فوقها أشلاء المئات من عساكرنا المذبوحين. لم يعد أمامي إلا إطلاق نيران طبنجتي على كل خيال يتقدم نحوي. بالقرب مني أطلقت أورطة السنهيت دفعات من الرصاص على مقاتلي البجا المقبلين نحوهم. ما هي إلا لحظات حتى لحق مقاتلو العدو بعساكر السنهيت فتحولوا إلى قتال شرس بالأيدي والسيوف.

حاولت تنظيم صفوف العساكر المنسحبين لكي يثبتوا في مواقعهم ويصمدوا في وجه الهجوم الكاسح لكنني فشلت. وجدت نفسي محاطًا بالعساكر المتراجعين من الخطوط الأمامية ومحاصرًا بالبغال الهائجة والجمال الآتية من الخلف. الجميع يتدافعون في محاولة يائسة للخروج من جحيم المربع المحطم. فجأة، وفي خضم هذا الاضطراب، ظهر أمامي طريق للخلاص ولمحت أحدهم يشير إليّ لكي أتبعه. مرقت

من خلال الطاقة التي انفتحت أمامي. بعد لحظات عصيبة وصلت إلى خارج المربع عند حافة ضلعه الخلفي.

ابتعدت عن المذبحة التي صار من المستحيل وقفها. رأيت فرسان "الباشبوزق" بملابسهم المزركشة يهرعون مبتعدين عن أرض المعركة بعد أن أطلقوا وابلا من النيران في الهواء. بالقرب مني شاهدت "سارتوريوس" باشا يستخلص نفسه من وسط الجلبة التي انتهى إليها المربع المشئوم. وقف فجأة على مسافة مني، وأطلق الرصاص على عدد من الأنفار الذين حاولوا الهرب. هذا التصرف الصارم منع العساكر من الانسحاب لفترة من الوقت، لكنهم لم ينتظموا في وضع قتالي أو حاولوا حتى الاشتباك مع مقاتلي البجا. وقفوا في أماكنهم غير مبالين وهم لا يلوون على شيء كأن الأمر لا يعنيهم. من الواضح أن الذعر قد تملكهم فلم يستطيعوا حتى أن يتحركوا. انتظروا حتى استدار "سارتوريوس" باشا وذهب إلى مكان آخر ثم ألقوا ببنادقهم على الأرض وانطلقوا نحو ترنكتات. من موقعي كان يمكنني رؤية البجاوية وهم يذبحون جنودنا. يغرسون رماحهم في ظهور الجنود المذعورين ثم يمسكون برقابهم ويذبحونهم. ملازم من الجندرمة تصلب فوق فرسه منتظرا ضربة سيف محارب من البجا اقترب منه شاهرا سيفه. بلا تردد أطلقت النار على المحارب الأسمر فأرديته قتيلا. يبدو أن الهلع تمكن من الملازم فسقط هو الآخر من فوق حصانه الذي صهل ثم هرول نحوي وتوقف على

بعد خطوات قليلة مني. امتطيته وقدته نحو الضلع الأيمن من المربع معتقدا أنه ما زال متماسكًا. أردت جمع شمل عساكر الجندرمة عند نقطة تقع على أرض مرتفعة موجودة بالقرب من الضلع الأيمن. عقدت العزم على محاولة تنظيم صفوفهم بحيث نستطيع أن نحكم نيراننا فنوقف تقدم المهديين ونردهم على أعقابهم. عندما وصلت عند الضلع الأيمن كان محاربو العدو قد سبقوني إلى هناك، ووجدت عساكر أورطة الإسكندرية يطلقون النيران بشكل عشوائي. لم أستطع حتى الاقتراب منهم، وّمن مكاني المرتفع صار بإمكاني رؤية الحقيقة كاملة. أعمدة من النور اخترقت السحب الكثيفة حاملة معها خيولا من تبر عليها ملائكة هبطت من السماء لتحارب في صفوف أنصار المهدي. رأيت الصواعق تخرج من سيوفهم، وشاهدت نارًا تنبثق من حرابهم فتحرق عساكرنا الذين خروا على الأرض راكعين قبل أن يذبحوا. تساءلت: "لماذا يجب أن نبدو متماسكين عندما نجابه الموت؟". صهل فرسي وشب رافعا قائمتيه الأماميتين قبل أن ينطلق مبتعدًا عن هذا المشهد المروّع. لم أعد أسمع إلا صوت حوافره تدق الأرض. خفتت أصوات طلقات الرصاص بالتدريج حتى تلاشت. نظرت خلفي فلم أر شيئًا من أرض المعركة التي اختفت وراء ساتر من قطرات مطر منهمر يغسل أوهامنا.

الطريق إلى خليج ترنكتات امتد أمامي بلا نهاية. رأيت جماعات من عساكرنا، الذين تخلصوا من سلاحهم وذخائرهم، يهرولون بلا

انتظام. شاهدت أفرادًا آخرين يفرون كأن عفريتًا من الجان يطاردهم ويريد أن يفتك بهم. الغريب أنهم لم يتوقفوا للحظة واحدة لينظروا خلفهم حتى يروا من يتعقبهم، أو ليتسنى لهم تقدير حقيقة الخطر المحدق بهم.

وصلت إلى حصن بيكر فاستقبلني أحد ضباط أورطة الإسكندرية الذين بقوا هناك لحماية تلك الاستحكامات. كان القلق البالغ واضحا على ملامحه وأسرع بسؤالي عما حدث. رفعت كتفي ولم أرد عليه. وجدت حولي الكثير من عساكرنا الذين تجمعوا هناك، وبدأ بعضهم يعبر الأرض السبخة التي غمرتها مياه الأمطار فزادت طينتها بلة مما أعاق حركتهم وأبطأ من انسحابهم. أعداد كبيرة من عساكرنا خلعوا قمصانهم وشمَّروا أرجل سراويلهم. أراهم يتقدمون بصعوبة وهم يخوضون في الوحل. لقد نجحوا في الإفلات من الموت المحقق، لكن عليهم الآن أن يقروا أمام الجميع بأنهم خسروا خسارة فاحشة أمام عدو يقل عنهم عددا وعدة. ترجلت من فوق حصاني وسحبته خلفي فوق الأرض الموحلة التي تفصل بين "حصن بيكر" وشاطئ النجاة حيث ترسو البواخر. تقدمت في مسيرتي حتى غاصت ساقاي في الأرض السبخة فتسرب الطين إلى داخل حذائي وأصبح مجرد سحب قدمي من من الوحل المتشبث بهما مهمة شاقة للغاية. خلعت فردتي حذائي وحملتهما في يدي. استغرقت مسيرتي نحو الساعة. الفرس الذي سحبته خلفي أبطأ من حركتي. وكلما تقدمنا خطوات

قليلة حرن ورفض التحرك بعد أن تغوص قوائمه في الطين. لم أستطع أن أتركه وأذهب، لقد أنقذني من الهلاك، فلا يعقل أن أتخلى عنه في هذه البقعة الجرداء. اقتربت من الشاطئ فوجدت من وصل من جنودنا إلى هناك قد أسرع نحو المراكب الراسية يحاول اعتلاءها. لم ينتظر عساكرنا القوارب المخصصة لنقلهم، بل خاضوا في البحر حتى وصلت المياه إلى آباطهم. معظمهم لا يعرفون السباحة فتوقفوا عند منتصف المسافة من البواخر، كأنهم في مأمن من شر عفاريت الجان التي تطاردهم وتكاد أن تطيح بهم. ضباط البحرية أخذوا يطلقون الرصاص في الهواء ليبعدوا العساكر الذين سبحوا إلى البواخر وحاولوا تسلق جوانبها. بلا جدوى حاول الضباط منعهم من الصعود إلى المراكب الراسية حتى تصدر إليهم الأوامر بذلك. الكل يصيح ويصرخ دون أن يستمع للآخرين. إحدى القوارب انقلبت بعد أن تسلقها عدد من العساكر يفوق سعتها بكثير. قارب أخرى تعارك حولها العساكر وهدد بعضهم بعضًا بالسلاح حتى يسمح لهم بركوبها.

الأمطار التي هطلت طوال اليوم حولت الأرض السبخة بين "حصن بيكر" والشاطئ إلى مستنقع من الوحل يصعب عبوره. وبذلك كونت عائقًا طبيعيًا شكل مع سور حصن بيكر حماية جيدة لقواتنا المنسحبة. صعوبة الحركة فوق هذه الأرض منعت محاربي المهدي من تعقب فلول قواتنا حتى الشاطئ. فكرت في الاحتمال

المرعب المتمثل في عدم وجود ذلك العائق الطبيعي بالإضافة إلى استحكامات حصن بيكر. إن لم نشيد تلك الاستحكامات لتمكن مقاتلو البجا من تعقب قواتنا المنسحبة إلى الشاطئ ولزادت خسائرنا بقدر عظيم. ربطت حصاني بالقرب من حظيرة الدواب، وبدأت أبحث عن عساكر فصيلتي وزملائي من الضباط. لم أعثر على جاويش فصيلتي لكنني تعرفت إلى بعض جنود محمد عباس. سألتهم عنه لكنهم لم يعرفوا ما حدث له. أحدهم رآه يسرع نحو مجموعة من الضباط الأجانب الذين تجمعوا حول المدافع محاولين منع المهديين من الاستيلاء عليها. جلست أراقب عساكرنا من أتراك ومصريين وأحباش وسودانيين يصلون إلى ساحل ترنكتات وهم مأخوذون بالكارثة التي حلت بهم. رأيتهم يتعاركون على ركوب القوارب التي تنتقل جيئة وذهابا بين الساحل المزدحم بأنفار فصائلنا والبواخر الراسية أمامنا. لم يعد بالإمكان إعادة تنظيمهم، فكثيرون من قادة الفصائل لم ينجوا من المجذرة. الهلع الذي أصاب الجنود لم يتح لنا أي فرصة لإعادة تنظيم أنفسنا. لم يعد ثمة جدوى، فقد حلت بنا كارثة لم يتخيلها أحد. فليفلت إذن كل منا بحياته.

محمد عباس ذلك المخبول كان سعيدًا سعادة بالغة بالجندرمة ودعاني باستمرار للانضمام إليها، والآن راح منا في طوكر. كان مثال العسكرية الحقة حتى توقعنا له ملاحم باهرة وانتصارات عظيمة فلم يشهد سوى الهزائم المتلاحقة. ألمح طيف عباس وهو

يسخر من محاربي البجا والهدندوه ويؤكد أننا سنهزمهم بلا أي مشقة. قطعًا سنسحق "الفظي وظي" كما يطلق عليهم الإنجليز. ينطق نبوءته ثم يقهقه بصوت مرتفع ويكرر تسمية "الفظي وظي" مبديا إعجابه بطرافتها. يا له من مسكين كل هذا الانضباط والالتزام بالعسكرية ذهب في مهب الخسران. هل انطفأت هذه الطاقة التي أشعت علينا جميعًا؟ ألمحه مرة أخرى وهو يتعجب من القدر الذي قادنا إلى طوكر، لكي نحرر حاميتها ونخلص عبد الرحيم. "أخوك سيذهل عندما يرانا ندخل طوكر. تخيل الدهشة التي ستغطي قسماته عندما يلتقي بنا وجهًا لوجه". يقولها ويضحك وتبدو عليه علامات السرور البالغ.

انتظرت عودة عباس لساعات طويلة بلا فائدة. بدأت أفقد الأمل في رجوعه سالمًا بعد ساعتين من وصولي إلى الشاطئ. أعداد عساكرنا الذين تمكنوا من الانسحاب إلى ترنكتات أخذت تتقلص مع مرور الوقت حتى انقطع سيل الناجين ولم يعد أحد من عساكرنا بعد ذلك. شمس أرجوانية تركت وراءها سماء رمادية ملبدة بالغيوم بعد أن حجبت قمم الجبال أشعتها. آخر من عاد إلى الشاطئ كان بيكر باشا والكولونيل "سارتوريوس" ومعهما أحمد بك كمال. عرفت منه أن الميرالاي عبد الرزاق بك قد قتل في المعركة، وإن عساكرنا قد ألقوا ببنادقهم وذخائرهم حتى ينشغل رجال المهدي بالغنائم مما يتيح لهم فرصة الفرار من موت محقق.

بعد عدة محاولات فاشلة لتجميع القوات ومنعها من اعتلاء البواخر اكتشف بيكر باشا أن أفراد الحملة قد تخلصوا من سلاحهم فاضطر إلى التسليم بالهزيمة، وأصدر أوامره بالانسحاب. في نهاية الأمر قضينا جزءًا كبيرًا من الليل في تحميل الدواب والمعدات في البواخر الراسية في الخليج. من بقيَ من عساكرنا لحماية أسوار "حصن بيكر" أخبرونا أن المهديين تقدموا نحونا حتى أصبحوا على مقربة من ترنكتات، إلا أنهم لم يهاجموا مواقعنا واكتفوْا بمراقبتنا. في صباح اليوم التالي غادرت البواخر خليج ترنكتات عائدة إلى سواكن وعلى متنها من تبقى من أفراد الحملة. يا لها من نهاية تعسة لحملة بائسة.



سِنكات

فبراير، 1884

الليلة أكتب لكم أكثر السطور حزنًا.

في ليلة الخامس من فبراير، رجع كل من بيكر باشا ورئيس أركانه "سارتوريوس" باشا إلى سواكن مع ما تبقى من الحملة المشئومة. أخبار الكارثة أثارت فزع الأهالي الذين خرجوا إلى الطرقات مكلومين لمعرفة ما حدث ومستفسرين عن ذويهم. شوارع البلدة امتلأت بنواح نساء وأطفال يبكون الأزواج والآباء. علت أصواتهم بالنحيب والعويل اللذين لم ينقطعا طوال الليل. تملكت البعض عاطفة دينية طاغية. العساكر أخذوا يرددون أن غضب الله قد حل بنا،

لأننا أسلمنا قيادة أمورنا لغير المسلمين وبسبب إهمالنا لشئون ديننا. بعض الضباط ذهب إلى أننا ارتكبنا خطأ عظيمًا عندما لم ننضم إلى صفوف مؤيدي المهدي المنتظر. شرعوا يرددون أن كل دورة تضبط إيقاع الكون والتوحد مع الخالق، ويؤكدون أن من أعرض عن ذكر اللـه فعيْشه ضنك. لقد ضللنا الطريق. فبدلا من الحرب في سبيل الحفاظ على المديريات المصرية في أفريقيا، كان من الأحرى علينا القتال في سبيل إقامة دولة تتأسس على نهج الإسلام الأصيل. كان من الأفضل لنا أن نتخلي عن أوهام إقامة الدولة الحديثة التي خدعنا بها محمد علي باشا وأبناؤه. عبد اللـه الدكروري أخذ يكرر أننا يجب أن ننقي أنفسنا من بدع الغرب التي أفسدت حياتنا وهددت صفاء إسلامنا ونقاءه. أخرج عبد اللـه ورقة من جيبه وفي ضوء مصباح معلق على حائط "الميس" قرأ حديثا عن رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم يصف فيه المهدي المنتظر:

"ينزل بأمتي في آخر الزمان بلاء شديد من سلطانهم، لم يسمع ببلاء أشد منه، حتى تضيق عليهم الأرض الرحبة، وحتى تملأ الأرض جورا وظلما، ولا يجد المؤمن ملجأ يلتجئ إليه من الظلم، فيبعث اللـه عز وجل رجلا من عِترتي، فيملأ الأرض قسطًا وعدلا، كما مُلئت جورًا وظلمًا، يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض، لا تدخر الأرض من بذرها شيئًا إلا أخرجته، ولا السماء من قطرها إلا صبّه اللـه عليهم مدرارًا، يعيش فيهم سبع سنين أو

ثماني أو تسعًا، يتمنى الأحياء والأموات مما صنع اللـه عز وجل بأهل الأرض من خيره".

لم أستوعب ماذا يقصد عبد اللـه بتلاوة هذا الحديث الشريف. حدق في مؤكدا انطباق هذا الحديث بحذافيره على مهدي السودان. لم أفهم لماذا يقرأ علينا هذا الحديث الشريف ويميل إلى التصديق بحقيقة أن محمد أحمد هو المهدي المنتظر على الرغم من أنه أتى من مصر إلى هنا ليقاتله. ما هذا التناقض العجيب؟ يصر أن هذا الكلام ينطبق على المهدي هنا في السودان. معنى ذلك أننا بقتاله نصبح الفئة الباغية. لم أجد صلة بين ما يقوله هذا الحديث الشريف وما يحدث هنا في السودان. اعترفَ لي بأنه بحث في هذا الأمر قبل قدومنا إلى السودان. وأشار إلى وجود حديث شريف آخر عن الرايات السوداء التي ستظهر من المشرق، فإذا رأيناها يجب أن نأتيها حبوًا لأن فيها خليفة اللـه المهدي. ولإقناعي بصحة تفسيره ذكرني بأن بعض ألوية أنصار المهدي حملت الرايات السوداء عند آبار التب. حاولت توضيح أن تفسيره للحديث الشريف بعيد كل البعد عن الصواب، لأن تمرد محمد أحمد المهدي أتى من غرب السودان. تحديدا بدأت راياته بالظهور في كردفان ولم تأت من المشرق. دافع عبد اللـه عن أوهامه بادِّعاء أن الموقع الجغرافي ليس هو المقصود هنا، لكن ما ورد في الحديث الشريف يشير مجازًا إلى المشرق الإسلامي في مقابل الغرب الأوربي.

لم أصدق ما أسمعه، وأدركت عدم قدرتي على إقناعه بضعف حجته. لقد أطاحت الهزيمة بعقله وفقد الصلة بالواقع. لم أستطع البقاء مع عبد اللـه، فتركته وتوجهت إلى أحمد بك كمال للتشاور معه. وجدته قلقًا للغاية من احتمال هجوم أنصار المهدي على سواكن. شرح لي أسباب مخاوفه لأن معظم جنودنا أصابتهم حالة من الإحباط المصحوبة بالبلادة، مما يشكل خطرا كبيرا على دفاعات سواكن. لو قرر عثمان دقنة أن يهاجم البلدة الآن فلن يدافع عنها أي من هؤلاء. بعد رجوعنا من ترنكتات فر بضعة أفراد من الأورطة السودانية التي أرسلها الزبير باشا. امتطوا الأحصنة وانطلقوا خارج أسوار البلدة بعد أن أعلنوا لرفاقهم نية الانضمام لعثمان دقنة والمهديين.

صباح اليوم التالي أنزل الأميرال "هيويت" كتيبة من البحارة الإنجليز والمشاة ذوي القمصان الزرقاء ليأمّنوا الأجانب الموجودين في سواكن، وفي نفس الوقت لكي يقوموا بتعزيز دفاعات المدينة مع من تبقى من أفراد الجيش المصري. "هيويت" أرسل مع رجاله أيضا مجموعة من مدافع "جاتلنج" سريعة الطلقات، فتم وضعها على أسوار البلدة. في آخر الليل ساد الهدوء البلدة ولم ينتهكه سوى أصوات النواح والعويل الصادرة من البيوت. على الرغم من التعزيزات التي أرسلها "هيويت" تنامى الخوف من أن يتحول الأهالي إلى جانب المهدي فيعتدوا على الأوربيين الذين يقطنون البلدة. شدد مشاة البحرية الإنجليز الحراسة على محلات وبيوت

الأجانب حتى أعلنت حالة الطوارئ في سواكن، ومنحت السلطات العسكرية والمدنية كاملة للضباط الإنجليز. تسلم الأميرال "هيويت" القيادة العسكرية من بيكر باشا، وفي نفس الوقت أخبرت السلطات المصرية أنه بدءا من ذلك اليوم ستتولى البحرية البريطانية الدفاع عن سواكن لو تعرضت للهجوم. تزامن هذا القرار مع إنزال المزيد من مشاة البحرية الذين تم تسكينهم في المعسكر الجديد المقام بالقرب من أسوار البلدة. في الخطوط الأمامية تم نشر العساكر المصريين ووراءهم بنحو ميل تمركز مشاة البحرية الإنجليز.

مع مرور الوقت بدأنا ندرك حجم خسائرنا. سألت أحمد بك كمال عن محمد عباس وجاويش فصيلتي وغيرهم من العساكر والضباط الذين لم يرجعوا. طأطأ رأسه وأخبرني بأننا فقدنا نحو ألفي فرد عند آبار التب، من ضمنهم العديد من الضباط المصريين والأوربيين. أشار إلى شهود عدة أخبروه أن محمد عباس قد سقط وهو يقاتل عند المدافع الستة التي تجمع حولها مجموعة من الضباط الأوربيين. شعرت بالألم يعتصر صدري بعد أن تأكدت من مقتل عباس. لقد خسرت صديقًا وفيًا من القلائل الذين وقفوا بجواري في أوقات المحن. لم أصدق ما سمعته من أحمد بك كمال، لقد فقدنا ألفين من أصل ثلاثة آلاف فرد مسلحين بالبنادق الحديثة والمدافع الثقيلة، في هجوم قام به ما لا يزيد على ألف محارب لا يحمل معظمهم سوى الأسلحة البدائية. يا لها من نكبة! حاول "سارتوريوس" باشا

تنظيم فصائل قواتنا من جديد، لكنه وجد صعوبة كبيرة في ذلك بعد مقتل عدد كبير من الضباط. في اليوم التالي وصلنا تلغراف من القاهرة بتعيين الأميرال "هيويت" حكمدارًا عامًا لشرق السودان. أول قرراته كان استبدال كل المديرين الأتراك بغيرهم من الإنجليز والأوربيين.

***

الوضع يزداد سوءًا. منذ أيام قليلة وصل أحد الجواسيس من سنكات حاملا رسالة من توفيق بك يطلب النجدة بشكل عاجل. تشير الرسالة إلى أن الطعام قد نفد لدرجة أن عساكر الحامية وأهل سنكات قد أجهزوا على جميع الجمال والحمير، بالإضافة إلى القطط والكلاب ولم يعد أمامهم إلا نعال الأحذية وأوراق الأشجار. أوضح توفيق بك حاجته الشديدة للتعزيزات التي لا بد أن تصله في ظرف أسبوع وإلا فسيضطر للخروج من سنكات بمن معه من جنود الحامية وعائلاتهم محاولا الوصول إلى سواكن. وأكد أن هذا الاختيار صعب التحقيق، لكنه يفضل الموت على أرض المعركة على الموت جوعًا في سنكات. جمعنا أحمد بك كمال في "ميس" الضباط ونقل إلينا هذا النبأ الكئيب. صاح ملازم صغير السن مطالبا بالخروج فورا لنجدة سنكات، وأصر على إعداد العدة لذلك ثم الخروج لتجدتهم

في صباح اليوم التالي. ضابط ثانٍ شكك في قدرتنا على ذلك، لأننا لو أرسلنا تجريدة إلى سنكات سنضعف حامية سواكن ولن نستطيع الدفاع عنها إذا قام عثمان دقنة بمهاجمتها. أكد ضابط آخر أهمية أن نزن الأمور بدقة وألا نتهوّر. تدخل أحمد بك كمال في النقاش مؤكدا ضرورة الانتظار حتى تصلنا تعزيزات إضافية من الأسطول الإنجليزي. لم أستطع السكوت فأبديت استيائي، لأنه يمكننا الانتظار لكن توفيق بك لن يمكنه الصمود طويلا. استمرت المناقشات لساعات طويلة بلا طائل.

بعد ثلاثة أيام علمنا بسقوط سنكات. "كاميرون" مراسل صحيفة "ستاندرد" أخبرنا أن حصار سنكات اشتد بعد أن تجمعت حولها أعداد كبيرة من محاربي قبائل الهدندوه. أدرك توفيق بك أن بقاء الحامية بلا مؤن أو مدد يعني موت أفرادها وعائلاتهم جوعًا. في نفس الوقت لم يضمن توفيق بك سلامة أهل سنكات وأفراد حاميتها لو سلم البلدة لأنصار المهدي. بعث "علي ود حامد" برسول إلى توفيق بك يطلب استسلام حامية المدينة، فرفض الأخير طلبه وقضى ليلته في الإعداد للخروج من سنكات. أحرق مخازن البارود والجبخانة، وأمر عساكره بسد أفواه المدافع وكسر إبر إطلاق النار. عند الفجر قاد توفيق بك المئات من عساكره المنهكين برفقة أهالي سنكات في محاولة يائسة للإفلات من قبضة أنصار المهدي. خرجوا من البلدة في طابورين من العساكر يحيطون بالنساء والأطفال من الجانبين.

ابتعدوا مسافة تزيد على ميل من أسوار البلدة حتى وصلوا إلى خور ضيق، هناك وجدوا أنصار المهدي في انتظارهم. كون أفراد الحامية مربعا دفاعيا وجعلوا النساء والأطفال في قلبه، ثم أخذوا يطلقون الرصاص على محاربي الهدندوه فقتلوا منهم أعدادًا كبيرة قبل أن يطبق الآلاف منهم على عساكر الحامية الذين ثبتوا في مكانهم وقاتلوا بشجاعة حتى آخر رمق. بعد أن نفدت ذخيرتهم استلوا سيوفهم واستمروا في قتال المهديين بلا هوادة. في النهاية قتل توفيق بك بين جنوده ولم ينج سوى قاضي سنكات ومعه أربعة رجال مرضى لم يستطيعوا مغادرة البلدة، وتم سبي من نجا من النساء والأطفال. لقد فقدنا قائدًا عنيدًا حافظ على سنكات لمدة طويلة بلا أي مساعدة أو مدد من ناحيتنا. بدون مقاومته الباسلة وصموده في وجه المتمردين لتمكن المهديون من الاستيلاء على سواكن نفسها ولسقطت بلا رجعة الدولة المصرية في شرق السودان وذهبت ريحها.

***

أكتب إليكم مرة أخرى من سواكن.

بعد أيام قليلة من سقوط سنكات تم تعيين مستر "بروستر"، مدير مصلحة الجمارك، نائبًا للأميرال "هيويت" حاكم سواكن، وذلك لمعرفته الجيدة باللغة العربية وخبرته الطويلة بعادات وتقاليد أهالي المنطقة.

الأميرال "هيويت" أرسل إلى عثمان دقنة يطلب منه عدم التعرض للقوات البريطانية التي ستتوجه إلى طوكر لتأمين خروج الحامية المصرية من هناك، وأكد له أن الجيش البريطاني لا ينوي التعرض أو إيذاء القبائل الموالية للمهدي بأي شكل من الأشكال. رفض دقنة هذا العرض مفصحًا عن عزمه على اقتحام طوكر، وتصميمه على الاستيلاء عليها لأخذ البيعة من أهلها للمهدي خليفة رسول اللـه. مع نهاية الأسبوع ظهر لنا بوضوح أن الإنجليز يسعون إلى السيطرة على السودان، وأنهم يحاولون دفع المصريين إلى الخروج من أقاليمه المختلفة، فلقد صدرت لنا الأوامر بالاستعداد للرحيل إلى مصر في نفس الوقت الذي وصل فيه ثمانمائة من مشاة البحرية البريطانيين على متن الباخرة "كاريزفورت" وتم إنزالهم إلى سواكن لكي يحلوا محل أفراد حاميتها المصرية. بلغنا أيضا أن الجنرال "جراهام" يجهز قوة كبيرة من عساكر الجيش البريطاني في السويس، وأنه سيبحر بها إلى سواكن في غضون أيام قليلة. لم أفهم الغرض من تلك التعليمات وخشيت ما سيترتب عليها من التضحية بحامية طوكر بعد أن ذبح المهديون حامية سنكات. أصابني الهلع، لأن أوامر الانسحاب من السودان تعني رجوعي إلى مصر وترك عبد الرحيم ليلقى مصيرًا كئيبًا في طوكر. لم أصدق أن الحال قد تدهورت بنا إلى الحد الذي فقدنا معه الأمل في تحرير أفراد الحامية. لا أتحدث هنا عن بقاء الحكم المصري في شرق السودان. كل ما آمل فيه هو أننا نتمكن من

إنقاذ من تبقى من عساكرنا والعودة بهم سالمين إلى بلدهم. في ليلة مقمرة سادها هدوء مريب، قررت البقاء في سواكن على أن أحاول الوصول إلى عبد الرحيم بأي وسيلة ممكنة. يوم الرحيل بدأوا في نقل من تبقى من أفراد أورطة القاهرة إلى البواخر. اختبأت داخل مسجد الشناوي المجاور لضبطية "القيف" وبقيت فيه حتى غادرت آخر السفن الميناء. منذ ذلك اليوم كسبت عيشي كحمال عند المرفأ منتظرًا أول فرصة سانحة لكي أذهب إلى طوكر.

بعد رحيل ضباط وعساكر حملة بيكر باشا وأفراد حامية سواكن، بدأ الإنجليز بالاستعداد لإرسال حملة جديدة لتخليص حامية طوكر على أن تكون مكونة من وحدات الجيش البريطاني فقط. في تلك الأثناء تلقينا أنباء محزنة من طوكر حملها أحد عساكر الحامية الذين فروا من الحصار. أخبرنا أنه هرب من طوكر عندما عرف أن قادة الحامية قد بدأوا المفاوضات لتسليم البلدة لعثمان دقنة. الأخبار المبدئية التي حملها إلينا الجواسيس في الأيام التالية أشارت إلى عدم تمكنهم من الوصول إلى طوكر بسبب الحصار المحكم الذي ضربه أنصار المهدي حولها.

تتابع وصول القوات البريطانية إلى سواكن وتقرر فورًا بدء نقلهم إلى ترنكتات. وبعد أن أرسل الإنجليز جزءًا كبيرًا من قواتهم إلى رأس الجسر في ترنكتات علمنا بسقوط طوكر. التفاصيل غير واضحة. سمعنا أن أسوار طوكر تعرضت لقذف متواصل من قبل

مقاتلي البجا مستخدمين مدافع "الكروب" والذخائر التي غنموها عند آبار التب. على الرغم من كثرة أفراد الحامية ووفرة مؤنهم وذخائرهم، أشارت الشائعات إلى أن معنوياتهم كانت في الحضيض، وأن عائلاتهم توسلت إليهم لكي يسلموا البلدة لعثمان دقنة. يقال إن مباحاثات تسليم البلدة توسط فيها أحد تجار المنطقة كان قد حبس لشبهة الصلة بينه وبين المهديين. بعد يوم واحد من رفض حكمدار طوكر التسليم تم الانتهاء من تفاصيل الاتفاق، وعاد الوسيط مع مائة من رجال عثمان دقنة لاستكمال إجراءات دخول المهديين إلى طوكر. في البداية رفض بعض الضباط الاستسلام، لكنهم سرعان ما وافقوا على شروط التسليم على أساس أن المسلمين من أنصار المهدي أحق شرعًا بحكم طوكر من الإنجليز. خلال الفترة التي تمت فيها تلك المناقشات استطاع بعض العساكر الهروب وأتوا إلى سواكن. ما وصلنا من أنباء يشير إلى استسلام البلدة بعد خمسة أيام من القصف المتوالي، إلا أن البعض يشكك في صحة هذه الرواية. لم تكن ثمة دواعٍ قاهرة للاستسلام، فالمؤن متوفرة وأفراد الحملة لديهم كميات كافية من الذخائر. ما زاد من شكوكنا كان عدم تسبب القصف المزعوم في خسائر كبيرة. فبعد خمسة أيام من القصف فقدت الحامية جنديين فقط وجرح عشرة آخرون من أصل ثلاثمائة فرد.

***



طوكر: الوصول

مارس، 1884

أكتب إليكم بعد يوم عجيب بدأ مع أمر التقدم نحو طوكر.

معارك الأمس أثارت حفيظة عساكر الجيش البريطاني، الذين ذاقوا بأس مقاتلو البجا في مواجهات شرسة كادت أن تطيح بمربع "جراهام" مرتين قبل أن ينسحب المهديين من أبار لتب. شن محاربو البجا هجومين خاطفين وكانوا قاب قوسين أو أدنى من تحطيم المربع. لم ينقذ الإنجليز إلا صلابة عساكرهم وخبرتهم القتالية التي مكنتهم من سد الثغارات التي كاد أن ينفذ منها المهديون. لم يتحطم المربع كما حدث يوم بيكر. استمر القتال العنيف طوال اليوم،

وخسر الجانبان الكثير من مقاتليهم، لكن لم يهزم أي من الطرفين.

صباح اليوم استيقظ عساكر الإنجليز وهم متحفزون لجولة جديدة ومتحمسون لمجابهة ثانية مع المهديين حتى يتمكنوا من دخول طوكر. ترك "جراهام" خلفه ست وحدات وسرية فرسان عند آبار التب. لحسن حظي تم اختياري ضمن قائدي الجمال الذين سيرافقون القوة المتجهة إلى طوكر. غمرني سرور بالغ لأني أخيرا سألتقي أخي عبد الرحيم. بعد مسيرة عدة أميال صدرت الأوامر بتشكيل مربع دفاعي، وتم إرسال سرايا من الفرسان للاستطلاع. بعد العصر ظهرت أمامنا أول بيوت البلدة. سمعنا طلقات الرصاص ورأينا مجموعة من مقاتلي البجا وهم ينسحبون مبتعدين عن طوكر. بعد قليل تقدم نحونا أحد عساكر الحامية من المصريين حاملا راية بيضاء، وأخبرنا بانسحاب أنصار المهدي من البلدة.

دخلنا طوكر دخولا حذرا وانتشر الإنجليز بطريقة تحتاط لأكمنة المهديين. نظرت إلى طرقات البلدة المستقيمة فأحسست بثقة غير مبررة. دروبها المتوازية والمتقاطعة تحدد مسالك طوكر وتمتد إلى ما لا نهاية. خلت البلدة فلا أحد يروح أو يغدو. زادت الطرقات الخالية من وحشة المكان. لا أخشى شيئا كما أخشى هذا الخواء. فراغ مبهم يزيده غموضا التماثل التام بين الشوارع المستقيمة للبلدة وبيوتها المتكررة. الحوائط الطينية تضفي على المكان وقارا يزينه غبار تنثره ريح تمسح الجدران. جرو أشقر الفراء يستقبلنا ملوحا

بذيله كأنه يعلن للكون عن سعادته بقدومنا. يقترب منا ثم ينطلق مبتعدا كأنه يحثنا على أن نتبعه. عند أول تقاطع للطريق انحرف يمينا وبدأ يعدو في اتجاه رجل يقف أمام طاولة مغطاة بمفرش من القماش الأبيض. اقتربنا منه فابتسم وعاتبنا على تأخر وصولنا، ثم أخبرنا برحيل معظم الأهالي يرافقهم أفراد الحامية. أزاح الرجل الكسوة البيضاء فظهرت حلوى لقمة القاضي تسبح في العسل. التقط بضع حبات ووضعها في قرطاس وقدمها لنا. قضمت إحداها فأحسست بمذاقها الحلو يملأ فمي.

رحلة طويلة قادتني إلى هذا المكان المقفر الذي يرفض كل ما أصبو إليه ويمحو الآمال الذي شكلتها أيامي. طوكر التي كنت أنشدها ليست هي البلدة التي حملتني أقداري إليها. تاه الرجاء بين هذه الشوارع والبيوت الخاوية، كحلم تلاشى أمام إصراري على أن أسلك دربا مستحيلا. أين عبد الرحيم؟ هل أفلت مني وضاع في طوكر؟ أين ذهبت الحامية المصرية؟ أصوات طبول وأبواق نحاسية تصلنا كهدير باخرة تغادر مرساها، صعد جيش المهدي إلى الجبال المحيطة، وترك طوكر التي أبحرت مبتعدة عنا وفرقت بيننا وبينها أمواج مضطربة. أنصت إلى دقات تشعلها بداخلي طبول أنصار المهدي. النار تسري في عروقهم بعد ما حققوه من انتصارات أسطورية. سنتناول الشعلة منهم وسنكف عن النحيب، فنسيم الحرية يبدو كأنه في متناولنا جميعا. أدركت أخيرا أنهم لن

يصيروا أحرارا إلا إذا أنصتوا لأبواقنا النحاسية. وأن أملنا الوحيد يكمن في إقناعهم بضرورة الاستماع لطبولنا. لن نتحرر حتى نفعل ذلك.

بعد دخولنا البلدة عاد أهالي طوكر مع جنود وضباط حاميتها. دخلوا البلدة فرحين برجوعهم إلى بيوتهم وممتلكاتهم، وعبروا عن سعادتهم بالرقص والزغاريد. بعض أفراد الحامية حملوا أسلحتهم مما أثار شكوك الإنجليز. فكيف يمكن أن تستسلم الحامية دون أن يسلم أفرادها أسلحتهم؟ ظن الإنجليز أن الجنود المصريين قد انضموا طواعية لأنصار المهدي، وتخيلوا أنهم حاربوا في صفوف المهديين عند آبار التب. فرضية مجنونة لكنها زادت من فرص نجاة عبد الرحيم. دعم تلك الشكوك كفاءة طوبجية أنصار المهدي ودقة تصويب مدافعهم، أضف إلى ذلك بقاء بيوت طوكر وممتلكات أهلها على حالها وعدم تعرضها للنهب. استجوب الضباط الإنجليز جنود الحامية بخصوص ما حدث لهم بعد سقوط طوكر. ادعى البعض أنهم فروا إلى المناطق الجبلية مع عائلتهم برفقة الأهالي المحليين. في نفس الوقت أكد البعض الآخر أن رجال الحامية الذين بقوا في طوكر سلموا البلدة بلا مقاومة عندما هاجمها أنصار المهدي. عند سؤالهم عن من بقيَ في البلدة من جنود الحامية أقروا بأن عددا قليلا منهم قد تحالف مع أنصار المهدي، وأكدوا أن هولاء قد حاربوا في صفوف المهديين عند آبار التب.

سألت بعض أفراد الحامية عن عبد الرحيم فلم أتلق منهم إجابة صريحة. أخيرا طلب أحدهم التحدث إلي منفردا. اختار شارعا مهجورا خلا تماما من المارة حيث همس لي أنه أحد الطوبجية الذين دفعهم المهديون إلى الخروج معهم وأجبروهم على تشغيل مدافع "الكروب" و"الجاتلنج" الحديثة. سألته عن أخي فصمت الرجل هنيهة ثم أخبرني أنه لا يود أن يدلي بمعلومات أخرى خوفا من رد فعل الإنجليز. قبضتُ على ذراعه ورجوته أن يخبرني بما حدث لأخي. لم يرد، فاعتقدت أن عبد الرحيم قد مات وقنطت قنوطا عظيما. أخيرا ربت الرجل على كتفي وأخبرني أن أخي كان ضمن الطوبجية الذين حاربوا في صفوف أنصار المهدي، وأنه رأى عبد الرحيم وهو يرحل معهم خشية انتقام الإنجليز.

لم أصدق ما سمعته فهدفي أصبح سرابا، أنجذب إليه لكنه سرعان ما ينسحب مبتعدا، فيثير في نفسي حيرة لا تخمد. غاية صعبة المنال هي العثور على عبد الرحيم. يناديني كأنه يستشعر قربي ثم يتلذذ بمراوغتي. ألاحقه فيسعده التملص مني. كلما دنوت منه ابتعد. ضاقت بي السبل وتشابكت فصار من العسير اجتيازها. يضيع مني مقصدي مرارا ولكني لن أقنط، سأستجمع قواي ثم أمضي قدما في دروب خيالي حتى أشق سبل أوهامي، أنشد الوصول غير آبه بما سيحدث لي.

***



رسائل

رائحة الدخان أكسبت فمي طعمًا مُرًّا. لم يكن قرارًا سهلا، لكن لا يمكنني أن أداري عنكم الحقيقة، لقد قفزت من القطار.

الفكرة خطرت لي عندما كنت أحاول منع أفراد أورطة القاهرة من الهرب من القطار المتجه إلى النفيشة. في ذلك اليوم رأيت طوابي التل الكبير المهدمة فابتلع الأسى جوانحي. عندما تتسلح الطوابي بمدافع لا تصيب أهدافها، وعندما تحفر خنادق وتقام استحكامات لا تحمي جنودها، وعندما يرسل العساكر إلى جبهات القتال بلا خطط مدروسة فلا جدوى من الادعاء أننا نسعى حقًا إلى النصر. في لحظة كاشفة أدركت أن حملة بيكر ما هي إلا تمثيلية نلعب فيها دور العسكر

دون أن يكون لدينا جيش حقيقي. لقد أقنعت الجميع أنني متحمس لفك حصار طوكر، وأنني أريد إنقاذ عبد الرحيم. لكن في حقيقة الأمر كل ما كنت أصبو إليه هو أن أستريح من كل همومي، وقد نجحت في ذلك. تسألونني لماذا قررت الفرار من مصيري، أقول: لقد اخترت الهرب من القرافة وخمارة طواجن وعابد والمؤامرة المصرية وسعد المويلحي وبيت الصليبية والهيضة وطوكر. في لحظة حاسمة أدركت جوهر محنتي وأسباب إخفاقاتي المتكررة، فقررت أن أتخلى عن الجندرمة وأن أقفز من القطار.

في البداية لم يمنعني من الهرب إلا محمد عباس وشرف العسكرية. لوهلة تخيلت أننا سنستطيع تحرير طوكر. لكن السؤال الذي ألح علي باستمرار هو: تحريرها مِنْ مَن؟ ففي واقع الأمر الحامية المصرية التي تحتل طوكر تكرس للاستبداد والظلم في تلك البقاع. وعلى الجانب الآخر فإن المهديين يعتقدون أنهم أولى بحكمها، لأنهم يحملون رايات الفضيلة التي لا تحيد عن الحق. لقد ساد الظلم والفساد تحت إدارة الترك والمصريين. ولكن ليس ثمة شك في أن غبنًا أشد سيقع على أهلها لو حكمهم المهديون، فهؤلاء يملكون الحقيقة كاملة ولن يردهم عن حقيقتهم أحد. سمعت عن المذابح والفظائع التي ارتكبها أنصار المهدي في غرب السودان، وأدركت أني ذاهب إلى حرب بين فاسد وظالم، ذاهب إلى حرب لا ناقة لي فيها ولا جمل. الرسالة وصلت بوضوح على رصيف ميناء السويس ونحن نستعد لركوب

"الزقازيق". سمعت رواية "جون ماكدونالد" عن كارثة "شيكان" فتحققت من استحالة هزيمة المهديين بهذه القوات التي تتكوّن أساسًا من عساكر رديف لم يخضعوا لتدريبات حربية مناسبة، بالإضافة إلى تدني معنوياتهم. من الأوْلى أن نأخذ العبرة من مأساة جيش "هكس" الذين ذبح أفراده عن بكرة أبيهم مع أنهم كانوا مدربين تدريبا جيدا ومسلحين بأحدث البنادق والمدافع. أدركت أن الهزيمة لا يصنعها فقط الرجال لكنها وليدة الظروف التي يجدون فيها أنفسهم. عند هذه اللحظة قررت الانسحاب. تركت فصيلتي وتسللت نحو حظيرة الدواب حيث ادعيت أني أحد الضباط المكلفين بالإشراف على شحن الإبل والبغال على ظهر السفن المبحرة إلى السودان. استفدت من الهرج الناشئ من محاولات تحميل البغال والجمال، وانسحبت بهدوء متوجهًا نحو السوق حيث اشتريت جلبابا ارتديته على الفور بعد أن خلعت الملابس الميري. وببساطة اختفى عبد الكريم صبري من قوة الجندرمة ولم يعد له وجود.

حالفني الحظ فوجدت عملا بأحد المقاهي القريبة من الميناء. لعدة أشهر حفلت السويس بالسفن والبواخر المسافرة إلى سواكن أو الآتية من هناك. مع تقديم المشاريب للزبائن، كنت أنصت إلى مناقشاتهم، وعندما أدرك أنهم من البحارة العائدين من سواكن كنت أشاركهم أحاديثهم لأعرف منهم تفاصيل ما يحدث في شرق السودان. سمعت منهم روايات عن الجندرمة وقبائل البجا

وبيكر باشا وسنكات وبسالة توفيق بك وأسوار سواكن وصرامة "سارتوريوس" باشا، وأخيرا رأس الجسر عند ترنكتات والهزيمة عند آبار التب. ألم أخبركم أن الهزيمة لا يصنعها الرجال؟ بعد كل حديث من هذا النوع كنت أعود إلى غرفتي لأدوّن تفاصيل ما سمعته. في يوم من الأيام خطرت لي فكرة راقت لي، فقررت كتابة هذه القصص على هيئة خطابات أرسلها إلى أبي وفضيلة. في كل رسالة أتخيل نفسي جزءًا من الأحداث التي أصفها وأكتب ما سمعت من روايات كأنني شاركت فيها فعلا. أعجبتني الفكرة فبعثت إلى أبي بخطابات عديدة مدعيا كتابتها أثناء وجودي في سواكن أو ترنكتات أو طوكر. كنت أستعين بالأخبار المنشورة في الجرائد والمجلات عن حملة بيكر باشا، ثم أضيف المزيد من التفاصيل حتى أصبغ عليها مسحة من الحقيقة. ولكي أتقن الحبكة، كنت أطلب من بحارة السفن المسافرة إلى سواكن إرسال الخطابات من سواكن حتى يقتنع أبي بأني أرسلتها من السودان.

في منتصف ربيع الآخر، بدأ من تبقى من حملة بيكر في العودة إلى السويس. في يوم من الأيام هبط عساكر الجندرمة من إحدى البواخر. اقتربت من جماعة من جنود أورطة الإسكندرية وسألتهم عما حدث، فأخبروني بتفاصيل مأساة آبار التب وظروف ترحيلهم من السودان. لم أصدق ما سمعته منهم. نعم لقد توقعت فشل هذه الحملة منذ البداية؛ لكنني لم أتخيل أن الهزيمة ستكون بهذه القسوة.

أخبروني أيضا أن الأميرال "هيويت" قائد الأسطول البريطاني تسلم زمام الأمور في سواكن، قبل أن تنسحب منها الحامية المصرية. سألتهم عن اليوزباشي محمد عباس فلم يتذكره أحد منهم. كررت سؤالي على جنود آخرين من أفراد الجندرمة، حتى جمعتني المصادفة بأومباشي أسمر البشرة قوي البنيان ذي ابتسامة غائرة. أخبرني أنه عمل كعسكري مراسلة لأحمد بك كمال، مما سمح له بالتعرف إلى محمد عباس أثناء التحضير لنقل القوات المصرية إلى ترنكتات. وأضاف أن عباس قد قتل عند آبار التب، وهو يقاوم محاربي البجا عندما انهار المربع، وذاب مع هجمة المهديين الشرسة. صدمني خبر مقتل عباس، وحنقت حنقًا شديدًا. لقد دفع ذلك المسكين ثمن الخسران بحياته. يا له من تعس. استرسل الأومباشي في حديثه، فقص عليَّ تفاصيل أحداث الحملة منذ أن وطأت قدماه ساحل ترنكتات حتى انسحابه إلى سواكن. حكى لي أيضا عن مأساة سقوط سنكات بعد المقاومة المستميتة لحاميتها، التي ذبح أفرادها بالكامل. ما أفزعني في نهاية حديثه هو خبر سقوط طوكر، واستسلام حاميتها. همّني مصير عبد الرحيم وما قد أصابه على أيدي أنصار المهدي. بعد ذلك اليوم لم يهدأ لي بال بسبب قسوة موقف أخي الذي أدركت تماما خطورته.

بعد يومين بدأت كتائب الجيش البريطاني تتجمع في السويس استعدادًا للذهاب إلى شرق السودان. انتشرت شائعات بأن الجنرال

"جراهام" سيقود حملة تتكون فقط من عساكر الجيش البريطاني دون الاستعانة بأي من المصريين. أهداف الإنجليز في السودان أصبحت واضحة للجميع. بعد أسابيع أبلغني أحد البحارة أن الجنرال "جراهام" قد هزم المهديين عند آبار التب بعد معركة شرسة، ولكنه دخل طوكر دون مقاومة تذكر. وأضاف أن الشائعات تشير إلى انسحاب أنصار المهدي منها، ومعهم الكثير من أفراد الحامية من المصريين. التقارير الأولية أشارت إلى أن الإنجليز وجدوا في طوكر بعض أفراد الحامية على قيد الحياة، وإن ثمة شكوكًا في أن هؤلاء قد قاتلوا ضمن صفوف الأنصار ضد "جراهام". ما عضد ذلك الاعتقاد كان براعة المهديين في استخدام المدافع الحديثة أضف إلى ذلك حالة الجنود المصريين الجيدة، مع أن أنصار المهدي قد احتلوا البلدة لعدة أسابيع. مقاتلو البجا انسحبوا إلى الجبال المحيطة بطوكر دون محاولة الاشتباك مرة أخرى مع قوات "جراهام". عرفت أيضا أن الناجين من حامية طوكر سيعودون إلى السويس خلال أسابيع. دفعني ذلك الخبر إلى قضاء ساعات طويلة أراقب رصيف الميناء لعلي أجد أخي عبد الرحيم بين العائدين. كلما سمعت عن وصول سفينة من سواكن، أهرع كالمعتوه إلى رصيف الميناء لكي أتفقد ركابها وهم يغادرونها. استمر هذا الوضع حتي عرفت أن كل عساكر وضباط الحاميات المتمركزة في شرق السودان قد رجعوا إلى مصر. أيقنت أن عبد الرحيم لن يعود، وعندئذ توقفت عن كتابة رسائلي.

ربما أكون قد أخطأت بإرسالي هذه الخطابات الملفَّقة إلى أبي وفضيلة. نعم لقد خدعتهما، لكنني لا أخجل من خطيئتي، فلقد تحررت من كل هذا الهراء. لقد شيدت واقعًا من رواياتٍ جدلتها من خيوط خيالاتي. فما الضرر من تشكيل وهم يقتنع بحقيقته الجميع؟ لقد خلقت واقعًا حول طوكر لا يختلف كثيرًا عن حقيقة ما حدث هناك، وما يحدث لنا هنا. كل ما في الأمر أنني "نفدت بجلدي" ولم ألق مصير محمد عباس. ذلك المسكين ذهب إلى طوكر لينقذ شرف العسكرية المصرية فلقيَ حتفه. حارب محمد عباس من أجل مصر، وقاوم الاستبداد، وتشبث بحق المصريين في الحرية والحياة الكريمة، وطالب ببناء نظام دستوري حديث، وآمن بضرورة إنشاء جيش مصري قوي يحمي البلاد. للأسف لم يحقق أيا من أهدافه، لكنه دفع في سبيلها ثمنًا غاليًا هو حياته.

***

طيف الجاويش حسن ظهر أمامي في ركن الصالة شاخصًا ببصره نحو لسان اللهب الذي يضيء المصباح. سألته:

– متى سننتهي من هذه "الدهْولة"؟

التفتَ نحوي وقال بلا مبالاة:

– لن ينحسـر الوباء إلا عندما نكفـر بالمهدي وننفي عرابي ونخلع الخديو.

همستُ كأنني أخشى ان يسمعنا أحد:

– وهل سيمكننا عمل كل ذلك؟

– ربما بعد مائة وألف قمر.

لم أقتنع بكلامه، فتساءلت:

– وهذه الوصفة السحرية، هل ستكفي لكي نتخلص من الداء الذي طالما عانينا منه؟

ابتسم ولم يرد، فزادت حيرتي. فارقني طيْفه، فقمت إلى غرفة نومي. حملت المصباح لكي ينير طريقى. أحسستُ برعشة في أصابعي، فأطبقت على المصباح خشية أن يفلت مني. شممت رائحة الحلبة المغلية الممتزجة برحيق العسل الأسود. أطفأت المصباح وخلعت جلبابي. استلقيتُ فوق سريري، واندسست تحت اللحاف. غالية أدارت لي ظهرها فاحتضنتها. شعرت بملمس جسدها الدافئ فأحسست بالراحة واستسلمت لنوم عميق.

***

شكر وتقدير

أود أن أتقدم بجزيل الشـــكر للأصدقاء الأعزاء؛ هاني واصف وحمدي الليثي وخالد الشـــلقاني وعبد العزيـــز عز العرب وإيفيت إسحاق وسميحة بترســـون، وذلك لتحمسهم للرواية وتشجيعهم لي على نشرها.



المؤلف في سطور

عمرو شعراوي يعمل أستاذا للفيزياء بالجامعة الأمريكية بالقاهرة. أكمل دراسته الجامعية بجامعة القاهرة في عام 1978 حيث حصل على البكالوريوس في الهندسة الكهربية وأعقب ذلك حصوله على بكالوريوس الفيزياء في عام 1980 من نفس الجامعة. بعد حصوله على درجة الدكتوراة من جامعة فرجينيا تك (Virginia Tech) ، بدأ عمرو شعراوي مسيرته المهنية في عام 1989 كعضو هيئة تدريس بكلية الهندسة، جامعة القاهرة. بعد عشرة سنوات انتقل للعمل بالجامعة الأمريكية، كأستاذ بقسم الفيزياء. إلى جانب تدريس المواد الفيزيائية بالجامعة كان من مسئولياته العمل كمنسق لمادة "التفكير العلمي" بين عامي 2000 و2008. وقد خدم خلال الفترة (2006 - 2014) في عدد من المناصب الإدارية بالجامعة الأمريكية كان آخرها العمل كعميد الجامعة للشئون الأكاديمية (Provost). في شهر يوليو 2014 عاد عمرو شعراوي إلى منصبه الأساسي كأستاذ بقسم الفيزياء.

عمرو شعراوي له العديد من المقالات الفيزيائية المنشورة بالدوريات العلمية المتخصصة وكذلك الأبحاث التي تم تقديمها في مؤتمرات عالمية. أبحاثه تتناول دراسة خصائص الومضات الضوئية بطيئة التشتت، وكذلك تفاعل الضوء مع المواد الفوتونية وتطبيقات تلك المواد في مجال البصريات.


هل يركد الماء خوفًا من المصير الذي ينتظره على الجانب الآخر من حافة الشلال؟ قد يتلكأ وينشغل باللحظة الآنية أو يدور في دوامات وتيارات ضحلة متقاطعة. لا تدرك القطرات الراكدة على مشارف هذا الشاطئ عنفوان النهر الهادر على الجانب الآخر من الصخور التي تعوق سريانه. الخوف يخلق ساترًا ثقيلًا يفصلنا عن واقعنا، في ظله نلجأ إلى ركننا الهادئ بعيدًا عن صخب النهر الذي يشق طريقه نحو المصب. أنشد مكاني الآمن في هذا الحوش الذي أقطنه في القرافة. استراحة المدفن تغلب عليها رائحة غبار تشرّب بها سجاد فرش أرضيتها لسنوات متواصلة. تتكون الاستراحة من مبنى أنيق له سلم رخامي يصعد إلى شرفة أمامية تظللها تندة من الحديد المشغول علي هيئة سيقان نباتية. هذه الشرفة، المأخوذة غالبًا من أنقاض سراي قديمة، احتضنت مكان جلوسي المفضل خاصة وقت الغروب.
تصميم الغلاف: غادة خليفة
دار العين للنشر
Elain Publishing House
9 789774 903342